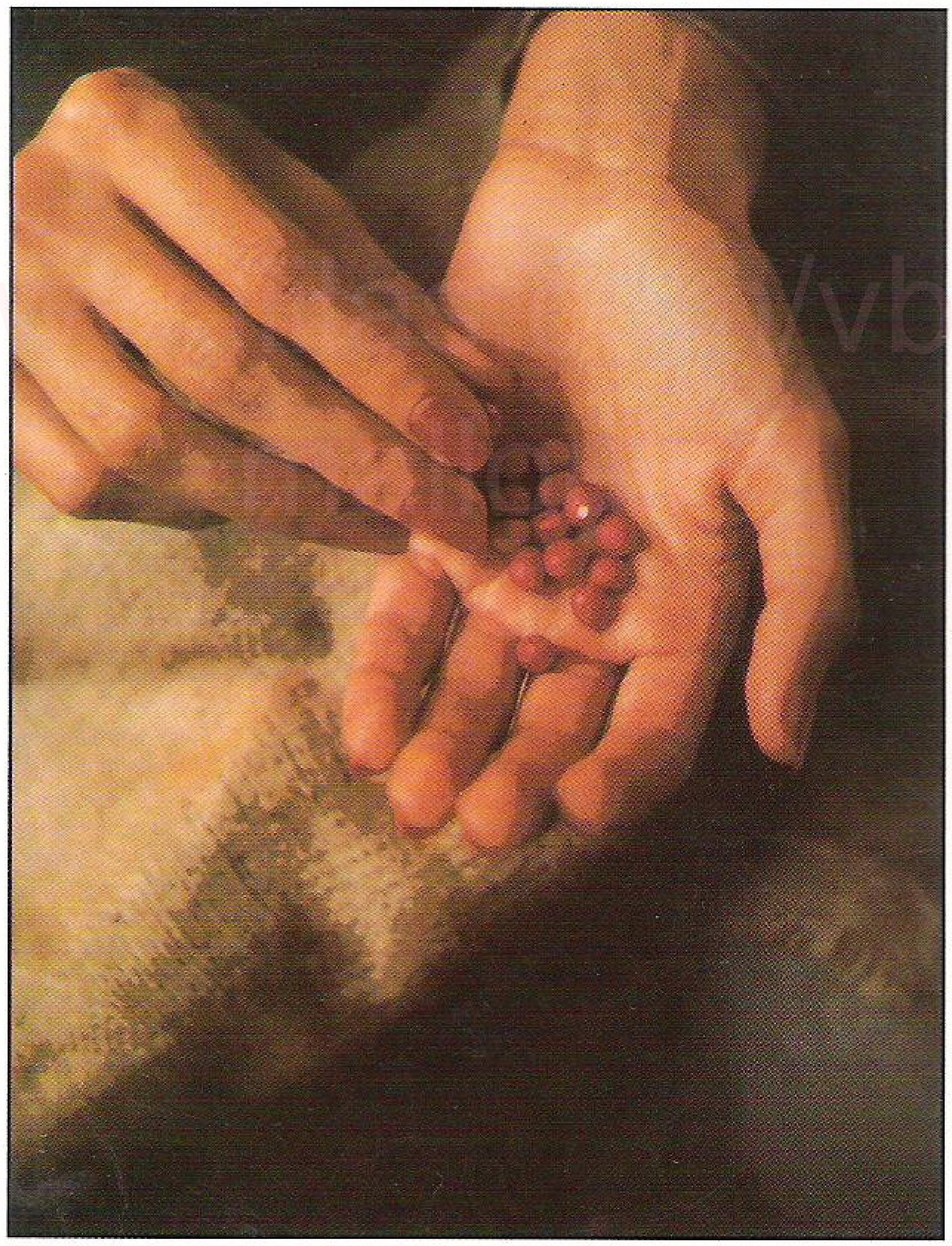
ف. س. نايبول

بذور سحرّية

رواية

(الكاتب الحائز على جائزة نوبل)



ترجمة:

وائل بحري

الكلمة

بذور سحرية

* بذور سحرية
* ف. س. نايبول
* الطبعة الأولى عام 2005

* دار الكلمة للنشر والتوزيع
سورية، دمشق، ص.ب: 2229
ها: 2134692، فاكس: 2126326
* م.و.إ.ع.ط 80202، ت: 4-7-2005

ف. س. نايبـول

الكاتب الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2001

بذور سحرية

ترجمة: وائل بحري

عنوان الكتاب الأصلي

Magic Seeds

ليست رواية «بذور سحرية» من ذلك النمط من الأدب الذي يجذب القارئ من الجملة الأولى. ومن الملاحظ أنه بقدر ما يُعدُّ هذا العملُ عملاً معاصراً، إلا أنه يبتعد عن مناقشة المواضيع الحياتية التي تثير الناس عموماً هذه الأيام أو لنقل التي يرغب الناس في قراءتها. وهو يذهب لإثارة مسألةٍ مجردة ورغم عمقها الإنساني فهي قد لا تجذبنا إليها ببساطة.

من الناحية التقنية، وعلى اعتبار أن **ف. س. نايبول** (الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2001) ناقداً أدبياً بالدرجة الأولى، فإننا نراه يستخدام تقنياتٍ كتابيةٍ كلاسيكيةٍ في قالبٍ معاصرٍ. نجد مثلاً أن الرواية في كثيرٍ من فصولها تنحو لأن تكون رواية يحكي كل فصل فيها عن حكايةٍ مختلفةٍ ومنفصلةٍ مما يجعلها تشبه كتب المغامرات التي يختبر البطل في كل فصل منها مغامرةً جديدةً. مع الاختلاف هنا أن البطل يتعدد ويتنوع ليكون مجموعة من الشخصيات مع بقاء البطل الأصلي حاضراً ومبتعداً عن أن يكون بطلاً تراجيدياً، إذ إنه لا يكون فاعلاً في سيرورة الأحداث وهذا بالتحديد من السمات التي يريد الكاتب منا الالتفات إليها. ومن جهة أخرى، يحافظ **نايبول** على الأشكال الكلاسيكية من الكتابة عبر سرد الحدث دون الخوض عميقاً في شخصياته، وعبر بقائه بعيداً عن جريان الحدث. وفي الوقت ذاته يحاول إبداع لغةٍ خاصةٍ به ونراه يتلاعب بالكلمات على لسان شخصياته. ففي واحد من مقاطع الرواية أصرّ على حذف جميع علامات الترقيم من ذلك المقطع وكأنه يريد إثبات انتمائه للمدارس الأدبية التي تشير إلى أهمية شكل الكتابة كما إلى المضمون.

تنتمي رواية «بذور سحرية» إلى أدب ما بعد الاستعمار. هذا النموذج من الكتابة الذي يعالج المشاكل الناجمة عن التأثير الاستعماري في الفرد وفي هويته ذاتها في بلدان العالم الثالث عبر مثالٍ مايزال قائماً حتى الآن هو المثال الهندي. تبدو الرواية تقريباً حول مرحلةٍ ربما نظنها مرحلة ماضية، هي المرحلة التي كانت فيها الحركات السياسية في العالم الثالث تعمل في مرحلة ما بعد الاستعمار على تحرير الشعوب وتغيير البنية الداخلية لتلك البلدان؛ وكيفية انحراف هذه الحركات عن هدفها أحياناً أو انهيارها نتيجة سلوكها مسلك الأنظمة التي تناضل ضدها. رغم ذلك فإن نايبول لا يبدو كأنه يتحدث عن مرحلةٍ بائدةٍ وسابقةٍ، ففي النصف الثاني من الكتاب يقوم بمعالجة المزيد من القضايا العالمية الصعبة الراهنة مثل الاستعمار الجديد وبنية المجتمعات الغربية والتطرف وهو هنا يتركنا أمام حالة نحن مضطرون من خلالها إلى ربط ما جرى في الماضي القريب (زمن عصر الثورات) بما يحدث اليوم.

إن معظم الدراسات أو التحليلات السياسية للعقدين الماضيين تركّزت حول نظرياتٍ مجرّدةٍ عن تطور المجتمعات، وقلما شاهدنا هذه التحولات التي عصفتْ بالعالم في كتابٍ أدبيٍّ - كهذا الكتاب - أبرز ما فيه تصويره لحالة الإنسان الفرد في بحثه عن هويته وسط عالمٍ سريع التغيّر؛ وأبرز ما فيه بحثه في جوانب من المجتمعات الغربية وتمازجها العرقي والإثني وما آلتْ إليه هذه المجتمعات بعد ظهور ما يدعى بعالم القطب الواحد.

يعيش **ويلي شاندران** - بطل الرواية - حياةً متناصفة ومجزّأة. وهذه الحالة ظاهرةٌ حتى في اسمه، حيث اسمه الأول إنكليزي وكنيته هندية. في «نصف حياة» - عمل نايبول السابق - يقوم والده، سليل الطبقة الدينية الهندية، بتسميته على اسم أحد مشاهير الكتّاب الانكليز. (**ويلي**) أيضاً ابن امرأة لا تنتمي لأيٍّ من الطبقات، ميزتها أن لها عمّاً راديكالياً وهي امرأة تحب الحياة على عكس زوجها الزاهد. عاش (**ويلي**) في هذه الحالة وهو يطوف لا في

السطح ولا في القاع. ثم يسوقه نفوذ والده للدراسة في انجلترا دون أن تسترعي انتباه ذلك الشاب أمورٌ تجعله التجربة فيما بعد، وبعد عودته إلى انجلترا مرة ثانية، يفكر فيها من جانبٍ آخرٍ ومن زاويةٍ مختلفةٍ. وفي انجلترا يُصدر **ويلي** مجموعة من القصص القصيرة. بعد ذلك يتعرف **ويلي** على فتاة إفريقية ويرتبط بها ـ وهو الباحث عن وجوده الحقيقي ـ ثم يسافر برفقتها إلى إحدى المستعمرات البرتغالية هناك. وبعد ثمانية عشر عاماً يكتشف أن تلك لم تكن حياته، وهذه المرّة يترك كل شيء وراءه ويتوجه لزيارة شقيقته في ألمانيا.

يشير نايبول إلى تحوّل وتبدّل نظرة الإنسان للعالم بتقدم التجربة والعمر. وحتى هذا يظهر على **ويلي** الذي يستمر مُنفعلاً في الأحداث التي تجري من حوله ويسلّم نفسه لها ويظن أن لا شيء يتغير. ولأنه لم يمتلك هوية واضحة بل بقيت مجتزأة طوال الوقت، نراه قابلاً وغير قابل للتكيّف مع كل ما يجري حوله وهو دائم الاعتقاد أن الشيء الآخر هو ما يناسبه. وفي إحدى المناسبات يقول لمرافقه «إنه الأمر الوحيد الذي عملتُ عليه طوال حياتي. ليس لأن أكون في دياري حيثما وُجِدت، بل لأبدو وكأنني في دياري».

لم يقف نايبول عند حدود الهند والتأثير الاستعماري المديد في تطور بلدان العالم الثالث ومفرزات هذا التأثير، بل تعدّاه لينتقد ويدرس تركيبة المجتمع البريطاني الطبقي. وكأنه، مع أنه يركز على تعرية الحركات الثورية وأساليب عملها وانحرافات بعضها، يريد ألا يُفوِّت الفرصة ليؤكد أنه لا يرّوج للنموذج الغربي الرأسمالي في الحياة من خلال تهكّمه بشكل العلاقات وتفككها السائد في تلك المجتمعات.

لاحقاً ـ في أحراج السَّاج، في أول معسكر، كان قد ألفى نفسه على مدى فتراتٍ معينةٍ أثناء تأديته لواجب الحراسة في الليلة الأولى يودّ فقط لو يبكي، حين كان أيضاً يتناهى مع تبديل نوبة الحرس النداء المذهل للطاووس النائي. ذلك النداء الذي يصدره الطاووس في الصباح الباكر بعد أن يكون قد تناول جرعة مائه الأولى من مستنقع إحدى الغابات: ذلك النداء الممزَّق الأجش الذي لابدّ أنه يتحدث عن عالم متجددٍ ومعادة صياغته بيد أنه يبدو، وبعد ليلةٍ قاسيةٍ وطويلةٍ، كأنه يشي فقط بكل ما هو ضائع: الإنسان، والطير، والأحراج، والحياة. من ثم، حين أصبح ذلك المعسكر عبارة عن ذكرى رومانسية، في أثناء زمن حرب العصابات المُخدّرة للأحاسيس، وهو يتقدم أكثر فأكثر سواء في الأحراج أو في القرية أو في المدينة، عندما كان يبدو وهو يتنقل متنكراً معظم النهار كان ينسى الغاية التي تكمن وراء هذا التنكر، آنذاك شعر بنفسه وكأنّه يذوي عقلياً، ويشعر أن أجزاء شخصيته تتوقف بشكلٍ مفاجئ. ومن ثم في المعتقل بأوامره المباركة، ومواعيده الثابتة، وقواعده المصونة، والتجديد الذي قدمه ـ لاحقاً كان يمكنه تعداد الخطوات التي انتقل فيها مما كان يراه العالم الواقعي إلى جميع تلك الفضاءات التالية من اللاواقعية: ذلك الانتقال الشبيه بالانتقال من إحدى الحجرات المحكمة الإغلاق للروح إلى أخرى.

1

بائعو الزهور

بدأ الأمر قبل عدة سنوات، في برلين. عالم آخر. كان يعيش هناك مؤقتاً، وبشكلٍ متناصفٍ برفقة شقيقته ساروجيني. بعد إفريقيا، كانت هذه حالة من الانتعاش الهائل، هذا النموذج الجديد من الحياة المصونه، لكونه شبه سائح، من دون مطالبات أو قلق. بالطبع كان لا بد لحالته تلك أن تنتهي؛ وبدأت بالانتهاء في اليوم الذي قالت له ساروجيني فيه: «أنت تعيش هنا منذ ستة أشهر. وقد لا أستطيع تجديد الفيزا لك مرة أخرى. أنت تعلم ما يعنيه هذا؛ إنك قد لا تستطيع البقاء هنا. ذلك هو الأسلوب الذي أقيمَ فيه العالم، ولا يمكنك الاعتراض عليه. ولذلك ينبغي عليك الشروع بالتفكير في الانتقال إلى مكان آخر. هل لديك أية فكرة عن مكان تذهب إليه؟ وهل هناك ما تشعر برغبتك القيام به؟».

قال ويلي: «أعلم بأمر الفيزا، وقد كنت أفكر فيها».

قالت ساروجيني: «إنني أعرف نمط تفكيركَ. إن هذا يعني بالنسبة لك رمي شيء ما إلى ما وراء عقلك».

قال ويلي: «لا أرى ما أستطيع القيام به، ولا أدري إلى أين يمكنني المضي».

«إنكَ لم تشعر البتة أن هناك نشاطاً ما يجب أن تقوم به، ولم تعِ أبداً أنه ينبغي على الرجال صياغة العالم من أجل أنفسهم».

«إنك محقة».

«لا تكلمني بهذه الطريقة. إنها الطريقة التي تفكر بها الطبقة المضطهِدة. يتعين عليهم الحفاظ على ثباتهم فحسب، ومن ثم سوف تسير الحياة بشكل جيد معهم».

قال ويلي: «إن تحريفك للأمور لايساعدني. تدركين جيداً ما أقصده. أشعر أن يداً بغيضة كانت تلكمني. ما الذي كنت أستطيعه في الهند؟ ما الذي كنت أستطيعه في إنكلترا في عام 1957 أو 1958؟ أو في إفريقيا؟».

«ثمانية عشر عاماً في إفريقيا. ظنّتْ زوجتك المسكينة أنها وقعت على رجل. كان عليها التحدث إليَّ أولاً».

قال ويلي: «كنتُ على الدوام شخصاً يعيش في الخارج. إنني ما زلت أنا نفسي. ما الذي أستطيع القيام به هنا في برلين؟».

«كنتَ في الخارج لأنك كنتَ تبغي أن تكون. كنت تُفضّل الاختباء باستمرار. إنه الهوس الاستعماري، هوس الطائفة المغلقة. لقد ورثتَ هذا من أبيك. أمضيتَ في إفريقيا ثمانية عشر عاماً، وكانت حرب العصابات دائرة؛ ألم تكن تعلم؟».

«لكنها كانت بعيدة دائماً. كانت حرباً سرية، إلى ما يقرب نهايتها».

«كانت حرباً مجيدة؛ في البداية على الأقل. وحين تجلس متفكراً فيها، تكاد عيناك تدمعان. شعب يائس وعاجز، عبيد في أرضهم، يبدؤون في التخميش بأي وسيله كانت. ماذا فعلتَ أنتَ؟ هل خرجتَ وبحثتَ عنهم؟ هل انضممتَ إليهم؟ هل قدمتَ لهم العون؟ ذلك كان مبرراً كافياً وعظيماً لمن ينشد مبرراً. ولكن، لا. قبعتَ في منزل المزرعة برفقة زوجتك نصف البيضاء الصغيرة والجميلة ثم لففتَ المخدة على أذنيك آملاً أن لايأتي مقاتل حرب أسود بغيض في الليل حاملاً بندقيته ومنتعلاً حذاءه الثقيل ويخيفك».

«لم يكن الأمر على هذه الشاكلة يا ساروجيني. كنتُ دائماً في أعماق قلبي إلى جانب الأفارقة، ولكن لم يكن لديَّ حرب لأمضي إليها».

«لو تفوّهَ الجميع بهذا، لما كان من ثورة في أي مكان. نحن جميعاً لدينا حروبنا التي علينا أن نخوضها».

كانا يجلسان في مقهى في نيسبكستراس، كان في الشتاء دافئاً وحميماً ومشبعاً بالبخار بنادليه ونادلاته من الطلاب وفي الترحيب بـ ويلي. لكن المقهى الآن في أواخر الصيف مبتذلٌ وعدائيٌ وطقوسه مشهورة جداً، يُذكِّر ويلي ـ رغم ما قالته ساروجيني ـ بالزمن الذي يمر به عقيماً، ويعيد إلى ذهنه القصيدة الغامضة التي كان عليهم حفظها عن ظهر قلب في مدرسة الإرسالية. ومع ذلك، *هذا الزمن الآفل كان وقت الصيف*...

تقدم منهما شاب تاميلي يبيع الأزهار الحمراء ذات السيقان الطويلة. أومأت ساروجيني بيدها وشرعت تفتش في حقيبتها، فاقترب التاميلي وناولهما الأزهار من دون أن تقابل عيناه عيونهما أبداً. لم يدّعِ أي تقارب معهما. كان هادئاً، بائع الأزهار هذا، مفعمٌ بفكرةِ استحقاقه الذاتي الخاص. ومن دون التمعن في وجه الرجل، ركّزَ ويلي على بنطاله البني (المفصل من قبل خياطين بعيدين) وساعته وسواره الكبيرين المطليين بالذهب (قد لا يكون ذهباً حقيقياً) على معصمه المشعر، شاهد من موقعه الخاص أن بائع الأزهار لابد أنه شخص غير ذي أهمية، شخص عصي على المشاهدة. هنا، من موقعه الذي ربما لا يفهم فيه إلّا بضآلة القدر الذي يفهم ويلي، الموقع الذي لم يتعلم بعد أن يراه، كان كإنسان خُلع من ذاته. لقد أصبح شخصاً آخر.

كان ويلي قد التقى برجلٍ كهذا في أحد الأيام، قبل بضعة أسابيع، عندما خرجَ بمفرده. توقف حينها أمام مطعم ساوثِ إينديان؛ كان المطعم خالياً من الزبائن، والذباب يزحف على النوافذ ذات الألواح الزجاجية، وعلى النباتات الذابلة وأطباق الرز والدوساس، وكان النُّدلُ الذين يبدون غير ذوي خبرة يتوارون (لعلهم ليسوا نُدلاً، لعلهم شيء آخر، ربما هم عمال كهرباء أو

محاسبون وصلوا بشكل غير قانوني) في الظلام الداخلي مقابل اللمعان والبهاء الرخيصين لمفهوم أحدهم عن الزخرفة الشرقية. في تلك الأثناء توجه رجل هندي أو تاميلي باتجاه ويلي؛ جسدٌ ناضج لكنه ليس سميناً. يرتدي قبعة رمادية مستديرة عليها خطوط زرقاء وذات مربعات قماشية واسعة، مثل قبعات لاعبي الغولف «كانغول» التي تذكَّرَ ويلي رؤيتها مُعلَنَةً على الصفحات الخلفية لكتب **بنغوان** الأولى: «لعل الرجل اقتبس هذا الزي من تلك الإعلانات القديمة».

بدأ الرجل يتحدث لـ ويلي عن حرب العصابات الكبرى القادمة. كان ويلي مستمتعاً، بل حتى ودوداً. راقَهُ الوجه المبتسم ذو الملامح اللطيفة. كان مأخوذاً بتلك القبعة المستديرة. لقد أحب هذه المحادثة ذات الطابع المؤامراتي، الفكرة التي حملها عن عالمٍ على وشك أن يصبح خلّاباً. ولكن حين أخذ الرجل يتكلم عن الحاجة الملحّة للمال، وحين غدا هذا الحديث ملحاحاً، أخذ ويلي يضطرب، ومن ثم يخاف، وبدأ يتقهقر إلى ما وراء نوافذ المطعم بشعور المُحَاصَر والواقع في مِصْيَدة، حينها طار النعاس. رغم الابتسامة التي كانت ماتزال مرسومة على وجه التاميلي، فقد صعدتْ من شفتيه الرقيقتين لعنة دينية طويلة وقاسية وعميقة آتية من التاميل، لم يزل ويلي نصف فاهم لها، وفي النهاية غابت ابتسامة التاميلي وتحول وجهه تحت قبعة الغولف المقلمة بمربعات زرقاء إلى حقد مرعب.

لقد وقع الاضطراب في قلب ويلي؛ فالاستخدام المباغت للتاميل، واللعنة الدينية القديمة التي وضع فيها هذا الرجل جميع إيمانه الديني، والحقد المفاجئ والعميق، كان مثل طعنة السكين. لم يخبر ويلي ساروجيني عن لقائه بذلك الرجل. فهذه الهواية في الاحتفاظ بالأشياء لنفسه ظلت ترافقه منذ طفولته، في المنزل وفي المدرسة؛ وتطورتْ أثناء إقامته في لندن، ثم غدتْ جزءاً كلياً من طبيعته في الأعوام الثمانية عشر التي أمضاها في إفريقيا، حين كان يتوجب عليه إخفاء الكثير من التفاصيل عن نفسه. لقد أتاح للآخرين إخباره عن

الأشياء التي عرفها بشكل جيد، وقد قام بذلك ليس بقصد التحريف، وليس وفق خطة راسخة، وإنما نتيجة رغبته بعدم التسبب في الأذى، وترك الأمور تسير قدماً بيسر.

وضعت ساروجيني الزهرة بجوار صحنها، وتابعت بائع الزهور بعينيها فيما هو يسير بين الطاولات. وعندما كان يخرج ثانية، قالت لويلي: «لست أدري شعورك تجاه ذلك الرجل. لكنه أكثر جدارة منك».

قال ويلي: «إنني أكيد من هذا».

«لا تعمدْ إلى إثارة سخطي. ربما تنطلي هذه الطريقة الماكرة في الكلام على الغرباء لكنها لا تنطلي عليَّ. هل تعلم السبب الذي يجعله أكثر جدارة منك؟ لقد وجدَ حربه. كان بإمكانه أن يتوارى عنها؛ كان بإمكانه القول إن لديه أموراً أخرى يفعلها؛ كان بإمكانه القول إن لديه حياة يعيشها؛ كان بإمكانه القول: «أنا في برلين، وقد دفعت الكثير حتى وصلت إلى هنا. الأوراق المزورة والفيزا والمخبأ كلّفت الكثير. ولكن الآن كل هذا قد تمَّ تحقيقه. لقد خرجت من وطني، ومن كل ما كنتُهُ. سأتظاهر أنني جزء من هذا المكان الجديد الذي سوف أتابع فيه التلفزيون ثم أبدأ بالتعرف على البرامج الأجنبية وأفكر بها على أنها بحق تخصني. سوف أمضي إلى الـ (كي دي دبليو kdw) وأتناول الطعام في المطاعم. سوف أتعلم شرب الويسكي والنبيذ، وللحال سأجد نفسي أحصد النقود وأقود سيارتي وسوف أشعر أنني أحاكي أولئك البشر في الإعلانات. سوف أتيقن أنه، فعلياً، من غير العسير تغيير العوالم، وسوف أشعر أن تلك هي الطريقة التي وُجِدتْ من أجلنا جميعاً». كان بإمكانه أن يفكر بتلك الطريقة المزيفة والمشينة؛ لكنه رأى أن لديه حرباً. ألم تلاحظ؟ لم ينظر مطلقاً إلينا. طبعاً كان يعرف من نكون. كان يعرف أننا قريبان منه، لكنه أطرق أمامنا. أعتقد أننا من ضمن أولئك المدّعين».

قال ويلي: «لعله كان خجلاً، كونه تاميلياً يبيع الزهور لأولئك الناس ولأننا شاهدناه».

«لم يكن يبدو خجلاً. كانت لديه هيئة رجل يحمل في داخله مُبرّراً، هيئة رجل معتزل. لا بد أن هذا أمر خبرتَه في إفريقيا، هذا إذا كنتَ قد تعلمتَ أن تنظر وتختبر. الزهور التي يبيعها في هذا المكان، ستتحول إلى بنادق في مكان آخر ناءٍ؛ هذه هي الطريقة التي تصنع بها الثورات. ذهبتُ فيما مضى إلى بعضٍ من معسكراتهم. كنتُ أنا و(وولف) نُصوّرُ فيلماً عن حياتهم. ولكننا سرعان ما سمعنا بعضاً من الأمور الإضافية فيما يخصهم. ليس هناك في العالم أي جيش حرب عصابات أكثر انضباطا منهم. إنهم أشداء وقساة تماماً، وإذا كنتَ قد عرفتَ المزيد عن تاريخك الخاص، فسوف تتمكن من فهم أية معجزة هي هذه».

* * *

قالت له في يوم آخر، في حديقة الحيوانات، والرائحة المريعة للحيوانات البرية الأسيرة والمهملة تملأ المكان: «عليَّ أن أكلمك قليلاً حول التاريخ رغم أنك قد تظنني مجنونة، مثل أُمِّنا. جميع ما تعرف عن التاريخ أنت وأمثالك عن أنفسكم جاء إليكم عبر الكتاب المدرسي البريطاني الذي كُتِبَ من قِبَل مفتش إنكليزي للمدارس جاء إلى الهند في القرن التاسع عشر يدعى روبير ليزبريدج. هل تعلم هذا؟ كان أول كتاب تاريخ مدرسي وهو الأشمل في الهند وقد نُشِرَ في الثمانينيات من القرن التاسع عشر من قِبَل شركة ماكميلان البريطانية. ثم تمَّ انجازه من قبل ميوتني بعد مرور حوالي عشرينَ عاماً، بالطبع كان عملاً إمبريالياً وكان إضافة إلى ذلك، وسيلة لتحصيل المال. ولكنه أيضاً كان يُعتبر وسيلة للتعلم بأسلوب بريطاني وقد أفلح في هذا. لم يكن في الهند شيء كهذا على مدى جميع القرون السابقة، ولا حتى نظامٌ تعليميٌّ مشابه، ولا توجيه للتاريخ من هذا النمط. تابع روبير ليزبريدج إنجاز العديد من الطبعات الأخرى وهي ما أعطتنا الكثير من الأفكار التي ما نزال نملكها حول أنفسنا. إحدى أهم تلك الأفكار هي أنه في الهند سلالات عبودية، بشر خلقوا ليكونوا عبيداً، وسلالات عسكرية. كانت السلالات العسكرية فاضلة

فيما لم تكن السلالات العبودية كذلك. أنت وأنا كلانا ننتمي نصفيا لسلالات العبودية. إنني متأكدة أنك تعرف ذلك؛ ومتأكدة أنك لا توافق على نصف هذا الكلام؛ ولهذا السبب عشتَ بالطريقة التي عشتها. ينتمي بائع الزهور التاميلي بشكلٍ تامٍّ لسلالات العبودية. لا بد أنهم دفعوا بشتى أنواع الوسائل لإقحام تلك الفكرة إلى عقول الناس. إن الفكرة البريطانية حول سلالات العبودية والسلالات العسكرية هي فكرة خاطئة كلياً. كان جيش جماعة شرقي الهند في شمال الهند جيشاً هندوسياً للطوائف العليا؛ وكان هو الجيش الذي دفع بحدود الإمبراطورية البريطانية للتوسع حتى مشارف أفغانستان. وقد تمَّ حل هذا الجيش بعد العصيان الكبير في عام 1857، وعلاوة على ذلك فقد حُرِموا من الفرص العسكرية. وهكذا فإن المحاربين الذين أقاموا الإمبراطورية أصبحوا عبيداً في الدعاية البريطانية، فيما سكان الحدود الذين كانوا أُخْضِعوا قبل العصيان بقليل أصبحوا سلالات عسكرية. إنها الكيفية التي تعمل بها الأنظمة الإمبريالية. وهذا ما جرى للبشر المحاصرين. ولما كنا في الهند لا نملك أدنى فكرة عن التاريخ، سرعان ما نسينا ماضينا وصدّقنا على الدوام ما أخبرونا به. كذلك بالنسبة للتاميل في الجنوب، أصبحوا عبارة عن قذارة تحت الإدارة البريطانية الجديدة. كانوا يعيشون في الظلام ولا ولع لهم في الحرب، ناجحون في العمل وحسب. حُمِلوا على ظهر السفن كعبيد إلى الإقطاعات في مالايا وسيلان وأماكن أخرى. يبيع هؤلاء التاميليون الزهور في برلين لكي يشتروا بنادق بعد أن نبذوا كمّاً هائلاً من التاريخ والدعاية، وصنعوا من أنفسهم بحق شعباً عسكرياً، وفعلوا الشيء ذاته أيضاً ضد الأشكال الشاذة والحيادية؛ يتعين عليك احترامهم يا ويلي».

أنصت ويلي بطريقته المشدوهه، في ظل الرائحة المقززة للحيوانات المسكينة في حديقة الحيوانات، ولم يُجِبْ بشيء. ساروجيني هي شقيقته. لا أحد في العالم غيرها استطاع أن يفهمه إلى هذا الحد. ورغم أنهما لم يلتقيا سوى مرة واحدة على مدى السنوات العشرين الماضية، كانت تفهم كل زاوية

من أوهامه؛ وتفهم كل ما في حياته إن كان في إنكلترا أو إفريقيا. شعر، من دون استخدام الكلمات بينهما، أنها وهي التي تطوّرت في كثير من الأساليب، قد تكون فهمتْ حتى التفاصيل الجسدية لحياته الجنسية التي كان قد مارسها. لم يكن ثمة ما هو مخفي عنها؛ وحتى عندما كانت في أوج ثوريتها وتلقائيتها وغطرستها، وهي تردد الأشياء التي قالتها عدة مرات قبلاً، كانت تستطيع ـ من خلال إضافة عبارة هنا وهناك، مُعِيدةً إلى الذهن أجزاء من ماضيها الخاص ـ الشروع في مَسٍّ مكنونات أعماقه التي يود بشغف نسيانها.

لم يرُدّ بشيء عندما تكلمت، غير أنه لم يغفل أيا مما قالته. تدريجياً لاحظ في برلين أمراً مميزاً لم يكن قد أَلِفَهُ فيها من قبل أبداً. رغم أن كلامها لم يتوقف أبداً عن أن يكون حول الظلم والقسوة والحاجة للثورة، ورغم أنها كانت بسهوله تتلاعب بمشهد الدم في القارات الخمس، فقد كانت هادئة على نحو غريب. لقد فقدتْ تلك العدائية والانفعاليه التي كانت من سماتها في أيام حياتها المبكرة. كانت آنذاك متعفنة داخل أشرام(*) العائلة، لا شيء سوى الطاعة والاستسلام للنظر إلى الأمام وحسب؛ وبعد العديد من السنين بعد أن كانت قد رحلت، أصبحت تلك الحياة المنعزلة الرهيبة، التي تمنح البسطاء والمعوزين الأدوية المزيفة لجميع العلل، ما تزال لصيقة بها كشيء تحمله وترتد إليه حينما تتحول الأمور مع وولف بشكل سيء.

غاب عنها ذلك القلق الآن. بالطريقة نفسها التي تعلمت بها اختيار ملابسها في الطقس البارد وجعلت من نفسها امرأة جذابة، (أيام الجوارب الصوفية والثوب الصوفي مع الساري(**) أُقصِيَتْ وتُرِكتْ في الماضي البعيد)، هكذا بدا السفر والدراسة وسياسات الثورة وحياتها المتناصفة المريحة مع المُصوِّر المتفهم، وكأنها منحتها نظاماً فكرياً متكاملاً. الآن لا شيء يثير

(*) الأشرام: معتزل ديني لطبقة من رجال الدين في الهند.

(**) الساري: قطعة قماش طويلة تلف المرأة الهندية بها كامل جسدها.

اضطرابها أو استغرابها. كانت رؤيتها للعالم قادرة على امتصاص كل شيء: من الجرائم السياسية في غواتيمالا، والثورة الإسلامية في إيران، والشعب الذي تثيره الطوائف المنغلقة في الهند، وحتى السرقة التافهة المُمَارَسَةُ كإحدى عادات المُشرف على المتجر التي كان يقوم بها صاحب المتجر في برلين عندما يوصل إلى الشقة، زجاجتين أو ثلاث زجاجاتٍ معطوبةٍ أو ناقصةٍ، وأسعارها مُبدلة بطريقة معقدة وخادعة.

سوف تقول عندئذٍ: «هذا ما يجري في برلين الغربية. إنهم يعيشون في نهاية الممر الهوائي، وكل شيء يعمل على الإعانة الحكومية. ولذلك فإن حيويتهم تنشط وتستمر على هذه السرقات الصغيرة. إنه السقوط العظيم للغرب. سوف يكتشفون ذلك».

تعيش ساروجيني نفسها، من خلال مُصوِّرها، على إعانة مُقدَّمَةٍ من وكالةٍ ما تابعةٍ لحكومة ألمانيا الغربية. ولهذا كانت تعرف عما تتكلم؛ وكانت تأخذ الأمور بيسر وهدوء.

كانت تقول لدى وصول صندوق البيرة أو النبيذ الجديد: «دعنا نرَ ما ابتكر لنا هذا الوغد في هذه المرة».

لم يكن من الممكن إطلاقاً على ساروجيني التي خلفها وراءه في المنزل منذ عشرين عاماً أو أكثر أن تقوى على التفوه بشيء كهذا. لهذا الهدوء الذي تميزت به سابقاً، تعود هذه اللباقة الجديدة في استعمال اللغة التي وجد نفسه يستجيب لها أكثر فأكثر في برلين. لقد وَقَّرَ شقيقته بإعجاب. أدهشه وأثار القشعريرة في جسده أنها كانت شقيقته، وبعد ستة أشهر برفقتها ـ لم يمضيا وقتاً طويلاً بمقدار هذه المدة معاً منذ أن بلغا الرشد ـ بدأ العالم يتغير بالنسبة له. بالطريقة نفسها التي شعر بها أنها تستطيع الدخول في مشاعره، واكتشاف حتى حاجاته الجسدية، بدأ يدخل ويحاكي أسلوبها في رؤية الأمور. كان ثمة منطق وتنظيم في كل ما قالته.

ما يشعر به الآن كان استوعبه دائماً في أعماق أعماقه غير أنه لم يكن

مقبولاً أبداً، شاهد هذين العالمين اللذين تتحدث عنهما ساروجيني. أحدهما كان عالماً مُرتباً وراسخاً وحروبه خِيْضَتْ وانتهتْ. في هذا العالم الخالي من الحرب والخطر الحقيقي أصبح البشر بسطاء، يراقبون التلفزيون فيجدونه صورة عن مجتمعاتهم؛ يأكلون ويشربون أطعمة صادقت عليها الحكومة؛ وهم يحصون أموالهم. أما في ذلك العالم الآخر فالبشر أكثر إحباطاً؛ فاقدو الأمل في دخولهم إلى العالم المرتب والمبسط. لكن ورغم أنهم بعيدون كل البعد عن الولاء، فإن بقايا التاريخ تجرهم بقوة نحو الأسفل؛ ملأتهم مئات الحروب الصغيرة بالحقد وبدّدتْ طاقاتهم. يبدو كل شيء في جو برلين الحاني والحيوي مطمئناً. ولكن ليس بعيداً ثمة حدود مصطنعة، وخلف هذه الحدود ثمة عائق، ونموذج آخر من الإنسان. تجد الأعشاب بل الأشجار أحيانا وقد نمَتْ في الخرائب القديمة للمباني الضخمة؛ في كل مكان فجوات أحدثتها الشظايا والقذائف على الحجر وزخارف الجبصين.

هذان العالمان تعايشا بسلام. من الغباء الادعاء بأمر آخر. في أفكاره غدا جلياً له إلى أي عالم ينتمي. بدا له الآن أنه كان من الطبيعي أن يرغب في الاختباء على مدى عشرين عاماً وفي معظم سنوات حياته في الوطن. والآن يبدو له كل ما تبعَ ونتجَ عن تلك الرغبة مخجلاً. نصف حياته في لندن؛ ومن ثم حياته بأكملها في إفريقيا، تلك الحياة التي أمضاها شبه متخفٍّ باستمرار، يقيس نجاحه من خلال واقع أنه يعيش في طبقته الثانوية، لم يكن يبرز بشكل محدد بين مجموعة أشباه البرتغاليين، وكان «يمر» بهم، كل تلك الحياة تبدو مجلبة للعار.

في أحد الأيام أحضرت ساروجيني نسخة من صحيفة الهيرالد تريبيون إلى الشقة. كانت الصحيفة ملفوفة بهدف إثارة حكاية معينة. ناولتها له قائلة: «إنها عن المكان الذي كنتَ تعيش فيه».

قال: «أرجوك لا أريد رؤية ذلك. لقد أخبرتك بهذا».

«ينبغي عليك البدء بالنظر».

تناولَ الجريدة وقال لنفسه وهو ينطق باسم زوجته: «آنا، سامحيني». وبالكاد تمكن من قراءة الحكاية. لم يكن في حاجة لذلك، فقد عاشها برمتها في عقله. وصلت الحرب الأهلية إلى مرحلة دموية فعلاً. لم تُقدم الجيوش على الإتيان بأي حركة: فقط مجموعة من المغيرين يجيئون من خارج الحدود ليحرقوا ويقتلوا ويرهبوا ومن ثم يعودون أدراجهم. كانت هناك صورة تَظهر فيها مبانٍ بيتونية بيضاء يصل احتراق رفوفها وأسقفها حد التداعي والانهيار ويظهر الدخان وهو يخطط فجوات النوافذ الفارغة: أصبح البناء البسيط الذي أقامه مستوطن إفريقيا القروي في لحظة واحدة مجرد ركام. فكّرَ في الدروب التي عرفها، والمخروطيات الصخرية الزرقاء، والبلدة الصغيرة على الشاطئ. كانوا جميعاً قد تظاهروا أن العالم وُجِدَ آمناً؛ لكنهم في أعماق قلوبهم كانوا يدركون أن الحرب قادمة، وذات يوم سوف تختفي هذه الدروب.

لعبوا في أحد الأيام، في بداية العصيان، هذه اللعبة على مأدبة غداء يوم الأحد. دعونا نفترض، قالوا، أننا فصلنا عن العالم. دعونا نتخيل الشكل الذي ستكون عليه الحياة هنا من دون أي شيء يأتينا من الخارج. أولاً، بالطبع، سوف تختفي السيارات، ثم سنعيش من دون أطباء. ولن تكون هناك ملابس، ولا ضوء. وهكذا، على الغداء، بوجود الأطفال ذوي البدلات، والعربات رباعية العجلات تسير في الساحة الرملية، كانوا لعبوا هذه اللعبة، وهم يتخيلون الحرمان. وكان كل شيء سيمضي.

فكّرَ ويلي الذي ملأته فكرة سلوكه في إفريقيا بالعار: «يجب عليَّ عدم الاختباء أكثر. إن ساروجبيني مُحقة».

لكنه، متتبعاً عادته القديمة، لم يقم بإخبارها بم كان يفكر.

* * *

كانا يسيران في إحدى الأمسيات تحت الأشجار في واحد من شوارع التسوّق الكبرى. توقف ويلي أمام متجر باتريك هيلمان لينظر إلى ملابس

أرماني من النافذة. طوال العشرين عاماً الماضية لم يكن يعرف أي شيء عن الملابس، ولم يكن يلفتُ نظرةُ اللباس أو التفصيل؛ كان الأمر مختلفاً في تلك الأثناء.

قالت ساروجيني: «هل تستطيع أن تقول لي من الشخص الأكثر أهمية في العالم؟».

قال ويلي: «أرماني فاتن جداً، لكنني لا أعتقد أنك تودين مني قول هذا. تريدين مني التفوه باسم آخر؟».

«حاول إذن».

«رونالد ريغان».

«توقعتُ منك قول هذا».

قال ويلي: «قلت هذا الاسم لكي أثير غيظك».

«لا، لا. اعتقد أنك فعلياً تؤمن بهذا. لكني لم أقصد الرجل الأقوى، بل أقصد الأكثر أهمية. هل يعني اسم كاندابالي سيتاراميا أي شيء لك؟».

«هل هو الرجل الأهم؟».

«الرجل المهم ليس بالضرورة هو الرجل القوي. لم يكن لينين في عام 1915 أو عام 1916 رجلاً قوياً. إن الرجل المهم حسب قاموسي هو الشخص الذي يمضي في تغيير سيرورة التاريخ. في الأعوام المئة القادمة، حين سيتم كتابة التاريخ الحقيقي لثورات القرن العشرين، وتزول الأحكام العرفية المسبقة المختلفة، سوف يرتقي كاندابالي إلى مرتبة لينين وماو. ليس لديَّ أدنى شك بهذا. ومع هذا فأنت لم تسمع به مطلقاً، أعلمُ هذا».

«هل هو جزء من حركة التاميل؟».

«إنه ليس تاميلياً. بَيْدَ أن كاندابالي والتاميل هم عناصر العملية التجديدية في عالمنا. لو أستطيع دفعك للإيمان بهذه العملية فإنك ستغدو إنساناً متبدلاً».

قال ويلي: «ما عدا انتفاضة الباستيل فإنني لا أعرف شيئاً عن الثورة الفرنسية. ومع ذلك ما تزال لدي فكرة عن نابليون. إنني أكيد من فهمي لتفاصيل كاندابالي فيما لو أخبرتني».

«أمر يثير الدهشة، إن أهمية كاندابالي الهائلة هي أنه تخلص من خط لين بياو».

قال ويلي: «لا يمكنني اللحاق بالأفكار التي تقولينها، إنك تسيرين سريعاً في الحديث بالنسبة لي».

«ها أنت تغدو مثيراً للأعصاب. أنت تتظاهر. يجب أن تكون عرفت لين بياو. إن العالم بأسره يعرف لين بياو. إنه هو من عرّفنا بنظرية تصفية العدو الطبقي. في البداية كان الأمر بسيطاً ومثيراً وقد بدتْ وكأنها الطريقة المثلى. وراقت لنا هذه الفكرة في الهند لأنها جاءت من الصين لاعتقادنا أن هذا يُسوِّي الأمور بيننا وبين الصينيين. لكن هذا، في واقع الأمر، قوّض الثورة. لقد حوّل خط لين بياو الثورة إلى تكتيك تنتهجه الطبقة الوسطى. ارتدى القائمون على المعارض والفتية من الطبقة الوسطى في المدن ملابس الفلاحين وصبغوا جلدهم بعصارة الجوز ثم رحلوا لينضموا إلى حرب العصابات معتقدين أن الثورة تعني الإقدام على قتل رجال الشرطة. ولم يكن لدى رجال الشرطة هؤلاء مشكلة في إبادتهم. إنني أجهل السبب الذي يجعل البشر من هذا النمط يتعاملون على الدوام باستخفاف مع رجال الشرطة. أظن أن السبب يكمن في أنهم يعتقدون أنفسهم أكثر سمواً بقليل.

«حدث كل هذا أثناء وجودكَ في إفريقيا، حين كنت شاهداً على الحرب الحقيقية. سيقول الناس هنا فيما بعد إننا فقدنا كل جيلنا من الثوار الشباب الرائعين ولن نتمكن ثانية أبداً من إيجاد من يحل محلهم. أنا نفسي يتملكني هذا الشعور، وكان مُثبطاً لي على مدى شهور. يتقدم الوعي بشكل بطيء في الهند؛ ليس عليَّ إخبارك بهذا. يتحرك العامل الزراعي الذي لا يملك أرضاً باتجاه المدينة، وربما يصبح ابنهُ رجلَ دين. وقد يتلقى ابن رجل الدين تعليماً

أكبر، ومن ثم لاحقاً قد يصبح ابنه طبيب أو عالم. هكذا أصبحنا مدعاةً للأسى. لقد استلزم الأمر أجيالاً من أجل إبداع تلك الكميات من المقدرات الثورية، وقامت الشرطة في زمن قصير بحسم الصراع والقضاء على التطور الفكري لخمسين أو ستين عاماً. من المرعب التفكير في هذا.

«سأخبرك شعوراً مشابها بهذا. في بعض الأحيان تجتث العاصفة الأشجار العتيقة والجميلة من جذورها. تجد نفسك عاجزاً عن الإتيان بأي رد فعل. يكون الغضب من العاصفة هو الشعور الأكثر حضوراً. وتشرعُ في البحث عن عدو. ومن ثم تدرك عاجلاً أن ذلك الغضب، الذي يتراخى كعادته، لاطائل منه، وأنه ليس ثمة شخص أو شيء يمكن إلقاء الغضب عليه. يتعين عليك إيجاد أساليب أخرى للتعاطي مع خسارتك. عندما كنتُ أعاني من ذلك المزاج الخاوي والحزين سمعت بـ كاندابالي. في الواقع لا أظن أنني كنت قد سمعت به قبلاً. لقد دعا إلى ثورة جديدة، وأكد أن الحديث عن الجيل الضائع للثوريين الرائعين هو هراء وجداني. لم يكونوا رائعين أو أصحاب ثورة ولا جيدي الثقافة أو مخلصين. ولو كانوا كذلك لما سقطوا في خط لين بياو الأرعن. لا، قال كاندابالي، كل ما حدث أننا أوتينا الفرصة الجيدة للتخلص من جيل أنصاف المثقفين، الحمقى والذاتيين.

«كان ذلك جارحاً لي. لقد عملتُ و(وولف) كثيراً مع الثوار. عرفنا بعضهم بشكل شخصي. غير أن الوحشية الكامنة في كلمات كاندابالي دفعتني للتفكير في أمورٍ معينةٍ كنت قد لاحظتها سابقاً لكنني أحجمت عن التفكير فيها وألقيتها جانباً. فكرتُ بذلك الرجل الذي جاء إلى الفندق بقصد رؤيتنا؛ كان تافهاً وسخيفاً. أراد أن يُظهر لنا كم هو سليل أسرة مرموقة وسط عالمه هناك. وعندما قدمتُ له المشروب طلب، بإيمائه من إصبعه، ثلاثة من الويسكي المستورد. كان الويسكي المستورد في تلك الأيام يساوي ثلاثة أو أربعة أضعاف ثمنه في الهند. طلب شيئا مُكلفاً للغاية، ومن ثم وبما يشبه الرضى الذاتي قام بتفحص وقراءة وجوهنا ليرى ردة فعلنا. فكرتُ أنه جديرٌ

بالازدراء، لكننا بالطبع كنا متدربين على ضبط تعابير وجوهنا. وبالطبع أيضاً فإن الثلاثة من الويسكي كانت كثيرة جداً عليه.

«فكرت في هذه الحادثة وفي أمور أخرى، هذا لأنني كنت مجروحة ومصعوقة بكلمات كاندابالي، وكنت مُدوّخه بسبب بساطة وبهاء تحليله. لقد أعلنَ نهاية خط لين بياو، وبدلاً منه أعلن الخط الكُلِّي. كان على الثورة أن تنبثق من الأسفل، من القرية، ومن الشعب. في هذه الحركة لم يكن هناك مكان للمتنكرين من الطبقة الوسطى. ومن أنقاض تلك الثورة الزائفة المبكرة ـ هل يمكنك تصديق هذا؟ ـ كان قد هيأ في ذلك الحين لمضي الثورة الحقيقية. قام بتحرير مساحات شاسعة. وعلى خلاف اؤلئك الأوائل، لم يكن يغازل الدعاية.

«كان من الصعب إجراء مقابلة معه فقد كان مرافقوه شديدي الارتياب. كانوا يتناوبون في الحراسة، وأحجموا عن أي شكل من أشكال التعاطي معنا. وفي النهاية توغلنا لعدة أيام في عمق الأحراج. لقد اعتقدت أننا نمضي إلى اللامكان. ولكن، وفي عصر أحد الأيام، في الوقت الذي كنا نهمُّ في نصب المخيم لقضاء الليل، بلغنا فرجة صغيرة بين الأدغال. هبطَ نور الشمس بشكل بهي على كوخٍ طيني طويل ذي سقف من القش. في المقدمة كان ثمة حقل خردل نصف محصود. ذلك كان تجمع مراكز قيادة كاندابالي. وجدنا في أحدها، بعد سلسلة من المشاهد الدرامية، رجلاً طيباً. كان قصيراً وأسمر. مُدرّسٌ في إحدى المدارس الابتدائية، من دون مؤهلات. رجلٌ من وارانجال. بيْدَ أن أحداً في البلدة لم يلاحظه. ووارانجال هي واحدة من أكثر الأماكن حرارة في الهند، وحين بدأ يتحدث عن الفقراء اغرورقت عيناه بالدمع وأخذ يجهش مرتجفاً».

* * *

بهذه الكيفية، في نهاية صيف برلين، دخلت النماذج الجديدة من الانفعالات إلى ويلي.

قالت ساروجيني: «عندما تستيقظ في كل صباح، عليك أن لا تُفكر في نفسك وحسب بل في الآخرين أيضاً. فَكّرْ في مكان قريب منك وأنت هنا. فَكّرْ في شرق برلين، أو خرائبها المعشوشبة، وآثار القذائف على الجدران منذ عام 1945، وعيون جميع سكانها مُطرقة نحو الأرض هذه الأيام أثناء سيرهم. فَكّرْ في إفريقيا عندما كنت تعيش هناك. ربما تنتابك الرغبة في نسيان آنا المسكينة، لكن فَكّرْ في تلك الحرب الدائرة هناك؛ إنها مستمرة حتى اللحظة. فَكّرْ في منزلك. حاول تخيل كاندابالي في الأحراج. هي جميعها أماكن حقيقية يقطنها بشر حقيقيون».

وقالت في يوم آخر: «كنتُ شنيعة في سلوكي تجاهك على مدى العشرين عاماً الماضية. لُمْتُكَ كثيراً. لقد كنت بلهاء. ما كنت أعرفه كان قليلاً. ولم أكن أقرأ سوى القليل. كل ما كنت أعرفه هو حكاية أُمّنا وعم أمنا الراديكالي. إنني أدرك الآن أنك لم تكن مختلفاً عن المهاتما غاندي، ولم تكن تستطيع أن تكون إلّا ما كنتَ عليه».

قال ويلي: «آواه يا إلهي؛ غاندي؛ ما كان ذلك ليخطر ببالي أبداً. إنه بعيد كل البعد عني».

«اعتقدتُ أن هذا سيدهشك؛ غير أنه حقيقي. جاء غاندي إلى إنكلترا حين كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة لدراسة القانون. في لندن كان يسير كالسائر في نومه. كان فاقداً لجميع وسائل فهم المدينة العظيمة. وهو بالكاد كان يستطيع معرفة ما كان يشاهده. لم يكن لديه أدنى فكرة عن نمط الهندسة المعمارية للمتاحف، ولا عن الكُتّاب العِظام أو السياسيين الذين كانوا يختبئون في المدينة في أعوام التسعينيات من القرن التاسع عشر. أظن أنه لم يذهب إلى المسرح أبداً. كل ما استطاع إشغال فكره فيه هو دراسته للقانون وطعامه النباتي وحلاقة شعره. مثل فيشنو الذي كان يطفو على سطح المحيط الأولي للّاوجود ليس إلّا، هكذا كان غاندي في لندن عام 1890 يطفو فوق محيط من عدم الرؤية والجهل. في نهاية السنة الثالثة أحسّ أنه بحاجة

للمساعدة. كان هناك عضو محافظ في البرلمان وله سمعة أنه مغرم بالهنود. وكان هو الشخص الوحيد الذي شعر غاندي أنه يستطيع التوجه إليه. كتب له ثم مضى لمقابلته. حاول أن يشرح له كآبته وضعفه، وبعد برهة قصيرة قال له عضو البرلمان: «إنني أعرف أين تكمن معضلتك. إنك لا تعرف شيئاً عن الهند؛ جاهلاً كل الجهل لتاريخ الهند». ونصحَهُ بقراءة بعض الدراسات التاريخية الإمبريالية. لست متأكدة من قراءة غاندي لها. كان يرجو معونة عملية. لم يكن راغباً في إيجاد نفسه في موقع من يُطْلب منه قراءة كتاب تاريخي. ألا تشعر أنك تستطيع رؤية نفسك في غاندي الشاب ذاك؟»

قال ويلي: «من أين لك معرفة قصة غاندي وعضو البرلمان؟ كان ذلك قبل زمن طويل. من أخبرك بها؟».

«كتبَ سيرته الذاتية في أعوام العشرينيات من القرن العشرين. وهي كتاب يستحق التقدير. شديد البساطة والسرعة والصدق. كتابٌ خالٍ من الزّهو والتبجّح. إنه كتاب غارق في الواقعية بحيث يمكن لأي شاب أو عجوز هندي أن يرى نفسه بين صفحاته. لا يوجد كتاب يشبهه في الهند كلها. سيصبح ملحمة هندية معاصرة لو يقرأه الناس. لكنهم لا يفعلون. إنهم يشعرون بعدم حاجتهم لقراءته - يشعرون أنهم يعرفونه تماماً، وليس عليهم تكليف أنفسهم عناء الاكتشاف؛ هذا هو الأسلوب الهندي. لم أكن قد سمعت عن هذه السيرة الذاتية مطلقاً. وكان وولف هو من سألني إن كنت قد قرأتها. وكان ذلك فور دخوله الأشرام هناك في الوطن. صُدِمَ تماماً لدى إدراكه جهلي التام لها. حتى الآن قرأتها مرتين أو ثلاث مرات. إنها سهلة القراءة، مثل القصة المشوقة التي تعيد قراءتها مرة أخرى، ولاحقاً تكتشف أنك لم تكن تعير انتباهاً أصيلاً لكل الأمور العميقة التي كتبها».

قال ويلي: «أشعر أنكِ كنتِ محظوظة بـ وولف».

«هناك عائلته الأخرى. هذا يشكل معونة كبيرة، إذ لم يكن عليَّ البقاء برفقته طوال الوقت. إنه مُعلم جيد، وذلك في تقديري واحد من الأسباب

التي جعلتنا ما نزال نستمر معاً. أنا شخصٌ من النوع الذي يستطيع هو تعليمه. لقد اكتشف للحال وبجلاء أنني لا أملك أي حس تجاه الزمن التاريخي، إذ إنني عاجزة عن تحديد الفرق بين المئة أو الألف عام، أو بين المئتين أو الألفي عام. كل ما كنتُ أعرفه كان عن أُمنا وعمّ أُمنا وكانت لديَّ فكرة بسيطة عن عائلة أبونا. عدا ذلك كل شيء كان ضبابياً، محيطاً بدائياً، حيث كانت شخصياتٌ مثل بوذا وأكبر والملكة اليزابيث وراني جانسي وماري انطوانيت وشارلوك هولمز كلها تطفو في أماكن متفرقة وتتداخل في خطوط متشابكة مشوشة. أخبرني وولف أن النقطة الأشد أهمية فيما يتعلق بالكتاب هي تاريخه، هل تدرك شدة قرب أو بعد هذا منك. إن تاريخ الكتاب هو ما جعله راسخاً في الزمن، وعندما يتاح لك معرفة كتب أو أحداث أخرى تبدأ التواريخ بإعطائك مدرجاً زمنياً. أستطيع أن أخبرك كم حررني ذلك. الآن حين أفكر في تاريخنا، لم أعد أشعر أنني أغوص في تفسخ وانحطاط لا زمني. أرى الأمور بوضوح أكبر وأمتلك فكرة عن سيرورتها وتدرُّجها».

* * *

ارتدَّ ويلي وغاصَ في الأيام القديمة. فقبل خمسة وعشرين عاماً مضت، عندما كانت لندن بالنسبة له عديمة الشكل ومربكة بقدر ما كانت (حسب ساروجيني) للمهاتما في عام 1890، حاول ويلي آنذاك قراءة ذاته بعيداً عن إرباكه وتخبطه، هارعاً إلى مكتبة الكلية لكي يبحث عن الكتب الأكثر بساطة. والآن، ليجاري اتساع معرفة ساروجيني، وعلى أمل بلوغ استقرارها وصفائها، بدأ بالقراءة. تردد على مكتبة الجمعية البريطانية ـ لم يكن يبحث عنها ـ فوجد السيرة الذاتية للمهاتما، بالترجمة الإنكليزية من قِبَل سكرتير المهاتما.

جعله السرد البسيط العذب ينجرف على طول الكتاب. رغب في الاستمرار أكثر فأكثر، لكي يبتلع الكتاب بأكمله، فصلاً قصيراً إثر فصلٍ قصيرٍ؛ لكنه بعد قليل أخذ يبدو متبرماً بسبب أمورٍ عدةٍ، فعند النقطة التي

وصل إليها اكتشف أنه نسي نصف ما قرأه، ودون تسلسل واضح، بحيث أنه قرأ بسرعة؛ وكان عليه (كما قالت ساروجيني) في أغلب الأحيان العودة إلى الوراء، وقراءة الكلمات البسيطة ببطء أكبر، والتمعن في الإضافات التي قالها الكاتب بأسلوب هادئ. كان الكتاب (خاصة في البداية) يتحدث عن الخجل، والجهل، وعدم الكفاءة: مجمل سلسلة الذكريات التي لابد ستُعمي أو تحْرف الحياة اللاحقة؛ تلك الذكريات التي كان ويلي نفسه يتمنى (هو أو والده المسكين، كما خطر له) لو يأخذها معه إلى القبر، لكن شجاعة الاعتراف البسيط هذه، السماء وحدها تعرف أي ألم كابده في حيازتها، هي تقريباً جزء من الذاكرة الفلكلورية، إذ إن أي شخص في الوطن يمكنه أن يرى نفسه فيها.

فكَّرَ ويلي: «كم أتوق لو وقع هذا الكتاب الشافي في دربي منذ خمسة وعشرين عاماً خلَتْ. لربما كنت قد غدوت رجلاً آخر. لكنتُ هدفتُ إلى حياة أخرى. لما كنت عشت تلك الحياة الجائرة في إفريقيا بين الغرباء. لما كان راودني الإحساس أنني وحيد في هذا العالم، طالما كان ذلك الرجل العظيم قبالتي. لكن بدلاً من ذلك، كنت أقرأ همنغواي، البعيد كل البعد عني، والذي لم يكن لديه ما يمنحني إياه، وأكتبُ قصصي الملفقة تلك. أية ظلمة، أية خدعة، أي ضياع. لكن لعلي لم أكن لأعرف كيفية قراءة هذا الكتاب آنذاك. لعله لم يكن ليقول أي شيء لي. ربما كان ينبغي أن أحيا تلك الحياة، لكي أراها أكثر وضوحاً الآن. لعل الأمور تجري حسب حتمية جريانها».

قال لساروجيني عندما كانا يتحدثان عن الكتاب: «إنه ليس هو نفسه المهاتما الذي سمعنا عنه في الوطن. لقد أخبرونا أنه نَذل وممثل، وزائف حتى أصابع قدميه».

قالت: «كان عم أُمنا يمارس الاضطهاد الطائفي. ذلك هو كل ما تمَّ تمريره لنا. إنه جزء من حربهم الطائفية الشخصية، وثورتهم الخاصة فيما بعد.

كانوا عاجزين عن التفكير في أي شيء أكبر من هذا. لم يشعر أي منهم بوجوب معرفة المزيد عن المهاتما».

قال ويلي: «لو لم يكن قد ذهبَ إلى جنوب إفريقيا، لو لم يندفع في تلك الحياة الأخرى، هل كان سيبقى من دون أن يعمل شيئاً؟ هل كان سيستمر في متابعة أساليبه القديمة؟».

«هذا هو الاحتمال الأكبر. لكن عُد واقرأ الفصول الثانوية من جديد. سوف تجد أن كل شيء سارَ وفقَ خطةٍ دقيقةٍ، وسوف تتمكن من ترتيب ذهنك الخاص».

«كيف صدمته جنوب إفريقيا. يمكنكِ أن تستَشِفّي الخجل والارتباك. لم يكن مُجَهّزاً لذلك بأي من الأدوات. ذلك الحدث الرهيب في القطار الليلي، ثم يجيء إليه العامل التاميلي المفجوج برأسه المُدمّى طلباً للعدالة».

قالت ساروجيني: «مضروباً من قِبل صاحب المزرعة الذي كان قد فجّهُ. العبيد الذين اقتُلعوا ونُقلوا إلى أرض أخرى، من دون أية حقوق على الإطلاق. يمكنك أن تفعل بهم ما تشاء. أسلاف بائع زهورنا هذا في برلين. رحلوا إلى البعيد خلال مئة عام. يمكنهم الآن القتال في حربهم الخاصة. يجب أن يُحسِّن هذا من حالك. لا يمكننا أن نضع أنفسنا في أحذية غاندي. لكي نكون وجهاً لوجه مع الشكل الأكثر تقليدية للوحشية ولنسحب القوة من يد أي كان. لا بد أن معظمنا سيفر هارباً أو يتوارى. كثير من الهنود فعلوا ذلك، وما يزالون. لكن غاندي، من خلال براءته المقدسة، فكر أن ثمة ما يمكن أن يفعله. تلك كانت الكيفية التي انطلق فيها في حياته السياسية، وهذا العَوَز للتحرك والفعالية. «ما الذي يمكنني القيام به؟» هكذا كان الأمر الذي شاهدناه في نهاية المطاف. تماماً بشكلٍ مشابهٍ للاستقلال كان هناك أحداث شغب في البنغال. توجه إلى هناك. قام أحدهم بِذَرِّ الزجاج والقوارير المكسرة فوق مكان تواجده. ومع ذلك توجب على المهاتما الضئيل والعجوز التقدم. كان في هذه الأثناء غارقاً في بحثه الديني الذاتي، ولكن كان هناك ما يكفي من بعض

الرؤية القديمة باقية لديه، وكثيراً ما كان يُسمع وهو يردد لنفسه في تلك الأيام؛ «ما الذي أستطيع القيام به؟».

«باستمرار لم يكن ما يمكنه القيام به كثير. من السهل تناسي ذلك. ولم يكن على الدوام المهاتما شبه العاري. وبطريقته شبه الدينية التي بدأ بها في جنوب إفريقيا ـ الكومونه، وفكرة عامل الخبز، وجميع الأفكار المتمازجة لتولستوي وروسكين ـ لم تكن لتنفع شيئاً في تلك الحالة. في سيرته الذاتية روايته لسنواته العشرين في جنوب إفريقيا مفعمة بالحيوية والأحداث، ومليئة بسروره للأمور التي كان يفعلها، تظن أن أمراً عظيماً يحدث، أمر هو على وشك تغيير وجه جنوب إفريقيا، غير أن معظم الصراع الذي يصفه هو صراع ذاتي وديني، ولكنك فيما لو عدت بضع خطوات إلى الوراء ستجد أن أيام المهاتما في جنوب إفريقيا كانت إخفاقاً تاماً. كان في السادسة والأربعين عندما توقف وقفل عائداً إلى الهند. أكبر منك بخمسة أعوام ياويلي، عاد خالياً من أي شيء يمكن استنتاجه من عشرين عاماً من العمل. بدأ يخربش في الهند. كان عليه أن يفكر ويزداد تفكيراً، مرة إثر مرة، في الكيفية التي يتعين عليه من خلالها التماهي في الحالة المحلية، بما أنه في ذلك الحين كان ثمة العديد من القادة الأرفع تعليماً وثقافة. ربما يبدو لأحدهم الآن أن الأمور كانت تسير في هذا الاتجاه آنذاك، وأنه كمهاتما لم يكن عليه سوى اعتلاء الموجة في عام 1915 بأن يسلم نفسه للتيار. لم يكن الأمر هكذا. كان فاعلاً في سير الأمور، وأبدع الموجة. كان مزيجاً من الفكرة والنية. فكر في كل هذا، وعلاوة على ذلك، كان ثورياً حقيقياً».

التزم ويلي الصمت ولم ينطق.

شطحتْ به بعيداً جداً. كانتْ قد علمته التمرين العقلي اليومي بالتفكير في نفسه والذهاب إلى ماوراء الأمكنة الأشد بؤساً في العالم التي رآها أو عرفها يوماً. إلى ذلك الحين، كانت هذه قد أصبحت هواية صباحاته، والآن، أثناء استرخاء تأمله الصباحي، وجدَ نفسه يعيد تقييم حياته في الهند ولندن،

يعيد تقييم إفريقيا وزواجه، معترفاً بكل شيء بطريقة جديدة، لا يخفي أي شيء، وهو يغمر كل ما كان يثير الشفقة والرثاء من ماضيه الغريب في مثالية جديدة متسامية.

وللمرة الأولى في حياته بدأ يختبر نمطاً من الفخر الحقيقي. شعر بذاته، وكذا بالكلام، يملآن الفضاء أثناء سيره في الشارع؛ وتساءل إن كان هذا هو الإحساس الذي يشعر به البشر طوال الوقت، من دون جهد، جميع أولئك الآمنين الذين التقاهم في لندن وإفريقيا. تدريجياً اعتراه، مترافقاً مع هذا الفخر، حبور غير متوقع، والذي كان مكافأة إضافية، سعادةَ معرفته أنه قد طرح كل ما شاهده. أخبرته ساروجيني أن جميع من رآهم عاشوا على المتعة وحسب. أكلوا وشاهدوا التلفزيون وأحصوا أموالهم؛ لقد تَدَنُّوا إلى تفاهة مُروِّعة. لقد رأى اللاطبيعية في هذه التفاهة؛ وفي الوقت ذاته شعر بالإثارة الكافية في الحركات الجديدة لقلبه وعقله؛ وفوق كل شيء أخذ يشعر بما حوله.

منذ خمسة أشهر، في شتاء بديع ومدهش، كلاجئ من إفريقيا، مجرداً من أي مكان ليعود إليه، بدا كل شيء مُرحّباً ومُباركاً. لم تكن المباني قد تغيرت؛ والبشر لم يتغيروا - كل ما أمكنه التّفوّه به هو أنه تعلم تحديد النساء المسكينات في منتصف العمر القادمات من الجانب الشرقي، خطان من الحدود في البعيد. تذكر ذلك الزمن، ذكرى سعادته تلك، بوضوح شديد. لم يقم بنبذها. لقد أخبرته كم تبدل.

تلك السعادة التي لا توجد في برلين الحقيقية بل في وهمٍ خاصٍ - شقة ساروجيني، وأموال ساروجيني، وحديث ساروجيني - لم يكن يستطيع تحمله. منذ عشرين سنة خلَتْ كان يرغب في المتابعة حتى ذلك الزمن البهي، كان يرغب في محاولة القيام، في برلين، المدينة الواقعة في نهاية الممر الهوائي الضيق، بما قام به لاحقاً في إفريقيا. كانت الأمور ستنتهي بأسوأ ما انتهت إليه في إفريقيا. لربما كان أصبح مثل ذلك الهندي الذي التقاه في أحد الأيام: مثقف في ثلاثينياته، يضع نظارات ذات إطار ذهبي، جاء إلى برلين بآمال

كبيرة وهو الآن مُشرق الوجه، متملقاً يتسكع في ملابسه المهلهلة، وليس لديه مكان للنوم، وفَقَدَ تماسك عقله، أنفاسه متعبة، ذراعه مكسورة ومعلقة إلى رقبته، وجهه كئيب ومتجهم وهو يتشكى من عذاباته على أيدي قطاع الطريق من الصبية.

طوال هذه الأشهر الخمسة الطويلة التي أمضاها لم يعرف البتة زمناً كهذا بالنسبة له، إذ تخلص من أي شكل من أشكال القلق المفاجئ، وليس لديه أي شيء ليقوم به مع أيٍّ كان، وكما في حكايةٍ للعجائز أصبح هو وأخته راشدين من دون معاناة المزيد من الأذى. شعر أن كل ما كان قد فكر فيه في تلك الأشهر الخمسة كان حقيقياً. انبعثا في حالة طمأنينة جديدة. جميع مشاعره السابقة، والتوق الذي ظنه حقيقياً فأخذه إلى إفريقيا، كانت زائفة. لم يعد يساوره الخزي الآن؛ رأى أن كل ما جرى له كان تمهيداً لما هو الآن على وشك أن يجري.

2

الطواويس

بدأا بانتظار كاندابالي. لكن لم تصل منه أية كلمة. وبدأ الصيف يخبو.

قالت ساروجيني: «يجب أن لا تكون مثبط العزيمة، إنها فقط الأولى من عدة جلسات محاكمة، تعقد حين تقوم بأمر غير عادي، ويقول وولف بأنها لن تكون بالنسبة لك بالسهولة التي قد تكون بالنسبة لقَبَلي في برنامج تلفزيوني. إنهم يرتابون بالحالات الغريبة مثلك. نحن أنفسنا عانينا الكثير من الإشكالات مع قوم كاندابالي، وكنا نُصور فيلماً وحسب. لو كنتَ أحد أبناء القبائل لاعتقدت أنه يتوجب عليك فقط أن تذهب إلى أحدهم وأنت ترتدي البنطال ـ هذه هي الطريقة التي يفكر أبناء القبائل فيها برجال السلطة: رجال بنطلونات ـ وتقول: «دادا، أرغب في الانضمام إلى الحركة». وسيجيبك رجل البنطلون: «ما اسم قريتك؟ ما طائفتك؟ ما اسم أبيك؟». عندئذٍ ستكون جميع المعلومات الضرورية في تلك الردود البسيطة، ويمكن استخراجها بسهولة. بالنسبة لك سيطلبون معلومات أكثر لكي يتحققوا منك. لقد أخبرناهم عن عم أمنا، وأخبرناهم عن خلفيَّتك الإفريقية. لقد شددنا على الجانب الراديكالي».

قال ويلي: «أتمنى أن أبدأ من دون أية حكايات. أرغب أن أكون أنا نفسي. وأن أبدأ بداية ناصعة».

بدتْ وكأنها لم تسمعه. «سوف يتعين عليك السير مسافات طويلة.

يجب أن تتدرب منذ الآن. عليك أن تحتذي حذاء قماشياً وتُقسِّي باطنَ قدميك».

أمضى ساعات يسير في الأحراج المكسوة بالرمال في برلين. كان يترك للمسالك أن تقوده قُدُماً. وفي إحدى الظهيرات بلغ مكاناً مقطوعَ الأشجار والشمس فيه حادة الأشعة، وقبل أن يتمكن من تحديد مكان وجوده وجدَ نفسه يسير بين العشرات من الرجال العراة المحملقين فيه، متفرقين على العشب الطويل، بين الدراجات الهوائية التي لا بد أنها حملت بعضاً منهم إلى هذا المكان. أُلقيتْ الدراجات على جوانبها فوق العشب، وبدت هذه الأوضاع المنحرفة للرجال والآلات متوقعة ومتشابهة على نحو شاذ.

حين أخبر ساروجيني بمغامرته الصغيرة المغيظة تلك قالت: «إنها منطقة المثليين الجنسيين. إنها معروفة. عليك الحذر وإلا فإنك ستدخل في مأزقٍ قبل زمن طويل من وقوعك على كاندابالي».

بدأتْ أوراق بعض الأشجار بالتحوّل، وكان النور يوماً بعد يوم يأخذ منحىً أكثر اصفراراً.

قالت ساروجيني في أحد الأيام: «أخيراً. تلقّى وولف رسالة من الهند من رجل يدعى جوزيف. إنه مُدرّس جامعي. يمكنك أن تعرف من الاسم أنه مسيحي. إنه ليس شخصاً سِرِّياً. إنه مكشوف وواضح، وهو حريص على الحفاظ على أنفه نظيفاً. جميع هذه الحركات فيها أناس على هذه الشاكلة. مفيدٌ جداً بالنسبة لنا، ومفيد بالنسبة لهم، ومفيد بالنسبة للسلطات. سوف يلتقيك جوزيف، وإذا ارتاح لك سوف يسمح لك بالمرور.

* * *

هكذا، بعد أكثر من عشرَين عاماً، رأى ويلي نفسه في الهند من جديد. كان قد غادر الهند وبحوزته كمية قليلة من المال، عَطِيَّة والدهُ؛ وها هو يعود أدراجه وبحوزته أيضاً كمية قليلة جداً من المال، عَطِيَّة شقيقته.

بالنسبة له بدأت الهند في مطار فرانكفورت، في الحظيرة التي احتشد فيها المسافرون إلى الهند. قام بتفحص المسافرين في المكان ـ أولئك الذين من المرجح أن لا يراهم ثانية أبداً بعد عدة ساعات ـ بوجلٍ أكبر من ذلك الذي كان قد تفحص فيه التاميليين والهنود في برلين. لمحَ الهند في كل ما يرتدونه أو يفعلونه. كان مُعبأً بمهمته، ومُفعماً بثورة روحه، ويشعر بمسافة شاسعة تفصله عنهم. لكن في التفصيل تلو التفصيل الذي يلاحظه، في حظيرة المطار ثم في الطائرة، بدأت الهند المروعة من الحياة الأسرية الهندية ـ الأجساد المعتلّة، طريقة تناول الطعام، أساليب التحدث، مفهوم الأب، مفهوم الأم، حقائب التسوق البلاستيكية المستعملة عدة مرات والمجعدة (باسم طويل في بعض الأحيان ولا علاقة له بما تحمله هذه الحقائب) ـ بدأت هذه الهند تجتاحه، بدأت تذكره بالأشياء التي اعتقد أنه نسيها ووضعها جانباً، الأشياء التي محتها فكرته عن مهمته التبشيرية؛ والمسافة التي شعر أنها تفصله عن رفاقه المسافرين تناثرت في الأبعاد. بعد ليلة طويلة، شعر بما يشبه الذعر من فكرة اقتراب الهند منه، الهند أسفلاً، وهج اللون المدمر الذي استطاع رؤيته من النافذة. فكّر: «فكرتُ في العالَمين، وكان لدي فكرة ممتازة عن العالم الذي أنتمي إليه. لكنني الآن، فعلياً، أود لو أستطيع العودة بضع ساعات إلى الوراء والتوقف قبالة متجر باتريك هيلمان في برلين، أو الذهاب إلى بار المحار والشامبانيا في (كي دي دبليو KDW)».

كان ذلك في الصباح الباكر عندما هبطوا، وكان الآن أكثر قدرة على ضبط انفعالاته. في تلك الأثناء كان الضوء لاسعاً، والحرارة تنبعث من الإسفلت. امتلأ مبنى المطار البالي بالحركة والصخب المُصِم. الآن كان المسافرون الهنود مختلفين حالاً عما كانوا على متن الطائرة. للحال في الوطن، يمتلكون فوراً (بمحافظهم الجلدية وستراتهم والحقائب البلاستيكية الآتية من المحلات في المدن الأجنبيه الشهيرة) سلطةً معينةً تفصلهم عن الطبقات المحلية الأدنى. المراوح السقفية ذات الشفرات المسودّة منهمكة في الدوران؛ الأعمدة أو الأذرع التي تثبتها إلى السقف مغطاة بالنفط والغبار.

فكَّرَ ويلي: «إنه مطار. ينبغي عليَّ التفكير فيه على أنه مجرد مطار. من الآن فصاعداً عليَّ التفكير بكل شيء بهذه الطريقة».

لم يكن الأثاث الخشبي كما توقعه ويلي في مبنى المطار. لم يكن أفضل من الأثاث الخشن لمطاعم عطلة نهاية الأسبوع التي عرفها ويلي في إفريقيا (حيث تلك الخشونة كانت جزءاً من الطراز والمناخ). طُليت الجدران البيتونية بالأبيض على عجلٍ وقلة مهارة، مع رذاذ اللون على الزجاج والخشب؛ ولعدة إنشات فوق الأرضية الحجرية كانت الجدران وَسِخَةً بسبب المكانس وماء التنظيف الوسخ. وعلى الجدار تستقيم مكنسة قصيرة قذرة مصنوعة من أضلاع أغصان جوز الهند وبجانبها سطل بلاستيكي أزرق؛ وليس بعيداً قرفصتْ امرأة هزيلة سمراء في ملابس مموهة قاتمة اللون وهي تتحرك على وركيها، تُنظّفُ الأرضية وتترك عليها إيحاء أن الأوساخ انزاحت بشكل واهن.

فكَّرَ ويلي: «منذ عشرين عاماً لم أكن لأرى ما أراه الآن. إنني أرى ما أراه لأنني صنعت من نفسي شخصاً آخر. لا أستطيع أن أعيد صياغة نفسي ذلك الشخص القديم ثانية. ومع ذلك يتعين عليَّ العودة إلى تلك الطريقة القديمة في الرؤية. وإلا فإن مبرري سيضيع قبل أن أبدأ. جئت من عالم الترامي والأشياء الظاهرة. رأيت بجلاء تام في أحد الأزمنة السابقة أنه كان عالماً بسيطاً، حيث تمَّ فيه تبسيط البشر. يجب عليَّ أن لا أعود إلى تلك الرؤية. عليَّ أن أفهم أنني الآن بين بشرٍ بمعتقداتٍ وأفكارٍ اجتماعية أكثر تعقيداً، وفي ذات الوقت وسط عالمٍ متجرد من كل زيٍّ أو براعة. هذا هو المطار. إنه يعمل. وهو يعجُّ ببشرٍ بارعين تقنياً. هذا ما ينبغي عليَّ رؤيته».

كان جوزيف يعيش في مدينة ريفية على بعد مئات الأميال.

اضطر ويلي لركوب القطار. ومن أجل أن يصل القطار كان من الضروري أن يستقل تاكسي حتى محطة القطار. ومن ثم، ولكونه اكتشف في مكتب التذاكر (شبيه بالكوخ، متوارٍ عن ضوءِ النهار الضاري، ومُضَاء

بلمبة تبعث نوراً كابياً) أن القطارات محجوزة لعدة أيام قادمة، وجد نفسه مضطراً للبقاء إما في غرف استراحة محطة سكة الحديد أو في أحد الفنادق. وفي الحال بدأت الهند تظهر بجميع تعريفاتها الجديدة للأشياء (تاكسي، فندق، محطة السكة الحديدية، غرف انتظار، مرحاض، مطعم) وبجميع ضوابط التهذيب الجديدة لها (القرفصة في المرحاض، تناول الطعام المطبوخ فقط، تجنب الماء والفاكهة الرخوة) ؛ وراحت هذه الهند تبتلعه.

كان هناك نوع من اليوغا التي يكون مطلوباً من التابع تَقَفِّيها للتحرك ببطء شديد، والتركيز لوهلة على ما يأمر به دماغه جسده أن يقوم به. حتى بعد شهور من التمرين (أو لعلها، بالنسبة للدنيوي وغير الموهوب، تستغرق سنوات) يشعر التابع بتحرك كل عضلة منفصلة في داخله، مطيعة لحوافز دماغه في كل دقيقة. بالنسبة لويلي، في تلك الأيام الأولى لعودته إلى الهند، أصبحت آلية الحياة يوماً بيوم نوعاً من هذه اليوغا، سلسلة من الحواجز. يجب إعادة التفكير في كل شيء بسيط، وتعلمه من جديد.

(يوغا: نائياً بنفسه في غرفة الفندق الهندية هذه، وبوجود النوافذ المفتوحة على الضجيج والروائح، أو في الشارع خارج الجدران، وجد ويلي نفسه، داخل عالمه الداخلي الكثيف والسريع الحركة، يُركّز بشكل متقطع على إفريقيا، ويتذكر أنه قرابة نهاية عهد الاستعمار أصبحت اليوغا ما يشبه بدعة سائدة بين متوسطات السن، ورغم معرفتهن الضئيلة المشتركة عن الكمال الجسدي والروحي كحالة مثالية فقد كانت تنحو لأن تجعل من عالمهن المتداعي أكثر قابلية للاحتمال.)

في برلين أخذته الحيرة لبعض الوقت في الكتب التي عليه اصطحابها معه. كانت فكرته الأولى هي أنه وبعد مسيره الطويل عبر الأحراج وفي داخل أكواخ القرية لا بد أنه سيحتاج لقراءةٍ مُشرقةٍ. غادرته هواية المطالعة تقريباً في إفريقيا، وكل ما أمكنه إشغال ذهنه فيه كان كتاب «ثلاثة رجال في قارب»، والذي لم ينهِهِ البتَّه، ورواية الثلاثينيات 1930s لفريمان ويلز كرافت والتي

تدعى «البرميل الخشبي أو لغز البرميل الخشبي». كانَ وقعَ على رواية كرافت في نسخة ذات غلاف ورقي مُهترئ في منزل أحدهم في إفريقيا. لقد أضاع ذلك الكتاب (أو ربما أعاده إلى صاحبه) قبل أن يمضي كثيراً في قراءته، والذكرى الباهتة (لندن، وبرميل خشبي يطوف في النهر، ومجموعة من التأنيات والحسابات حول التنقل عبر النهر والتيارات المائية) بقيتْ معه كنوع من أنواع الشعر. لكن حدث له أن فكّرَ، قبل الشروع في البحث عن هذه الكتب في برلين، أنه سينتهي من قراءتها سريعاً. لكن كان هناك هذا التعقيد الإضافي: تلك الكتب بالإضافة إلى عقلية التواطؤ لديه، سوف تخلق في رأسه صوراً لعالمٍ لم يعد يستخدمه. ومن ثم، وبطريقة مليئة بالغدر، سوف تُفسد هذه الكتبُ الأمورَ، ولن تكون مفيدة «ومشرقة» بالقدر الذي ظنه.

أحجم عن فكرة الكتب. لكنه لاحقاً وفي أحد الأيام، قرابة نهاية سيره، دخل إلى متجرٍ لبيعِ الأشياء القديمة، فَتَنَهُ العرض الاعتباطي لمنتوجات سنوات العشرينيات والثلاثينيات من الزجاج والمصابيح والمزهريات الملونة وبقية المشغولات الدقيقة المريحة للنظر التي كانت كلها جميعاً تحيي بطريقة أو بأخرى أزمنة الحرب. وعلى إحدى الطاولات كانت هناك مجموعة من الكتب أغلبها كتب بأغلفة ورقية ألمانية وعناوينها كتبتْ بالحرف الألماني القاتم. غير أنه وبين هذه الكتب المبعثرة، كانت مميزة وواضحة للعيان، بسبب أغلفتها الجلدية وأحرفها الطباعية الإنكليزية، كتبٌ مدرسيةٌ باللغة الإنكليزية عن الجبر، والهندسة المتقدمة، والميكانيك والهيدروستاتيك. طُبعتْ هذه الكتب في العشرينيات، وكان الورق، الآتي من عصر الصرامة السابق ذاك، رخيصاً وشاحباً؛ لعل تلميذاً أو معلماً كان أحضر هذه الكتب المدرسية من إنكلترا إلى ألمانيا. في مدرسته كان ويلي مُغرماً بالرياضيات. أحب المنطق وسحر استنباط الحلول؛ وقد تناهى إليه أنها كانت هي الكتب التي سوف يحتاجها في حياة الأحراج. سوف تحافظُ على حيوية عقله؛ ولن تكون مجرد تكرار لغيرها؛ سوف تتقدم محتوياتها من درس لآخر ومن مرحلة لأخرى؛

ولن تعرض عليه صور مزعجة عن نساء ورجال في مجتمعات متكاملة، وشديدة البساطة.

في فندقه في الهند الآن، جوار محطة سكة الحديد، ولديه يوم وليله يقضيها قبل تمكنه من استقلال القطار إلى مدينة جوزيف، أخرج ويلي الكتب من حقيبته القماشية الصغيرة، ليبدأ في نظام حيلته الجديد. بدأ بكتاب الهندسة. كان ضوء المصباح السقفي واهناً جداً، وبالكاد استطاع رؤية الطباعة الباهتة على الورق القديم. شعر بألم في عينيه المشدودتين. ومن أجل التعامل مع هذه المشكلة احتاج إلى ورقٍ وقلمين أحدهما أزرق والآخر رصاص ولم يكن لديه أيٌّ من هذه الأشياء. ولهذا وجد أن ليس هناك ما يفعله. ومع ذلك لم يكن قادراً على أن يخفي عن نفسه حقيقة أن كتاب الهندسة والكتب الأخرى كانت صعبة جداً بالنسبة له. لقد بالغ في تقدير قدراته؛ وقد توجّبَ عليه البدء بمستوى أدنى. وحتى عندئذ كان من الواضح أنه سيحتاج للمعلم وللشجاعة. قرأ، أو حاول القراءة، في السرير. لم يكن في الغرفة الصغيرة طاولة. ثم أعاد الكتب إلى الحقيبة القماشية.

فكّرَ: «عليَّ التخلص من هذه الكتب بأية وسيلة. سوف تفضحني».

ملأه هذا الإخفاق، البسيط للغاية، والسريع للغاية، والشديد الوضوح، بالكآبة قبل أن يبدأ، وجعل من العسير عليه المكوث في الغرفة الصغيرة ذات الجدران المبرقعة، وجعل الخروج والدخول إلى عمق المدينة الدافئة والصاخبة أكثر صعوبة. من قبْلُ منحته الكتب شيئاً من الفخر، ومن الحماية. وها هو الآن عارٍ. اجتهدَ طوال الليل وهو يلاحق أرباع الساعات، وتابع كذلك هذا الكفاح الزمني طوال نهار اليوم التالي. وطوال المسافة في الطريق إلى بلدة جوزيف كان مزاجه الكئيب يتصاعد. ولكن على مدى الزمن، خلال الليل، وأثناء جميع التوقفات في محطات سكة الحديد الزاعقة، كان القطار يحمله قُدماً إلى الأمام، شاء ذلك أم أبى، نحو ما قد سلّمَ نفسه له الآن.

في الصباح الباكر، عندما أشرقت الشمس، ألقى القطار المتحرك بظله

الكامل من قمة العربات إلى العجلات على حديد السكة. بحث عن ظله الخاص وعندما وجده أخذ يلهو به لبعض الوقت، مُحرّكاً رأسه ويديه وهو يشاهد استجابة الظل لهذه الحركات. فكّرَ: «هذا أنا». وبطريقة غريبة وشاذة بعث هذا الأمر في نفسه الاطمئنان، وهو يراقب نفسه على المسافة، تمتلكه الحياة كأي أحدٍ آخر.

* * *

يقيم جوزيف في بلدة كبيرة، لكنها لم تكن تعطي إيحاء شعورياً أنها مدينة عاصميه. كان الطريق الخارج من المحطة طريقاً مختصراً وغير منتظم، يعج بالإثارة والنداءات الملحاحه ولكن من دون الكثير من الحركة. الجميع يقابلون نفسهم في وجوه بعضهم. الجنركشة(*) ذات الدواسات والجنركشة السكوتر(**) وسيارات التاكسي جميعها تتزاحم وتتنافس لتحجز لنفسها مكاناً في الطريق مع عربات الخيول أو البغال التي تميل بانحدار خطر إلى الخلف، وبشكل يبدو معه أنها على وشك إلقاء أحمالها الثقيلة من النساء والأطفال. كان هناك في هذا المكان الكثير من عمال الفنادق، وقد اختار ويلي بشكل عشوائي بأن يقوده واحد من هؤلاء الرجال إلى الريفيرا. ركب ويلي إحدى العربات. «معاصر، كل شيء معاصر» كان رجل الريفيرا يردد هذا طوال الوقت، ثم اختفى حالما أوصل ويلي إلى داخل ردهة الانتظار الصغيرة، كما لو أنه كان يرغب بعدم تحمل مسؤولية أي شيء.

وكان هذا عبارة عن مبنى إسمنتي من طبقتين في منطقة البازار، ورغم أنه إسمنتي فقد بدا هشاً. كانت الغرفة التي خُصصّتْ لويلي ضيقة ومغلقة، وحين حاول، بإيماءة ثابتة، فتح النافذة، بدا المقبض الذي كان مصنوعاً من

(*) الجنركشة: عربة لها عجلتان لنقل الركاب، يقودها السائق إما بجرها أو عن طريق الدوّاسات.

(**) السكوتر: درّاجة ثلاثية العجلات.

معدن أملس غريب وكأنه على وشك الالتواء في يده. من ثم تعامل مع المقبض، غير راغب في كسر أي شيء، بلطف ولين ليحرره، وفتح النافذة. وُضِعت قائمة الخدمة على طاولة صغيرة وهي تعِد بالطعام على مدار الساعة، والتحيات «من سلة خبّازنا» و«شبكة صيّادنا» و«من خشبة لَحّامنا». كان ويلي يعلم أنها فارغة ولا تملك أي قيمة، وأنها أُخِذتْ كنسخة من أحد الفنادق الأجنبية، ولا يمكن التفكير فيها إلّا كدلالة على الإرادة الطيبة، ورغبة في حيازة الرضا وعنصر مساهم في عصرية الفندق.

اعتَقدَ أن بإمكانه الاتصال بجوزيف لكن التلفون الذي كان بجانب السرير، ورغم البطاقة التي تقول «أصدقاؤك وأحبابك على بعد إنشات منك فحسب»، كان أخرس. هبط السلالم وطلب (وهو يلتقط مشهد عامل الفندق المختلس في الغرفة الداخلية) استعمال تلفون المكتب. كان الرجل الجالس خلف المكتب شديد اللطافه.

لعل جوزيف نفسه هو من أجاب بصوتٍ مشرقٍ وواضحٍ ومطمئن. كان هذا هو التواصل الحقيقي الأول الذي أجراه ويلي منذ وصوله، الإشارة الأولى التي أوحت له بوجود مقربين منه، وجدَ نفسه يوشك على البكاء.

قال جوزيف إنه مشغول في الحصص الدراسية ذلك الصباح غير أنه سيكون حُرّاً في فترة ما بعد الظهر. قاما بتحديد موعدٍ متأخرٍ من بعد الظهر، بعد ذلك عاد ويلي إلى غرفته. كان مُستنزفاً على نحو مفاجئ. اضطجع بثيابه على الحشوة الرقيقة لسريره الحديدي، وللمرة الأولى منذ برلين وفرانكفورت غطَّ في نومٍ عميق.

جعله إحساسه بالحرارة والنور يستيقظ قبل أن يكون مستعداً للنهوض بوقت طويل. كان الوقت منتصف النهار، الشمس تلقي بنورها على زجاج النافذة فتجعله يتوهج. أحس بألم في عينيه وفي رأسه ناتج عن صحوته المفاجئة. خالجه شعور أنه قد تسبب لنفسه بأذية عميقة. لكن ذلك كان فقط

قبل لقائه جوزيف بساعة، الشخص الوحيد الذي أمكنه التواصل معه؛ دفع نفسه بقوة ونهض عن الحشوة الرقيقة الخشنة فوق السرير الحديدي.

علّقَ سائق درّاجة السكوتر: «منطقة جديدة»، بينما كان ويلي يعطيه العنوان، ثم مضيا ـ كان ويلي مايزال نصف دائخ، ويشعر بالغبن بسبب استيقاظه المفاجئ ـ على مدى خمس عشرة أو خمس وعشرين دقيقة باتجاه خارج البلدة عبر الطرقات الرئيسية وسط الغبار والدخان الملتهب الذي تثيره الحافلات والشاحنات الهادرة. انعطفا في دربٍ ترابي غير مزفت وهو ما جعل درّاجة السكوتر الصغيرة تصطدمُ وتتخبطُ إلى الأعلى والأسفل، أخيراً بلغا صفاً من ركام بقايا الشقق الإسمنتية تجثم في تلة مرتفعة وعارية، كما لو أن البنائين نسوا أو لم يكترثوا لتنظيف الأرض بعد أن أتَمُّوا عملهم. كانت العديد من هذه التجمعات السكنية قائمة فوق أعمدة بيتونية، وقد تمّتْ كتابة الرقم المُعقّد أو عنوان كل منها بالجبصين على الأعمدة في أرقامٍ كبيرةٍ ومُنقّطة.

لم يكن عمود مصعد منزل جوزيف، المتوضع وسط الدعامات، على شاكلة الأخرى واطئاً على مستوى الأرض. كان أقصر بثلاثة أقدام ربما، مرتكزاً على الأرض المرصوصة كما لو أنه فوق تشكيلٍ صخريٍّ في أحد الكهوف؛ درجات مقطعة من هذه الأرض المرصوصة تقود إلى أسفل العمود. لعلها أُنجزتْ على هذه الشاكلة بقصد محاكاة نموذجٍ ما، أو بقصد الاقتصاد في المال؛ أو ببساطة قد أخطأ أحدهم، المهندس المعِماري أو البناء أو صانع العمود في الحساب. ولكنه، فكَّرَ ويلي، مع ذلك فهو دعامة بنائية: هذه هي الكيفية التي سيراه فيها القاطنون في هذا التجمع. وسوف ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يسكنون في حي غني وجديد ضمن تجمع بيتوني عصري فوق الأرض. فكّرَ: «عليَّ أن أتذكر ألّا أومئ لجوزيف عن هذا. ربما يكون شخصاً فظاً، وليس من السهل التوجه إليه بالحديث، عليَّ أن لا أجعل من تجمعه السكني، حيث يحيا، مثاراً لحديثي. إنه مجرد أمر يدفعني إرهاقي ربما للتفكير فيه. سوف يتعين عليَّ أن أكون حذراً».

كان للمصاعد أبواب ذات مصاريع معدنية. كانت مسودَّة من آثار الشحم والزيت وكانت تصدر صريراً أثناء الفتح والإغلاق. لقد اعتاد ويلي على الأبنية سيئة الإنشاء في جانبه البعيد في إفريقيا (حيث كان البشر هناك يدركون على الدوام في أعماق قلوبهم أنهم ذات يوم سوف يحزمون حقائبهم ويغادرون). لكنه لم يكن قد رأى قط شيئاً على هذه الدرجة من الفوضى البنائية حين صعد إلى طابق جوزيف. في هذه النقطة بدا البناء وكأنه أُهملِ وهُجِرَ في مرحلته الأولى الابتدائية، من دون أية محاولة لتمليس خط الأسمنت الذي كان منشوراً على طول أعلى جدران الممر مع عدد هائل من حِزم الكابلات الثخينة والرفيعة التي يكسوها جميعاً الغبار القديم. تناهت إلى أذني ويلي طوال الوقت، وسببت له الحزن، صرخات الأطفال الفرحة أولئك الذين كانوا يمرحون وسط غبار الظهيرة الحار بين أكوام الأوساخ في الساحة، والزعيق المهدد للنساء.

فتح جوزيف الباب بنفسه. كان ضخماً، كما أنبأ عنه صوتهُ وأسلوبه، وكان يرتدي اللون الأبيض أو أحد مشتقاته، مرتدياً ما هو ربما إما سترة أو بيجاما. لا بد أنه في حوالي الخمسين من العمر.

خاطب ويلي قائلاً: «هل تعجبك محاضراتي الجامعية».

لم يقع ويلي في المصيدة. أجابه: «هذا عائد لك لتخبرني بها».

كانا في غرفة الجلوس. استطاع ويلي من خلال أحد الأبواب المفتوحة أن يرى المطبخ، كانت فيه امرأة جالسة على الأرضية الحجرية وهي تعجن شيئاً ما في طشت. يؤدي بابان آخران إلى الغُرف الداخلية، أو ربما إلى غُرف النوم أيضاً.

لاحظ ويلي أيضاً في غرفة الجلوس وجود أريكة أو سرير ضيق نُشرت فوقه الملاءات. استلقى جوزيف على الأريكة، وتبين لويلي أن جوزيف كان متوعكاً. من تحت الأريكة، شبه مغطى كله بالملاءات المتدلية، كان يمكن رؤية

ذراعٍ مِبْوَلة. وتحت رأس جوزيف تماماً كان هناك كوب من التنك، لعله كان علبةَ للّبن المعلب ثم لُحِمَ عليه مقبض تنكي - مِبْصَقة.

استقامَ جوزيف مُظْهِراً نفسه لويلي من جديد بعد أن لاحظ القلق البادي على وجه ويلي. ثم قال: «إن وضعي ليس بالسوء الذي يبدو عليه. ها أنت ترى أنني أستطيع الوقوف والتحرك. لكنني لا أستطيع السير لأكثر من مئة ياردة يومياً. هذا ليس بالكثير. لذلك عليَّ أن أدّخر نفسي، حتى في محاضراتي الجامعية. بالطبع، بوجود سيارة أو كرسي يكون بإمكانك الحصول على حياة عادية. غير أنك شاهدت مساكننا. وعندما أكون في المنزل أكون في أشد حالات استيائي. إن كل رحلة إلى المرحاض تُكلفني جزءاً قيِّماً من مؤونتي للطاقة. وعندما تُستنفد تُكوِّنُ آلاماً مبرحة في مكانٍ ما قريب من عمودي الفقري. هذه المشكلة عانيت منها سابقاً وعندها أجروا لي علاجاً معيناً. يقولون لي الآن أن هذا ممكن علاجه، غير أنني عندئذ سوف أفقد الإحساس بالتوازن. كل يوم أقوم بإجراء مقارنة وقياس هذين الأمرين أحدهما مقابل الآخر. حين استلقي أكون على ما يرام وهذا جيد، أخبروني أن ثمة أناساً كحالتي لا يعرفون الراحة لا في جلوسهم ولا في استلقائهم ويتعين عليهم عدم التوقف عن الحركة. لا أستطيع تصور مثل هكذا إنسان».

بدأت آلام ويلي تعاوده. لكنه فكّرَ أن يقدم تعريفاً عن نفسه. وعندما هم بالكلام أومأ جوزيف بيديه الاثنتين التي فهم منها أن عليه الصمت. فتوقف عن الكلام.

قال جوزيف: «هل تظن أن بإمكاننا مقارنة هذا البلد بإفريقيا؟».

فكّرَ ويلي ولم يتمكن من الإجابة. ثم قال بعد قليل: «كنت باستمرار متعاطفاً مع الأفارقة، غير أنني كنت أراهم من الخارج وحسب. فعلياً لم أكتشفهم أبداً. لطالما رأيت إفريقيا بعيون المستعمرين. كانوا هم من عشت برفقتهم. ثم انتهت فجأة كل تلك الحياة. كانت إفريقيا بأكملها تحيط بنا، ويتعين علينا جميعاً الفرار».

قال جوزيف: «حين كنت في إنكلترا قمت بوضع دراسة حول الحكومة البدائية من أجل نيل شهادتي الجامعة، بعد الحرب مباشرة، في عهد مارتن لينغسلي ورجل *الدولة الجديد*، وأشخاص من أمثال جواد ولاسكي. بالطبع، لم تكن تسميتها آنذاك: الحكومة البدائية. لقد أحببتها، الكاباكاس والموغابيس والأموكاماس وجميع الرؤساء والملوك. أحببت الشعائر والدين وقداسة الطبل عندهم، وأمور جمة أخرى لم أكن أعرف شيئاً عنها. ليس من السهل أن أتذكر. كان موقفي شبيهاً بموقفك تجاه ذلك، موقفاً استعمارياً. ولكنها النقطة التي عندها علينا جميعاً أن نبدأ. المستعمرون هم من اكتشفوا إفريقيا وأخبرونا عنها. فكرتُ فيها كأجمةٍ وأرضٍ مشاعيةٍ مفتوحةٍ أمام أي كان. لزمني زمن طويل لكي أدرك أنك عندما تدخل مقاطعة أحدهم في إفريقيا عليك أن تدفع رسوماً مقابل ذلك، كما في أي مكان آخر. قالوا عنهم إنهم بدائيون، لكنني أظن أن في ذلك تكمن أفضلية الأفارقة علينا. إنهم يدركون من هم. أما نحن فلا، تسمع كثيراً من الكلام هنا حول الثقافة القديمة وأشياء من هذا القبيل، غير أنك عندما تسألهم تجدهم لا يملكون الإجابة عمّا يعني هذا».

تأمّلَ ويلي، المتثاقل من النعاس، المرأة في المطبخ. لاحظ أنها لم تكن تجلس مباشرة على الأرضية الحجرية، كما كان قد ظن، بل على مقعد ضيقٍ وواطئ جداً، ليس أعلى من أربعة إنشات عن الأرضية. وكانت تغطيه بلحمها وملابسها المهدلة بالكامل تقريباً. ورأسها غطته تماماً إذ إن ويلي كان يعتبر زائراً. كانت منهمكة فيما تعجنه داخل طشت بطلاءٍ أزرق. في قفاها ووضعها كان ثمة ما يشير إلى أنها كانت تنصِتُ لكل ما يقال.

قال جوزيف: «إننا نعيش هنا في واحد من أكثر الأماكن بؤساً في العالم. أشد بؤساً وحزناً بعشرين مرة مما رأيتَه في إفريقيا. في إفريقيا كان الماضي الاستعماري مرمياً أمامك بحيث يمكنك رؤيته. هنا أنت عاجز عن الشروع في فهم الماضي، وإذا حدث وتعرّفتَ إليه تتمنى لو أنك لم تفعل».

تفَحَّصَ ويلي، مُكابداً النعاس والألم المتأتي من كونه استيقظ فجأة، قفا

السيدة المقعية وفكر: «هذا ما قالته لي ساروجيني سابقا في برلين. لقد سمعت هذا من قبل. اعتادتْ على الاعتقاد باستمرار أنها كانت تُحفِّزني. وأنا احترمتها من أجل ذلك، غير أنني لم أكن أصدق سوى نصف الأمور المريعة التي كانت تتلوها على مسامعي. لا بد أنه الأسلوب الذي يقومون به بهذا النشاط، مع ذلك ينبغي عليَّ أن لا أسمح لهذا الرجل أن يهزني».

ولثانية أو اثنتين كبا كبوةً إلى الوراء.

لا بد أن جوزيف لاحظ ذلك. لأن ويلي فكر، عندما استفاق ثانية، أن جوزيف الذي كان مايزال بجانب أريكته، فَقَدَ شيئاً من حيويته وهيئته السابقة وكان يكافح للتركيز بشق النفس.

قال جوزيف: «أرض الهند كلها أرض مقدسة. لكننا هنا في أرض أكثر خصوصية في قدسيتها. في موقعٍ آخرِ أعظمِ الممالك الهندية، وكان هو موقع الكارثة، منذ أربعمئة سنة خَلَتْ هاجمه المسلمون؛ دخلوه ثم دمروه. أمضوا أسابيعَ وربما أشهراً يدمرون فيه. سُوِّيَتْ المدينة العاصمية بالأرض. كانت مدينة ثَرِيَّةً ومشهورة، ومعروفة من قِبل أوائل المسافرين الأوروبيين. قُتِلَ رجال دينٍ، وفلاسفة، وحرفيون، ومعماريون، وتلامذة، وقُطِعتْ رؤوسٌ. الوحيدون الذين تُركوا هم العبيد، وسرعان ما قسموهم فيما بينهم. كانت هزيمة عسكرية مُروّعة. لن تتصوّرَ إلى أية درجة ظفر المنتصرون وخسر الخاسرون. كانت حرباً لا قواعد ولا حدود لها، وقد نجحتْ إلى درجةٍ كبيرةٍ. لم يكن هناك من مقاومة. أما الأقنان العاملون في القرى فقاموا بحماية أنفسهم. كانوا ينتمون لعدة فئات اجتماعية دنيا، وليس هناك من كره طائفي أعظم من ذلك الذي تكنّهُ الطوائف الدنيا تجاه بعضها البعض، طائفة في مواجهة طائفة. طاف البعض أمام وخلف أحصنة أسيادهم. البعض قام بالكنس والتنظيف. آخرون عملوا على حفر القبور. قدم البعض نساءهم. أشاروا جميعاً إلى أنفسهم على أنهم عبيد. عانوا جميعهم من سوء التغذية. وفي هذا كان ثمة حكمة. في الأزمنة الماضية كان يقال إنك إن أطعمت العبد جيداً فسوف ينهشك».

قال ويلي: «أخبرتني أختي بذلك».

قال جوزيف: «من تكون أختك هذه؟».

سحب ويلي كلامه. في تلك اللحظة فهم سبب عجز جوزيف عن الادعاء بمعرفته الكثير من الأمور. قال له: «هي تعمل في التلفزيون في برلين».

«أوه. راحوا يدفعون الضريبة تلو الأخرى. كان هناك أربعون نوعاً من الضرائب. بعد أربعمئة سنة من هذا الحكم ترعرع البشر ليقنعوا أن هذا كان قدرهم الأبدي. كانوا عبيداً ونكِرات. لا أريد الشروع والإقدام على ذكر الأسماء، لكن هذا كان هو الأصل الأساسي لفقرنا الهندي المقدس، الفقر الذي تستطيع الهند تقديمه للعالم بأسره. وكان هناك أيضاً شيء آخر. بعد ثلاثين عاماً من تقويض وإفناء آخر الممالك الهندية أقام المدمرون بوابة كبيرة للنصر. بوابة النصر تلك هي الآن موقع للإرث الهندي. غرقت المدينة الهندية المُدَمَّرة في النسيان. تكون الهزيمة رهيبة في بعض الأحيان. لا بد أنك تظن أن قادة الشعب المهزوم قد شُنقوا مع عائلاتهم وأن أجسادهم تُركت لتتعرى حتى العظام. لو حدث ذلك لكان نوعاً من الكفارة، وبداية لشيء جديد تماماً. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وتُرِكَ لبعض الناس الأكثر بساطة أن يضعوا معيار الثورة».

فُتِحَ باب الشقة ودخل رجل أسمر بطول جوزيف تقريباً. كان له مظهر رياضي؛ كتفان عريضان، وخصر وورك ضيقان.

جلس جوزيف على الأريكة ثم قال: «تعتقد الحكومة أنني القائد الذي يهتف لحرب العصابات. حسناً، أنا هو. ليس هناك ما هو أحب لقلبي من رؤيتي للثورة وهي تكنس كل شيء وترميه إلى الهاوية. إن إمعان التفكير في هذا يدفع قلبي للإشراق».

كانت أصوات وروائح الطبخ تنبعث من المطبخ، مُربكة ويلي بسبب التابوات القديمة التي اعتقَدَ أنه هجرها. وضعية المرأة بدَّلَتْها بيسر.

قال جوزيف: «هذا صهري. إنه يجري بحثاً لصالح شركة أدوية».

أدار الرجل الأسمر ذو البنية الرياضية، والجسد المعتنى فيه بحرص، وجهه بأكمله للمرة الأولى تجاه ويلي. كان هناك مَيَلان غريب من المتعة في شفتيه: من الواضح أن فكرة امتلاكه لمهاراتٍ مهنيةٍ معروفةٍ لحد بعيد من قبل أحد الغرباء قد راقت له. غير أن عينيه، بالبقع الحمراء في زواياهما، كانتا مليئتين بمستوى مناقضٍ من البغض.

قال: «لكن حالما يدرِكون أنه لا يمكن المساس بك يمتنعون عن القيام بأي شيء معك».

كانت هناك أيضاً كلمات أكثر رصانة ربما استعملها، كلمات قانونية، دينية، كلمات عن مواقفه السياسية. لكن الغضب، والإهانة والغرور المتناهيان، التي جعلته يبدي ابتسامة جانبية غير طوعية بينما كان جوزيف يُقدّمَهُ، هذه كلها دفعته لاستخدام كلمة قديمة وقاسية. ليست كلمة للإشفاق الذاتي بقدر ما هي شكل من أشكال التهديد للعالم الخارجي.

فكّرَ ويلي: «انتصر هذا الرجل في ثورته، مهما يكن ما يتفوه به. لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنهم مايزالون هنا يقاتلون في هذه الحرب. لا أظن أنني سأكون قادراً على التقدم برفقته. آمل أن لا يكون هناك الكثير منهم على هذه الشاكلة».

أخذ الرجل بحضوره الرياضي يختال ويتبجح ـ كما بدا لويلي ـ عبر أحد المخارج في نهاية غرفة الجلوس. كان جوزيف متأثراً بشكل ملحوظ. بدا كأنه فَقَدَ للحظة تدفق كلماته. من الداخل كان يُسمعُ صوت تدفق ماء المغسلة. أضحى ويلي مقتنعاً أن الثورة قامت، داخل حياة جوزيف الأسرية البسيطة، وداخل الشقة الإسمنتية الخربة ذات الكابلات الظاهرة للعيان، ومن خلال ابنة جوزيف المتوارية عن الأنظار، حتى الآن بنوع من الأذى والإساءة غير المعترف بهما.

قال جوزيف: «أجل لا شيء أحبَ إلى قلبي من رؤية الثورة وهي تكنس كل شيء وترمي به إلى الهاوية».

توقّفَ كما لو أن شعوراً اعتراه يتعلق بمكانه في الحجرة. تناول مِبصقة التنك من تحت الأريكة. كان المقبض المصنوع من قطعة رقيقة من التنك، معقوفاً على نحوٍ متقنٍ: عملُ شخصٍ محترفٍ. تمَّ ثني حافة السلخة القصديرية إلى الوراء على نفسها ثم لُحِمت بُغْيَة التخلص من حوافها الحادة؛ وكانت الأطراف الثخينة وغير المنتظمة قد صُقِلت من كثرة القبض عليها. أمسك بالكوب للحظة وهو يفرك حافة المقبض بإبهامه، مايزال مأخوذاً بشعوره بمكانه في الحجرة وما أربك هذا الشعور هو دخول صهره.

في النهاية قال: «لكنني في الوقت ذاته لا أؤمن بالمادية الإنسانية التي أوجدناها بعد قرون من العبودية. انظرْ إلى هذا الكرسي الخاص بالفتاة، خادمتنا».

نظرَ ويلي نحو شخص أحدب ضئيل جداً خرج من المطبخ إلى غرفة الجلوس وكانت تتجول على وركيها. بضع إنشات كل مرة، وهي تدفع بمكنستها دفعات ناعمة على الأرضية، مخلفة إيماءات متناهية الصغر. كانت ملابسها داكنة وذات ألوان معتكرة؛ شبيهه بالملابس العسكرية المموهة، تحجب لون بشرتها، وتحجب سماتها، ناكرةً عليها شخصيتها. كانت شبيهه بنسخة عن عاملة التنظيف التي رآها ويلي قبل أيام في المطار.

قال جوزيف: «جاءت من إحدى القرى. واحدة من تلك القرى التي كنتُ أحدثك عنها، حيث الناس يجْرُونَ حفاة أمام ووراء حصان السيد الأجنبي ولا يُسمح لأحد أن يغطي فخذيه في حضرة السيد. هي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. لا أحد يدري، ولا هي تدري، إن قريتها مليئة باؤلئك الذين على شاكلتها، صغار جداً، وشديدي النحافة. شعب الكريكيت، وأعواد الثقاب. عقولهم اضمحلت بعد قرون من سوء التغذية. هل تظن أن بإمكانك القيام بأية ثورة معها؟ هذا ما يعتقده كاندابالي، وأتمنى

لو يكون مُحِقاً. لكنني، إلى حد ما، لا أظن أن هذا ما كنتَ ترجوه بعد إفريقيا وبرلين».

قال ويلي: «ليس لديَّ توقع لأي شيء».

«حين يتحدث الناس هنا عن حرب العصابات فإنهم يقصدون بشراً من شاكلتها. هي لا تشد انتباهاً أو تثير أحداً. ليست تشي غيفارا، والرجال الأقوياء يخدمون في السخرة العسكرية. في كل طابق أو شقة في هذه المنطقة ثمة واحدة لا حول لها ولا قوة آتية من إحدى القرى، وسيقولون لك إن كل شيء على ما يرام، وهذه الفتاة سوف تَسمنُ بعد حين. لقد اندحر الأسياد القدماء. نحن الآن الأسياد الجدد. إن من لا يملكون المعرفة بكيفية جريان الأمور سوف ينظرون إليها ويتحدثون عن وحشية الطوائف الهندية. في الحقيقة نحن ننظر إلى وحشية التاريخ. والأمر الأشد رهبة هو أنه لا يمكن الانتقام منه. لقد أوقع الأسياد القدماء الظلم والاضطهاد والإهانة على مدى قرون. لا أحد مَسّهم. ها هم الآن أزيحوا. غادروا باتجاه البلدات، والبلاد الأجنبية. وخلّفوا وراءهم هؤلاء البائسين كذكرى ونصب تذكاري لهم. هذا ما عنيته حين قلت لك إنك لا تملك أدنى فكرة إلى أية درجة ظفر المنتصرون وخسر الخاسرون. وكل هذا غير واضح. لدى مقارنتك لهذا بإفريقيا سوف تقول إن إفريقيا كلها وضوح وإشراق».

أخذتْ روائح الطعام تصبح أقوى، مَالئةً ويلي بالتابَوات القديمة، وداعمة إياه بفكرةِ الشقاء الموجود في الشقة الصغيرة للثوري، حيث كانت الفتاة حتى الآن نوعاً من التضحية. لم يكن راغباً أن يُطْلَبَ منه البقاء. وأخذ ينوي النهوض.

قال جوزيف: «أنتَ تنزل في الريفيرا. ربما لم تشغل ذهنك كثيراً في التفكير بالفندق. لكن الناس هنا ينظرون إلى الفندق على أنه يمثل الطبقة العليا والعالميّةَ أيضاً. إن أياً من الذين نهتم بهم لن يأتي لرؤيتك هناك. وجودهم في الفندق يُعرّضهم للانكشاف إلى حد بعيد. ثمة مكان هندي دُعِيَ «نيو أناند

بهافان»، المقر الجديد للسلام، تيمناً بمنزل عائلة نهرو. في هذا البلد كل اسم يبدأ بـ نيو كذا أو نيو كذا. وهو مكان على الطراز الحديث. مكان هندي غير تقليدي، فيه مقعد مرحاض ودلو حمام. إذا بقيت فيه لمدة أسبوع فسيتلقى جميع من تهتم لأمرهم العلمَ بوجودك هناك».

هبط ويلي بالمصعد الصاخب القديم. كان الليل على وشك الهبوط. الغبار معلق في ضوء الشمس الذهبي. والأطفال اللامبالون ما زالوا يلعبون ويزعقون وسط تلال التراب والغبار في الساحة، وأصوات النساء القانعات ماتزال تُوَبّخ. ومنذ بعض الوقت وحسب كان كل شيء يبدو له متجرداً، مكتظاً ويائساً. الآن، وبعد رؤيته للمرة الثانية، أصبح كما لو أنه مشهد مألوف، وقد أَدخلَ هذا الأمر البهجة في صدره.

فكّرَ: «لن تكون الأمور سهلة أبداً، ما أقوم به».

* * *

ما يزال الألم الناتج عن نومه المقطوع قابعاً في عظامه، وفي رأسه. غير أن النعاس المعهود غادرهُ. مضى يسير في البازار، الأضواء تنبعث من كل مكان حوله، باحثاً عن طعام مطبوخ يجده ويكون أكثر بساطة وأماناً وأقل ثمناً. فعلياً لم يكن في هذه الأثناء جائعاً، لكنها رغبته في ممارسة، متى استطاع، ما فكّرَ فيه كنوع من اليوغا الجديدة في عيش الحياة يوماً بيوم، حيث يتوجب أن يُعادَ حساب كل حركة أو حاجة، ويختزل إلى ما كان الأكثر أساسية. ذُهِلَ من طول المسافة التي قطعها، وقابليته الهائلة للتكيُّف. منذ سنة أو أقل كانت هناك ـ بعد إشراقات الحياة في إفريقيا ووفرة الزمن الاستعماري ـ حالة الحرمان وحياة المعسكر، وظروف الحصار في إفريقيا إلى مشارف نهاية الحرب تقريباً. قبل أيام قليلةٍ وحسب كان هناك كل صخب وترف برلين الغربية. ومنذ دقائق فائتة كان هناك الاسترخاء المقارن ومطبخ جوزيف المُرتّب. وها هو الآن هنا، تحت الأضواء الخافتة المضطربة للبازار والمِشعلِ ذي الدخان والمصباح الإعصاري ومصباح اللكس، ينظرُ مستثاراً وباحثاً عما يمكنه أن يقتات به،

متمنياً أن يمضي في إرضاء حاجاته عميقاً بل إلى القاع. عرفَ بعد قليل، حين وجد نفسه في الأحراج أو أطراف المدينة، أن مثل هذا البازار سوف يكون ترَفاً مستحيلاً. لا بد أنه ستكون هناك أطعمة أخرى، وأيام أخرى من التقشف: عليه الاستعداد لها عندما تأتي. قبل الآن كان في تكوينه العقلي نوعاً من الزاهدين، بل متلمس تقريباً. لم يكن قد عرفَ يوماً شعوراً كهذا من قبل - في أسوأ الأيام كانت إفريقيا على النقيض من هذا، كانت تعاني وحدها ـ وهذا ما جعله يشعر بالدوار.

انفقَ بنساً أو نحوه على صحن من الحُمّص بالبهارات. كان غُليَ على مدى ساعات، وسيكون آمناً. تمَّ تقديمه له في طاسة ورقية، والطاسة صُنعتْ من ورقة جافة ضُمّتْ إلى بعضها مع قِطع من الغصن. لقد حرقت حبات الحمص لسانه، لكنه أكل بتلذذ، مستسلماً لبساطته الجديدة. عاد إلى الريفيرا وسرعان ما أعاده دفء معدته إلى نومه المقطوع.

توجّهَ في اليوم التالي إلى «نيو أناند بهافان»، وما جاء بعد ليلته النشطة في الريفيرا كانت الأيام الأشد تعذيباً والأكثر فراغاً التي عرفها في حياته على الإطلاق، أيام من الانتظار في غرفة شبه خاوية إلّا من رائحة البالوعة الواخزة في انتظار أشخاص مجهولين سيأتون ويمضون به إلى قَدَرِه. كانت الجدران ذات ألوان مبرقشة غريبة، كما لو أنها تشربت جميع أصناف السوائل القذرة؛ تحت حصيرة جوز الهند انتشر الغبار حتى سماكة ربع إنش تقريباً؛ والمصباح السقفي بالكاد يبعث الضوء. في البداية، ظن أن عليه البقاء في الغرفة على الدوام منتظراً شخصاً على وشك أن يأتي إليه. كان ذلك لاحقاً فقط عندما فكر أن ذلك الشخص يمتلك كل الوقت وهو الآن يتم تحضيره من أجل الانتظار. هكذا، أخذ يجوس في أطراف المدينة، ووجد نفسه ذاهباً مع العديد من البشر الآخرين إلى محطة سكة الحديد، في سبيل بلوغ الإثارة التي تخلفها القطارات والحشود، والنداءات العالية للباعة المتجولين وعواء الكلاب المجروحة أو المضروبة.

وجدَ في إحدى الأمسيات على رصيف المحطة كرسياً دوَّاراً صغيراً من

وفي ذات يوم وصل الرسول. كان شاباً صغيراً، صبي تقريباً. وقد ارتدى الزي المحلي من المئزر وقميص ذي ذيل طويل.

قال لويلي: «سأعود إليك في غضون سبعة أيام. عليَّ إيجاد بعض الآخرين».

قال ويلي: «ما الملابس التي عليَّ ارتداؤها؟».

يبدو أن الرسول لم يفهم، فقال: «ما الملابس التي بحوزتك؟». لعله صبي يدرس في إحدى الكليات. توجه ويلي بالحديث إليه على هذا الأساس وقال له: «ما الأفضل بالنسبة لي؟ هل عليَّ انتعال حذاء قماشي، أم السير حافياً؟».

«لو سمحت لا تسر وأنت حافي القدمين. هذا سيكون كالبحث عن المتاعب. ثمة فوق الأرض عقاربَ وكثيرٌ من الأشياء الخطيرة. ينتعل السكان المحليون في العادة خفاً من جلد الثور».

«وماذا فيما يتعلق بالطعام؟ عليك إخباري ما ينبغي عليَّ تناوله».

«خذ الساتو. إنها نوع من الحبوب المحمصة والمطحونة، يمكنك شراؤها من البازار. عادة تكون ناعمة مثل حبيبات الرمل عندما تجف. امزجها حين تكون جائعاً بالقليل من الماء. كمية قليلة منه أي ما يكفي لترطيبها وحسب. إنها مستساغة، وهي تدوم. ما يتناوله الناس أثناء سفرهم. الشيء الآخر الذي أريد منك اصطحابه معك هو منشفةٌ أو شالٌ محليان، الجميع هنا يحملون المنشفة. وتكون بطول أربعة أو خمسة أقدام، وأطرافها مشرشبة، وعرضها حوالي قدمين. يمكنك لفّها حول عنقك أو فوق كتفيك. هذه القطعة رقيقة ومفيدة. تستطيع استعمالها لتنشيف نفسك بعد الحمّام، وهي تجف بسرعة خلال عشرين دقيقة فقط. سوف آتيك خلال سبعة أيام. وفي هذه الأثناء سوف أنقل أنني وجدتك».

توجّهَ ويلي إلى البازار واشترى ساتو. لم يكن الأمر بالبساطة التي توقعها، فقد كان هناك عدة أصناف منه، ومُكوّنة من حبوب متنوعة.

النمط الأمريكي القديم جداً، جامداً ومهملاً وقذراً يبدو كأنه أقحمَ نفسه داخل الأغلفة اللّماعة، أكثر شبهاً بتلك البضائع الكهربائية القديمة التي تنتقل في مناسبة ما إلى مخازن التجار في إفريقيا، عليه وريقات تعليمات مُصفَرَّة بفعل تقادم الزمن. لم يكن يريد لأي شيء أن يُذكِّره بالعالم الذي ارتدَّ عنه. تابع الرفض تلو الرفض، ثم في النهاية وقع على كتابين بدا أنهما وافقا حاجته. أحدهما من الخمسينيات 1950s أو الستينيات 1960s عن هارليم، «العالم البارد»، رواية مكتوبة بصيغة المفرد الأول. وكتاب حول عائلة إنكا في البيرو، «التعليقات الملكية»، وقد كتبه أحد الرجال الذي ينتمي جزئياً لعائلة إنكا الملكية. غبط ويلي نفسه ولم يستطع أن يُصدّقَ حظه.

أعطوهُ في الـ «نيو أناند بهافان» صندوق مصباح إعصاري لكي يقرأ على ضوئه. كان يُفضِّل الشموع، بسبب رومانسيتها القديمة الطراز؛ غير أن الشموع لم تكن متوفرة عندهم. ومن ثم، كما في السابق حين حاول قراءة كتب الرياضيات، أخذَ يتخبطُ ويتوه. كانت «التعليقات الملكية» تتطلب دراية من ذلك النوع الذي لا يملكه ويلي؛ سرعان ما أصبحت شيئاً مجرداً. وكان «العالم البارد» ببساطة يتحدث عن أرض بعيدة وحياة أخرى، أمريكي جداً، ونيويوركي جداً، مليء بالتلميحات التي عجز عن ملاحقتها.

فكَّرَ ويلي: «عليَّ أن أفهم الآن، في هذه المغامرة، أن الكتب إن هي إلّا محض خداع. ينبغي عليَّ الاعتماد على مصادري الخاصة».

لم يغد الأمر أكثر سهولة له في الـ «نيو أناند بهافان». بدأ عندئذ بطريقة واعية التركيز على يوغا الساعة بساعة، وهو يراقب كل ساعة تمر، وكل فعلٍ على أنه تحدٍ وأمر مهم. يجب أن لا يتم إهدار أي جزء من الزمن. كل شيء ينبغي أن يكون جزءاً من سلوكه في الانضباط والمعرفة. في ظل هذا الانضباط الجديد وجبَ عليه نبذ أي فكرة حول انتظار الأحداث الخارجية.

عاش بشكل مكثف؛ غدا مستغرقاً في ذاته. وجد أنه قد بدأ التعاطي مع الزمن.

فكَّرَ ويلي، في مزاجه الجديد: «أي جوٍّ هذا، وأي جَمال».

بعد سبعة أيام عاد إليه صبي الكلية، وقال له: «لقد جعلني أولئك الرفاق الآخرون أهدر الكثير من الزمن. فعلياً لم يكن اهتمامهم واضحاً، كانوا يتكلمون ليس إلّا. أحدهم كان ولداً وحيداً، ولديه ولاء أكبر للعائلة. الآخر يحب الحياة الممتعة وحسب».

في المساء ذهبا إلى محطة السكك الحديدية، وهناك استقلا القطار العابر. كان القطار العابر بطيئاً، ويتوقف في جميع المحطات. وفي كل محطة كانت هناك فوضى بشرٍ ولغطٍ وأصوات تدافع واقتحام تعلو في تذمر واحتجاج أو لعلها تعلو فقط لتعبر عن شكلانية هذا المكان. في كل محطة كان هناك غبار ورائحة تبغ قديم وثياب قديمة وعرق قديم؛ نام التلميذ في معظمها. فكَّرَ ويلي في البداية: «سآخذ دوشاً في ختام هذه الرحلة». ومن ثم فكَّرَ أنه لن يفعل: هذه الرغبة التي تنتابه من ساعة لأخرى بالنظافة والرفاهية تنتمي لنمط آخر من الحياة، وأسلوب آخر من التجريب. من الأفضل ترك الغبار والأوساخ تستوطن على جسده.

سافرا طوال الليل، غير أن القطار فعلياً لم يغط سوى بقعة صغيرة في مسيره. ومع بزوغ النور المشع للصباح غادر الصبي ويلي قائلاً: «سوف يأتي أحدهم إليك هنا».

خلف الأبواب الفاصلة والجدران السميكة كانت غرفة الانتظار مثيرة للكآبة. كان البشر، المتلفعون من رؤوسهم حتى أصابع أقدامهم بالبطانيات والشراشف الباهتة القذرة، ينامون فوق المقاعد وعلى الأرضية. في الرابعة بعد الظهر وصل رسول ويلي الثاني، رجل طويل نحيف وأسمر في مئزر محلي من نوع جنهام، ثم بدأا المسير.

فكَّرَ ويلي بعد ساعة: «لم أعد أعلم أين أنا. لا أظن أنني سأتمكن من اقتفاء أثر درب عودتي. إنني الآن بين أيديهم».

كانا الآن بعيدين جداً عن بلدة سكة الحديد، بعيداً عن أي شكل من

أشكال المدينة، في عمق الريف والظلام يطبق على المكان. بلغا إحدى القرى. وحتى وسط الظلام، استطاع رؤية الأفاريز المزخرفة لسقوف منازل عائلات القرية المهمة. كانت القرية تجمُّعاً من المنازل والأكواخ، إما جنباً إلى جنب أو ظهراً لظهر مع ممرات زاوية ضيقة. سارا مارّين بجميع المنازل الفخمة إلى أن وصلا الطرف، عند كوخ سقفه من القش. كان مالكه متشرداً وشديد السمرة. واحد من شعب الكريكيت الذين كان جوزيف أشار إليهم، لقد أوجدته قرون من العبودية والاضطهاد وسوء التغذية. لم يعره ويلي وداً خاصاً. كان سقف كوخه فوضوياً وغير مُنمّق. مساحته حوالي عشرة أقدام بعشرة أقدام. نصفه حيّز للمعيشة ولغسيل الأشياء؛ والنصف الباقي، بشيء كالعلّية، كان مخصصاً لنوم الأبقار والدجاج بقدر ما هو لنوم البشر.

فكَّرَ ويلي: «ها أنا الآن في الطبيعة الصّرفة. سوف أقوم في الأدغال بكل ما يتوجب عليَّ القيام به».

تناولوا فيما بعد طعاماً يشبه عصيدة الرز، كثيف ومالح.

فكَّرَ ويلي: «إنهم يعيشون على هذه الحالة منذ قرون. لم أكن أزاول يوغايَ، إذا جاز التعبير، إلّا على مدى عدة أيام فأصبحت ممسوساً بسببها. هم يزاولون نموذجاً عميقاً من اليوغا، كل يوم وعلى كل وجبة طعام. تلك اليوغا هي حياتهم. بالطبع مرت عليهم أيام لم يكن لديهم ما يأكلونه على الإطلاق، ولا حتى هذه العصيدة. أرجوك، امنحني القدرة على احتمال كل ما أشاهده».

وللمرة الأولى في حياته نام ويلي بجسده المتسخ. طوال اليوم التالي، استراح ويلي ودليله في الكوخ فيما خرج المالك ليقضي أشغاله. ومن جديد، في فترة ما بعد الظهر التالي، استأنفا المسير. عرّجا مع هبوط المساء على قرية أخرى وأمضيا الليل، ومن جديد، بين الدجاجات والبقرة. تناولا قشارة الرز، بلا شاي ولا قهوة ولا أي من المشروبات الساخنة. والماء الذي شربوه كان قذراً جُلِبَ من ساقية مُوحلة.

بعد يومين، خلّفا الحقول والقرى وراءهما ودخلا في أحراج السَّاج. وصلا، عبر الاهتداء بتلك الليلة المقمرة، إلى فُرجةٍ في الغابة. كانت هناك خِيَمٌ واطئة من البلاستيك ذات لون زيتي على محيط المنطقة الخالية من الأشجار. ولم يكن ثمة من أضواء ولا نار مشتعلة. كانت الظلال تحت ضوء القمر سوداء حادة.

قال دليل ويلي: «لا كلام، لا أسئلة».

أكلا جيداً في ذلك المساء؛ فول سوداني ورز مقشور مع لحم بري. في الصباح تعرّفَ ويلي إلى رفاقه. لم يكونوا شبّاناً؛ كانوا رجالاً قادمين من المدن، أناس لا بد أن لكل منهم مُبرّره الخاص لأن يهجرَ حياة العمل اليومي ويلتحق برجال العصابات.

أثناء النهار، فكَّرَ ويلي: «رعية كاندابالي صاحب نظرية الخط الكلي. كان كاندابالي يتمنى أن يقاتل الفقراء والقرويون في معاركهم الخاصة. لا أجد أنني وسط فقراء أو قرويين في هذا المعسكر. ثمة خطأ ما. لم أسقط بين المجموعة الصحيحة. لقد جئت إلى الثورة الخاطئة. لا تروقني هذه الوجوه. ومع ذلك أنا مجبرٌ على التواجد معهم. يتعين عليَّ إرسال رسالة إلى ساروجيني أو إلى جوزيف. لكنني لا أعرف الوسيلة. إنني واقع في قبضة هؤلاء الناس كلياً».

بعد ليلتين تقدم منه أحد الرجال بشخصية صارمة وبدلة عسكرية ثم قال له: «أنت أيها القادم من إفريقيا، سوف تقوم بواجب الحراسة».

في تلك الليلة بكى ويلي، غضباً ورهبة. وفي البعيد ملأه نداء الطاووس، بعد أن كان قد شرب من مستنقع غابته، بالأسى على حال العالم بأسره.

3

شارع الدباغين

كان هناك حوالي أربعين أو خمسين شخصاً في المعسكر. تجوس الكلمة في المكان، تنتقل بسرعة من قادم إلى آخر وتنبئ أن هناك عشرة بل حتى عشرين معسكراً كهذا في المناطق المحررة، المناطق التي يسيطر عليها رجال العصابات. يشيع هذا الثقة في النفوس، لا بل يجلب شيئاً من الخيلاء والزهو لدى المجندين الجدد، خاصة بعد أن يستلموا بدلاتهم الزيتية. وهذا ما حدث له في اليوم الرابع، في مكان ما، إذ عاد ويلي بذاكرته متفكراً فيما كان سَمِعَهُ ذات يوم من رجال العصابات في إفريقيا من أن أحد بائعي الأقمشة رغب في تقديم مساهمته إلى الحركة من هذه الأقمشة الزيتية الرخيصة التي لا تتمتع بالجودة؛ ثم طلب من أحد خياطي القرى تفصيل وخياطة هذه الأقمشة بطريقة غير مُتقنة. وأما القبعة القماشية ذات الحواف الحادة فتأتي مع البدلة؛ وكان ثمة فوق مقدمة القبعة مباشرة نجمة من الساتان الأحمر. كلتاهما القبعة مع البدلة تنطقان بشكل مسرحي، تصلان بشكل مفاجئ واعتباطي لأربعين أو خمسين شخصاً؛ وهما، إضافة، تنطقان بإعادة توكيد للمنظمة؛ وتمنح الجميع بسهولة هوية جديدة واقية.

كان المعسكرُ معسكراً للتدريب. يوقظ الحراس بعضهم البعض، من دون أية كلمة أو صوت، واحداً بواحد حين يكون الظلام مايزال مُخيّماً. القاعدة الأساسية التي يسير عليها المعسكر هي أنه يُمنعُ إصدار أي صوت أو استخدام

الضوء في الليل. بعد ذلكَ تتناهى نداءات الطاووس وطيور الأحراج الأخرى الضاجة. على بعد ميلٍ على الأقل، أصدر أحد الطيور بشكل مختلف نداء حادّاً مُصوّتاً ويائساً من التحذير لدى ظنه أن أحد اللصوص المفترسين أصبح قريباً جداً من بيوضه. عند السادسة تقريباً تكون ساعة التفقُّد. وعلى مدى ثلاث ساعات كانوا يهرولون ويؤدون التمارين الرياضية، وفي بعض الأحيان كانوا يزحفون على الأرض وهم يحملون البنادق في أيديهم. يتناولون على وجبة الإفطار الفول السوداني والرز المقشور. وبعد الإفطار محاضرة حول تكتيكات حرب العصابات. وحين يكونون في الأحراج لم يكونوا يصدرون أي صوت؛ كانوا يتواصلون عبر نداءات الطيور، وهذا كان يتطلب تدريباً طويلاً على أصوات الطيور هذه. كانوا جميعاً شديدي الجدية؛ لا أحد يضحك عندما يصدرون صفرات الطيور بشكل مفاجئ. يستريحون بعد وجبة الغداء ـ التي ربما تكون غزالاً أو ضفادعَ أو معزاة: إنها لم تكن حركة نباتية ـ حتى منتصف الظهيرة، ومن ثم يشرعون في أداء التدريبات وتنفيذ التمارين على مدى نصف ساعة. بعد ذلك تأتي الفترة الأسوأ: المساء الطويل، إحدى عشرة ساعة طويلة، بغير أضواء أو أحاديث فعلية، يتكلم الجميع في همس وحسب.

فكَّرَ ويلي: «لم أعرف قط سأماً كهذا. منذ مجيئي إلى الهند عرفت هذه الليالي الرهيبة من السأم. أخمن أن هذا نوع من التدريب والصبر على حياة الزهد، لكنني لست أكيداً من غاية كل هذا. عليَّ النظر إليها كحجرة جديدة للتجربة. يجب أن لا أبدي أية إشارة لهؤلاء الناس بأنني لست معهم إطلاقاً».

حين كان في «نيو أناند بهافان» كان أحضر معه بعضاً من أوراق الرسائل المدفوعة الطوابع. في إحدى الظهيرات الحارة، وهو في خيمته البلاستيكية الجائرة، بدأ بكتابة رسالة لساروجيني. كانت تلك هي الساعة

الوحيدة التي يمكنه الكتابة فيها. *عزيزتي ساروجيني، اعتقد أن أمراً مُروّعاً حدث. إنني لست بين أولئك الذين تحدثنا عنهم. لست أدري كيف جرى هذا، لكنني موقن أنني أعيش وسط أعداء كاندابالي*. فكّرَ أنها ستكون رسالة شديدة المباشرة. قام بشطب اسم كاندابالي، ثم قرر أن الكتابة لساروجيني سوف تؤدي إلى نتائج خطيرة جداً. وضع الرسالة جانباً، داخل شيء يشبه الصّرة القماشية كانت سُلمت له، ثم أطلَّ عبر بوابة الخيمة المرفرفة باتجاه النور الأبيض والكئيب لفرجة الأحراج وأرض ساحة التدريب.

فكَّرَ: «هذا النور ينكر كل شيء؛ إنه ينكر الجمال، وينكر الاحتمالية الإنسانية. كانت إفريقيا أكثر لطفاً، كما قال جوزيف. لعلي أمضيت زمناً طويلاً بعيداً من هنا. لكن ينبغي عليَّ عدم إطالة التفكير في هذه الخطوات. المبرر الذي تحادثنا عنه في برلين مايزال فعّالاً وقوياً. أعلم هذا».

يرتكز نظام المعسكر، الذي أملاهُ أحد القادة ـ رجل في الأربعين، يبدو كرجل أعمال أو موظف حكومي، ربما كان عضواً في مجموعة طلاب عسكريين في جامعته ـ على قاعدة وجوب امتناع المجندين عن المبالغة في طرح الأسئلة التي تتعلق بزملائهم. عليهم تقبلهم كمرتدي النجمة الحمراء. أضاع ويلي نفسه في إعمالِ حدسه حول الذين يحيطون به. كانوا جميعاً في أواخر الثلاثينات أو بداية الأربعينات، في مثل عمر ويلي، وكان حائراً أي ضعف وإحباط تسببا في مغادرتهم وهم في منتصف العمر للعالم الخارجي والدخول في هذه الحجرة الغريبة. لقد عاش خارج الهند زمناً طويلاً، فلم يستطع تخمين خلفيات أولئك الذين يعيش بينهم. لم يستطع سوى قراءة وجوههم ولغة أجسادهم: الفم الممتلئ والحسي خلال بعض الأحاديث بنوع من الانحراف الجنسي، والعيون القاسية التي تنظر إلى الآخرين بخبثٍ، والعيون التي توحي بانكسار أصحابها والأخرى التي تشي بحيواتٍ قاسيةٍ وطفولةٍ معذبةٍ ورُشدٍ منهك. ذلك كان كل ما استطاع استشفافه وسط هؤلاء البشر الذين ينشدون بشتى الوسائل الانتقام لأنفسهم من العالم، إنه وسط مجموعة من الغرباء.

في الليلة العاشرة أو الحادية عشرة حدث هرج واضطراب كبيران في لمعسكر. ذُعِرَ الحارس وأخذ يصرخ فامتلأ المعسكر بأكمله بحالة إنذار.

صرخ أحدهم: «الكلاب السلوقية!».

ذلك كان اسم إحدى الفرق الخاصة التي تتصدى لرجال العصابات من سلك الشرطة. لقد استخدموا استراتيجية رجال العصابات: قيلَ إنهم يتميزون بالسرعة والسرية والمباغتة؛ هذه النقاط الثلاث تجعلهم يباغتون ويضربون أولاً. هذه كانت سمعتهم الدعائية الجديدة، على إثر ذلك خرجت مجموعة من المجندين من خِيَمهم البلاستيكية واندفعوا في الأحراج.

كان ذلك إنذاراً كاذباً. ضلَّ أحد الحيوانات طريقه ودخل المعسكر فأثار الهلع عند الحارس.

انسحبوا تدريجياً، بوجوه خَجِلةٍ، كثير منهم كان بالملابس الداخلية ليس إلّا، وغضبٌ مفعمٌ بغيظٍ جديد.

فكَّرَ ويلي: «حتى هذه الليلة كانوا يظنون أنهم الوحيدون الذين يملكون البنادق والتدريب الجيد والانضباط، الوحيدون الذين يعملون وفق برنامج محدد. وقد جعل منهم ذلك الوهم شجعاناً. الآن ها هم يأخذون فكرة عن وجود عدو لهم، وأنهم ليسوا بتلك الشجاعة؛ إنهم وضيعون وحسب. غداً سيكابدون مشاعر اشمئزاز عميقة. عليَّ أن أكون حذراً معهم».

لم يقل القائد أية كلمة في تلك الليلة. كان معنياً فقط في إعادة النظام بأسلوبه الذي لرجل أعمال أو بيروقراطي. ومع غياب الشمس عاد روتين المعسكر إلى ما كان عليه من قبل. فقط بعد الإفطار (الفول السوداني والرز المقشور المعتادين) حين كانت حصة «النظرية العسكرية» على وشك البدء، تحدث القائد إلى المعسكر. عندئذ لم يكن يتحدث كرجل يسعى لتوطيد النظام، وإنما كمن يخاف استشراء حالة هروب جماعي شامل، مع انتشار العنف تدمر المعسكر. كان عارفاً بجمهوره. بدوا متململين في بداية كلامه،

كأناس انكشفوا وعاد استياؤهم الشبيه باستياء الأطفال إلى كينوناتهم المرضوضة، جاهزين للفرار مهرولين خارج ملجئهم والتخلص من بدلاتهم الزيتية والنجمة الحمراء الساتانية على قبعاتهم، التي كانت قبل أيام فقط تبدو وكأنها تخلق حياة جديدة وبالغة اليسر لهم. كانوا في انتظار تلقي التوبيخ، جباهٌ مغضنةٌ، عيونٌ متضيقةٌ وخجلةٌ، شفاهٌ مزمومةٌ ووجناتٌ غائرةٌ: رجال في منتصف العمر يغمرهم استياء الطفولة غير أنهم يملكون القدرة على احتياز حنقِ الراشدين وغيظهم. لم يكونوا ليقاوموا اللوم. وعندما بات من الواضح أن القائد ليس لديه نية في السخرية منهم، عادوا إلى هدوئهم تدريجياً.

فكَّرَ ويلي: «كان كاندابالي مُحقاً. لو كنتُ مهتماً بإقامة ثورة في سبيل المقهورين والمهانين، ولو كنت مثل كاندابالي لاستطعت البكاء ببساطة لمجرد التفكير في أحزان البشر التي لم يثأر لها أحد على مدى قرون، إن هؤلاء هم ليسوا الذين أريدهم برفقتي. سوف أتوجه إلى الفقراء أنفسهم».

قال القائد: «في الليلة الفائتة ارتكب الحارس خطأً وأوقع الهلع فينا جميعاً. لا أعتقد أن اللوم يقع على الحارس، إذ إنه غير معتاد على الأحراج والحيوانات البرية؛ وعلى أية حال كان ذلك عبئاً وُضِعَ على كاهل رجل واحد. منذ الليلة سيكون لدينا خفيران. لكن ما حدث الليلة يظهر لنا كم من المهم بقاؤنا متيقظين. علينا أن نضع في حسابنا باستمرار أن العدو يتربص بنا، وعلينا توقّعه عند كل منعطف أو طريق. يجب استخلاص درسٍ ما من بَلِيَّةٍ عادية على الدوام، وكنتيجة للّيلة الماضية سوف نطور ونزيد من تدريبنا. سوف نحاول على مدى الأيام القادمة أن نجعل الجميع يتآلفون مع الإجراءات الدفاعية الخاصة. ويجب أن تصبح هذه الإجراءات الطبيعة الثانية لكل منا، في أي وقت من النهار أو الليل، وهذا سيخدمنا في حال واجهتنا حالة طوارئ تالية».

في الأسبوع الثاني أو نحوه لم تكن النظرية العسكرية هي عمل صبي الكشافة في الزحف على الأرض حاملاً بندقيته وإصدار صفير الطيور للرجل

الذي أمامه. لقد عملوا على حماية المعسكر. وفي أحد التدريبات قاموا بضرب نطاق حول المعسكر؛ وفي النهاية انتشروا على شكل مروحة واسعة في الجانبين من أجل تحضير المواقع وانتظروا ليكمنوا لأية جماعة مهاجمة.

فكَّرَ ويلي: «ولكن ما الذي سيحدث عندما تندلع المعركة، بعد أن يضرب الطرف الثاني؟ إننا لم نتدرب على ذلك إطلاقاً. هذه مجرد بداية للنظرية العسكرية. وهذا كل شيء. إنهم غير بارعين في الضغط على الزناد إلّا على أولئك الذين لا يستطيعون الرد. وهذا بحق ما يريدونه».

أطبق السكون على المعسكر. الجميع كان في انتظار صدور الأوامر.

في أحد الأيام تقدم القائد من ويلي وقال: إنك تثير اهتمام مركز القيادة الرئيسي. لقد اختاروا لك مهمة خاصة وسوف تغادرنا بعد يومين. أبْقِ على حاجياتك جاهزة. سوف تذهب إلى مدينة دهلبور. وسيرافقك بهوجي ناريان، الحارس الذي أطلق الإنذار الخاطئ. غير أن ذلك ليس هو السبب في إرساله. قررنا إرساله لأنه واحد من الأكفاء. لقد استأجرنا غرفة لكما، وسنعطيكما مئة وخمسين روبية، وبعد أسبوعين سنعاود إرسالك من جديد. يتعين عليك البقاء في غرفتك هناك في انتظار التعليمات».

فيما كان القائد يتكلم تبيّنَ ويلي سهولة تخيله في طقم مزدوج الصدر. إنه أحد أبناء الطبقة الوسطى الرخية، في أربعينياته، فصيحٌ وخبيرٌ وتلقائي، واثق من نفسه لدرجة يبدو معها شديد الشبه بأستاذ جامعة أو موظف حسابات في شركةٍ كبرى. استطاع ويلي تخيله كرقيب صبي للجماعة العسكرية في مدرسته، ويلعب دور ضابط الصف لضابط الجيش الصغير الذي جاء مرتين خلال أسبوع واحد بهدف تدريب الجماعة وتفتيشها. ما الذي دفعه لهجران تلك الحياة الهانئة؟ أهو البحث الكبير عن الأمان، أم هي قناعته أن عودته إلى ذلك العالم هي في متناول يده على الدوام؟ قرأ ويلي وجهه باحثاً عن مفتاح هذا اللغز في مسامات جلد الفم وفي الملامح اللطيفة والعينين شديدتي الهدوء، لكن الفكرة وصلته من خلال الرجل نفسه: «إن زوجته

تحتقره، وكانت تخونه على مدى سنوات. هذا هو الطريق الذي اختاره ليثأر به لنفسه. أي أذىً على وشك أن يحدثه هذا الرجل المُهندم؟».

* * *

كانت رحلة شاقة إلى دهلبور، استلزمت أكثر من يومين. ارتدى ويلي ملابسه المدنية (ذات النمط المسرحي، تنكر هذه المرّة بزي فلاح)، حمل معه بعض المؤن من المعسكر، وعلّقَ مِعول الفلاح على كتفه، ثم انتعل خفه الجلدي. كان مايزال جديداً وقد انتعله اتقاءً للسعات العقارب والمخلوقات الخطرة الأخرى. لكن ويلي المعتاد على الجوارب وجد صعوبة كبيرة في ارتداء هذا الخف. وعلى مدى مسافات طويلة من الرحلة كان كعباه ينزلقان عن الجلد الصقيل ويلامسان الأرض. كان بهوجي ناريان يعرف الطريق. في البداية سارا خارجين من أحراج السَّاج وهو ما استغرق أكثر من ثلاث ساعات. ومن ثم بلغا القرى والحقول الصغيرة.

في إحدى القرى كان هناك فلاح أو مُزارع يعرفه بهوجي ناريان. دخلا منزله المسقوف بالقش في الظهيرة حين كان الطقس لاهباً. في هذه الأثناء كان الرجل خارج المنزل، لكن الزوجة رحبت بهما. التجأ ويلي وبهوجي ناريان إلى الكوخ الثانوي المكشوف ذي الأفاريز المسقوفة المعتدلة الحرارة التي تتدلى نحو الأسفل بشكلٍ مريح، وتحجب الكثير من الوهج الشمسي. طلب ويلي من سيدة المنزل قليلاً من الساتو، الذي كان تقدّمَ في استساغته له؛ بلّلاه هو وبهوجي ناريان بالماء وأكلا وكانا قانعين. كان هذا الساتو مُعداً من بذور الدخن. وصل رجل البيت قبل غياب الشمس كالحاً ومعروقاً بسبب أعماله. سألهم البقاء وقضاء الليلة في السقيفة حيث كانا. كانت الأبقار قد أُدخلت مع أعلافها. وعُرضتْ عصيدة الرز على ويلي وبهوجي ناريان. قبلها ويلي، لكن بهوجي ناريان أجاب أنه لا يريد، بالنسبة له كان ساتو الدخن كافياً تماماً. ترك ويلي نفسه مُسيّرة بهذا الأمر. ثم حل الليل، الليلة الطويلة التي

بدأت ما إن أعتمت السماء، والحقول البعيدة حيث يقوم القرويون بكل ما عليهم أداؤه قبل هجوعهم للنوم.

غادرا في الصباح الباكر، قاصدين سيرَ الأميال الخمسة باتجاه محطة الباصات. هناك انتظرا وصول أحدها؛ وعندما جاء أقلهم إلى محطة سكة الحديد، وانتظرا هناك وصول القطار العابر ليحملهم إلى دهلبور. وصلاها في الظهيرة.

في هذه الآونة، كان بهوجي ناريان كفوءاً في استلام زمام القيادة: رجل ضخم بكتفين عريضين وخصر نحيل. سابقاً لم يكن يسهب بحديثه إلى ويلي، مُتّبعاً قواعد المعسكر، أما الآن في المدينة فقد أصبح أكثر تواصلاً وهو يبدأ في البحث في المنطقة عن الغرفة التي استُؤجرتْ لهما. بحثا ثم بحثا، وعندما شرعا في سؤال الناس عن المكان، أخذ هؤلاء ينظرون إليهما بريبة. أخيراً، وبشكل لا يُصدّق، وصلا إلى منطقة الدباغة. كانت رائحة اللحم المتعفن وبراز الكلاب شنيعة.

قال ويلي: «على الأقل لن يأتي أي كان للبحث عنّا هنا».

قال بهوجي ناريان: «إنهم يختبروننا. يريدون معرفة فيما إذا كنا سنضعف. هل تظن أن بإمكانك الصمود؟».

قال ويلي: «من الممكن الصبر على أي شيء. إننا أكثر قسوة مما نظن. من يعيش هنا يتعين عليه الصمود».

كان المنزل الذي يحتوي على الغرفة المُستأجَرة منزلاً صغيراً وواطئاً بسقفٍ من القرميد الأحمر، ويقع في شارع يضم هذا النمط من المنازل الصغيرة الواطئة. كان ثمة مزراب باتجاه الخارج، وعلى جدران الغرفة (التي عرضها متباهياً أحد أناس الكريكيت الذين تحدث عنهم جوزيف) كان هناك الكمية ذاتها من التبرقش المتعدد الألوان شبيهاً بجدران الـ «نيو أنانـد بهافان»، كما لو أن جميع أصناف القاذورات السائلة قد وَجدتْ سبيلها لتمتزج كنوع خاص من الرطوبة السامة.

فكَّرَ ويلي: «عليَّ القيام بأمر ما لأكافح هذه الروائح. ينبغي محاولة قهرها عقلياً».

غير أنه كان عاجزاً عن ذلك. ومن ثم، وفيما هو يفكر متأملاً في نقاط مختلفة من رحلته الأخيرة (تماماً كما كان يفعل في الماضي، أثناء شعوره بالضياع في إفريقيا وعجزه عن العثور والعودة إلى دربه نحو الأمان أو نحو ما كان يتعايش معه بيسر، وحيداً من دون أيٍّ كان يمكنه الاعتراف أمامه بقلقه، حيث وجد في تلك الأيام نفسه مأخوذاً بتعداد الأسِرّة المختلفة التي نام فيها منذ ولادته، من أجل ترتيب سيرورة الأحداث والوعي لها)، هكذا الآن في شارع الدباغين بدأ يعاود العيش مجدداً لمراحل تردّيه في السنة الماضية. من الدمار ونقص المؤن في منزل الاقطاعة المدمر الكائن في مستعمرة برتغالية في إفريقيا؛ إلى شقة شالوتنبرغ في برلين التي بدت له في البداية مكاناً مسلوباً وعارياً ومهملاً؛ يتحدث عن إهمال ما بعد الحرب، ومفعماً بالأشباح السابقة التي نادراً ما استطاع تخيلها؛ إلى مدينة المطار في الهند، إلى فندق الريفيرا، إلى الـ «نيو أناند بهافان»، إلى معسكر رجال العصابات في أحراج السَّاج، والآن هذه الكومة من الدباغة في مدينة لم يكن يعرفها وكان غير قادر على تحديد موقعها على الخارطة: تجاويف منفصلة من التجربة والوعي الحسي، كل منها انتهاك للأخرى وسوف يعيشها في النهاية كما لو كانت حياةً وعالماً متكاملين.

إنه موجود هنا تحيط به هذه النتانة الهائلة لشارع الدباغين حيث أصبح هو وبهوجي ناريان في ذلك المساء متقاربين. كما لو أن هذا التقارب كان يستلزم ويحتاج لذلك البؤس المحدد (كما بدا) من أجل أن يجعلهما معاً. خرجا يسيران مبتعدين عن المشاعل المدخنة للمدبغات، إلى أضواء الفلوريسانت الكابية إلى حيث كانت تبدو لويلي الآن أنها مدينة نقية، البازار (ذبابةُ قد نام الآن) والمنطقة المحيطة بمحطة سكة الحديد.

قال ويلي: «أعطونا مئة وخمسين روبية لخمسة عشر يوماً. تلك الروبيات

العشرة كل يوم، في برلين لا يمكنك أن تشتري بها فنجاناً من القهوة. هل تظن أنهم يتوقعون منا أن ننفق من أموالنا الخاصة؟».

قال بهوجي ناريان، بلمسة من الصرامة: «علينا تنفيذ ما أُمرنا به. إن لديهم مبرراتهم».

أدركَ ويلي أن بهوجي ناريان رجل من رجال الحركة الحقيقيين، وهو المسؤول عن هذه المهمة، وينبغي عليه اتخاذ الحيطة.

توجّها إلى البازار وهناك أنفقا خمسة روبيات لشراء الدال والقرنبيط والمخللات، وروبيتين إضافيتين على القهوة. ومن ثم سارا وسط شوارع المدينة نصف المعتمة وهما يتحدثان عن ماضيهما، عرّف كل منهما عن نفسه بطريقة كانت محظورة في المعسكر. تحدث ويلي حول إنكلترا وسنواته الثماني عشرة في إفريقيا.

قال بهوجي ناريان: «سمعت شيئاً بخصوص هذا. يبدو أنك ترانا غريبي الأطوار ولا نشبه أي شيء عرفته».

قال ويلي: «يبدو لي الأمر أكثر إثارة مما هو في الواقع. قد تنقل الكلمات أفكاراً مغلوطة، وقد تنقل أسماء الأماكن أيضاً أفكاراً مغلوطة. ثمة تزامل كبير فيما بينهما. أثناء وجودك في المكان عينه، لندن أو إفريقيا، يمكن لكل شيء أن يبدو لك عادياً. تعلَّمنا في المدرسة قصيدة ساخرة لويليام بليك. لا أظن أنني أتذكرها بأكملها. *كان هناك صبي شرير، وذاك الصبي الشرير كان هو نفسه، فر هارباً إلى اسكوتلندا، قاصداً رؤية الناس في ذلك المكان. وجد هناك أن التربة كانت صلبة والكرز بلون أحمر، تماماً كما في إنكلترا*. هكذا وجد نفسه مكان الصبي الآخر وانتابته الحيرة. إن ذلك الصبي هو أنا. وهذا هو السبب في أنني جئت باحثاً عنكم. لم أكن أشعر بالسعادة حيث كنت. وكانت لدي فكرة راسخة مفادها أن مكاني هنا في هذا العالم».

في الظلام، وفيما هما سائران، شاهد ويلي مكتب البريد. فكَّرَ: «ينبغي عليَّ محاولة حفظ الطريق والعودة إلى هنا غداً».

قال بهوجي ناريان إن أسلافه كانوا من الفلاحين. أُقصوا عن أرضهم وقريتهم نتيجةً لمجاعةٍ ضاربة حلّتْ في نهاية القرن التاسع عشر. كانوا أبناء طائفة متدينة. ثم توجهوا نحو مدينة يقيم فيها البريطانيون مشروعاً لمد السكة الحديدية. هناك وقع جده على أحد الأعمال. أما أبوه فقد أنهى تعليمه والتحقَ بوظيفة في سلك النقل الحكومي؛ لاحقاً أصبح محاسباً. وكان لأسرة أمه النمط ذاته من التاريخ. يمتلكون خلفية مثقفة. كانوا عازفين موسيقيين غير أن انتماءهم كان للطائفة المتدينة ذاتها.

سأله ويلي: «ها أنت تتلو عليَّ حكاية عن النجاح. لماذا أنت في الحركة؟ ولماذا ترمي بكل شيء إلى البعيد؟ أنت تُعدّ رجلاً من الطبقة الوسطى الآن. وببساطة يمكن أن تسير الحياة بشكل جيد بالنسبة لك ولعائلتك».

قال بهوجي ناريان: «ولماذا دخلت أنت؟».

«سؤال وجيه».

قال بهوجي ناريان بشيء من الغيظ: «ومع ذلك، لماذا؟».

أجاب ويلي، عائداً عن تملصه السابق، والبعد الاجتماعي الذي يتضمنه: «إنها حكاية طويلة. وأخمن أنها قصة حياتي بأكملها وأنها الطريقة التي صُنِعَ بها العالم».

«الشيء ذاته هنا. بوجود من يشعرون لا يمكن للأشياء أن تنقطع أو تجف. لدى شرائك لأداة ما تكون مرفقة بكتيبٍ للتعليمات. أما الرجال فهم ليسوا كذلك. إنني فخور بعائلتي، فخور بما أحرزوه خلال المئة عام الأخيرة. لكن في الوقت ذاته سأخبرك أمراً. كان ذلك في الأيام الخوالي عندما سمعت عن عملية قتل مالك الأرض، أخذ قلبي يغني. كنت أتمنى لو يُقتل جميع مُلّاك الأراضي. كانت بي رغبة عارمة في رؤيتهم مشنوقين ومعلقين إلى أن يتفسخ لحمهم عن عظامهم».

هنا تَعرَّف ويلي على لغة جوزيف نفسه.

قال بهوجي ناريان: «لم أرغب أن يقوم الآخرون بهذا القتل. أردت إبداء نفسي أمامهم قبل الإجهاز عليهم. وددت رؤية الدهشة والخوف في عيونهم».

فكَّرَ ويلي: «هل هذا فعلاً حقيقي؟ أم إنها لا تعدو محاولة للتأثير فيّ؟» تمعن متفكراً في ملامح الرجل الأسمر، حاول تخيل عائلته، وحاول تخيل الماضي المسلوب القوة. ثم قال له: «أعتقد أن المجاعة التي أقصت جماعتك عن قريتهم هي التي دفعت جدي ووالدي للنزوح عن المكان والابتعاد عن معبدهم القديم. أليس هذا بالأمر الغريب؟ إننا أكثر ارتباطاً وقرباً مما نظن. منذ عدة سنوات اكتشفت أن روديارد كيبلينغ كتب قصة حول تلك المجاعة. قصة حب، قصة حب إنكليزية».

لم يكن بهوجي ناريان يعير الحديث أي اهتمام. سارا عائدين نحو شارع الدباغين، لكي يستريحا من الملابس وينتظرا انقضاء الليل؛ عندئذ كان ويلي حبيس تلك الحجرة الجديدة من حجرات الوعي، ومن الرائحة القذرة وشناعة المكان، ولكن بقناعة أن عليه إقناع نفسه فوراً بوجوب العيش فيه كما لو كان عالَمَاً متكاملاً، وهكذا سينجو.

في الصباح انطلق نحو مكتب البريد. وكتب على الورقة القديمة لرسالة البريد الجوي التي لم يكن قد أتمها ـ شطب اسم كاندابالي وبعد ذلك وجدَ نفسه حائراً في متابعة الكتابة ـ *لديَّ إيمان عميق أنني وسط أعداء الرجل الذي تَحَدَّثنا عنه. هنا، أنا لست سيد تحركاتي. سوف أبقى هنا لأسبوعين. أرجوكِ اكتبي على البريد المضمون لهذه المدينة. سوف تستغرق هذه الرسالة أسبوعاً لتصلك، ورسالتك سوف تستغرق أسبوعاً آخر حتى تصلني. إنني أعتمد عليك.*

في منتصف النهار ذهب برفقة بهوجي ناريان إلى البازار. في النهار كان الطعام أكثر طزاجة منه في المساء. تناولا طعامهما بتلذذ ثم، وبينما هما سائران عبر شوارع المدينة، روى بهوجي ناريان المزيد من حكايته. لم يكن هناك حاجة لكي يحثه ويلي.

قال بهوجي ناريان: «في سنتي الثانية في الجامعة فكّرت أن عليَّ إيقاف دراستي والانضمام إلى رجال العصابات. في الماضي اعتدت التوجه وأصدقائي إلى بركة ماء في أطراف المدينة. أخمن أنها لابد خلفيتي القديمة، لكنني كنت باستمرار أميل للأخضر، والعشب والأشجار. إنه الشكل الذي يجب أن يكون عليه العالم. اعتدنا التحدث عما قد نفعله حول مسألة الالتحاق بحرب العصابات. غير أننا لم نكن نَدْري الكيفية التي بها سنقوم بذلك ولا شكل النشاط الذي نمارسه. كل ما استطعت التفكير فيه هو التقرب من أحد أساتذتنا. أجابني بعدم معرفته كيفية إيصالي إلى رجال العصابات؛ ومع ذلك فعل. ذات يوم جاء أحدهم من قسم الهندسة في المدينة لمقابلتي في سكن الطلبة وحدد لي موعد قدومه إليَّ ليأخذني بغية مقابلة أولئك الذين أرغب في رؤيتهم. وعدته بالمجيء برفقة أصدقائي غير أن الأصدقاء أحجموا عن مرافقتي عندما حانت اللحظة. كان يملؤهم خوف كبير. كانوا مفرطين في دنيويتهم. لقد أحبوا الحياة حباً كبيراً. وهكذا مضيتُ وحدي. تلك كانت هي الكيفية التي بدأ بها الموضوع. كان ذلك منذ ثلاث سنوات».

«إذن فقد نجحت خطتك؟».

«نجحت الخطة وفقدتُ زوجين من أصدقائي. استلزم مني الاعتياد على هذا الأمر ستة أشهر. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أفتقد الدعابات. داخل الحركة أنت غير قادر على الإطلاق على رواية الدعابات. كما أنك عاجز عن إلقائها على الفلاحين أو مبادلتها معهم فهي لا تروقهم بالمطلق. في بعض الأحيان يتملكني شعور أنهم سوف يقومون بقتلك إذا لاح لهم أنك تسخر منهم. وإذا كنت معتاداً على أسلوبٍ مختلفٍ من الأحاديث، لن يكون الأمر سهلاً على الدوام».

* * *

مرّت الأيام على هذا النحو، عشرة روبيات يومياً؛ وفي ظل وجود بهوجي ناريان لم تكن سيئة أو مُضنية. ولكن، وبما أن أموالهما كانت

تتضاءل، وليس هناك من أموال سيتم تحويلها لهما لينتظراها، ولا من تعليمات، فقد بدأ القلق يتسرب إلى ويلي.

قال بهوجي ناريان: «من الآن علينا الاقتصاد بالمال. لم يعد بحوزتنا سوى ثلاثين روبية. وعليه فإننا لن نستطيع إنفاق سوى خمس روبيات على الطعام وعندما نباشر تطبيق هذا الوضع سوف تبدو لنا الروبيات العشرة كل يوم بمثابة تَرَف. على كل حال، سيكون هذا اختباراً مفيداً في الانضباط».

«هل تظن أنهم قد نسونا؟»

«لا لم ينسونا».

في اليوم الخامس عشر، عندما كانا يعتاشان على خمس روبيات يومياً منذ ثلاثة أيام، توجّهَ ويلي نحو مكتب البريد. كانت ثمة رسالة من ساروجيني في أمانة البريد. رفعت رؤية الطابع الألماني من معنوياته واستنهضت قلبه.

عزيزي ويلي، لست أدري كيف أخبرك. لدى محاولة أحدهم ترتيب الأمور فإن أخطاء التواصل الناتجة عن بعد المسافات يمكن أن تحدث. أجهل إن كان جوزيف هو المسؤول أم أنه شخصٌ آخر. هناك انشقاق في الحركة، كما تعلم، وما جرى هو أنك وسط مجموعة السيكوباتيين. في كل حركة سرية، أقصد في كل حركة سرية على وجه الدقة، يكون هناك عنصر من الإجرامية. كنتُ قد شاهدت الكثير منهم وأعرف هذا. وَجَبَ عليَّ إطلاعك على هذا الأمر حين كنتَ ما تزال هنا، لكنني ظننت أنك رجل ذكي وسوف تستنتج هذا بنفسك وتعرف كيف تتعاطى مع المسألة حين تواجهك المتاعب. ليس عليَّ إخبارك اتخاذ الحيطة والحذر، بعضٌ ممن يحيطون بك هم من أولئك المعروفين في الحركة برجال المعركة. وهذا يعني أنهم قتلوا من قبل، وهم مستعدون للقتل ثانية. يمكنهم التصرف بوحشية وهمجية. المريح في الأمر هو أنك تسدي جميع خدماتك للسبب ذاته في النهاية، وقد يأتي زمن في أحد الأيام تكون قادراً فيه على التخلص مما أنت فيه والانضمام إلى جماعة كاندابالي.

مزّقَ الرسالة ورماها، هي وطابعها الألماني القيّم، فوق كومة النفايات الرطبة والنتنة خارج البازار. قال بهوجي ناريان وهما داخل البازار: «هذا يومنا الأخير مع المال».

قال ويلي: «يساورني شعور أنهم قد نسونا».

«علينا إظهار وسعَ حيلتنا. يجب البدء بالبحث عن عمل بعد أن نتناول طعامنا. يجب أن يكون شغلاً وقتياً ضمن أوقات الدوام في مكان كهذا».

«أي عمل هذا الذي نستطيعه؟».

«هذه هي المعضلة. نحن لا نمتلك أية مهارات. ومع ذلك سوف نجد عملاً ما».

تناولا كمية ضئيلة من الدال والرز في صحون ورقية. وعندما خرجا قال بهوجي: «أنظرْ إلى ذلك الدخان الأسود في السماء هناك على بُعدِ بضعة أميال. إنها المداخن، معامل السكر. إنه موسم الطحن، دعنا نسر».

سارا حتى أطراف المدينة ثم توغلا عبر ما يشبه الريف باتجاه المعمل، حيث كانت المداخن تزداد طولاً طوال الوقت. كانت الشاحنات المحملة بالقصب تمر بهما على طول الطريق، وأمامهما تسير عربات العجول أيضاً محملة بالقصب. ساحة المعمل تعج بالفوضى، لكنهما وجدا رجلاً من سلطات المعمل. قال بهوجي ناريان: «اترك الكلام لي»، ثم بعد خمس دقائق عاد وقال: «هناك عمل لنا لمدة أسبوع. من العاشرة ليلاً حتى الثالثة صباحاً. عملنا هو نقلُ تِفل القصب الرطب الناتج عن عملية استخراج العصير من القصب. سوف ننقل التِّفل إلى منطقة جافة. وعندما تجف أكوام التِّفل هذه، يقومون باستخدامها كوقود. لكن هذا ليس من شأننا. اثنتي عشرة روبية في كل يوم، مبلغ أقل من الأجر الحكومي الأدنى. لن تكونَ قادراً على شراء فنجان قهوة في برلين. مع ذلك نحن لسنا في برلين، وفي بعض الحالات لا يسعك الدخول في الجدال. أخبرت رئيس العمال أننا لاجئون من بلاد أخرى.

كان ذلك أسلوباً لطمأنته أننا لن نقوم بإثارة المشاكل. الآن ينبغي علينا العودة إلى شارع الدباغين والاستراحة استعداداً للّيل. سوف تكون مسيرة طويلة ثانية ومسيرة طويلة أخرى في العودة عند الصباح».

هكذا بالنسبة لويلي تغيرت غرفة شارع الدباغين ثانية، وأصبحت مكاناً للراحة قبل الذهاب للعمل. أصبحت منذ الصباح الباكر قبل السادسة بقليل، بعد أن يكونا قد سارا رجوعاً في الظلام واغتسلا من التِّفل الرطب والبقايا الحلوة عن جسديهما تحت الحنفية العامة (لحسن الحظ كانت تعمل في هذه الفترة من اليوم)، مكاناً يغط فيه ويلي وبهوجي ناريان في نوم عميق مُستَنزَفَين في نوع من الرضا الأحمق.

من وقت لآخر كان ويلي يستيقظ على آلام عضليةٍ في جسده الذي تحرك بإفراط، من ثم تراءى له في نصف هجوعه المشهد الشبحي شبه المعتم لساحة المعمل مع أناس الكريكيت المهلهلين، زملائه العمال، الذين بالنسبة لهم لم يكن هذا العمل الليلي دعابة أو جزء من مسرحية الحياة، أو استراحة من الروتين، بل مسألة تتعلق بالحياة والموت. إنهم يسيرون ذهاباً وإياباً في شكل من الرقص الظليلي الجهنمي المتهادي إلى مكان مُسطّح جاف فسيح حاملين سلالاً صغيرة من التِّفل الرطب على رؤوسهم، سلالهم الفارغة في أيديهم إذ في الساحة من يحمل التِّفل الليلي الجاف ليلقّمه لفرن المعمل، تشبُّ ألسنة لهب التِّفل بلونٍ تركوازيٍّ فائق الجمال، وهي تسكبُ وهجاً أخضرَ واهناً إضافياً على الأجساد السمراء الهزيلة، تلمع ثم تخبو: ما يقرب من ستين رجلاً يؤدون ما يمكن لعشرة رجالٍ فقط مع عرباتهم القيام به في المدة الزمنية نفسها، وما يمكن لآلتين بسيطتين إنجازه بقليل من الجلَبَةِ.

استيقظ قبل الواحدة بقليل، بدت وهي تعكس، بينما كان ينظر إليها، أن ساعة الروليكس كانت مثل ذكرى وحاجة من عالم آخر. كان بهوجي ناريان مايزال نائماً. لم يكن ويلي راغباً في إقلاقه. وحالما استطاع خرج وتوجه نحو المدينة بعيداً عن شارع الدباغين. كان لديه تشكيل لرسالة بريد جوي

وقلم بينيتل. بحث عما هو معروف في المدن الصغيرة كهذه المدينة عن فندق مثلاً، لكنه لم يكن أكثر من النموذج الأشد فجاجة من المقاهي أو متجر للشاي. كان بهوجي ناريان يوقف مثل هكذا مُجازفة. وقع ويلي على فندقه. طلب قهوة وكعك الرز المبخّر. جاءته مع صنفين من الصلصة وصنفين من الدال وقد بدت هذه الوليمة مثل كمٍّ هائل من الترف مع أنه منذ شهر فقط كان يمكن لهذا الفندق، حيث يحتشد الذباب الأكثر ذكاء من البشر في كل مكان ويتغذى على كل شيء، أن يثير ارتيابه. ارتدى النادل المنحني، جسدياً هو أرفع من طبقة أناس الكريكيت وكان بشعر ناعم مزيت، بدلة مقلمة بيضاء. كانت مسودة وقذرة حيثما كان يمكن أن تكون متسخة، خاصة حول الطرف الناتئ للجيب، كما لو أن هذا النوع من الأوساخ كان دلالة على الخدمة والعمل بكد. من الواضح أنه لا يُسمح لهذا النادل إلّا ببدلة نظيفة واحدة في الأسبوع. واليوم هو اليوم المقارب لنهاية الأسبوع المخصص. قام النادل بمسح الطاولة الرخامية ونشفها من أجل ويلي، فطار الذباب في حشود في حركة مهتاجة، مندفعاً باتجاه شعر ويلي والنادل.

أخرج ويلي ورقة البريد الجوي وكتب:

عزيزتي ساروجيني، ليس عليَّ إخبارك أنني أتيت هذا المكان وأنا احمل أعظم نقاء القلوب وأمنية القيام بما، مع تعليمك وتحريض عقلي أنا نفسي، كان قد راح يبدو لي أنه الصواب. ولكن في هذه الأثناء يتعين عليَّ إخبارك أنني ضائع. لست أدري أي هدف أقوم بخدمته، ولا لماذا أقوم بما أقوم به. الآن بالضبط أعمل في معمل للسكر، أنقل التّفل الرطب من العاشرة مساء حتى الثالثة صباحاً لقاء اثنتي عشرة روبية يومياً. ما علاقة هذا بمبررات الثورة؟ لا يمكنني رؤية أي رابط بينهما. كل ما يمكنني معرفته أنني سلمت نفسي لأيدي الآخرين. لقد فعلت هذا من قبل، تتذكرين، عندما مضيت إلى إفريقيا. لم يكن في نيتي تكرار هذا ثانية، لكني أجد الآن أنني مضطر لذلك. أعيش هنا برفقة رجل متقدم في الحركة. لست مرتاحاً بصحبته، ولا أظنه مرتاحاً معي. لقد

هربت من الغرفة التي نتشارك بها لأكتب لك هذه الرسالة. أعتقد أنه واحد من رجال المعارك الذين كتبتِ لي عنهم. أخبرني بعدم محبة الفلاحين للدعابات، وقد يُقدمون على قتل من يظنون أنه يسخر منهم. أشعر أن هذا ينطبق عليه. سألني عن سبب التحاقي بالحركة. لم أتمكن بالطبع من تلاوة القصة كاملة في جملتين وقلت له: «سؤال وجيه». أجبت كما لو أنني في لندن أو إفريقيا أو برلين. لم يَرُقْ له ذلك، ولم أتمكن من التملص من حرج موقفي بالضحك. لقد ارتكبتُ بضعاً من هذه الهفوات على هذه الشاكلة معه، والنتيجة هي أنني أهاب الكلام معه بحرية، وبالتالي استاء هو من هذا. إنه القائد. هو ضمن رجال الحركة منذ ثلاث سنوات. عليَّ تنفيذ ما يمليه، وها أنا أشعر أنني في أسابيع قليلة فقدتُ حريتي من دون أي سبب وجيه، هذا ما أراه. إنني أفكر في الفرار. مايزال بحوزتي مئتا مارك من أموال برلين. أظن أنه يمكنني تصريفها في البنك، في حال لم يكونوا شديدي الريبة فيّ، ومن ثم يمكنني التوجه إلى محطة سكة الحديد ومن هناك أتقفى درب عودتي إلى منزل عائلتنا. غير أن ذلك سيكون شبيهاً بالموت أيضاً بالنسبة لي. لا أريد العودة إلى تلك العائلة الرهيبة والتعيسة. إنني آسف لأنني أكتب بهذا الأسلوب. أجهل كم سيدوم بقائي في هذه المدينة وفيما إذا كان جديراً بإضاعة وقتك للكتابة لي إلى مكتب البريد المضمون هنا. سوف أرسل لك عنواناً جديداً حالما أستطيع.

كان بهوجي ناريان مستلقياً في سريره القماشي حين عاد ويلي إلى شارع الدباغين. فكَّرَ ويلي: «إنني أكيد أنه يعلم أين كنتُ وما كنتُ أفعل».

لكي يتجنب الأسئلة، قال له: «ذهبتُ إلى المدينة وتناولت قهوة وأيدلي. كنت بحاجة إلى ذلك».

قال بهوجي ناريان: «تذكّر أنها ليست أكثر من اثنتي عشرة روبية في كل ليلة في معمل السكر. خذ الأمور ببساطة. ربما تمر علينا أيام قادمة أكثر قسوة».

خلع ويلي، النعسان بعد الإفطار، ملابسه واندس في سريره الصغير.

ألقتْ فكرة اليوم الطويل بثقلها عليه، كما ألقتْ فكرة العمل الليلي كذلك.

فكَّرَ: «هل هناك من غاية لكل هذا؟ بالنسبة لبهوجي ناريان هناك هدف. إنه يعلم ما قد تمَّ التخطيط له ولديه القدرة على التكيف مع ما نفعله هنا، ولديه إيمان مطلق به. أما أنا فإني فاقد لهذا الإيمان؛ كل ما أحتاجه الآن هو امتلاكي الصبر للمضي قُدُماً، امتلاكي للصبر خلال هذه الليلة فقط. سأصلي بأن تأتي هذه القوة والصبر إليّ من جهة ما، من أكثر الأجزاء عمقاً في روحي. بهذه الطريقة عليَّ البدء بالعيش الآن، يوماً بيوم، أو نصف يوم بنصف يوم. عليَّ الغوص في العمق. لقد كنت أظن أن شارع الدباغين هذا هو نهاية الحد. لكن أشباح عمال التِّفل أخذوني عدة درجات أسفل ذلك الحد، سوف يكونون هناك للّيلة الثانية يعتاشون على جميع بؤسهم. لعلي كنت بحاجة لهذه المعرفة الإضافية حول هذه الحيوات الواقعية. ولعل هذا الانكشاف للبطلان الإنساني سوف يجعلني بحالة جيدة، وسوف يدفعني لرؤية الأمور بشكل أوضح».

استسلمَ لِصُورِ الألسنة التركوازية المنهمرة فوق الأجساد الهزيلة لعمال الليل. رويداً رويداً أخذت الصّوَرُ تتشوه، وتفقد تسلسلها، وشعرَ بالنعاس. عندما صحا كان الضوء قد غاب تقريباً. لم يكن بهوجي ناريان في الغرفة، كان شاكراً لهذا. ارتدى ملابسه وتوجه إلى البازار ثم تناول كوباً ورقياً صغيراً من الحُمُّص المُنَكَّه بالكاري. بدا ذلك كأنه إفراط بعد وجبة الصباح. لقد ملأه تماماً، وأصبح بمقدوره - حين عاد إلى الغرفة - الانتظار بصبر حتى الثامنة؛ عندما عاد بهوجي ناريان كان الوقت قد حان للشروع بالسير نحو معمل السكر.

وبطريقة ما، كما لو أنها استجابة لحاجته، واتَتْهُ القوة للصبر على عمل الليل. والشيء الذي كان جديداً وموهناً في الليلة السابقة، سواء أثناء العمل أو في رؤية الصور والأخيلة، بات في هذه الليلة الثانية روتينياً؛ وهذا عاملٌ مساعدٌ. جاءته الفكرة المريحة بعد ساعة (فصلتْ ساعة الروليكس الزمن، كما

في حياته الأخرى أو مجموعة حيواته) بحيث غدا الأمر مثل قيادة السيارة في الطرقات الطويلة الصعبة في إفريقيا. إن التفكير فيها مسبقاً كان مثيراً للإرباك والقلق، لكنك ما إن تبدأ مرة حتى تجد أن الأمور تصبح على ما يرام تماماً، عملية ميكانيكية بحتة: تبدو الطريق نفسها وكأنها تقودك إلى حيث تعمل. كل ما عليك القيام به هو الاسترخاء والسماح لنفسك بالتقدم إلى الأمام.

بعد ذلك وقفا في الرتل مع الآخرين، معروقين ومكسوين ببقايا التِّفل الرطب ومبللين، من أجل الحصول على روبياتهما الاثنتي عشرة.

قال بهوجي ناريان: «شغِّيلٌ مخلص».

لم يكن ويلي يدري كيفية التعاطي مع هذا الموقف. كان جاهلاً إن كان بهوجي ناريان قد تفوّهَ بهذا متهكماً، مُقلّداً الطريقة التي يتحدث بها الموظفون أو رؤساء عمال المعامل، أم كان جاداً ومُشجعاً، وكان مقصده هو أن هذا العمل المضني في ساحة التِّفل كان خدمة لهدف معين ولهذا السبب وجبَ احترامه.

عندما استيقظ ويلي في اليوم التالي لم يكن بهوجي ناريان في الغرفة، وتناهى إلى ذهن ويلي أنه ربما خرج لإجراء اتصال غير مباشر مع الحركة. كانت حالة بهوجي ناريان تشير إلى أن كل شيء مايزال على ما يرام، في الوقت المناسب سوف تصل النقود والتعليمات الجديدة؛ ولهذا لم يعد ويلي إلى إثارة المسألة معه.

كانت الواحدة تماماً، ساعة واحدة فقط بعد الوقت الذي كان ويلي استيقظ فيه في اليوم الفائت. أخذ جسده يعتاد على الساعات؛ بعقلٍ مندفعٍ للأمام لتخديره، ظن أنه ربما في غضون يومين أو ثلاثة أيام سوف يمضي جلّ نهاره في نومٍ مُخدّرٍ، وأن أشد ساعات نشاطه هي تلك التي يمضيها في العمل في حمل التِّفل.

توجه إلى الفندق الذي ارتاده في اليوم السابق وطلب القهوة وكعك الرز

المُبخّر. كان هذا الروتين مريحاً. والنادل ذو الجسد الأصغر من المعتاد بشعره المزيت الكثيف مايزال يرتدي بدلته البيضاء شديدة القذارة. لعلها الآن أقل وساخة بقليل، أو أكثر وساخة بقليل. في هذه المرحلة من درجات اللون الرمادي والأسود للقذارة يكون من الصعب التحديد.

فكَّرَ ويلي: «لدينا ستة أيام أخرى من العمل في التفل. بعد ذلك قد نجد أنفسنا في مكان آخر. ربما لن يقيّض لي رؤية هذا النادل ببدلة نظيفة أبداً. إنني أكيد أنه يراها نظيفة على هذه الشاكلة: بيضاء ونظيفة ولامعة على الدوام. وإذا ما شاهد بدلته على حقيقتها لعله سيفقد هيئته بأكملها وستتغير حياته».

بعد ذلك ذهب إلى مكتب البريد، وأخذ ينقر على طاولة البريد المضمون، ليرى، بمعجزة ما، إن كانت هناك رسالة أخرى من ساروجيني. كانت الفتحات العينية على الجدار الأسود مليئة بالرسائل من قياسات مختلفة. لم يتعب الموظف نفسه عندما أتى بالتحقق واكتفى بالقول: «لا شيء اليوم. ربما بعد ثلاثة أيام إذ في ذلك التاريخ يصلنا البريد الجوي من أوروبا».

سار عبر المنطقة القذرة لأشغال المدينة. برقشت الشمس والأمطار الموسمية الجدران وغيّبت عنها لونها الأصلي. كانت اللافتات وحدها فقط هي التي تصيح بالمنافسة الجديدة وتبرق بالرسوم. مر بفرع بنك بارودا. كان مُعتماً جداً من الداخل. المراوح السقفية تدور ببطء، غير مربكة لأكداس الأوراق المقطعة فوق المقاعد، ولا للموظفين الكتبة وراء طاولاتهم خلف حاجز القضبان المعدنية.

سأل ويلي: «هل بإمكاني تصريف ماركات ألمانية هنا؟».

«إذا كنت تحمل جواز سفر نعم. أربعة وعشرون روبية مقابل كل مارك. لدينا أدنى رسوم هنا، مئة روبية. هل جواز سفرك بحوزتك؟».

«فيما بعد، سوف أعود لاحقاً».

خطرت له فكرة الفرار قبل يوم واحد فقط عندما كان يكتب

لساروجيني. وفكر: «إذا صرّفت المئة مارك سوف أحصل على ألفين وثلاثمئة روبية بعد اقتطاع الرسوم. هذا المبلغ سيكون كافياً لنقلي إلى حيث أنوي الذهاب. ينبغي عليَّ حراسة هذه الماركات بحياتي. يجب أن لا يعلم بهوجي ناريان بالأمر أبداً».

لم يتفوه بهوجي ناريان بأية كلمة عما فعله في الصباح. لكن القلق أخذ يتسرب إليه. وقال لويلي بعد ثلاثة أيام، عندما لم يكن قد بقي لديهما سوى ثلاثة أيام من العمل في معمل السكر: «أشعر بوجود فاجعة من نوع ما. علينا تعلم التعايش مع فكرة الفاجعة. لم يحدث أن خُذِلت من قبل البَتَّة. وإحساسي ينبئني أن علينا البدء في التفكير بشق طريقنا والعودة إلى المعسكر في أحراج الساج».

فكَّرَ ويلي: «هذا ما سنقوم به. سوف أمضي وأبدأ بداية نقية. إن هذه غلطة».

في ذلك اليوم كان النادل يرتدي بدلة نظيفة. لقد غيّرته. ابتسم وكان مُفعماً بالترحيب. لم يكن هناك سوى بقع نادرة على جيوبه التي يُغْرق فيها يديه على مدى ساعتين أو ثلاث لكي يخرج النقود منها ويعيد الباقي.

فكَّرَ ويلي: «لم أتكهن أبداً أنني سأحظى بمشاهدة هذا. لا بد أن يكون هذا إشارة دلالة لي». وعندما توجه مُجدّداً إلى مكتب البريد قال له الموظف «ثمة رسالة لك. أخبرتك بوصول البريد بعد ثلاثة أيام»:

«عزيزي ويلي، أبونا مريض. كلانا، لا أنا ولا أنت نتواصل معه منذ سنين طويلة، وأخمن أنك لو سألتني لكنت أجبتك بأنني كنت أنتظر موته، إذ إن أحداً لن يستطيع معرفة أصولي ومن أين جئت. لا أدري ماهية مشاعرك، لكن عاري كان عظيماً، أكثر الأيام سعادة في حياتي كان يوم جاء وولف وحملني بعيداً عن ذلك الركام المخادع للعائلة والأشرام. غير أن هذه الأنباء عن مرض العجوز دفعتني للتفكير بالأمور من وجهةِ نظرِهِ. أخمنُ أن المرء مع تقدمه في السن يبدأ التفكير في الأمور بتلك الطريقة. إنني أفهم كم كان متأذياً، عبر

أخطاء لا تعنيه، وها أنا أرى كم كان يقوم بأفضل ما هو مُتاح له. نحن من جيل آخر وعالم آخر. نمتلك فكرة مغايرة عن الاحتمالية الإنسانية ويجب علينا عدم محاكمته بقسوة شديدة. ينبئني قلبي بوجوب الذهاب لرؤيته، رغم أني أعرف حتى صميم عظامي أنني، لدى وصولي، سأجد الركام القديم ذاته وسوف يجللني بالعار منهم جميعاً وسأتوق لترك كل شيء خلفي من جديد.

فكَّرَ ويلي: «إذن فقد كانت بدلة النادل البيضاء إشارة. إن تلك الفكرة، الخاصة بتصريف المئة مارك إلى روبيات وإيجاد طريق عودتي إلى الأشرام لم تكن فكرة سديدة. إنها فكرة جبانة، وهي تخالف معرفتي بالحياة. عليَّ إزاحتها وعدم التفكير فيها ثانية أبداً».

عندما قفل عائداً إلى شارع الدباغين قال له بهوجي ناريان: «إنك على حق، علينا البدء بالعودة إلى المعسكر. إن كانت ألمت بهم كارثة فلا بد أنهم بحاجة لنا هناك أكثر».

آنذاك كانا قد أصبحا متقاربين جداً، في تلك الظهيرة في المدينة، وهما سائران إلى المعمل وفي خلال ساعات العمل وأثناء خطوات عودتهما قبيل الفجر. وللمرة الأولى شعر ويلي بمشاعر الرفقة والميل تجاه الرجل الأسمر.

فكّر: «لم أكن أشعر بهذا الإحساس تجاه أي إنسان. إنه شعور رائع ويملؤني بالثراء، شعور الصداقة هذا. لقد انتظرته أربعين عاماً. إن هذا العمل يعود بنتائج جيدة».

استيقظا قرابة الظهيرة بسبب جَلَبَةٍ أمام المنزل: الكثير من الأصوات الخشنة كانت تتكلم في وقت واحد. كانت تلك أصوات جماعة الدباغين، كما لو أنهم طوروا هذه الكفاءة المشحوذة الخاصة من النبرة الصوتية لكي تتماشى والرائحة النّفاذة للمكان الذي يقطنونه. كان الضوء حول وأعلى الباب يتألق. همَّ ويلي بالخروج والنظر لمعرفة المشكلة. لكن بهوجي أدارهُ إلى إحدى الجهات قائلا: «ثمّةَ من يتعقبنا. الأفضل أن أتعامل أنا مع الموقف. سأعرف ما أقول لهم». ارتدى ثيابه ثم اندفع إلى داخل الفوضى، التي للحال

تحولت إلى هرج ومرج، لكنه عندئذ كان مسكوناً بسطوة صوته الجديد. تحركت الأصوات مبتعدة عن المنزل، وبعد بضع دقائق عاد بهوجي ناريان وبرفقته رجل استطاع ويلي معرفته كواحد من أولئك الذين يتنكرون بزي الفلاحين ويخدمون في الحركة.

قال بهوجي ناريان: «لم أشكّ أبداً أننا سنُترك للغرق. ومع ذلك كنا على وشك فقدان الأمل في مجيئك. لقد عشنا على اقتيات الهواء على مدى أسبوع».

قال مقلد الفلاح وهو يمسح وجهه بالمنشفة الطويلة الرفيعة المعلقة فوق كتفيه، شبيهاً بممثلٍ يغوص في دوره: «لقد كنا نرزح تحت ضغوطات هائلة. إنها الكلاب السلوقية. فقدنا عدداً من الرجال. لكننا لم نَنْسَكُما. لقد حملت لكما المال والتعليمات».

سأله بهوجي ناريان: «كم؟».

«خمسمئة روبية».

«دعونا نمضِ في المدينة. نحن الآن ثلاثة غرباء في حجرة واحدة في هذه المستوطنة، وقد لفتْنا الكثير من الانتباه إلينا. ويمكن لهذا أن يكون حالة غير صحية».

قال مقلد الفلاح: «اضطررت للسؤال. لعلي لم أستخدم الكلمات المناسبة مما أثار شكوكهم».

قال بهوجي ناريان: «لعلك حاولت أن تفعل ما يريحك».

هذه المرة سارا والقادم الجديد إلى داخل المدينة. ثم وصلوا إلى الفندق حيث تناول ويلي قهوته وكعك الرز. كانت بدلة النادل تفقد بريقها سريعاً.

توجه بهوجي ناريان إلى ويلي قائلاً: «مع أنك لم تدخل الحركة إلّا منذ وقتٍ قصيرٍ فالقيادة توليك اهتماماً كبيراً. لقد قَبِلوكَ كمجند مباشرة».

قال ويلي: «وما مهمة المجند؟».

«حمل الرسائل من منطقة لأخرى، وتمرير التعليمات. إنه ليس بمقاتل، ولا يتم إطلاعه على كافة الأوضاع، غير أنه شخص مهم. هذا إضافة إلى أنه قد تُوكَل إليه مهمات أخرى على حدٍّ سواء، تبعاً للموقف. ربما ينقل الأسلحة من النقطة A إلى B مثلاً. المسألة الرئيسية فيما يخص المجند هي أن عليه الحفاظ على مظهره جيداً حيثما وُجِد. يجب أن لا يكشف نفسه أبداً. وأنت تقوم بهذا على نحوٍ ممتاز يا ويلي. هل راقبت الشارع مرة؟ أنا قد فعلت، عيني على الشرطي في ثيابه التنكرية، ولم يكن يستلزم مني الوقت الكثير لأحدد أولئك الذين لا ينتمون لرجال الشرطة في الشارع. حتى أولئك المتمرسون لا يمكنهم الانتفاع من هذا. إنهم يفضحون أنفسهم بعشرين طريقة. لكن، ولسبب معين، يبدو ويلي وكأنه في دياره حيثما حل. وحتى في ساحة التفل كان يبدو وكأنه ابن هذا المكان».

قال ويلي: «إنه الأمر الوحيد الذي عملت عليه طوال حياتي، ليس لأن أكون في دياري حيثما وُجِدْتُ، بل لأبدو وكأنني في دياري».

4

منازل آمنة

عانت الحركة بشكل سيّء من نشاط رجال الشرطة ضد أحد القطاعات، وقد فُقِدتْ فِرقة كاملة، وفي سبيل تخفيف الضغط عن الفِرق الأخرى في القطاع قرّرت القيادة ـ البعيدة والغامضة ـ فتحَ جبهةٍ جديدةٍ في منطقة أخرى هي منطقة نائية لا تتعرّض، بلغة حرب العصابات، للمضايقات.

حتى ذلك الحين كانت مناطق ومجالات حرب العصابات هي سلسلة من المشاهد الطبيعية غير المترابطة: أحراج، قرى، حقول وبلدات صغيرة. الآن وكمُجنّد، برفقة بهوجي ناريان دليله والعارف أكثر منه، أخذت المناظر الطبيعية تنضم إلى بعضها البعض. كان دائم التنقل، سائراً على قدميه في القرى، أو في درّاجة سكوتر ثلاثية العجلات أو في الباصات عبر الطرقات العامة، أو مُستقلاً القطارات. حتى ذلك الحين لم يكن على القائمة المطلوبة من قِبَل الشرطة؛ لذا أمكنه السفر بحرية؛ وهذا كان جزءاً من قيمته كمجند. لقد جَلبَ له تنقّله الدائم السرور، ومنحهُ شعوراً من الغائية والإثارة، رغم عدم مقدرته على فهم حالة حرب العصابات إلّا من خلال حَدْسَه. جزء من عمله كرجل رحّال كان أن يقدم التشجيع ويرفع من معنويات الآخرين، ويبالغ في عرض مساحة المناطق المحررة، والإيحاء أن الحرب في العديد من المناطق قد وصلت إلى نقطة تقارب الانتصار، ولا يلزمها سوى الدفعة الأخيرة وحسب.

أمضى المزيد من الوقت في المدن وأصبح بإمكانه تلقي رسائل

ساروجيني، وبدأ، علاوة على ذلك، بتناول الأطعمة الأفضل. وبشكلٍ شاذٍّ وغريب، كان الطعام سيّئاً في أماكن المزروعات التي يتكون منها؛ أما في المدن فيمكن لكل يوم أن يكون يوم مأدبة. ولكن في القرى، عندما كانت الأوقات جيدة، كان الفلاح يملأ طبقهُ أو صحنه الورقي بالحبوب، ويكون ممتناً فقط إذا أضاف له بعض المنكهات المختلفة. أما في المدن فحتى الفقراء لا يتناولون سوى كميات أقل من الحبوب، وكميات أكبر من الخضروات والعدس. ولأن ويلي كان يتغذى جيداً فقد أصبح أقل عرضة للأمراض الخفيفة، والوهن الذي ربما تجلبه معها.

وللمرة الأولى منذ أسبوعيه اللذين أمضاهما في المعسكر في أحراج السّاج، بدأ وهو مجند يُكوّن فكرة أعمق عن رفاق سلاحه في الحركة. لم تكن انطباعاته في المعسكر حسنةً، غير أنه الآن، في ظل علاقته العميقة مع بهوجي ناريان، هذه العلاقة التي لم تكن تسير في البداية بشكل حسن، ضبط رغبته في رؤية عيوب الناس.

يُعقد كل أسبوعين تقريباً اجتماع بين أشخاص من مستويات أعلى من قطاعات مختلفة. وقد قام ويلي بالمساهمة في التحضير لهذه اللقاءات وتنظيمها، وكان حاضراً في أغلبها. عادةً كانت تُعقد في إحدى المدن ولذلك قد تكون خطرة لأن أي تجمُّع غير معتاد يكون مكشوفاً للسكان المحليين ويتم نقل التقارير عنه للشرطة. لهذا يكون لكل رجل أو اثنين مصدر اتصال خاص بهما في المدينة، ويعملون على الوصول إلى منزله قبل حلول المساء باكراً، بعد رحلة طويلة ربما تستغرق يوماً بأكمله فوق الجسور وبين الحقول، بعيداً عن الطرقات العامة الخطرة. يأتونَ في ملابسَ لا تثير الانتباه، مسألة تنكر. كانت التعليمات أن تكون ملابسهم وهم في الطريق من نوع ملابسهم التي يرتدونها وهم في القرى. ملابس رعيان أو نسّاجين، أو كمثل أولئك الذين يتظاهرون أنهم كذلك، يرتدون أوشحة دثارية تخفي تقريباً كل ما يتعلق بالعلامات المميزة للإنسان.

كان جزء من الاتصال أن يتعرف هؤلاء الأشخاص حال وصولهم إلى المدينة إلى المكان المقرر عقد الاجتماع فيه. أحياناً كانوا يصعدون إلى سقيفة منزل رجل الاتصال ويبدلون ملابسهم بملابس أقل عَرَقاً؛ أو يبدلون ملابس عمل النهار الريفية، المؤلفة من المئزر المحلّي والقميص الطويل ذي الجيوب الكبيرة على الجانبين والمنشفة الرفيعة المزركشة بالألوان على الكتفين، بملابس المدينة: بنطلونات أو قمصان أو أردية طويلة. أحياناً، ومن أجل جميع نقاشاتهم الثورية، كانوا يُفضّلون ارتداء البنطلونات لكي يُنظر إليهم كأناس بنطلون، ولكي يمنحوا أنفسهم مزيداً من تفوق السلطة على زملائهم أثناء النقاشات. كانوا يخلعون الخف القروي الفج حالما يدخلون منزل اللقاء؛ غير أن أقدامهم كانت تحافظ على خدوشها وتبقى آثار الأوساخ عميقة وعصية حتى بعد الغسل وتعطي للاجتماع، مع تبعثر الأوشحة الكبيرة القذرة، مِسحة قروية.

يأتون المدينة بقصد تبادل النقاش، وتلَقِّي التعليمات الجديدة، وإجراء جلسات النقد الذاتي. لكنهم أيضاً يأتون طلباً لتناول الطعام والاستمتاع بمأكولات المدينة الأكثر بساطة، لا بل لكي يتذوقوا الملح المحبحب المميز. ويؤدي هذا النهم البسيط المكبوت إلى نمط معكوس من التباهي، إنهم يتحدثون في حضور الآخرين بتنافسية حول تقشفية حياتهم في القرى.

في واحد من الاجتماعات الأولى التي حضرها ـ جرى في مساكن سكة الحديد، في منزل السكة الحديدية، حيث تمَّ إرجاع الأثاث في الغرفة الرئيسية حتى الجدران، فيما جلس الرجال فوق الفرش والملاءات على الأرضية ـ سَمعَ ويلي أحدهم وكان ذا طبيعة كئيبة يقول: «على مدى الأيام الثلاثة الأخيرة كنت أتناول الرز البارد». لم يضع ويلي في اعتباره أن هذا الكلام هو نقطة انطلاق لحديث ودّي. أخذ الكلام بحرفيته. لم يُصدِّق ما سَمِعَ، و، كارهاً للتباهي والتبجح، ثبّتَ عينيه على وجه الرجل أكثر بقليل من اللازم. لاحظ الرجل ذلك وردّ على تفرُّس ويلي فيه، الوقاحة مقابل الوقاحة، فيما كان يتابع كلامه مع الحضور: «غير أني لم أجد مشقة في ذلك. إنها الطريقة

التي عشتُ بها في طفولتي». فكّر ويلي: «أوه... أوه لقد أوجدتُ عدواً لي». بعد ذلك حاول تجنب النظر إلى الرجل. لكنه كان طوال المساء قلقاً من تنامي ضغينة الرجل تجاهه. شكّلتْ هذه المناسبة خطراً عليه. تذكَّرَ ارتيابه المبكِّر في بهوجي ناريان، الأسلوب الذي كان حَاكمَ فيه شخصاً لم يغادر الهند أبداً عبر مقاييس بلادٍ أخرى. لم يعرف كيف يُسوّي الأمر مع آكل الرز البارد. وعلِمَ في وقت لاحق من ذلك المساء أنه كان رئيس فرقة، وربما علاوة على ذلك، له إنجازاته المهمة داخل الحركة، رجلٌ من مقامٍ أكثر رفعة وأهمية. إن ويلي لا يعدو كونه مجرد مجند، يقوم بما كان يظن أنه عملٌ دعائي شبه فكري، وهو في مرحلة اختبار؛ يلزمه بعض الوقت قبل قبوله في عضوية الفرقة.

فكَّرَ ويلي: «ذات مرة قلت من دون تروٍّ [سؤال وجيه] لبهوجي ناريان ونلت لبعض الوقت حِقدهُ. ونتيجة هذه العادة القديمة، عندما كان الرجل يتحدث عن تناوله للرز البارد، نظرتُ إليه بطريقة ساخرة أكثر مما تكهنت. والآن أصبح عدوّي. سوف يرغبُ في إذلالي، كما يفعل بهوجي ناريان مع بعضٍ من الآخرين، وسوف يرغبُ في إقصاء نظرة السخرية من عينيّ وإحلال الخوف محلها».

كان عدوه معروفاً باسم آينشتاين؛ التقطَ ويلي خلال الأشهر القليلة التالية نُتفاً من حكايته، التي كانت تعدّ حكاية أسطورية في الحركة. جاء من أسرة فلاحية. اكتشف مُدرِّسُهُ في الابتدائية موهبته في الرياضيات ودعمه قدر استطاعته في طول البلاد وعرضها. لم يكن أحد من تلك العائلة قد حصل على درجة علمية أعلى؛ قُدِّمت التضحيات الباهظة عندما حان الوقت لإرسال هذا الشاب إلى المدينة المجاورة حيث يمكنه دخول الجامعة. استأجروا له غرفة صغيرة في شرفة منزلٍ عائدٍ لصاحب مصبغة مقابل خمس عشرة روبية في الشهر؛ كانت الغرفة عبارة عن حيِّزٍ صغير ولائق مساحتها ستة أقدام في أربعة. كان صغر مساحة عيشه والشكل المقنن لتعامله مع المبلغ المالي جزءاً من رومانسية حكايته.

أما روتين حياة آينشُتاين في منزل صاحب المصبغة فقد كان مشهوراً. ينهض في الخامسة، يسوي فراشه، ينظف مكان المعيشة (لم يظن ويلي، بطرقه القديمة العالقة في ذهنه، أنه كان قادراً على الصبر والتحمل زمناً طويلاً). من ثم كان يغسل القدور والأوعية (أبقى عليها منفصلة عن حاجات صاحب المنزل) ويقوم بِغَلْيِ الرز على نار الحطب في الجزء المفرد كمطبخ في شرفته. لاحظ ويلي خلو جدول يوميات التلميذ آينشتاين من حيِّز زمني مخصص لتجميع الحطب؛ لعله كان يستيقظ في أيام التحطيب في الرابعة صباحاً. كان يتناول الرز بعد نضوجه ثم يتوجه إلى المحاضرات. وعندما يعود بعد الظهر كان يغسل ملابسه؛ لم يكن لديه سوى بدل واحد من الثياب. من ثم كان يقوم بإعداد وجبة أخرى من الطعام، وهذه أمكنها أن تكون رزاً أيضاً، ثم يأكل ويخلد إلى النوم. في زمنٍ ما وسط هذا الروتين كان ينجز فروضه الدراسية.

حين حان موعد امتحان بكالوريا نيل الدرجة العلمية وجدَ آينشتاين نفسه يحرُ مع أول مسألةٍ رياضيةٍ في الصفحة الأولى. أصبح دماغهُ أجوفَ. فكَّرَ أن عليه تحرير رسالة اعتذارٍ لأبيه بسبب رسوبه. بدأ بالكتابة، ولكن وفي تلك اللحظة بالذات، وبينما هو يكتب الرسالة، برز له حلٌّ جديدٌ للمسألة كان الحلُّ مُبتكراً بكل ما في الكلمة من معنى. مرّ الامتحان بعد ذلك بسهولة، وأما حلّه الجديد للمسألة فقد أثار بلبلةً في الجامعة. أراد الجميع معرفة تفاصيل رسالة الاعتذار التي انبثق منها الحل، كما في الأحلام؛ وأخذت الأقاويل تنتشر أن آينشتاين كان ولا بد واحداً من التيار الأعظم للعبقريات الهندية في القرن العشرين. بدأ هذا الكلام، الذي غذّاه هو نفسه، بالتأثير فيه. نشر مقالاً رياضياً في إحدى المجلات الهندية ولاقى هذا المقال استحساناً كبيراً، عند ذلك اعتقد أنه بدأ يُصحّحُ نظرية آينشتاين. وللحال بات هذا الأمر هَوَساً لديه. فَقَدَ عمله الجامعي ولم يستطع الحصول على سواه. ولم ينشر أية مقالات أخرى. عاد إلى قريته، أسقط جميع مظاهر الثقافة والتعليم (بنطلون،

قميص مطوي تحت البنطال، الأحذية والجوارب)، وأخذ يحلم بتدمير العالم. وحين أبصرت الحركة النور انضم إليها.

فكَّرَ ويلي: «لا يمكن لهذا الرجل القيام بثورة. إنه يكرهنا جميعاً. عليَّ إيجاد الطريق إلى كاندابالي وإلى الجانب الآخر».

ثم تلقى، في مكتب البريد الكائن في إحدى المدن التي كان يتردد عليها، رسالة من ساروجيني.

عزيزي ويلي، إن مرضَ أبينا يزداد خطورةً وجميع أشغال الأشرام معطلة. أعلم أنك تشعر أن هذا لن يشكل خسارة كبيرة للعالم، لكن أفكاراً أخرى بدأت تنتابني. كان الأشرام ونشاطاته يمثل عملية خلق، قل ما تشاء عن هذا الرأي. أخمن أن هذا من تأثير الموت علينا. أما الأخبار الأخرى، التي ليست أقل سوءاً لا بل ربما أكثر سوءاً من وجهة نظرك، هي أن وضع كاندابالي غير مستقر وهو يفقد القدرة على الإمساك بزمام الأمور ويفقد قبضة تحكّمه، ولا شيء أشد ضعفاً من ثوري يفقد قبضته. إن من يُعجبون بالرجل القوي ويأملون بمشاطرته قوته سرعان ما يشيحون وينأون بأنفسهم عن الرجل الضعيف. يصبح ضعفه نموذجاً للإخفاق الأخلاقي، هازئاً من جميع أفكاره ومبادئه، وهذا ما أخشى حدوثه لكاندابالي وأتباعه. أشعر أنني أوقعتك في ورطة. لست أدري إن كان من الممكن بالنسبة لك العودة إلى جوزيف، أو فيما إذا كان جوزيف نفسه جزءاً من المشكلة.

فكَّرَ ويلي: «فات الأوان الآن على التفكير والتساؤل حول جوزيف وصهره الجلف، مالئاً تلك الشقة بالتوتر. ليس هناك من هو أكثر وحشية وعبثية من ابن طبقة دنيا يريد التعبير والوصول للأشياء بشكل مباشر. لقد أثار فيّ الاضطراب والقلق ذلك الصهر حالما رأيته، بابتسامته الجانبية التي تشي بالغرور».

* * *

قال بهوجي ناريان ذات يوم: «لدينا مجند جديد مثير للاهتمام. إنه يمتلك درّاجة سكوتر ثلاثية العجلات. جاء من خلفيةِ طائفة النسّاجين، لكنه لسبب ما ـ ربما تأثراً بمعلم، أو اقتداءً بصديق أو علاقة قرابةٍ بعيدة، أو ربما لإهانةٍ تعرض لها ـ عرفَ تحولاً في طموحاته. إن هذا النموذج من البشر هو الذي يثير افتتاننا. منذ زمنٍ بدأ هؤلاء بالتحرك، وبعد حينٍ وجدوا أنفسهم يريدون التقدم أكثر فأكثر. ونحن في الحركة قمنا بإجراء بحث حول هؤلاء البشر. ودرسنا العيّنات الطائفية التي تقطن القرى».

فكّرَ ويلي: «أنت صديقي يا بهوجي ناريان، غير أن هذه حكايتك أنت أيضاً. وهذا هو السبب في تفهمك لهذه الحالة». ومن ثم بعد فترة قصيرة، غير راغبٍ في خيانة صديقه حتى في أفكاره، حضرتْ هذه الفكرة الإضافية إلى ذهن ويلي: «من يدري لعلها حكايتي أيضاً على حدٍّ سواء. ربما هذا عائدٌ للمكان الذي نعيش فيه جميعاً. ولعله السبب الذي ينتصبُ خلف قسوتنا الشديدة في إدارة الأمور».

قال بهوجي ناريان: «قام بالبحث عن جماعتنا ثم دعاهم لمنزله وقدم لهم الطعام. وحين تعرضوا للتنكيل من قبل رجال الشرطة قدم لهم منزله كمكان للتخفي فيه. أظن أنه سيكون مفيداً لعملنا في المراسلات. عليَّ التوجه إليه ودفع ديونه. حكايته شبيهة بحكاية آينشتاين، لكنها خالية من ذلك الإشراق. ذهب إلى المدينة بقصد الدراسة، لكنه لم ينل الشهادة، فاضطرت العائلة لاستدعائه إلى القرية. كانوا عاجزين عن دفع عشر أو اثنتي عشرة روبية لقاء إيجار سكن في المدينة، وعشرين أو ثلاثين روبية نفقات طعام الصبي. أمرٌ محزنٌ، يجعلك ترغب بالبكاء. لقد آلمته عودته للقرية بعد أن كان اعتاد على حياة المدينة. أتدري ما كانت تمثل حياة المدينة تلك بالنسبة له؟ كانت هي التوجه صباحاً إلى محل شاي صغير أو فندق واحتساء القهوة وتدخين سيجارة، كانت دخول إحدى دور السينما الصغيرة والحقيرة والجلوس في مقعد النصف روبية، كانت ارتداء الأحذية والجوارب، كانت ارتداء البنطلون

وضبّ القميص تحته والسير كرجل، وليس التخبط في الخف الريفي وفي داخل القميص الطويل. لدى عودته إلى منزل طائفة النسَّاجين العائد للأسرة فَقَدَ كل هذا دفعةً واحدة. لم يكن لديه ما يفعله. لم يكن ليصبح حائكاً. كان سئماً حد الجنون. أتعلم ما الذي قاله؟ «في القرية لا يوجد سوى الطبيعة الصرفة؛ حتى الراديو غير متوفر». لا شيء عدا النهارات الطويلة الفارغة، والليالي الأكثر طولاً. في النهاية حصل على قرضٍ من البنك واشترى درّاجة سكوتر. على الأقل تحمله خارج القرية. ولكن فعلياً فإن السأم هو ما جاء به إلينا. إذا عرفت سأم القرية مرةً فإنك ستكون مهيّأً لأن تصبح ثورياً».

في إحدى الظهيرات، بعد أسبوع أو نحوه، توجه ويلي وبهوجي ناريان إلى قرية رجل درّاجة السكوتر. لم تكن بيوت هذه قرية مسقوفة بالقش وغير منتظمة وطرقاتها قذرة، كما هو حال غالبية القرى. بل كانت الطرقات معبدة والأسقف من الآجر المعوج الأحمر المحلي. إن النسَّاجين ينتمون للطوائف الدنيا، والداليت أو منطقة سكن هذه الطائفة تبدأ عند منحنى في زقاق القرية الرئيسي، غير أنك إن لم تكن تعلم مسبقاً أن هذه هي منطقة الداليت لا بد أنك لن تهتدي إليها. المنازل شبيهة بتلك التي مرّتْ من قبل. والنسَّاجون جلسوا في ظلال ما بعد الظهر في ساحاتٍ أمام منازلهم يغزلون خيوط النسيج ويحولونها إلى خيوطٍ أكبر. كانت الأنوال في داخل المنازل، وعبر الأبواب المفتوحة كان بالإمكان مشاهدة الناس وهم يعملون عليها. كان المشهد يسير برتابة مُخلِّفاً مسحة من الجمال الفائق؛ من الصعب أن يتصور المرء أن هذا الغزل من الحياكة، الذي يبدو شديد الشبه بحرفة جماعةٍ مصونة ومهمة، يُنجز للاستعمال داخل القرية وحسب، أو من أجل هؤلاء الفقراء. كان عملاً يائساً بالنسبة لمن هم معنيون به ويمضي ضمن حدود ضيقة جداً. كانت دواليب الغزل مُركَّبة ومُصنَّعة في المنزل باستخدام إطارات دراجة قديمة لصنع الدولاب الرئيسي؛ وبدا كأن جميع الأجزاء الأخرى المصنوعة من الأغصان وخيوط القنب تعطي انطباعاً بهشاشتها وجهوزيتها للتقصف في أية لحظة.

كانت سكوتر الرجل تركن أمام ساحة المنزل، جوار دولاب الغزل.

وكان هو يسكن مع شقيقه وعائلته في منزل أكبر من المُعدَّل. تتوضع غرف النوم فيه إلى اليسار فيما غرف الأنوال إلى اليمين. لم تكن مساحة هذه الغرف تتجاوز عشرة أو اثني عشر قدماً، فما أن تكون داخل المنزل حتى تجد نفسك خارجه. وراء المنزل وفي إحدى الجهات كان هناك المطبخ المكشوف وفيه سلةٌ كبيرةٌ ملأى بأكواز الذرة الفارغة التي شُريت لتستخدم وقوداً. وأما في الجهة المقابلة فكان المرحاض. وصلَ حقل أحد الذين هم أكثر غنى حتى تخوم قطعة الأرض، تماماً إلى حيث زرع شقيق صاحب السكوتر شجرةً مورِقةً، هي الآن صغيرة ورفيعة الجذع. وبعد فصلين من الآن سوف تقطع لتتحول إلى وقود.

المكان: الكيفية التي يكون فيها محتشداً على الدوام، وكيف أنه في ظل وجود جميع رحابته يكون دائماً لافتاً في تفاصيله. كان ويلي بشكلٍ لا واعٍ يدقق في أنظمة المعيشة في المنزل. تخيّل وجود شيء يشبه العليّة في كل واحدةٍ من غرف النوم. وعَرفَ كيف أصبحت حياة هذا الشاب ـ الذي عرف الحرية المقارنة في المدينة وقد ضاقت لتصبح في القرية هذا الحيز الصغير من منزل الحائك إذ ليس لديه ما يفعله ـ شكلاً من أشكال الموت.

أخرجوا لويلي وبهوجي ناريان مقعدين واطئين، وبلطافة متأصّلة، كما لو أنهم فاحشو الثراء، قدموا لهما الشاي. كان الحرمان المستديم يلقي بظلاله على وجه زوجة الأخ. وجنتاها غائرتان وتبدو في حوالي الأربعين من العمر، مع أن عمرها الحقيقي قد لا يتجاوز الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين عاماً. تحول ويلي في الوقت ذاته ليلاحظ الحرص الذي ارتدت فيه ملابسها لهذه المناسبة، سارٍ بألوان بكماء، رمادي وأسود بأشكال مستطيلة صغيرة، مع شراريب مُذَهّبة.

كان صاحب السكوتر طافراً من السرور لكون ويلي وبهوجي ناريان في منزله. تحدث بحريّةٍ أكبر عن إعجابه بالحركة، ومن حينٍ لآخر كان ويلي يلاحظ شيئاً من القلق في عيني الشقيق.

فكَّرَ ويلي: «ثمة خللٌ صغير هنا. لعله فارق السن، أو ربما التَّفاوتُ في

درجة التعليم؛ أحد الأخوين رجل من رجال البناطيل وقد عرف ما هو السأم، فيما الآخر الأكبر ليس كذلك. لعله هو وزوجته يشعران أنهما يغوصان عميقاً في أمرٍ لا طاقة لهما على استيعابه».

فيما بعد، حينما سأل بهوجي ناريان ويلي: «ما قولك؟». أجابه ويلي: «يبدو راجا فتىً جيداً». راجا هو اسم صاحب السكوتر. «غير أني لست أكيداً من الأخ أو زوجته. إنهما خائفان ويبدو عليهما عدم الرغبة في المشاكل، إنهما يرغبان أن يعملا في الحياكة وتقاضي الأربعمئة روبية شهرياً فحسب. ما المبلغ الذي تتوقع أن راجا اقترضه من البنك ثمناً للسكوتر؟»

«تُكلّفُ السكوتر الجديدة ما بين سبعين وخمسة وسبعين ألف روبية. لا بد أن راجا قد دفع مبلغاً أقل من ذلك بكثير ثمناً للسكوتر. ربما يكون الرقم ثلاثين أو أربعين ألفاً فالبنك لا يقرضه أكثر من هذا المبلغ».

«لا بد أن الشقيق الأكبر يفكر في هذا الأمر كل ليلة. قد يكون لديه قناعة أن راجا تعلم بشكل زائد عن اللزوم وأصابه الغرور وأنه يتقدم باتجاه السقوط».

قال بهوجي ناريان: «إنهما يجلاّن راجا؛ وهما فخوران جداً به؛ وسوف يقومان بكل ما يطلبه منهما».

* * *

شهرياً كانوا يستدعون راجا مرتين أو ثلاث مرات لأداء عمل ما في سبيل الحركة. كان يُقلّ ويلي أو بهوجي ناريان أو أيّاً من الآخرين إلى حيث يريد بسرعة. ولكونه عرف هذا التسهيل الآن، كان ويلي مواظباً على الذهاب إلى مكتب بريد المدينة، ليُلقي نظرة على رسائل بريده المضمون من ألمانيا. وأصبح ويلي مألوفاً لموظفي تلك المكاتب؛ لم يكن مضطراً في كثير من الأحيان لإظهار جواز سفره لهم. وهذا ما بدا له فاتناً؛ الحميمية الهندية التي يتحدث عنها سائر البشر؛ وفقط لاحقاً شغلتْ هذه الحميمية تفكيره.

لاحقاً، وبعد بضعة أشهر، بدأ راجا ينقل المؤن، برفقة ويلي أو بهوجي ناريان أو وحده. ثمة فجوةٌ تحت مقعد الراكب في السكوتر. وكان من السهل تركيب أرضيّةٍ مستعارةٍ لها. باستمرار كان هناك تغير في نقاط التحميل والإفراغ؛ كان من المفهوم أنها لا تعدو كونها عبارة عن مراحل في شكل من التناوب. تصرّف بهوجي ناريان كمساعد، معرفته كانت تفوق معرفة ويلي بقليل، ومع ذلك فهو لم يكن على اطلاع على كل شيء. تُجمع المؤن، التي كانت بشكل أساسي من الأسلحة، استعداداً لجبهةٍ جديدةٍ في إحدى الجهات. بعد كل الهزائم التي مُنيت بها، أصبحت الحركة حذرة وكانت توظف الكثير من المجندين، ويتم استخدام كل منهم لمرةٍ واحدة أو مرتين في كل شهر؛ وكانت تلك الذخائر تُرسل في كمياتٍ صغيرةٍ، إلا أنها لن تكون في حال صُودرتْ أو تعرضتْ لأي طارئ سوى خسارة صغيرة، خسارة غير ذات تأثير في الخطة الكبرى.

في أحد الأيام قال راجا لويلي: «هل سبق لك رؤية مراكز الشرطة؟ هل نذهب ونلقي نظرة؟».

«لم لا؟».

لم يحدث لويلي قط أن فكر في الذهاب والبحث عن العدو في مخبئه. كان حتى الآن يعيش بصحبة مجموعةٍ من المناظر المنفصلة، وواجباته المتقطعة، من دون أدنى فكرة واضحة عن نتائج أفعاله. لم يتناهَ إلى ذهنه أن هذا الآخر، المشهد المرسوم بدقة للمنطقة كان أيضاً مشهداً مفتوحاً وفوضوياً بالنسبة له، سوف يكون سهلاً بقدر فتح أي كتاب. وعندما أصبحا على الطريق الرئيسي، متوجهين نحو مراكز شرطة المقاطعة، كان ذلك لوهلة من الزمن شبيهاً بالعودة إلى الحياة السابقة بكل ما فيها.

تطلّبَ مشهد الأرض المنبسطة الممتدة شعوراً أكثرَ وداً. أشجار الهيم وخطوط الظل التي تخطّها الأشجار على أطراف الطريق، رغم أن امتداد وتواصل خط الأشجار كان مُتقطعاً في مناطق معينة، فقد كان ينبئ عن الخير

والهبة الطبيعية اللذين مايزالان مستمرين في الحياة. أوقع هذا المشهد شعوراً أخرَ أيضاً، الشعور بتحرك الحياة متزاوجاً مع السرور بوجود تلك الحياة ـ توقُّف الشاحنات ذات الرسوم الملونة الكبيرة، وإعلانات الكولا، والمطابخ المعتمة المدخنة في الخلف نتيجة المواقد الأرضية فوق المصطبات المرتفعة، والكراسي مع الطاولات البلاستيكية برسومها ذات الألوان الفاقعة (كل شيء عليه ألوان ودعايات الكولا) في الساحات المغبرّة في الأمام ـ الشديدة الاختلاف في الانطباع والدلالات عن حبور التضحية الذاتية التي كان ويلي قد عاشها لأكثر من عام. حيث كان هناك ماء كانت هناك حقول نضرة من الأرز والذرة والتبغ والقطن، وأحياناً البطاطا أو الفليفلة. لقد تحوّلت الحقول التي عرفها ويلي في المناطق المحررة وتداعت إلى قِفار: فرّ مُلّاك الأرض والإقطاعيون قبل أن تعمّ الفوضى التي أثارتها حرب العصابات بعد سنوات، وليس هناك من نظامٍ جديدٍ وبديل ليسيّر الأمور.

كان من السهل على ويلي العودة إلى الأنماط القديمة من الإحساس، فقد أصيب بصدمةٍ لدى وصولهما إلى مراكز شرطة المقاطعة، إلى منطقة الشرطة في إحدى أطراف المدينة، إذ كان هناك ضجيج رهيب تُصدره عشرون أو ثلاثون سكوتر كالتي لراجا، وعبر السحائب الداكنة الكئيبة للدخان المُتهالك رأى أكياس الرمل القديمة ذات البقع (وهي تروي حكاية متكررة عن الشمس والمطر والشمس ثانية) والبنادق الآلية والبدلات الرثة المستعملة لأكثر من مئة مرة التي يرتديها عناصر قوة الشرطة الاحتياطية المركزيّة الذين يقفون خارج مبنى المركز، هذه البدلات التي تروي حكايتها بجديّة مُهلكة: لرؤية هذا التأثير للأشياء غير المترابطة التي كان قام بها، ولكي يعي بطريقة جديدة أن الحيوات مشدودة إلى أعلى الخازوق. كانت أرض ساحة العرض ولعلها أيضاً ساحة التدريب، أرضاً رمليةً؛ وقد طُليت أحجار الحواجز في داخل المعسكر بالكلس حديثاً؛ وكانت أشجار الظل كبيرة وعتيقة، كانت مثل باقي منطقة الشرطة ينقصها أن يكون لها تاريخ: لعلها جاءت من زمن العهد البريطاني. أخبر راجا

ويلي، صارخاً فوق جلبة وصرير السكوتر الأخريات، وهو مُثار عن مكان غرف المفوضين في أحد الأبنية المؤلف من طابقين، وعن مكان غرف ضيوف الشرطة، ومكان مبنى الترفيه في مكان آخر من هذه التركيبة في أحد أطراف ساحة العرض العسكري.

لم يكن ويلي مُثاراً، كان يفكر بقلبٍ مهزوم: «حين أخبروني عن مهمة رجال العصابات، كان عليَّ الاستفسار منهم عن الشرطة. كان عليَّ عدم الإتاحة لنفسي الاعتقاد أن هناك طرفاً واحداً فقط في هذه المعركة. لا أدري كيف نقترف أخطاء كهذه. لكننا مع ذلك نفعل».

بعد برهة وجيزة من تلك الرحلة، قُبل راجا في معسكر التدريب وبقي هناك لمدة شهر ثم عاد قُدماً إلى عمله على السكوتر.

آنذاك فقط أخذت الأمور تسير معه بشكل سيء.

قال بهوجي ناريان لويلي ذات يوم: «من المروّع قول هذا، إننا واقعون في مأزق بخصوص راجا. كِلا المؤن والذخائر الأخيرة صُودرت من قبل رجال الشرطة في المكان الذي أودعها فيه».

قال ويلي: «ربما يكون ذلك مجرد حادث، ومن المحتمل أنه يتعين إلقاء اللوم على من تلقّاها».

قال بهوجي ناريان: «لدي رؤيةٌ مختلفة للأمر. يخالجني شعورٌ أن الشرطة تمكنت من رشوة شقيقه الأكبر، أو ربما كليهما. إن ثلاثين ألف روبية دين باهظ».

«دعنا نترك هذا لوقته. دعنا نكف عن استخدامه».

«وهذا ما سنفعله».

بعد أسبوعين قال بهوجي ناريان: «لقد تحقق ما خشيته. يريد راجا الانسحاب من الحركة. لا يمكننا السماح بمثل هذا. لقد نقل لنا كافة

الحمولات. أظن علينا التوجه إليه والتحدث معه. أخبرتهُ سابقاً أننا آتيان لنناقش المسألة معه. علينا التأكد من الوصول إلى هناك قبل غياب الشمس. سوف نستقل سكوتر أخرى».

كانت السماء حمراء ذهبية، وكانت الأشجار القليلة والضخمة في نطاق منطقة النسَّاجين سوداء. في أحد المنازل، أبعد بحوالي مئة ياردة، كانت هناك نار طبخ. ذلك هو منزل الأسرة التي تصنع السجائر من أوراق الهيدي. يحصلون مقابل لف ألف لفافة تبغ يومياً على أربعين روبية. وهذا يعني أنهم يجنون ضعف ما يجنيه الحائك في يوم العمل الواحد.

قال بهوجي ناريان لراجا وشقيقه: «أظن أنه علينا دخول المنزل».

وحين أصبحوا في الداخل قال الشقيق الأكبر: «لقد طلبت منه الرحيل. لا أريد رؤيته وهو يُقتل. وإذا ما قُتل فسوف يتحتم علينا بيع السكوتر. ونخسر في سعر مبيعها ويبقى دين البنك الذي سيتوجب علينا ردّه. لا طاقة لي على ذلك. سوف يتعرض أطفالي للفقر ويعيشون على صَدَقَة الآخرين».

قالت الزوجة، التي كانت ترتدي في المرة الماضية أفضل سارٍ لديها ذا الشراشيب ذهبية، وهي الآن ترتدي تنورةً فلاحيةً وحسب: «ابتره يا سيدي. اقطع له ذراعاً أو ساقاً، بحيث يظل قادراً على الجلوس وراء النول وتأدية عمل ما. أرجوك لا تقتله. سوف نغدو متسولين إذا فعلت». جثتْ على الأرض واحتضنتْ ساقي بهوجي ناريان.

فكّر ويلي: «كلما زادت في توسّلها واستعطافها، ازداد حنقه. إنه يرغب برؤية الخوف في عيني الرجل».

بعد سماع دوي إطلاق النار، وتحوّل رأس راجا إلى هشيم، تَسمّرت عينا الأخ كما لو كان يحملق في الأرض. تلك كانت هي الحالة التي تركوه عليها، الأخ الأكبر مُحدّق في الأرض بعينين جاحظتين بعد ذلك على الأنوال المصنوعة بيتياً.

كانا على درب عودتهما للقاعدة شاكرين قعقعة السكوتر.

قال بهوجي نارياںْ بعد أسبوع، حين تلاقت عيونهما: «أعطِ للأمر ستة أشهر. من خلال تجربتي هذا هو الزمن الذي يتطلبه النسيان».

* * *

لبضعة أسابيع تالية تعجب ويلي من نفسه. فكّرَ: «عندما التقيت بهوجي ناريان للمرة الأولى لم يرُق لي. كنت مرتبكاً من علاقتي معه. وفيما بعد بطريقةٍ ما حين كنا معاً في شارع الدباغين، وكنت آنذاك ضعيفاً جداً، وجدت الرفقة في صحبته. تلك الرفقة كانت ضرورية لي. ساعدتني على مدى فترات سيئة، حين كنت أغوص في أشكالٍ قديمةٍ من الإحساس، وأنماطٍ قديمةٍ من الرغبة في الفرار، ذلك الشعور بالرفقة كان الشعور الأسمى عندما أتذكره الآن. أعلم أن ذلك البهوجي ناريان الآخر، الإنسان الذي أرتابهُ، مايزال حاضراً، ولكن الآن عليَّ البحث عنه بدأب. الآخر هو ذلك الإنسان الذي أعرفه وأفهمه. أعرف كيف يفكر ومبررات قيامه بما يفعله. إنني أحمل المشهد الذي جرت أحداثه في منزل الأنوال في رأسي. ما أزال أرى السكوتر في الساحة جوار دولاب الغزل بإطار الدراجة القديم. ما زلت أرى الأخ المسكين بعينيه الجاحظتين، وأستطيع أن أفهم ألمه. ومع ذلك لا أظن أنني سأقوم بملء إرادتي بخيانة بهوجي ناريان لأيّ كان. لا أظن أن ثمّة هدفاً من ذلك. لم أستنتج بعد الأسباب التي تجعلني أرى أنه ليس هناك هدف من ذلك. يمكنني قول كثير من الكلام حول العدالة والبشر هناك في الطرف الآخر. غير أن ذلك سيكون زائفاً. الواقع أنني بلغت نمطاً جديداً من الشعور. وإنه لمن المذهل أن هذا حدث لي بعد أربعة عشر أو خمسة عشر شهراً من هذه الحياة الغريبة فقط. في الليلة الأولى، في المعسكر وسط أحراج السّاج، سبّب لي وجود المجندين الجدد الاضطراب. لاحقاً عرفت القلق بسبب مواجهتي للوجوه التي تأتي لحضور الاجتماعات التي تجري بين جدران المنازل الآمنة. الآن أشعر أنني أفهم الأمور برمتها».

* * *

استمرا في عملهما الهادئ والحذر في نقل المؤن إلى حيث فُتحت جبهةٌ جديدةٌ، يعملون كالنمل الذي يُنشئ وكراً في التراب أو ينقل نتف الأوراق إلى ذلك الوكر، كلّ شغّالة راضية ولها دور مهم في مهمتها المؤقتة، تحمل ذرّة تراب أو تضع البطانة الورقية من الأوراق المقطعة.

توجّهَ ويلي وبهوجي ناريان إلى مدينة سكة الحديد لكي يتحققا من سلامة وصول المؤن. تلك المدينة كانت واحدة من الأماكن التي التقطَ فيها رسالة من مكتب البريد المضمون. كان قد زارها مؤخراً برفقة راجا، وقد انتابه شعورٌ آنذاك ـ من خلال لطافة الموظف ومودته الشديدة ـ أنه قد بالغ في رحلاته إلى مكتب البريد في سكوتر راجا وعَرّضَ نفسه لأن يكون معروفاً بوصفه الرجل الذي يتلقى الرسائل من ألمانيا. حتى ذلك الحين كان يعتقد أن مكتب البريد مكانٌ آمنٌ تماماً؛ حتى إن قلّة من الناس يعرفون بوجود هذه الخدمة المُسهِّلة للرسائل. لكنه الآن أخذ يتعرف إلى شعورٍ مقلقٍ بالنذير السيئ. تفحّص جميع المخاطر التي يمكن أن ترتبط بمكتب البريد المضمون؛ انصرف عنها جميعاً. لكن النذير السيئ بقي. فكّر: «هذا كله بسبب راجا. إنها الكيفية التي يلقي بها الموت بلعنته علينا».

كانت مستعمرة عمال سكة الحديد عبارة عن مستوطنة قديمة، أُقيمتْ في الأربعينيات ربما، تتألف من منازل بيتونية ذات شقق مسقوفة وتكون هذه مؤلفة عادةً من غرفتين أو ثلاث غرف مرصوفة بقوة بشكل متلاصق على الدروب القذرة من دون دورات لمياه الصرف الصحي. ولعلها قُدّمتْ في ذلك الزمن كإنجاز للدلالة على الوعي الاجتماعي، وكنموذجٍ لبناء المنازل منخفضة التكاليف، ولعلها بدت آنذاك إلى حد ما مقبولة فقط في رتلٍ جميلٍ مثالي (ونقوش زاهية) لسمو الهندسة المعمارية. وبعد خمسة وثلاثين عاماً، أصبح هذا الشيء المبتكر كتلةً من الشناعة. أخذ الأسمنت يَسْوَدُّ ويتسخ على ارتفاع قدمين أو ثلاثة فوق الأرض؛ تآكلت إطارات الأبواب والنوافذ في أجزاء كبيرة منها. مساحةٌ خاليةٌ من الأشجار والحدائق، ما عدا أصص الحبق المعلقة على

بعض المنازل، هذه العشبة مرتبطة بالدين وتستخدم في بعض الشعائر الدينية. لم يكن هناك مساحات للجلوس أو للّعب أو لغسيل الثياب؛ وما كان ذات مرة نظيفاً وتامّاً وخالصاً في الصورة المعمارية أصبح الآن مليئاً بالخطوط المشوشة، والأسلاك الكهربائية الثخينة والرفيعة التي تتدلى من أحد الأعمدة المحنية إلى الآخر. وكانت هذه الفوضى بأكملها من صنع البشر: بسبب شروط منازلهم، أُجبر السكان على العيش خارج الأبواب في جميع الفصول: كما لو أنك تستطيع أن تفعل بالبشر في هذا المكان ما تشاء، تعطيهم أي شيء ليعيشوا عليه، وتجعلهم يتكيفون مع المكان كيفما كان.

كان المنزل الآمن يقع في أحد الشوارع الخلفية، وقد بدا مغطى تماماً.

قال بهوجي ناريان: «حافظ على بقائك بعيداً عني حوالي مئة خطوة». أخذ ويلي يعمل على إضاعة الوقت، كان باطن قدميه ينزقُ عن الجلد الصقيل لخفّه القروي ويتجرجر فوق قاذورات الشارع.

كان هناك بعض الصبية الهزيلون يلعبون نوعاً مُشوّهاً من الكريكيت بواسطة كرة تنس شديدة الوساخة، وأما المضرب فقد تمّ ارتجاله من ضلعِ أصل جذع شجرة جوز الهند، وبدلاً من عصيّ الهدف وضعوا صندوقاً. شاهد ويلي أربع أو خمس كرات تنطلق: لم يكن هناك من مهارة ولا معرفة حقيقية بأصول اللعبة.

أدرك ويلي بهوجي ناريان عند المنزل.

قال بهوجي ناريان: «لا يوجد أحد هنا».

التفّا حول المنزل إلى الخلف. قرع بهوجي ناريان بقوة على الباب المهلهل، الذي كان متعفناً في أسفله في المكان الذي تساقط عليه المطر على مدى عدة فصول. كان من اليسير ركله والدخول، لكن أصواتاً حادّة زاعقة صرخت عليهما من ثلاثة منازل في الخلف: رجال ونساء يجلسون في الظلال الضيقة لمنازلهم.

قال بهوجي ناريان: «إنني أبحث عن صهري، والدهُ في المشفى».

قالت إحدى النساء وكانت نحيفة بشكل يدعو للرثاء وترتدي سارياً أخضر اللون تبدو من خلاله جميع عظامها الناتئة: «لا يوجد أحد هنا. جاء البعض إليه ذات صباح ومضى برفقتهم».

سألها بهوجي ناريان: «متى كان ذلك؟»

قالت المرأة: «منذ أسبوعين، أو ربما ثلاثة أسابيع».

قال بهوجي ناريان لويلي بصوتٍ خافتٍ من تحت أنفاسه: «علينا الرحيل من هنا». ثم توجّه للمرأة قائلاً: «علينا إيصال هذا الخبر للأقارب الآخرين».

سارا عائدين وهما يمرّان بالمحاكاة الهازئة للعبة الكريكيت.

قال بهوجي ناريان: «ما زلنا ندفع ثمن ما اقترفه راجا. كل من كان يعرفه وهو معنا تعرض للاشتباه به. لقد خذلتُ حارسي، كنت أحبه كثيراً. علينا الرحيل عن هذه المدينة. نحن مُراقَبان حتى أثناء سيرنا هذا».

قال ويلي: «لا أظن أنه راجا. ربما يكون شقيقه، وفعلها من دون أن يكون بحق يعرف ما هو فاعل».

«سواء كان راجا أو أخوه، لقد تلقينا ضربةً قاسيةً. خسرنا عمل سنةٍ كاملة. مئات آلاف الروبيات من الأسلحة. كنا نقوم بتشكيل فرقةٍ هنا. السماء وحدها تدري ما قد حلّ بالقطّاعات الأخرى».

سارا خارجين من مستعمرة سكة الحديد نحو المدينة القديمة.

قال ويلي: «أريد الذهاب إلى مكتب البريد. قد تكون هناك رسالة من شقيقتي. وبما أننا لن نعود إلى هذا المكان ثانية ربما تكون هذه هي فرصتي الأخيرة لبعض الوقت كي أتلقى شيئاً منها».

كان المكتب صغيراً، بناءاً حجرياً من الطراز الإنكليزي لكنه أكثر زخرفة. جدرانه مغنولية أو من المغرة الصفراء بحَوَاف لها ارتفاع إسمنتي عليه رسوم حمراء؛ أيضاً كان فيه أفاريز حجرية عميقة وواطئة على الطراز الهندي؛

وحجر أو جزء إسمنتي شبه دائري في أعلى الواجهة عليه تاريخ 1928. مقابل المكتب، وبانحرافٍ قليلٍ، على الطرف الآخر من الشارع كان هناك محل للشاي.

قال ويلي: «دعنا نشرب شاياً أو قهوة».

عندما جاءت القهوة. قال ويلي: «عليَّ إخبارك بأمرٍ؛ لقد تملكتني العصبية والتوتر من مكتب البريد هذا. كنت آتي إليه باستمرار برفقة راجا. أنت تعرف كيف كانت قدماه تحكّانه. كان دائم الرغبة في التواجد على الطرقات. كنا نأتي إلى هنا حتى عندما لا تكون هناك رسائل من أختي. يسعكَ القول إنني كنت آتي أحياناً مع راجا طلباً للرفقة وقيادة السكوتر فحسب. ومع مرور الأيام أصبح ذلك الموظف ودوداً. في البداية كان الأمر مُحبّباً أن تكون معروفاً من قِبَل أحدهم. فيما بعد أثار هذا الأمر مخاوفي».

قال بهوجي ناريان: «سوف أدخل أنا بدلاً منك».

أخذ رشفةً من القهوة، ثم وضع الكأس على الطاولة، وشقّ طريقه عابراً الشارع نحو مدخل مكتب البريد المُعتم تحت الأفاريز الحجرية الواطئة. وفيما كان الظلام يبتلعه شاهد ويلي أربعة أو خمسة رجال يرتدون ملابس مختلفة يحررون أنفسهم من جلساتهم الثابتة عند الفم المظلم لمكتب البريد تقريباً. بعد دقيقة قام هؤلاء الرجال، وقد أصبحوا جميعهم كتلة واحدة، بدفعِ بهوجي ناريان بعجلةٍ إلى ما كان يبدو سيارة أجرةٍ غير أنها الآن قد كشفت عن نفسها لتتحول إلى سيارة شرطةٍ غير مميزة بشارة الشرطة.

بعد أن ولّت السيارة بعيداً دفع ويلي حساب القهوة وعَبَرَ الشارع إلى طاولة مكتب البريد المضمون. كان هناك موظفٌ جديد.

سأل الموظف: «ما سبب كل هذا؟»

أجاب الموظف بإنكليزيته المفرطة في الشكلية: «إنه أحد الأشرار. لقد كان رجال الشرطة في انتظاره طوال الأسبوع».

قال ويلي: «هل يمكنني شراء الطوابع عن هذه الطاولة؟»

«من هناك، في المقدمة...».

فكَّرَ ويلي: «عليَّ المغادرة حالاً. عليَّ الرحيل بسرعةٍ والتوجّه إلى محطة سكة الحديد. ينبغي عليَّ العودة إلى القاعدة بأسرع ما أستطيع».

ومن ثم، مع كل خاطر جديد خامره أثناء سيره الحثيث تحت الأشعة الحارقة لشمس الظهيرة، كان يتجلّى أمامه حجم مأزقهِ أكثر فأكثر. رسالة ساروجيني هي الآن بين يدي الشرطة. وربما الرسائل السابقة كذلك. لقد افتُضح أمره وأصبح كل ما يتعلق به معروفاً وها هو الآن على قائمة المطلوبين من قِبل الشرطة. لم يعد ينعم بحماية غموضه. وبعد بضع دقائق فحسب من تجلّيه لهذه الحقائق الجديدة عن حاله، بدأ يحيا مسترجعاً من جديد تلك الدقائق الاثنين أو الثلاثة البسيطة جداً من خَطْوِ بهوجي ناريان نحو اعتقاله. كان ذلك تبجّح بهوجي ناريان بدرايته في مراقبة الشارع، وقدرته على معرفة من هم أولئك الذين لا ينتمون لمرتاديه. وفي النهاية أدّت هذه الموهبة إلى إخفاقه، أو ربما لم يكن عندها قد فكّر في توظيفها. لعله لم يفهم هذا الخطر. أو لعله كان مُشوشاً جداً بسبب ما جرى قبلاً في مستعمرة سكة الحديد.

من خلال اللوحات السوداء والبيضاء الباهتة التي يعلوها الغبار قرأ ويلي في محطة سكة الحديد أن القطار التالي، الذي كان متوجهاً إلى وجهته هو، كان قطاراً سريعاً وليس قطاراً عابراً. القطارات العابرة بطيئة، وتتوقف في جميع المحطات في طريقها، بينما قد يحمله القطار السريع عدة أميال أبعدَ من النقطة التي عليه النزول فيها بشكل عادي. سوف يقحمه هذا القطار في السير ليلاً عبر القرى والحقول، وهو يثير هياج الكلاب في القرى والطيور في المساحات المكشوفة. وسوف يكون طوال الوقت مركزاً لإثارة اهتياج هائلٍ؛ أو سيتعين عليه طلب كوخ من أحد الفلاحين أو المنبوذين في أطراف قريته لكي يأوى الليل، ويحصل على حظوة في سقيفة مكشوفة مع الدجاج والدواب.

لم يكن القطار السريع متوفراً إلّا بعد ساعة أخرى. تناهت هذه الفكرة العبثية من أن ساعة الروليكس على رسغه سوف تشدّ انتباه إيّ كان إلى أن صاحبها هاربٌ له ارتباطاتٌ ألمانية. بعد حينٍ أصبح هذا القلق المزيف حقيقة، وأخذ التساؤل الوجل فيما إذا كان مُلاحقاً من المدينة حتى المحطة، أو إن كان أحد مراقبي الشوارع من رجال الشرطة الخبيرين لم يكتشفه كدخيل، وليس من السكان المحليين، في محل الشاي مقابل مكتب البريد.

كان هناك طريق على مستوى الأرض أعلى من مسارات السكة يمتد حتى الرصيف على الجانب الآخر. وهذا الطريق كان شديد الازدحام. وكان هناك أيضاً جسر خشبي قديم، ذو معبرٍ للمشاة بين جدارين مرتفعين إلى حد ما (مرتفعين، ربما، لمنع المارة من إلقاء أنفسهم أمام القطارات). على هذا المعبر يسير عددٌ قليلٌ من الناس الآن. جميعهم من الشباب؛ وقفوا فوق الجسر طلباً للمغامرة والتمتع بمشاهدة المنظر. توجه ويلي ووقف معهم. حاول، عارفاً أن رأسه وكتفيه هي ما تظهر منه فقط، مراقبة الحشود والتدقيق فيها. لم يكن مفتوناً في أية لحظة وهو ينظر كم كان هؤلاء البشر غير واعين لذواتهم في أثناء حركتهم، وكم كانت فريدة حركات كل منهم والكم الذي تظهره من شخصياتهم.

لم ير أي شيء يمكن أن يثير القلق، ولدى وصول القطار السريع، وبدا أن الحشد على وشك أن يجأر، والباعة المتجولون أضافوا زخماً زائداً من الحدة في أصواتهم الأمر الذي جعلها تُسمع أعلى من الصخب العام، جرى نحو الأسفل وشق طريقه ثم أقحم نفسه داخل مقصورة الدرجة الثالثة التي كانت قد غصّت بالركاب الآن. كان للنوافذ المفتوحة عوارض معدنية أفقية؛ والغبار المتناثر الناعم ينتشر في كل مكان. كان كل شيء يلتهب، وتفوح من الجميع روائح الملابس البالية والتبغ. عندما استأنف القطار السريع انطلاقه من جديد تحت وهج الشمس فكّر: «كان الحظ إلى جانبي. ها أنا وللمرة الأولى هنا لوحدي وبملء إرادتي».

ليس بعيداً عن محطة القطار السريع، حين أراد ويلي القفز من المقصورة، أخذت هذه تميل بِحدّة. عند هذه النقطة حتى القطارات السريعة كانت تُخفّف من سرعتها، خطّط ويلي، الذي يشعر أن الحظ إلى جانبه، للقفز من القطار عند تلك النقطة، لكي يجنّب نفسه المسير الليلي في مقاطعةٍ غير مألوفةٍ له. تلك النقطة كانت على بعد حوالي الساعتين.

فكّر: «إنني بمفردي. لم يعد بهوجي ناريان معي. أتوقع مواجهة أوقاتٍ عصيبةٍ مع البعض في هذه الأثناء».

أخذ يتفحص ركاب مقصورته. لا بدّ أنهم من شاكلة بهوجي ناريان المسكين وعائلته، أولئك الذين اعتاشوا على فقرهم على مدى جيلين أو ثلاثة. جميع ذلك العمل والطموحات تبددت الآن. وفوق كل ذلك، ذلك الاحتمال برمته قد انطرح إلى البعيد. كان قد أخبر بهوجي ناريان، خلال أحاديثهما في هذه الأمور منذ زمنٍ بعيد، ومن قبل أن يصبحا أصدقاء، أنّ حكاية عائلته حكاية ناجحة. التزمَ بهوجي ناريان الصمت آنذاك، بدا كأنه لم يسمع. والشيء ذاته كان ينطبق، مع أن ذلك أقل إلى حد ما، على حركة راجا التصاعدية من طائفة النسّاجين. تلك الحكاية، أيضاً، كانت مُفعمة بالإمكانية الكبيرة، وأيضاً انتهت حياته إلى لا شيء. ما كانت الغاية من ذلك النمط من الحيوات؟ ما الهدف مما يمكن أن يُنظر إليه على أنه شخصان انتحاريان؟

بعد عدة دقائق، قريباً جداً من النقطة التي حددها لقفزه حين كانت السكة تنعطف، فكّر ويلي: «إنني على خطأ. أنظرُ إلى الأمور من وجهة نظري وحسب. بالنسبة لبهوجي ناريان كل شيء كان هو الهدف. شعر بنفسه أنه رجل. هذا ما قدّمته له الحركة بل حتى انتحاره، إذا شئنا تسميته هكذا.»

من ثم، قبيل إلقاء نفسه من القطار، فكّر ويلي: «لكن ذلك رومانسي وخاطئ. لكي أغدو رجلاً يتطلب الأمر أكثر من هذا بكثير. لقد اختار بهوجي ناريان الدرب المختصرة».

أبطأ القطار في سيره، حتى سرعة تقارب العشرة أميال في الساعة. عند ذلك قفز ويلي فوق جسر السد المرتفع تاركاً جسده يتدحرج نحو الأسفل.

كان ضوء النهار يتلاشى. لكن ويلي كان يعرف المكان، كان أمامه مسيرة ثلاثة أميال أو نحوها للوصول إلى قريةٍ أو كوخٍ، أو هو أقرب لمنزل عزبة، إنه يعرف مالكهُ جيداً. كانت الرياح الموسمية انتهت، ولكن الآن، كما لو ذلك نكايةً به، أخذت السماء تمطر. استغرقت هذه الأميال الثلاثة زمناً طويلاً. ومع ذلك أمكن للأمور أن تكون أسوأ. لو لم تواته الشجاعة، ولم يقفز من القطار عند ذلك المنعطف العالي والخطر، لكان القطار حمله أميالاً أخرى حتى محطته: رحلة نهار كامل على الأقدام، على الأقل.

كانت الساعة قرابة الثامنة لدى وصوله القرية. لم يكن هناك من أضواء. يخلد الناس للنوم باكراً هنا؛ كانت الليالي طويلة. كان شارع القرية الرئيسي يعبر ويسير بمحاذاة الجدار الأمامي القصبي الموحل لمنزل العزبة الشاهق الذي يملكه شيفداس. هزَّ ويلي الباب الواطئ ثم ناداهم. ردّ شيفداس على النداء مباشرة. وللحال وهو شبه عارٍ، الرجل شديد السمرة الطويل والنحيف، فتح له الباب وترك ويلي يدلف إلى المطبخ، الذي كان يقع في مقدمة المنزل، خلف جدار الشارع القصبي الموحل. كان القش مُسودّاً وجذوعه ظاهرة بسبب تصاعد أبخرة الطهي على مدى سنوات.

قال شيفداس: «لم أكن أتوقع قدومك».

قال ويلي: «ثمة حالةٌ طارئةٌ، لقد تمَّ توقيف بهوجي ناريان».

تلقى شيفداس الخبر بهدوء، ثم قال: «هيا، جفّف نفسك. أترغب بالشاي أم الرز؟»

نادى على أحدهم في الغرفة المجاورة، ومن ثم حدثت حركة في الغرفة. كان ويلي يعرف ما يعنيه صدور هذه الحركة: كان شيفداس يطلب من زوجته التخلي عن سريرهما للزائر. هذا ما يفعله شيفداس في مثل هذه

المناسبات. لقد اكتسب هذا الكرم والكياسة غريزياً. غادر كلاهما، هو والزوجة، المنزل الأساسي المسقوف بالقش وتوجها نحو الغرف القرميدية المكشوفة والواطئة في جانب الفناء في الخلف، حيث كان أطفالهما يرقدون.

بعد أقل من ساعة، مضطجعاً في سرير شيفداس تحت القش الأسود البارد والمرتفع، والرائحة النفّاذة للملابس البالية والتبغ تملأ المكان، هذا الرائحة الشبيهة برائحة مقصورة الدرجة الثالثة في قطار سكة الحديد قبل ساعتين فقط، فكّر ويلي: «إننا نعتقد، أو هم يعتقدون، أن شيفداس يفعل ما يفعله لأنه فلاحٌ ثائر، إنسانٌ قامت الثورة ببنائه، وجعلتْ منه شخصاً جديداً وشديد الكرم. بيدَ أن شيفداس يفعل ما يفعله لأنه يتّبع الأفكار والأعراف القديمة، والأساليب القديمة، والكياسة القديمة بشكل عفوي. سيجيء يوم لن يتخلى فيه عن سريره لي. لن يظن أنه مضطرٌ للقيام بهذا. ذلك اليوم سيكون نهاية العالم القديم ونهاية عصر الثورة.

5

أكثر توغلاً في الأحراج

عاد إلى قاعدته - كانت قاعدته وقاعدة بهوجي ناريان، قائده - في وقت متأخر من ظهيرة اليوم التالي. قريةٌ نصفُ أو ربعُ قَبَلية تائهة في عمق الأحراج ولم تصل إليها حتى الآن أنشطة رجال الشرطة؛ كانت مكاناً بحق يمكن للمرء الاستراحة فيه، إن كان مثل هذا الاسترخاء ممكناً في هذه الآونة.

وصل في ساعة مايزال الناس يدعونها بغبار البقرة. الساعة التي كان فيها رعاة القطعان في الأيام الغابرة (الذين تستأجرهم القرية لقاء بضعة سِنتات يومياً) يسوقون قطعان ماشية القرية إلى المبيت وسط سحابة من الغبار، ويقوم الضوء الذهبي للغسق بتحويل ذلك الغبار المقدس إلى كتلة ذهبية متماوجة وناعمة. الآن، لم يعد هناك من وجود لرعاة القطعان، إذ ليس من مُلّاكٍ ليستأجروهم. وضع الثُّوّار نهاية لذلك النموذج من الحياة الريفية الإقطاعية. رغم أنه مايزال هناك من يحتاجون لمن يُشغّلهم في ساعات النهار الطويلة والمتبطلة. ومع ذلك مايزال الوهج الذهبي في هذه الساعة من النهار يُعتبر مميزاً. يشعّ ويلقي بالضوء فوق جميع الأحراج الرحبة في محيط المنطقة، وجعلَ لبضع دقائق من الجدران البيضاء الموحلة وسقوف القش لأكواخ القرية وحقولها المتفرقة الصغيرة من الخردل والفليفلة تبدو مُعتنى بها جيداً وجذّابة للنظر: مثل قريةٍ آتيةٍ من حكاية قديمة للجدّات، مطمئنة وشائقة لأن يقع عليها المرء فجأةً. ولكن عندئذ تكون عابقة برائحة الخطر، بوجود الأقزام والعمالقة

ونباتات الغابة الطويلة والمتوحشة والرجال حاملي الفؤوس والأطفال الذين يسمّنون في الأقفاص.

في هذه الأثناء أحكمت الحركة سيطرتها على القرية. كانت واحدة من عدد من قرى القيادات وكانت تخضع لما يشبه الاحتلال من قبل رجال العصابات. كانوا يَظهرون في البدلة الزيتية الخفيفة ويعتمرون القبعة ذات المقدمة والنجمة الحمراء: رجال بنطلونات، كما يدعوهم سكان القبائل بتوقير، وهم يحملون البنادق.

كان لويلي غرفة في كوخ عسكري طويل، فيها سرير تقليدي من الأسلاك الرباعية المتشابكة، وكان تَعَلّم كقروي حفظ أغراضه بين العوارض الخشبية (المؤلفة من أغصان الأشجار المشذّبة) وقشّ السقف الواطئ. أما الأرضية فكانت من التربة المُداسة الكتيمة، وقد تمَّ تنعيمها بخليط من الطين وروث الأبقار. كان قد اعتاد على هذا الأمر. أصبح الكوخ على مدى عدة أشهر نموذجاً من المنزل. المكان الذي يتسلم فيه مهماته؛ وكان أيضاً إضافة قيّمة إلى قائمة الذكريات التي يحملها في رأسه حول الأمكنة التي نام فيها، وكان قادراً على تعدادها (كعادته) عندما يشعر بالحاجة إلى ضبط واستذكار مسيرة حياته. لكن، علاوة على ذلك، أصبح هذا الكوخ الآن، من دون بهوجي ناريان، مكاناً أحسّ فيه بوحذةٍ قاتلةٍ ومروعة. وجد نفسه مسروراً بوصوله إلى هذا المكان، لكن سرعان ما انتابه الضَّجر.

قاعدة التكتم، عدم مبالغة المرء في التكلم عن نفسه، وعدم التورط في شؤون أولئك الذين يعيشون في العالم الخارجي، والتي كانت قد وُضعت في ليلته الأولى في معسكر أحراج السَّاج، تلك القاعدة ما تزال سارية التطبيق هنا أيضاً.

كان جاهلاً لكل ما يدور حوله عدا الرجل القاطن في الغرفة التالية لحجرته. هذا الرجل كان أسمر عنيفاً يملك عينين كبيرتين. تعرّض في طفولته أو مراهقته لضربٍ مبرحٍ من قِبَل بعض السفاحين التابعين لأحد مُلاّك الأرض

الكبار. ومنذ ذلك الحين وهو ينشط في الحركات الثورية في الريف. أولى هذه الحركات، وهي الأكثر أهمية من الناحية التاريخية، اضمحلّتْ؛ والثانية قُمعتْ وسُحقتْ؛ والآن بعد سنوات من التخفي، كان يخدم في ثالث حركة له. كان في أواسط أو ربما أواخر الأربعينيات من العمر، ولم يكن هناك من أسلوب آخر للعيش لديه. يروق له التجول في القرى في بدلته الزيتية، يُرهبُ القرويين، ويتحدث عن الثورة. أحبَّ العيش بعيداً عن الأراضي الزراعية، وهذا يعني لدرجة كبيرة العيش بعيداً عن سكان القرى؛ راقت له فكرة أن يكون شخصاً مهماً. كان يفتقر للثقافة كليّاً، وكان قاتلاً؛ وكلما استطاع كان يصدح بالأغاني الثورية المفزعة التي تتضمنُ كمّاً معيناً من حكمته التاريخية والسياسية.

أخبر ويلي في أحد الأيام: «البعض في الحركة منذ ثلاثين عاماً. أثناء تجوالك قد تصادف أحدهم، ومع ذلك من الصعب إيجادهم. إنهم خبراء في مسألة التّخَفِّي. لكنهم يُحبون أحياناً الخروج والتحدث للناس والتفاخر مثلنا نحن».

فكّر ويلي: «مثلك أنت».

وبشكل متكرر أثناء عودته المسائية، وهو يسمع ساكن الباب التالي يردد أغانيه الثورية مرة تلو أخرى (بالطريقة ذاتها التي كان فيها بعض الصبية في مدرسة إرسالية ويلي يرددون التراتيل)، كان ويلي يفكّر: «قد يعود إليّ شعور ما بجدوى ما نفعله».

نهض مرّة أو مرّتين خلال الليل وخرج. لم يكن ثمة من مراحيض؛ ليس لديهم سوى الأحراج. كانت القرية خاليةً من الأنوار ولم تكن ليلةً مقمرةً. ساوره القلق من وجود الحراس المسلحين. قدم لهم كلمة السر، ومن ثم بعد فترة وجيزة كان عليه ترديدها من جديد. حيث أحس، فيما هو يسير، أن هذه الكلمة الغريبة «أومراد» كانت تتردد في أصداءٍ فيما حوله، كسؤال وإعادة طمأنة. كانت الغابة مظلمةٌ وتعجّ بالأصوات: اصطفاقُ أجنحةٍ مفاجئ،

صرخاتٌ تهدف للتحذير والألم تصدرها طيورٌ ومخلوقاتٌ أخرى، ونداء استغاثة لمساعدةٍ لن تأتي.

فكّر ويلي: «إن ما هو أكثر أماناً فيما يخص مسألة الحياة هو حقيقة الموت. إنني عاجز عن إيجاد أية وسيلة للعثور على درب عودتي إلى الفضاء الرحب، أين يوجد هذا الفضاء الرحب؟ أهو في برلين أم إفريقيا؟ قد لا يكون هناك من فضاءٍ رحبٍ. لعل هذه الفكرة كانت على الدوام مجرد سراب».

في الصباح طرق أحدهم باب حجرة ويلي ودخل قبل أن يجيبه ويلي. كان القادم يحمل بين يديه بندقية الـ (إي كي 47) (AK-47). وكان كالحاً بقدر ما كان آينشتاين، لكنه أقصر منه، طوله حوالي خمسة أقدامٍ، نحيفاً إلى أقصى درجة، لا شيء فيه سوى هيكله العظمي ووجهه وسيم ناتئ العظام، ويدين متوترتي الحركة. لو منحته الطبيعة ستة أو سبعة إنشات إضافية لكان له حضور هائل.

قال: «اسمي راماشاندرا؛ أنا آمر الوحدة؛ آمر وحدتك الآن. أنت لم تعد مجنداً، لقد تلقينا تعليمات بإلحاقك بوحدتي. يبدو أنك أثبتَّ نفسك. اليوم وغداً سنعقد اجتماعاً بغية مناقشة الوضع الجديد. سيكون الاجتماع إمّا هنا أو في أي مكان آخر. لا أعلم حتى الآن. عليك التأهب للانطلاق هذا المساء».

كانت له عينان مجنونتان حادتان. وطوال كلامه كان يداعب البندقية بأصابعه العظمية. من ثم، محاولاً سلوكَ نمطٍ آخر من التصرفات النّمطية، التفَّ فجأة وسار خارجاً من الغرفة.

مثل آينشتاين، كان راماشاندرا ينتمي لطائفةٍ أعلى، ولعلها الأعلى. مثل هؤلاء البشر عرفوا أزمنةً قاسيةً في العالم الخارجي؛ لقد طبقت الحكومات الشعبية جميع العقبات ضدهم منذ الاستقلال؛ هاجر الكثيرون منهم نتيجة الخوف من الإفقار البطيء في الوطن، إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا وإنكلترا. لكن راماشاندرا وآينشتاين اختارا طريقاً آخر. كانا داخل الحركة

يعانقان مضطهديهما. لقد فَهِمَ ويلي بخلفيته المتمازجة ـ أبوه من طائفة عليا، رجل رابط الجأش وهادئ، صاحب الزهد الممتد يأمل على الدوام أن لكلّ معضلةٍ حل، وأمه الأكثر اتقاداً، والأدنى بعدة درجات، وهي الراغبة بالقبض على الحياة ـ بهذه الخلفية فَهِمَ هؤلاء البشر جيداً.

فكّر: «اعتقدتُ أنني خلّفتُ جميع هذه الأمور ورائي. وها هي الآن جميعاً حاضرة أمامي، كما كانت في الماضي تماماً، وتَثِبُ عليَّ. كنت أرتحل عبر العالم وهي ما تزال هنا».

* * *

فيما يخص ويلي لم يكن هناك من ليلةٍ للانطلاق في الأحراج، باتجاه خلاصه العظيم. عُقد اجتماع القطّاع في القرية التي هو فيها. أخذوا يتوافدون طوال النهار التالي. يصلون في أزياء تنكرية متنوعة، كعادتهم في المدينة، ولكن في البدلة هذه المرة؛ وفي استعراض عظيم للرفاقية أخذوا يتناولون طعام القرية البسيط، العدس مع الفلفل والخبز عديم النكهة المؤلف من الدخن.

جاء آينشتاين. من جديد كان ويلي يخشى لقاءه، غير أنه في هذه الأثناء، وبعد راماشاندرا، كان مهيّأً للتسامح مع الحقد الذي يقطر من عينيه لا بل وحتى كان مستعداً للإيمان أن آينشتاين قد تَلطَّفَ.

كذلك جاء قائد معسكر أحراج السّاج، الذي كان فيما مضى يُرسل ويلي وبهوجي ناريان طوال الوقت إلى شارع الدباغين. اتّسمت هيئته بالهدوء والتهذيب، بل حتى كان جذاباً، سلوكه راقٍ ويتحدث بسلاسة ومع كل ذلك بدا حريصاً أيضاً على أدائه الصوتي، وكأنه ممثل. ذهنياً كان ويلي ألبسهُ في العالم الخارجي طقماً ثُنائي الصدر بلون رمادي وجعل منه مُدرّساً جامعياً أو موظفاً حكومياً مرموقاً. متسائلاً ما الذي يمكن أن يسوق رجلاً كاملاً على نحوٍ جلي نحو رجال العصابات وحياتهم المضنية في الأدغال. رآه ويلي، متّبعاً حدساً غريزياً، رجلاً تعذّبه خيانات زوجته له. وفكّر لاحقاً: «إنني لم أقم

بابتداع هذا. كان في وسعي التقاط هذه النتيجة لأنه ولسبب ما أراد مني رؤيتها. إنها الرسالة التي نُقلتْ إليَّ». مايزال الآن، وهو يقابله بعد غياب سنتين، يشاهد ذلك الألم النائي في عينيه، فكَّرَ ويلي هازئاً إلى حدٍ ما من تخمينه الأول: «الرفيق البائس. برفقة تلك الزوجة الرهيبة». وتعامل معه على هذا الأساس منذ تلك اللحظة حتى النهاية.

جرى اللقاء في حجرة راماشاندرا قرابة العاشرة، هو الوقت المعتاد لاجتماعات المقاطعة هذه. أضيىء المكان بمصباح (لُكس) يعمل على الضغط. في البداية أخذ يجأر وكان ضوؤه باهراً؛ ثم استقر على صوت طنين أخفض قليلاً وأخذ يتراخى شيئاً فشيئاً. فُرِشت قطعٌ من خيش القنب بنيّة اللون فوق تراب الأرضية، وفوقها وُضِعتْ الملاءات القطنية والبطانيات مع الوسائد والمساند.

عرضَ الرجل المهذّب، قائد معسكر أحراج السّاج، الأنباء وكانت أخباراً سيئة. لقد فقدوا عدداً أكبر بكثير مما فقدوه في مستعمرة سكة الحديد من الرجال. هؤلاء كانوا مجرد جزءٍ من فرقةٍ واحدةٍ، لكن الآخرين كانوا ثلاث فِرَقٍ أبادها رجال الشرطة بأكملها كلياً. وقد ضاعتْ جميع الأسلحة التي كانت جُمّعت قطعةً قطعة. وهذا معناه خسارة مئات آلاف الروبيات، ولم يكن من إجراء يمكن اتخاذه حيال ذلك.

قال القائد: «في الحرب لا بد من تقبّل الهزائم. غير أن هذه الهزائم استثنائية. لذلك علينا إعادة تقييم إستراتيجيتنا والتخلي عن خطة نقل الحرب إلى المدن المجاورة لأطراف مناطقنا المحررة. لعله طُموحٌ مبالغٌ فيه في هذه المرحلة من الصراع، رغم ما يُشاع من أن الطموح في الحرب قد يؤدي إلى تحقيق بعض المكاسب المهمة. وبالطبع سوف ننهض ونعاود نشاطنا في تلك المناطق، أو المناطق المشابهة لها. لكن هذا سيكون في المستقبل».

قال آينشتاين: «إن سُمَّ تعاليم كاندابالي هو المسؤول عما جرى. فكرة

تنظيم البشر عن طريق البشر أنفسهم هيَ فكرةٌ تنم على البراعة، وسوف تجد من يُطري عليها في أماكن كثيرة في الخارج. لكننا نحن الذين نعرف الواقع نعي بأنه يجب تعليم الفلاحين على الانضباط قبل إعدادهم ليصبحوا جنود مشاة الثورة. يتوجب عليك استخدام الحزم والقليل من القسوة معهم».

قال الرجل الأسمر: «كيف أمكنك قول هذا فيما أنت نفسك تنحدر من أسرةٍ فلاحيه؟»

قال آينشتاين: «لهذا السبب بالضبط أتكلم بهذه الطريقة. لم أُخفِ على الإطلاق أصولي. ليس هناك من جمال لدى الفلاح. إنها تعاليم كاندابالي. إنه رجل طائفةٍ عليا، ومع ذلك تراه يحظّر ملاحقة طائفته. إنه على خطأ لأن هذه الحركة ليست حركةً للمحبة. وليس هناك من ثورة يمكنها أن تكون حركةً للمحبة. إذا سألتني وجهة نظري أجيبك أنه يجب الإبقاء على الفلاحين في الزرائب».

قال آخر: «كيف تجرؤ على الكلام بمثل هذه الفظاظة في حين أن أشخاصاً من أمثال شيفداس يخدمون الحركة بمثل هذا الولاء؟»

قال آينشتاين: «شيفداس مخلص بسبب حاجته لنا. إنه يسعى لأن يُرِي جيرانه كم هو مُقرّب منّا. يوظّف صداقتنا لكي يُرهب القرويين. شيفداس شديد النحافة والسمرة وهو يقدم لنا غرفة نومه ويناقش في أمور الثورة وإعادة توزيع الأرض؛ ومع ذلك فهو محتال وقاطع طريق. لقد فرّ مُلاّك الأرض الكبار وأزلام النظام الإقطاعي البائد. لا يوجد في قريته شرطي أو مسّاح أراضٍ، وفي كل عام يقوم شيفداس بحصاد عدة أكرات من محاصيل الآخرين، ويجرف عدة أكرات من أرض جيرانه. لو لم يظن القرويون أننا نقف خلفه لقتلوه منذ زمن بعيد. ومع ذلك ففي اليوم الذي سيعتقد فيه شيفداس أن ذلك يحقق له منفعةً أكبر، سوف يخوننا لمصلحة الشرطة. على الثوري أن يكون مُتبصّراً في جميع الأزمنة، وأن يَعي حقيقة المادة البائسة التي

يملكها عاثر الحظ لكي يتعامل معها. لو لم يكن صديقنا الإفريقي قاد الآمر بهوجي ناريان للانحراف، لما تعرضنا لهذه النكبة التي جئنا اليوم للحديث فيها».

توجه الجميع بأنظارهم نحو ويلي، وكانت النظرات الأحدّ بينها هي تلك التي وجهتها عينا راماشاندرا.

قال الرجل العملي كرئيس للجلسة، قائد معسكر أحراج السّاج الذي من الواضح أنه الآن قائد القطّاع، متوجهاً لويلي: «عليك انتهاز فرصتك للكلام».

قال ويلي: «إن الآمر مصيب في كلامه. أشعر بمسؤوليتي، وخصوصاً فيما يتعلق بما حدث لبهوجي ناريان. كان صديقي. أودّ التشديد على هذا أيضاً».

بدا آينشتاين متشفياً. وطغى على الاجتماع نوعٌ من الارتياح العام. كان النقد الذاتي جزءاً من هذه اللقاءات. لدى حدوث هذا بشكل مباشر وفوري فإنه يُخلِّفُ تأثيراً إيجابياً: يقرّب البشر ويوحّدهم مع بعضهم البعض.

قال القائد: «لقد تكلم شاندران بشكل سخيٍّ ومتسامح. أظن يتعين علينا الثناء عليه بسبب ذلك».

تدريجياً، فيما بعد، ومن خلال الكثير من المقاطعات الكلامية، والاستفسارات حول الكيفية التي تمَّ فيها فقدان الفِرَق والأسلحة، وعملية اعتقال بهوجي ناريان، وأيضاً من خلال الحوارات المسهبة حول سمات الطبيعة الفلاحية بالمقارنة مع سمات الطبيعة البروليتارية المدنية (وهو موضوع مفضّل للنقاش)، توصّل القائد إلى الإستراتيجية الجديدة التي قررت الحركة المضي بها.

قال قائد القطّاع: «سوف نحجم عن نقل المعركة إلى المدن، كما أسلفت. وبدلاً من ذلك سوف نقوم بدفعها أكثر عمقاً وتوغلاً في الأحراج.

كل قطّاع سوف يغطي مئة وخمسين قرية. سنقوم بإدارة تلك القرى، ونعلن عن توسيع المناطق المحررة. هذا سيكون ناجعاً في مسألة هبوط المعنويات. لن يكون هذا يسيراً. لكنه السبيل الوحيد للتقدم».

انفضَّ الاجتماع بعد ثلاث ساعات. وقبل نهايته بوقت طويل كانوا قد قالوا كل ما شاؤوا قوله. أخذوا يُكرّرون المواضيع، وبدؤوا يرددون عبارات من مثل «شخصياً، أشعر أن ...» أو «يخالجني إحساس كبير أن ...»، بغية إضافة الانفعال الداخلي إلى ما كانوا تلفّظوا به قبل قليل؛ كانت هذه الأحاديث دلالة على بداية فتور هِمَّتهم. حتى مصباح (لُكس) الضغط نفسه أخذ يخبو شيئاً فشيئاً؛ ولم يعد بالإمكان ضغطه بمزيد من الهواء ليزداد توهجه.

بعد ذلك خمد مصباح الضغط بسرعة حتى تبدّت شاشته البنية المجعّدة. انفضّ اللقاء، وبقي البعض متحلقين يتبادلون بعض الكلمات الأخيرة، وقوفاً في هذه الأثناء (حفاة الأقدام أو بالجوارب الزيتية) فوق الملاءات وأكياس الخيش وسط المخدات والمساند حيث كانوا يجلسون. انتشل آخرون أحذيتهم من بين كومة الأحذية على باب المدخل ثم وَلُّوا يحملون المصابيح اليدوية صوب أكواخهم، هذه المصابيح اليدوية تحيل الأحراج إلى مكانٍ أكثر رحابةً وكِبراً والليل المحيط بها إلى ظلام أشد حلكةً. بعد ذلك وقبيل مغادرته الحجرة بقليل، تقدم آينشتاين من ويلي وخاطبه بصوت حيادي: «لقد ذهبَ ذلك الرجل ابن طائفة النسّاجين إلى الشرطة، أليس كذلك؟».

قال ويلي: «يبدو أن هذا ما حدث؟»

«لقد دفع الثمن. إذن أفترضُ أن الشرطة سوف تعتقل بهوجي ناريان تحت القطاع 302. هل رآه الناس؟»

«شقيقه».

تاهت عينا آينشتاين في البعيد. وبعد ثانية أو اثنتين طرف بعينه، ندّتْ

عنه إيماءة صغيرة وكأنّه يعترف بشيءٍ ما ثم ضغط على شفتيه: رجلٌ ينحت ويبرد ليستخلص المعلومات ثم ينشرها.

فكَّرَ ويلي: «آمل أن لا أكون قد ارتكبت غلطة أخرى».

* * *

بدأت عملية التوغل ضمن شهر من ذلك التاريخ وكانت تهدف إلى توسيع المنطقة المحررة. أُعطِيَ لكل فرقة مسلكها ومسارها، وقائمة القرى التي عليها احتلالها وإعادة توعية ساكنيها. في بعض الأحيان قد يتم إلحاق فرقةٍ بأخرى بسبب اتساع المسلك ذاته. وأحياناً، في حالاتٍ استثنائية، قد تعسكر فرقتان أو ثلاث فِرقٍ معاً لمدة وجيزة في واحدة من كبريات القرى. لم يكن أحد يعلم الكيفية التي يتم فيها نشرُ الفِرق ولا شكل الإستراتيجية سوى القادة وأولئك الذين هم في قمة الهرم؛ أما البقية فمعلوماتهم تقتصر على المنطقة المحررة. والجميع يتولى الحملات الشاقة اعتماداً على الثقة: المسير الطويل عبر الأحراج، والطعام الشحيح مع الماء الملوّث، والأيام التي تمضي بين القرويين وسكان القبائل المذعورين الخانعين، الذين، من حين لآخر، يُجمَعون (بعد أن يُحضّروا من قِبل ثلةٍ من القساة لِـ«تُحَمّيهم»، وتكون هذه الثلة قد أُرسلت إلى القرى مسبقاً) ويُطلب منهم التحدث عن «مشاكلهم»، أو ببساطة لكي يصفقوا بأيديهم ويصدحوا بالأغاني الريفية. قد يتقدم قائد الفرقة، إذا استطاع، بحلولٍ للمشاكل التي اطّلع عليها. وعندما يكون عاجزاً، كان يتحدث (ودائماً مستخدماً الكلمات البسيطة والشعارات ذاتها) عن انتصار الفكرة ويبشر بالمنطقة المحررة، يبسّط بعضاً من القواعد الجديدة والولاءات الجديدة للشعب. بعد ذلك تستأنف الفرقة انطلاقها، مع وعود بالعودة بعد عدة أشهر، للوقوف على الكيفية التي يتقدم بها الناس من خلال الهبة الجديدة للحرية.

كان ذلك زمناً غرائبياً بالنسبة لويلي، خطوةٌ أخرى أعمق في نمطٍ مغايرٍ

من الحياة حتى: نشاطٌ عديم الشكل، بغير مكافأةٍ أو غاية، خالٍ من العزلة أو الرفقة، ومن دون أية أنباء عن العالم الخارجي، من دون إمكانية لتلقي الرسائل من ساروجيني، من دون أي شيء ليسند به نفسه. في البداية حاول مواصلة مُلازمةِ مفهومه حول الزمن، ومفهومه حول خط سير حياته. في أسلوبه القديم، يحصي الأسِرَّة التي هجع فيها منذ ولادته (مثل روبنسون كروزو يعلّم أيامه يوماً بيوم بإحداث ثلم على قطعةٍ من الخشب، هكذا كان يعتقد عائداً إلى أحد كتب مدرسة الإرسالية). غير أن ذلك الإحصاء للأسِرّة أخذ يغدو أكثر مشقة يوماً بعد يوم بسبب تشابه الأيام في المسير، كانت جميع القرى تقريباً متشابهة. مرّت عدة أشهر منذ بدأت حياة السير والتخييم؛ لعلّهُ عامٌ كاملٌ، أو لعلّه تعدّى العام. ما كان مؤلماً في البداية، تمديد أيام المسير، أصبح لاحقاً نوعاً من العادة. شعر أن ذاكرته غافية، كهذا الزمن الحاضر، ومع إغفاءة الذاكرة هذه اختفت غاية التمرين الذهني. أصبحت صعبة المنال ومثبطة للهمة إلى حد بعيد؛ تسببت له بأذية في رأسه.

في الفِرقة، كانت العلاقة الأكثر رفاقيّة هي مع راماشاندرا؛ الآمر. إن ما ساهم في عزل ويلي عن بقية أفراد الفرقة كان هو ما أثار افتتان راماشاندرا.

في أحد الأيام، وفيما كان أفراد الفرقة يستريحون وسط الأحراج، مرّ بهم قروي وزوجته التي كانت تحمل صرّة فوق رأسها. قام القروي بإلقاء التحية على راماشاندرا وويلي. نادى ويلي خلفهما سائلاً: «هل أنتما سائران إلى مسافة طويلة؟» أخبره الرجل أنهما متوجهان لزيارة أقارب لهم على بُعدِ عدة أميال. ثم أردف بابتسامة: «لو كان معي آلة تصوير لالتقطت لك صورة كذكرى جميلة أُوثّق بها هذه اللحظة [ضائعٌ في الغابات]»؛ وضحكَ.

في ثانيةٍ واحدةٍ اتخذ راماشاندرا موقفاً دفاعياً. سأل ويلي: «هل يسخران منّا؟»

قال ويلي: «لا... لا، إنه يريد أن يكون ودوداً. هذا كل ما في الأمر. مع أنني أحبذ القول إنني لم أسمع من قبل إطلاقاً قروياً يطلق دعابة بهذا الإتقان.

لم يقل إننا نبدو مجرد تائهين، وهو فعلياً كان كل مقصده. لقد استحضر فكرة آلة التصوير من أجل الدعابة. ربما شاهد هذه الطرفة في أحد الأفلام واقتبسها».

قال راماشاندرا بعد عبور القروي وزوجته: «يقولون إن أباك كان كاهن معبد. أحد أبناء الطائفة العليا. إذا كان هذا صحيحاً. إذن، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ما السبب في أنك لست في إنكلترا أو الولايات المتحدة، هناك، حيث يعيش الكثير من أقربائي؟».

أوجز ويلي حياته في إنكلترا وإفريقيا وألمانيا. كانت الأسماء الكبيرة في الأحراج مفعمة بالانبهار، حتى عندما تكلّم ويلي (وهو غير راغبٍ في إثارة الغيرة ومتوخياً الحذر في عدم المبالغة في سرد الدراما الشخصية) عن الإخفاق والذل والتخفي لم يبد راماشاندرا أية غيرة. تلطفت نظرة عينيه. كان يرغب في سماع المزيد. بدا الأمر كما لو أن ويلي كان، في تلك الأماكن القصيّة، يخوض التجربة بدلاً عنه تماماً. ومن حينٍ لآخر منذ تلك اللحظة، ولكن ليس كثيراً، وهو يحرص على عدم إبداء ودّه الزائد عن اللزوم. كان يبحث عن ويلي في الخارج ليتبادل معه الأحاديث حول الأشياء الخارجية النائية.

قال له بعد حوالي أسبوعين: «إنني لم أكن مثلك. أنت ولد الطبقة الوسطى. أما أنا فقد كنت ولداً ريفياً. كنت فقيراً. لكن عليك أن تفهم أمراً هو أنني عندما كنت فقيراً وأعيش في الريف لم أكن أفكر طوال الوقت في كوني فقيراً. هذا ما لا يفهمه معظم أعضاء الحركة. حين كنت في القرية دأبت على التفكير أن حياتنا هي الشكل المعتاد للحياة لا غير. كنت أرعى الماشية برفقة ولدٍ من الطبقة الدنيا، هاريجان، كما كان الناس يقولون في تلك الأيام. كان الصبي هاريجان يأتي أحياناً معي إلى المنزل؛ لم يمانع أبي. كان يعتقد أن الصبي طموح ولديه قناعة أن أهم ما يمكن وجوده في الإنسان هو الطموح. أمي بالمقابل لم تمانع في مجيئه، لكنها أبَتْ بشكل صريح غسل أي

فنجان أو كأس يستخدمه الصبي. أتساءل اليوم إن كان علِم بذلك. أتدري ما حدث؟ كان ولداً طموحاً - أبي كان مصيباً. إنه الآن مُعلمٌ مرموق، ذلك الولد المزيّت مثل البارثا والسمين كالبرميل. وأنا هنا».

قال ويلي، متفكراً بعمقٍ كما لو أنه مايزال هناك مزيد من المصائد عليه تجنبها مع راماشاندرا: «هو في المكان الذي أراد أن يكون فيه. وهذا ينطبق عليك أيضاً».

قال راماشاندرا: «حين ذهبتُ إلى المدينة قاصداً دخول الجامعة، عندئذ فقط وعيتُ كم نحن فقراء. كان يمكنك رؤيتي دائماً وأنا أرتدي البدلة. لكنني عندما كنت لأول مرة في المدينة، كنت أرتدي قميصاً وبيجاما. كان لسياسيينا مغزىً من ارتدائنا للملابس الريفية، لكي يُظهروا مدى اهتمامهم بالعامّة، لكنها بالنسبة لسكان الريف الحقيقيين قد تكون مبعثاً على الخجل. عندما ذهبتُ إلى المدينة لأول مرة كنتُ خجلاً من ملابسي طوال الوقت. لاحظ زملائي في الكلية ذلك. كانوا أكثر ثراءً مني، أو لنقل كانوا يملكون كمية من المال أكبر مما لدي. أخذوني إلى الخيّاط وفصّلوا لي طقماً على مقاسي. عندما نظرتُ أسفل إلى نفسي، بالكاد تمكنت من تصديق ما أراه. كل ذلك الثوب الجميل. كنت مرتبكاً فيما إذا كانت ستواتيني الجرأة أبداً للخروج إلى الشارع مرتدياً ذلك الطقم. الآن لا يمكنني ببساطة استذكار تلك الدقائق القليلة الأولى من ارتدائي للطقم - كان مناسباً وكأنني معتاد عليه. ثم طلب مني الخياط النظر إلى نفسي في المرآة الطويلة. وتلك كانت صدمة أخرى. لقد اختفى الولد الريفي. كان أحد أبناء المدن ينظر إليَّ من المرآة. حدث أمرٌ غير متوقع بعد ذلك. داهمني شعورٌ باهتياجٍ واتقادٍ جنسي. أصبحت رجل مدينة ولديّ متطلبات ابن المدينة. رغبت بمعاشرة فتاة. ولكن ما كان لفتاة أن تنظر إلي».

تفحّص ويلي الوجه الوسيم، المطرق والشاحب المستند فوق الجسد الهزيل الذي مايزال يحمل الكثير من الجسد الصغير لراعي الماشية في القرية.

ذلك الجسد بدا وكأنه يهزأ من حسن الوجه، لكي يجعله تافهاً وعديم الجدوى؛ العينان اللتان قد توحيان بالقسوة كانتا فعلياً مليئين بالألم.

قال ويلي: «جميعنا نحن سكان شبه القارّة لدينا مشكلة مع الجنس. إننا معتادون على أن يقوم أهلنا بترتيبه لنا، ولا يمكننا ممارسته من أجل أنفسنا. لو لم أكن أعاني من هذه المشكلة لما تزوجت من المرأة التي تزوجتها، ولما ذهبت إلى إفريقيا وسفحت ثمانية عشر عاماً من عمري وعمرها. لو كنتُ أكثر أريَحية بخصوص الجنس، ولو كنت أعرف كيف أخرج وأحصل عليه، لغدوتُ رجلاً من صنفٍ آخر، ولكانت احتمالاتي لامتناهية ولعجزتُ عن الشروع في استخلاص نتائجها. لكنني، مفتقراً لتلك الموهبة، كان محكوماً عليَّ بالفشل. أمكنني الحصول على ما حصلت عليه وحسب».

قال راماشاندرا: «هو أفضل مما حصلتُ عليه أنا».

فكّر ويلي، وهو يلحظ أمارةَ غيرةٍ صغيرةٍ في عيني راماشاندرا: يُستحسنُ تغيير الموضوع.

وكان راماشاندرا هو من عاد، بطريقةِ التفافيةٍ، للكلام في المسألة بعد عدة أيام، أثناء المسير.

سأل: «ما الكتب التي قرأتَها عندما كنتَ يافعاً؟»

قال ويلي: «كانت لدي مشكلةٌ كبيرةٌ مع الكتب التي طُلب إلينا قراءتها. حاولت قراءة *كاهن ويكفيلد*. لم أستوعبه البتّه. لم أكن أعلم من يكون أولئك البشر، وما الهدف من قراءتهم. عجزت عن ربط ذلك الكتاب بأي شيء أعرفه. همنغواي، ديكنز، ماري كوريللي، *أحزان الشيطان* - واجهت المشكلة ذاتها معهم ومع جميع الكتّاب الآخرين. في النهاية امتلكت الجرأة للتوقف عن قراءة أعمالهم. الكتب الوحيدة التي فهمتها وأحببتها كانت القصص الخرافية. غريم وهانز أندرسون. لكنني كنت أجبن من أن أخبر معلمي وأصدقائي بهذا».

قال راماشاندرا: «في أحد الأيام سألني مُدرّس الكلية ـ كنت آنذاك قد غدوت رجل بنطلون، عليَّ إخبارك بهذا ـ ألم تقرأ جنود *المشاة الثلاثة*؟» وعندما أجبته بالنفي قال لي: «لقد أضعتَ نصف حياتك». بحثتُ جاهداً عن ذلك الكتاب. لم يكن كتاباً من السهل الوقوع عليه في مدينتنا الصغيرة. وأيّة خيبة أصابتني. لم أكن أعرف في أي عالم كنتُ ولا من يكون أولئك البشر ذوو الأزياء المتنوعة. هل تعلم ماذا اعتقدتُ؟ لقد اعتقدتُ أن معلمي ـ الأنكلوهندي ـ قال لي تلك الكلمات حول إضاعتي لنصف حياتي لأن معلمه قال له هذا الكلام من قبل. شعرتُ أنّ ما قيل حول جنود *المشاة الثلاثة* أفقدَ الأجيال مكانتها، من معلم إلى معلم، من دون أن يطلب منهم أحد التوقف. هل تعلم ما الكتب التي تمتعني وأجدها قريبة من حاجاتي إضافة إلى أنني تمكنت من فهمها؟ لينين، ماركس، تروتسكي وماو. معهم لم أكن أعاني من أية مشكلة على الإطلاق. كنت أجدهم غير مُجردين. وكنت ألْتَهِمُ ما كتبوه حتى النهاية. بعيداً عن مؤلفاتهم لم أستطع أن أقرأ سوى ميلز وبون».

قال ويلي: «قصص حب للفتيات».

«هذا هو الدافع لقراءتها. قرأتها بهدف تعلم اللغة والحوارات. ظننت أنها قد تعلمني كيف أتقرّب من الفتيات في الجامعة. شعرت بسبب خلفيتي أنني أفتقر للّغة الصحيحة. لم يكن لديَّ المفردات اللازمة للتحدث عن الأفلام السينمائية والموسيقى. نموذجٌ معينٌ من اللغة يؤدي إلى نموذجٍ معينٍ من الأحاديث ومن ثم تأتي التجربة الجنسية ـ ذلك كان اعتقادي ـ كنت أذهب بعد الحصص الدراسية إلى المنزل وأقرأ في ميلز وبون وأقوم بحفظ المقاطع عن ظهر قلب. اختبرت هذه اللغة على الفتيات في كافيتيريا الجامعة. كنَّ جميعاً يضحكن إلّا واحدة منهن. وبعد قليل نهضتْ وانصرفتْ برفقة الصبي الذي كانت تنتظره. لقد كانت تستخدمني كفاصل من الراحة. كرهتُ تلك الفتاة على وجه الخصوص. كنتُ مفعماً بالتوق الجنسي، كما أخبرتك. تمنيت لو أنني بقيت في ملابسي الريفية ولم أغادر قريتي أبداً. تمنيتُ لو أنني لم أسمح

لأصدقائي أن يُلبسوني الطقم. أخذتْ تلك الرغبة تنمو وتنمو. بدأتُ أشعر أنني جالس فوق نابض. إن ذلك التوق الجنسي هو ما قادني للانضمام إلى الحركة. كان أحدهم، وهو أحد أعضاء الحركة في الجامعة، يَعِظُ في كرهِ النساء. كان يَعظُ بهذا في نموذجٍ من الحكمة الأخلاقية الجديدة. كان دائم القول: «أولى التضحيات هي جنسانيتك يا رفيقي». وكان الآخرون يتفوهون بالشيء ذاته. سمعتهم يقولون إن الثوري هو بحق إنسان متزهد وقديس. المتزهد حاضرٌ بشكل كبير في تقاليدنا، كنت مأخوذاً بهذا الكلام. إنها حالة أبشّرُ بها أنا نفسي في فرقتنا. قتلت اثنين من الرجال خالَفَا التعليمات. أحدهم اغتصبَ فتاة قبلية، والآخر كان يتحرّش بصبي في إحدى القرى. لم أسمح له بأي تبرير. جرّدت ذلك الرفيق الثاني من جميع انتماءاته للجماعة ثم سلمتُ جسده للقرويين ليفعلوا به ما يشاؤون».

لاحظ ويلي إلى أي حد كان راماشاندرا يكره وصف كبته الجنسي ويعترف بجميع الأشياء المحيطة بتفاصيلها مُقلّلاً من شأنه. كان يتكلم في جميع الأمور الأخرى: أصوله، ملابسه، لغته، وثقافته القروية؛ لكنه أغفل ما هو أوضح وأشد أهمية. هذه كانت وكأنها واحدة من جلسات النقد الذاتي التي يعقدونها في اجتماعاتهم الشكلية، حيث الحقيقة هي التي غالباً ما يتم التملص من مناقشتها. تماماً كما تملص ويلي نفسه من الحقيقة عند الكلام عن بهوجي ناريان وضياع فِرقته. أُعجبَ ويلي براماشاندرا ليس بسبب جرأته في شكواه حول ضآلة حجمه، ولكن بسبب قدرته على التظاهر أنه كإنسان كان مثله مثل الآخرين، قادراً على التحدث في مسائل أكثر عمومية. ولكن لا المقدار الكبير من التكتم، ولا حجم التعاطف قادران على تخليص راماشاندرا من كرَبه ونقصه. في العادة، حين يكون هذا الرجل ذو الملامح الجميلة نائماً، كان ويلي يمتلئ بالمحبة تجاهه.

فكّر ويلي: «حين التقيت بهوجي ناريان للمرة الأولى نظرت إليه كمجرم. لكنني لاحقاً شعرت حياله بالود وغابت عني تلك النظرة. وحين

التقيت راماشاندرا للمرة الأولى، حاملاً بندقيته بيديه العظميتين الهزيلتين، نظرتُ إليه كقاتلٍ ومتعصب. وها أنا الآن أغيّر تلك النظرة عنه. إنني من خلال بذل هذا الجهد الكبير في الفهم أخسر التلامس مع ذاتي».

سأل راماشاندرا ويلي في يوم آخر: «لماذا رحلْتَ عن زوجتك؟»

قال ويلي: «كنت في إفريقيا. وكان الاستعمار البرتغالي على حافة النهاية. عشت هناك على مدى ثمانية عشر عاماً. وزوجتي جزء من ذلك الاستعمار. عشت في منزلها الكبير وعلى عائدات أرضها، مساحة من الأرض أكبر بعشرين مرة مما يمكن أن يمتلكه أي كان هنا. لم أكن أعمل. وكنت مجرد زوجها. لعدة سنوات ظننت نفسي محظوظاً. أعيش في ذلك العالم ـ بعيداً جداً عن الديار: كانت الهند هي آخر مكانٍ في العالم أرغب في العيش فيه ـ وسط هذا النموذج الاستعماري الرفيع، لأنه عليك أن تضع في حسابك أنني كنت فقيراً، بمعنى ما من دون مال. وحين قابلت زوجتي في لندن في نهاية فصل دراسي عديم الجدوى في الجامعة، لم يكن لديَّ أدنى فكرة على الإطلاق عن العمل الذي قد أزاوله أو الأمكنة التي قد أذهب إليها. بعد خمسة عشر أو ستة عشر عاماً في إفريقيا بدأتُ أتغير. بدأت أشعر أنني بدّدتُ حياتي، وأن ما فكرتُ فيه من كوني إنساناً محظوظاً لم يكن كذلك. أخذ يساورني شعور أن كل ما أقوم به هو أنني أعيش حياةَ زوجتي. منزلها وأرضها وأصدقائها لا شيء من كل هذا كان يخصّني. بدأت أشعرُ بذلك نتيجة خوفي وتقلقلي ـ الخوف الذي كنت وُلِدت في رحمِهِ، مثلك تماماً ـ غالباً جداً ما استسلمت للأحداث والمصادفات، وبذلك حملتني هذه الأحداث بعيداً ثم بعيداً عن ذاتي. عندما صرّحت لزوجتي أنني على وشك الرحيل لأنني كنت أعيش حياتها هي أجابتني بكلام شديد الغرابة. قالت إن تلك الحياة فعلياً لم تكن حياتها. طوال السنتين الماضيتين وأنا أفكر في كلماتها، والآن أعتقد أن ما كانت تعنيه زوجتي هو أن حياتها كانت سلسلة من الأحداث بالطريقة ذاتها التي سارت بها حياتي. إفريقيا، والمستعمرة البرتغالية، جَدّها وأبوها. مع مرور

الزمن لم أكن أرى ذلك سوى توبيخ، ولم أكن في مزاج يسمح لي بتقبّله. اعتقدتُ أنها كانت تريد القول إن حياتي معها منحتني القوة والروح ومعرفة الحياة: تلك كانت عطاياها لي، وها أنا الآن أستعملها لإفساد حياتها. لو كنتُ فكرتُ أنها قصدتْ ما أؤمن الآن أنها عَنتهُ، لكنتُ تقدمتُ بسرعة كبيرة، وربما لم أكن لأتركها. ذلك كان سيكون خياراً خاطئاً. وَجَبَ عليَّ تركها لكي أواجه نفسي».

قال راماشاندرا: «أشعر أن كل ما يتعلق بحياتي وميلادي كان مصادفة».

فكّر ويلي: «تلك هي الكيفية التي تجري بها الأمور مع كل منا. لعل الرجال يستطيعون أن يعيشوا حياةً أكثر تخطيطاً حين يكونون أكثر سيطرةً على أقدارهم. ربما يكون الأمر على هذه الحالة أيضاً في ذلك العالم الخارجي المبسّط».

* * *

بلغوا قرية لم تكن تشبه القرى أو مستوطنات الأحراج التي مروا بها على مدى السنة الماضية. لابد أن هذه القرية كانت موقعاً لإقطاعي صغير في الأيام الغابرة. «مزارع ضرائب»، قال راماشاندرا: إنه جامع أربعين أو خمسين نوعاً من الضرائب التي كان على هؤلاء القرويين البائسين دفعها في الماضي. هو المالك الفعلي لعشرين أو ثلاثين قرية أو أكثر. كان المنزل الضخم، أكبر من اللازم للسكن، مايزال قائماً في ضواحي القرية. إنه فارغ الآن، ولكن أياً من المتطفلين (بسبب الاحترام القديم، أو ربما هو الخوف من الأرواح الشريرة) لم يدخله، وكان هناك فوق هذه العقدة المترامية الأطراف ـ الرواق الأمامي، والساحة المرصوفة بالقرميد، والأجنحة التي كانت غُرفها في هذه الأثناء مخلوعة الأبواب ـ انبعاثٌ لرائحةٍ نتنةٍ ورطبة تشي بموت هذه الكتلة المتداعية من القصر الذي هُجِرَ منذ زمن بعيد. تشكّلتْ الرائحة من الخفافيش

ومخلفاتها المتراكمة المُشكلة طبقةً لينةً ومن الحمام المستعمر والطيور الضالّة التي خلّفتْ قشرةً من البقع الملساء البيضاء على الجدران، بقعة فوق بقعة. سوف يكون عملاً مقززاً تنظيف المنزل مما خلفته الخفافيش والطيور وراءها. ومع ذلك فإن هذا العمل سوف يستغرق زمناً طويلاً، فيما إذا أُعيدَ إحياءُ المنزل بالبَشَر، لإعطائه رائحة الحياة البشرية من جديد.

ما زال بالإمكان رؤية أراضي الإقطاعي من الدرب البعيد خارج القرية: حقول غطّتها الأعشاب، بساتين الليمون المهمَلة وغير المروية حتى الجفاف وأغصان البرتقال التي استطالت بشكل عشوائي، وأشجار السنط التي تنمو في كل مكان.

قال راماشاندرا: «حال هؤلاء القرويين تدفعك للبكاء. معظمهم لا يملك الأرض، ونحن منذ ثلاثة أعوام على الأقل نحاول إقناعهم بضرورة تولّيهم العناية بهذه الأكرات الستمئة. عقدنا لقاءات عديدة معهم. وحكينا لهم عن فظاعة النظام البائد. وافقوا على هذا الكلام، ولكن عندما قلنا لهم إن الأمر عائد لهم في العناية بهذه المساحات وحراثتها، قالوا: «إنها ليست أرضنا». يمكنك إقناعهم بإفراغ صفائح المياه، تستطيع إقناعهم بإنشاء الطرقات، غير أنك عاجز عن إقناعهم بالعناية بالأرض. بدأتُ أرى السبب في وجوب أن تكون الثورات دموية. هؤلاء البشر لن يبدؤوا بفهم الثورة إلّا عندما نشرع في القتل. لن يجدوا ضيراً في تفهم ذلك آنذاك. قمنا بإفراز ثلاث لجانٍ ثوريةٍ على الأقل في هذه القرية وفي كثير من القرى الأخرى، لكنها أخفقتْ واختفتْ جميعها. إن الشباب الذين انضموا إلينا يريدون الدم. طلاب مدارس ثانوية، والبعض منهم نال الشهادات العليا حتى. إنهم يرغبون في الإثارة ورؤية الدم. يريدون تغيير العالم. أما نحن فكل ما قدمناه لهم هو الكلمات. تلك كانت وصيّة كاندابالي. لم يروا تغيراً في أي شيء فأحجموا عن متابعة العمل. لو كنا حكمنا المناطق المحررة بقبضةٍ من حديد، كما كان يجب أن نفعل، لتوصلنا إلى جعل هذه الأكرات الستمئة بأكملها مساحة من الأرض

المحروثة والمنظفة في شهر واحد. ولوجدتَ عند هؤلاء فكرةً ما عما تعنيه الثورة. في هذه الأثناء ينبغي علينا القيام بتصرّفٍ ما. لقد تناهى إلينا أن أسرة جابي الضرائب القديم تسعى لشراء الأرض. كانت هذه الأسرة قد فرّت إبان العصيان الأول وهم يقطنون في بلدةٍ ما أو أخرى منذ ذلك الحين. يعيشون وفق الأسلوب الطفيلي الموروث، ولا يأتون بأي عمل. أصبحوا الآن فقراء، يسعون لشراء الأرض عن طريق صفقة مشبوهة لصالح مُزارع محلي، من شاكلة شيفداس. وهذا المزارع يقيم على بعد حوالي عشرين ميلاً. إننا مصممون على منع هذه الصفقة؛ نريد لهذه الأرض أن يشغلها الفلاحون. يبدو أننا مضطرون الآن لقتل بعض البشر. أظن أنه يتعين علينا الإبقاء على بعض منّا هنا لكي يُنفّذوا إرادتنا بعد رحيلنا. على هذا النحو قام كاندابالي بإضعافنا. يبكي على حال الفقراء، وهو بالكاد قادر على إتمام جملة كلامية واحدة، مؤثراً في نفوس الجميع من دون القيام بأي تحرك على الأرض».

ذهبوا إلى منزل الإقطاعي. كان مُؤلّفاً من طابقين مرتفعين وجداره الخارجي مُصمَت. تخترق الرواق أرضية الطابق السفلي للمنزل، وفي كلٍّ من جانبي الرواق كانت هناك منصة جلوس بعرض قدمين أو ثلاثة تتوضع داخل فجوة في الجدار السميك. هنا في هذا المكان كان البوابون في الأيام الماضية يراقبون وينامون أو يدخنون الأركيلة إضافة إلى أنها كانت مكاناً ينتظر فيه الزوار العاديون. في هذا النموذج من المنازل تتناوبُ الردهات مع صف الغرف ويحتوي على ممر رئيسي، بحيث تستطيع من المقدمة رؤية قناة الضوء المستقيمة وهي تخترقه حتى الخلف؛ لابد أنه نموذجٌ مثالٌ عن أسلوبٍ قديمٍ في فن العمارة السائد في هذه المنطقة. كثير من الفلاحين يسكن في نسخة مبسطة عن هذا المنزل الكبير. إنه يدلُّ على ثقافة، من هذه الناحية على الأقل، ما تزال هي نفسها؛ وجد ويلي نفسه وسط الرائحة المقززة لهذا المنزل الكبير شبه المتداعي يحرّكه هذا المشهد الصغير المفاجئ الذي كان قد حوّله عن وطنه. إن الماضي كان مروعاً؛ وفي زمن ما وجبَ التخلص منه نهائياً. لكن ذلك الماضي كان يمتلك أيضاً نوعاً من الكمالية إذ إن أناساً مثل راماشاندرا

كانوا غير قادرين على الشروع في الاكتراث به وعاجزين عن إزاحته. حدث ما تنبأ به راماشاندرا في لقاء القرية في المساء التالي. جاؤوا بشكلٍ محترم يرتدون عماماتهم القصيرة ومآزرهم الطويلة أو القصيرة مع قمصانهم الطويلة؛ أصاخوا بسمعهم وبدوا واعين لما يُقال. أبقى رجال الحركة ذوو البدلات على بنادقهم مرئية، حسبما أوعز راماشاندرا لهم. وراماشاندرا نفسه بدا نافد الصبر وصارماً وأخذ ينقر بأصابعه العظمية على بندقيته الـ(إي كي 47).

«يوجد خمسمئة أو ستمئة أكر من الأرض هنا. يمكن لمئة منكم تقاسمها على خمسة أكراتَ لكل واحد والعناية بها وحراثتها، والبدء في إعادتها للعطاء».

نَدّت عنهم ما يشبه تنهيدة ارتياح مجتمعة، كما لو أنه أمر كانوا يتوقون له منذ عهد بعيد. ومع ذلك، عندما توجه راماشاندرا لكل منهم بالسؤال على حِدة، كان الجواب فقط: «هذه الأرض ليست ملكنا».

قال لويلي لاحقاً: «ها أنت ترى بأية طرق وأساليب ممكنة تمَّ تزويد البشر بالعبودية. إنها الثقافة القديمة التي تَحدّثَ عنها سياسيونا. لكن ثمة مسألة أخرى. إنني أفهم هؤلاء لأنني واحد منهم، وليس عليَّ سوى إدارة مفتاح صغير في رأسي لأعرف بالضبط ما يشعرون به. إنهم مستسلمون لفكرة أن الحياة فيها بعض من الأثرياء. وهذا لا يشغلهم ولا يثير التساؤل لديهم بتاتاً، لأن أولئك الأثرياء لا يشبهونهم. أما بشر على شاكلتهم فهم فقراء، وتوصلوا إلى قناعة وحكم في هذا الأمر هو أن الفقير يبقى فقيراً. عندما اقترحت عليهم أن يأخذ كل منهم عشرة أكرات، أتدري ماذا اعتقدوا؟ كانوا يفكرون: «لا أريد أن يحصل سرينيفاس على عشرة أكرات، إن هذا سيجعله شخصاً لا يُطاق. من الأفضل عدم قبول هذه المساحة إن كان هذا سيمنع سرينيفاس وراغافا من الحصول عليها». لا يمكن لشيء أن يأتي بالثورة سوى البندقية. أفكر أنه يتوجب علينا الإبقاء على نصف الفِرقة هنا لكي تعيدهم إلى صوابهم».

قال لويلي في ذلك المساء: «أشعر أننا نتقدم خطوة إلى الأمام ونرتد خطوتين إلى الخلف، وأن الحكومة تنتظر على الدوام رؤيتنا ونحن نفشل. ثمة أفراد في الحركة شاركوا في جميع حالات التمرد وأمضوا ثلاثين عاماً يقومون بما نفعله نحن الآن، وفعلياً هم لا يرغبون بحدوث أي تغيير. باتت الثورة والتخفي وقرع أبواب القرويين وطلب الطعام والمأوى في الليالي أسلوباً لعيشهم. لدينا دائماً نُسّاكنا الذين يطوفون في الأحراج؛ إنه أمر في دمنا. الآخرون يطرون علينا بسبب هذا، غير أن الارتحال المتواصل يؤدي بنا إلى اللامكان».

أخذ يغدو متطرفاً وهمجياً، هيمن الانفعال على الاحترام الذي يكنه لويلي، لدرجة أن ويلي كان مسروراً عندما انفصلا ليقضي كل منهما الليل على حدة.

فكّر ويلي: «جميعهم يريدون للأساليب القديمة أن تتواصل. ومع ذلك فالأساليب القديمة تشكل جزءاً من كينونة البشر. وإذا ما ذهبتْ هذه الأساليب القديمة فإن البشر لن يعرفوا من يكونون، وعندئذ سيتحول هؤلاء القرويون، الذين يمتلكون الجَمال الخاص بهم، إلى مجموعة من المتشردين».

تركوا وراءهم ثلاثة رجال من الفِرقة، في سبيل إقناع الناس بالحاجة لحراثة أرض الإقطاعي.

قال راماشاندرا بفلسفية زائدة هذا الصباح، مثل هر نسي حميّته فجأة: «لا يريدون التحرك والقيام بأي فعل».

بعد مسافة مِيلٍ عن القرية بدأ بعض الشبان يظهرون من بين الأحراج. ساروا خطوة بخطوة مع رجال الفرقة. ولم تكن هذه المرافقة تنم على استهزاء أو سخرية.

«إنهم مجندونا»، قال راماشاندرا، «أترى. طلابٌ في المدارس الثانوية، كما أخبرتك. نحن، بالنسبة لهم، نمثّل طيف الحياة التي كانت لهم ذات مرة.

غير أنهم لم يمتلكوا المال للبقاء في المدينة الصغيرة التي ذهبوا إليها بقصد تحصيل العلم. إننا بالنسبة لهم ما كان يمثّله لك أبناء أميركا وإنكلترا. لسوف نخذلهم ونذلهم، أظن من الأجدى تركهم يمرون عبر هذه المرحلة».

استراحوا فترة ما بعد الظهر.

قال راماشاندرا: «لم أخبرك سبب انضمامي للحركة. في الواقع كان السبب بسيطاً جداً. تعرف زملاء الجامعة أولئك الذين اتخذوا مني صديقاً واشتروا لي الطقم. كان أحد الأساتذة شديد اللطافة معي لسبب لا أعلمه. عندما حصلت على الدبلوم فكرت أن عليَّ القيام بشيء ما لأرد له الجميل. أتدري بمَ فكرتْ؟ لو سمحت لا تضحك. فكرت في دعوته لتناول الطعام. كان هذا أمراً دائم الحدوث في كُتب ميلز وبون. سألته إن كان يقبل دعوتي للطعام، فأجاب بالإيجاب. وهكذا حددنا موعداً لذلك. كنت جاهلاً ما يمكنني القيام به لتلك المأدبة؛ عذبني هذا الشعور. لم أكن قد قدمتُ طعاماً لأحد من قبل. ثم بَرقتْ في رأسي فكرة مجنونة. كانت هناك أسرة ثرية في المدينة من صغار الصناعيين يقومون بتصنيع المضخات وآلات من هذا القبيل؛ حالة باهرة بالنسبة لي. لم تكن لي معرفة بهم، لكنني استجمعت كامل شجاعتي وتوجهت إلى منزلهم الفخم. ارتديت طقمي، الذي منحني كَمّاً هائلاً من السعادة والألم. يمكنك تخيل السيارات في الكراج، الأضواء والشرفة الكبيرة. كان الناس يروحون ويجيئون ولم يلاحظني أحد في بادئ الأمر. في منتصف الطريق إلى صالة الاستقبال كان هناك ما يشبه البار من ذلك النمط الذي يقتنيه سكان تلك المنازل العصرية. لا أحد أعار وجودي أي انتباه، بحضور كل ذلك الحشد، وأحسست أن بإمكاني حتى الجلوس على البار والطلب من الخادم ذي ربطة العنق أن يقدم لي المشروب. وكان هو الشخص الوحيد الذي شعرت بإمكانية التحدث إليه. لم أطلب المشروب، لكنني سألته عمن يكون صاحب المنزل فأشار إليه نحو الخارج، كان جالساً في الجانب المكشوف من الشرفة برفقة آخرين في الهواء الطلق يتنعم بنسائم

الليل الباردة. رجلٌ قوي البنية أكثر مما هو سمين في منتصف العمر بشعرٍ ناعمٍ ملّسه إلى الخلف. توجهت نحو الشرفة، بقلبي الذي أصبح في حذائي، كما يجدر القول، وقلت للرجل العظيم، في حضرة الآخرين: «مساء الخير يا سيدي. إنني طالب في الجامعة. البروفيسور كوماراسوامي معلمي، أرسلني إليك بطلب. إن لديه رغبة شديدة في تناول الطعام معك في أقرب وقتٍ ممكن - أعطيته التاريخ - إذا كنت حرّاً». نهض الرجل العظيم وقال: «البروفيسور كوماراسوامي يحظى بإعجابٍ كبيرٍ في هذه المدينة، وسوف يكون شرف عظيم لي مشاركته الطعام». أجبت: «في الحقيقة البروفيسور يرغب أن تستضيفه أنت على الطعام يا سيدي». كُتبُ ميلز هي من علّمني هذه اللغة، ومن دون ميلز وبون لم أكن لأستطيع القيام بأيٍّ من هذا. بدا الصناعي العظيم مستغرباً لكنه استأنف الكلام بعد قليل: «بل إن ذلك سيكون أكثر شرفاً لي». قلت له: «شكراً يا سيدي» وغادرت المنزل الكبير شبه راكض. في اليوم المحدد ارتديت طقم السعادة والألم وأخذت سيارة أجرة إلى منزل البروفيسور. قال لي: «راماشاندرا، إن هذا بحق يجلب لي سروراً عظيماً. لكن لماذا جئت في سيارة أجرة، هل نحن ذاهبان إلى مكان بعيد؟» لم أجبه بأية كلمة، واستقلينا السيارة حتى منزل الصناعي. قال لي المعلم لدى وصولنا: «إنه منزلٌ هائلٌ يا راماشاندرا». قلت: «من أجلك يا سيدي، لا أريد لك إلّا الأفضل». قُدته إلى الشرفة المكشوفة، حيث كان يجلس الصناعي برفقة زوجته وبعضٍ من زواره، وعند هذه اللحظة بالذات خرجتُ من المنزل شبه راكض من جديد. قال لي البروفسور في اليوم التالي عندما قابلني في الكلية: «ما الذي دعاك لأن تجعل مني طعماً في الليلة الماضية وتأخذني إلى أولئك البشر يا راماشاندرا؟ إنني أعرف من يكونون، غير أنهم لا يعرفون عني شيئاً البتة». قلت له: «أنا شاب فقير يا سيدي، ليس في وسعي تقديم الطعام لشخص مثلك، وكنت أرغب في الأفضل لك وهذا كل ما في الأمر». قال: «لكن أصولي، يا راماشاندرا، تشبه أصولك. كانت أسرتي تعاني من فقرٍ مُدقعٍ مثلما أنت بالضبط». قلت له: «لقد اقترفتُ خطأً يا سيدي». ولكن العار كان

يجللني. هذا ما فعله بي الطقم وكُتب بون وميلز. كرهت نفسي. أردت أن أمسح من الوجود كل من كان شاهداً على عاري. تخيلت موجة الضحك التي انتابت كل من كان على الشرفة. شعرت أنني لن أستطيع العيش في هذا العالم ما لم يمت هؤلاء الناس؛ ما لم يمت أستاذي. اليوم نسيت تقريباً أشكالهم، لكن العار والغضب مايزالان يلازمانني».

قلت: «قد تؤدي الأمور التافهة بالبشر أحياناً إلى أبعد بكثير مما يمكننا تصوره. كان لديّ أسباب كثيرة للشعور بالخزي، سواء في الهند أو لندن أو إفريقيا؛ وهي ما تزال حية حتى بعد عشرين عاماً. لا أظن أنها ستموت أبداً؛ لن تزول إلّا بزوالي أنا».

قال راماشاندرا: «هذا ما أظنه أيضاً».

* * *

في نهاية تلك الظهيرة ظهرت مجموعة من الشبان من بين الأدغال فيما كانت الفِرقة تتقدم في المنطقة. لعلهم كانوا في انتظار وصول الفِرقة على مدى النهار؛ لم يكن للزمن هنا أي اعتبار تقريباً. وكنتَ تستطيع من خلال وجوههم المشرقة وسلوكهم التوّاق القول إن هؤلاء الفتيان هم مجندون محتملون، شبابٌ أسرى قراهم يحلمون بلحظة اندلاع شرارة الحرب: يحلمون بالمدينة والملابس العصرية ووسائل المرح العصرية، يحلمون بحياة يكون فيها للزمن معنى أكبر، ولعلهم يحلمون إضافة إلى هذا، بالحيوية الفائضة والضاجّة في صدورهم، بالثَّوَرَان والسيطرة. مثل هذه المجموعات ألحقتْ نفسها بالفِرقة في مراحل عديدة من المسير؛ وتمّ تدوين أسماؤهم ونسبهم وعناوين قراهم. بيد أن هؤلاء كانوا ثلةً مختلفة عن غيرها. كان في جعبتهم أخبار وقد جعلت منهم هذه الأخبار التي يحملونها مسعورين.

بحثوا عن الرجل الذي يحمل السلاح الأكثر تميزاً، وتعرفوا عليه على أنه الآمر. تحدث راماشاندرا معهم. بعد برهةٍ أشار للصف بالتوقف.

قال راماشاندرا: «يزعمون أن ثمة كميناً نُصِبَ لنا في الأمام».

قال ويلي: «من هم؟».

«من المحتمل أن يكونوا أيّا كان، إن كان هذا صحيحاً. ربما هم رجال الشرطة، أو لعلهم مناصرو كاندابالي، أو ربما رجال استأجرهم ذلك المزارع الذي يود شراء أرض الإقطاعي القديم. جميعهم يعتبروننا أعداءهم. ويمكن أن يكونوا أيضاً من القرويين الذين أخذوا يتململون من استضافتهم لنا في قراهم ويسعون الآن للتخلص منا. يدركون أن ليس في نيتنا العمل. هذا جزء من الفوضى التي نحن فيها. الجميع يشعر أن العالم في حالة تحوّل ولا أحد يمكنه رؤية السبيل الواضح للتقدم فيه. لقد ضيعنا فرصتنا والآن هناك مئات الأسباب. لو كنّا تلقينا تدريباً عسكرياً أساسياً لكنّا عرفنا كيفية التعاطي مع الكمائن. لكننا أحجمنا عن تعلّم كيفية استخدام الأسلحة. كل ما فعلناه كان القيام بعرض الكشافة وحمل متاع طلبة الكلية العسكرية. نحمل البندقية على أكتافنا ونقدّم السلاح ونعرف كيف نقف وقفة الاسترخاء. أمرٌ ممتاز لو كنتَ أنت فقط من يحمل البندقية. ولكن الآن، ها هو أحدٌ آخر معه بندقية، وأنا أجهل ما العمل. كل ما أشعر به أن عليَّ المضي إلى الأمام ومحاولة القضاء عليه. لا أستطيع أن أطلب منكم اتباعي بما أنني لا أدري ما العمل. إذا كان هناك كمين فعلاً وحدث أمر ما لي عليكم التراجع والعودة سيراً فوق آثار أقدامكم. الآن انصرفوا».

قال ويلي: «راماشاندرا».

«لديّ بندقية جيدة».

انتظَروا في تلك البقعة من الأحراج إلى أن حلّ الظلام. نادى أحد فتيان أخبار الكمين من بين الأحراج قائلاً.

«لقد قتلوه».

«من هم؟»

«رجال الشرطة. لقد زحف حاملاً بندقيته حتى وصل إلى قرب مفرزتهم. قتلَ ثلاثةً منهم. هذا ما كشف أمره، وعلى الأثر أطلقوا النار عليه وأردوه قتيلاً. سوف ينشر هذا الحدث في الجرائد، أؤكد لكم».

قال ويلي: «قتل ثلاثة؟».

«أجل يا سيدي».

في النهاية، بدت هذه وكأنها أخبار سارّة. فكّر ويلي: «لقد شَرّفَ اسمه في النهاية. في الأسطورة الهندية يطلق اسم راماشاندرا على الرجال الأكثر رفعةً وسمواً، ويعدُّ أكثر تقديراً وإجلالاً من رجل الدين. يمكنك الاتكال عليه في جميع الظروف وحين يتطلب الأمر تصرّفاً سديداً، والقيام بما هو مناسب».

قال الشاب الذي جاء بالأخبار: «أمرٌ رهيبٌ بالنسبة لك فقدان رجل مُتمرّس في استعمال البندقية».

في وقت لاحق ـ عندما كانوا (تبعاً لأوامر راماشاندرا الأخيرة) يمضون عائدين فوق آثار أقدامهم، ويستريحون بعيداً عن الممر الرئيسي للأحراج، ويتحركون ليلاً في حركة بطيئة، مقررين الاستمرار في المسير ليلاً إذا توجب ذلك، بغية الابتعاد عن مجموعات الشرطة في حال كانت هذه الأخيرة تتعقبهم ـ حين كانوا مضطرين لهذا النمط من المسير الصامت بين حينٍ وآخر، ذلك المسير نصف الأعمى، فكّرَ ويلي: «لا أؤمن بحكاية مقتل رجال الشرطة. لقد نسيتُ نفسي. ها أنا الآن ضائع فعلاً، في كل واحدةٍ من هذه الطرق. لست أدري ما هو مطروح إن كان أمامي أو خلفي. إن غايتي الوحيدة هي أن أنجو بنفسي وأفرّ خارجاً مما أنا فيه».

6

نهاية كاندابالي

بعد يومين من القلق والاضطراب عادوا ثانية إلى قرية قصر الإقطاعي المهجور، والحقول ذات اللون القشّي المهجورة العائدة للإقطاعي (واللون الأخضر الحي للنباتات الطفيلية المعرّشة السريعة النمو)، وبساتين الفاكهة حيث الأغصان استطالت بعشوائية، وأوراقها التي تبدو محروقة حدّ الموت فاقدةً للونها الأصلي. كان فيها القليل من البراعم ذات القشرة الرقيقة، والثمار مبعثرة عليها ومظلّلة، وحيث تقيم الدبابير أعشاشها داخل القشور المبيضّة الباهتة والمتعفنة لثمار البرتقال الحلو والليمون.

كانت قرية مختلفة بالنسبة لهم. وكانوا نجوماً على مدى أسبوعين طوال مدة بقائهم فيها. يحملون البنادق ويرتدون البدلات ويعتمرون القبعات ذات النجمة دموية اللون، وكانت كلماتهم مثاراً للنقاش (حتى لو أن أحداً لم يكن يؤمن بها). تغيّرَ الآن كل ذلك؛ علمت القرية بأسرها بكمين الشرطة وموت آمر الفِرقة المتوحّد. من دون عدائيةٍ خاصة، وفقط للالتفاف على تفاصيل حياة اليوم بيوم للقرية مع كثافة الأخلاقية الذاتية التي يحملها الرجال الذين يعرفون أن ما كان كان، بدا القرويون وكأنهم يرون ما جرى من خلال عودة الرجال ذوي البدلات.

بحثوا عن الثلاثة الباقين من أجل ترتيب عملية توزيع أرض الإقطاعي. يبدو هذا مربكاً الآن، أي إنه كان عليهم التفكير في محاولة الإقدام على أمر

كهذا. لا بد أنه كان رهيباً بالنسبة لهؤلاء الرجال الثلاثة. لا أحد من جميع سكان القرية كان يعرف مكانهم. ولا يبدو على أحد أنه يتذكرهم. وأصبح جلياً لبقية فِرقة ويلي وكيسو، الآمر بالنيابة، السمين والأسمر وطالب الطب الفاشل، أن أولئك الرجال قد فرّوا من الخدمة. وقد أُحيطَ كيسو علماً بهذا الفرار.

عندما قاموا باحتلال القرية وتحريرها سُمح لهم باستعمال الأكواخ. أما الآن فإن كيسو يعتقد أنه سيكون من الخطأ طلب ذلك وربما سيكون من الخطر قضاء الليلة في القرية. أصدر أوامره باستئناف المسير، وتنفيذ ما قاله راماشاندرا، ثم العودة عبر الطريق التي جاؤوا منها، مرحلة تلو مرحلة حتى القاعدة.

قال كيسو: «لا يمكنك إلّا أن تشعر أن راماشاندرا كان مصيباً. لو قمنا بقتل بعض من هؤلاء الناس لدى تحريرنا لكل قرية من هذه القرى لكنّا أنجزنا أكثر بكثير، ولَـكُـنّـا الآن في وضعٍ أكثر أماناً».

لم يكن لديهم معرفةٌ كبيرةٌ بالأحراج تمكنهم من البقاء بعيدين عن المعابر واجتناب المرور بالقرى. أخذ يتنامى لديهم الشعور أن القرويين أعداءٌ لهم، مع أنهم يعتمدون عليهم في الطعام والماء. يُعسكرون في كل ليلة على بعد نصف ميل أو نحوه عن إحدى القرى؛ وفي كل ليلة (من خلال البقية الباقية من تدريبهم العسكري الأولي) كانوا يوكلون مهمة حراسة الفِرقة لأحد عناصرها المسلحة. تلك الحقيقة أصبحت واضحة بالنسبة لهم؛ وقد أنقذتهم من أن يصبحوا فريسة سهلة لقرويين معينين.

أدرك ويلي الآن في الطريق المقفرة، وفي جميع ذلك الزمن مع الحركة، أنه كان يعيش برفقة الرؤية الرعوية للريف والأحراج التي كانت هي أسس تفكير الحركة. أقنعَ نفسه أن ما يراه هو الريف الذي لم يكن قد تساءل حوله في يوم من الأيام. أقنع نفسه أنه خارج ضجيج المدن واندفاعها وترويعها كان يوجد هذا العالم المختلف تماماً حيث الأحداث فيه تجري متتابعة وفق منهج

قديم، والذي كان على الثورة تدميره. كانت تلك الفكرة الرعوية تتضمن أن الفلاح يكدح طوال حياته وهو مُضطَهَد. وما لم تكن تحتويه تلك الرؤية الرعوية هو فكرة أن القرية ـ من شاكلة القرى التي يُحرّرونها في تقدمهم (ثم يتركونها ويتابعون) على أمل أن تتحرر نهائياً، إن حالفها الحظ، من جديد ذات يوم ـ كانت مليئةً بالقَتَلة، محدودي الرؤية والضاريين والقساة بقدر ما هو المكان الذي يعيشون فيه، أولئك الذين لا علاقة لحقيقة وجودهم بمفهوم الكدح والاضطهاد.

تساءل ويلي كيف، عبر الطريق الطويل، أخفق في رؤية قَتَلَة القرى هؤلاء. لعل حضور راماشاندرا بأصابعه المتوترة العظمية فوق بندقية الـ(إي كي 47) كان واحداً من أسباب تواريهم عن الأنظار. كانت الفِرقة المستنزفة الآن تتعرض في كل قرية للهجوم والاستفزاز من قبل المجرمين. في إحداها كان ثمّة رجلٌ ذو مظهر وطبع بدائيين يقود حصاناً حاملاً بندقيته ـ كيف كانوا قد فوّتوه؟ ـ تقدم من معسكرهم الليلي وأخذ يرفع صوته صارخاً: «أنتم أيها العملاء للمخابرات المركزية الأمريكية، يا رجال الـ سي آي إي ينبغي قتلكم». قرر كيسو وجوب عدم الإتيان بأية حركة رداً عليه. كان هذا أنجع رد يمكن أن يتلقاه، غير أن هذا لم يكن يسيراً. كان الرجل على صهوة الحصان هو قاطع طريق القرية، يتمرد في سبيل القرية، ويقوم الآن باستعراض للشجاعة التي كان منذ فترة وجيزة يُفضّل إخفاءها.

في بعض القرى وُجِدَ من زُرِعتْ في رأسه فكرة أن الفِرقة هي عبارة عن مجموعة من المحاربين يمكن استئجارهم لقتل أحد الأعداء. في العادة كان أولئك الذين يريدون التخلص من أحدهم لا يملكون المال، ومع ذلك اعتقدوا أن بإمكانهم مناكدة أو تملق الرجال لدفعهم لتحقيق مآربهم. لعل ذلك هو الأسلوب الذي يعيشون فيه في حياتهم، يتوسلون في سبيل نيل المنافع في كل شيء. إن هذا الأسلوب السلوكي في الحياة ظاهر في عيونهم الضارية وأجسادهم الذابلة.

تذكّر ويلي أحد الأمور التي كان راماشاندرا دأب على قولها: «علينا التخلي عن مفهوم إعادة خلق وتكوين الجميع. كثيرون هم أولئك الذين ذهبوا بعيداً جداً في سبيل ذلك. علينا انتظار موت هذا الجيل. هذا الجيل والجيل التالي. ينبغي علينا وضع الخطط من أجل الجيل الذي يأتي بعد».

هكذا عادوا مرحلة بمرحلة، بالنسبة لويلي فَكَّكت الرؤية الرعوية نفسها بنفسها، كما لو بنوع من السحر. اختفت الدروب التي شقّها رجال الفِرقة بمساعدة القرويين؛ وانسدّت أحواض المياه التي نُظفت من الطين من جديد. تتجادل الأسرة، بشكل تافه ولا محدود، حول الأرض أو السواقي المفتوحة أو الميراث، تلك الخلافات التي كانت تُقدَّم لراماشاندرا كقائد لكي يحكم فيها، وكان يبدو أنها قد حُلّت نهائياً، هذه الخلافات ثارت من جديد؛ حدثت جريمة واحدة على الأقل بسببها.

تقدم في أحد الأيام، خارج القرية، رجلٌ أسمر في منتصف العمر من الفِرقة السائرة. وقال لكيسو: «منذ متى أنت في الحركة؟» وكان الأمر وكأنه يتكلم لمجرد أن يتيح لهم سماع صوته المثقف الجميل فيفهمون أنه، رغم ملابسه الفلاحية واللفاح البشكيري الناعم على كتفيه، كان رجلاً متمدناً.

أجابه كيسو: «ثمانية أعوام».

قال الغريب: «عندما ألتقي أمثالكم ـ وهذا يحدث من حين لآخر ـ لا يمكنني إلّا أن أعتقد أنكم إما نقباء أو رُوّاد. مبتدئون وتقفون على درجة الترقي الأولى. لا تشغل بالك في هذا الأمر. كنتُ في الحركة، أو في جميع الحركات إن كنت تُفضّل، على مدى ثلاثين عاماً. إن تسر على رؤوس أصابعك فإن أحداً لن يتمكن من الإمساك بك. ولهذا فأنا أظن نفسي لواء. أو، وعندئذ ستعتقد أنني شديد الزهو بنفسي، قائد جيش».

سأله ويلي: «كيف تمضي أيامك؟»

«متجنباً الاعتقال، بالطبع. وما خلا ذلك لا شيء سوى الشعور الحاد

بالسأم. ولكن ووسط كل هذا السأم فإن الروح لا تعرف الفشل في الاحتجاج والحكم على الحياة، وكذلك هي لا تعرف الفشل في إدراكها أنها غير جديرة. إن توصيف اللامنتمين أمر ليس سهلاً. غير أن ذلك يُبقي عليَّ متقدماً نحو الأمام».

قال ويلي: «كيف بدأت؟»

«بطريقة تقليدية. كنت في الجامعة، وكان لدي فضول لمعرفة حياة الفقراء. كان هناك قدر معيّن من الأحاديث المثيرة حولهم بين الطلاب. رتّب لي كشّاف الحركة ـ كنت محاطاً بالكثير منهم ـ مشاهدة الفقراء. التقينا في محطة سكة الحديد وارتحلنا تحت جنح الليل في عربة الدرجة الثالثة في قطارٍ بطيءٍ جداً. كنت مثل سائح، وكان دليلي شبيهاً بمجندٍ رحّال. وفي النهاية بلغنا قريتنا الفقيرة. كانت قريةً شديدة البؤس. لم يتناهَ إلى ذهني السؤال عن سبب اختيار دليلي لهذه القرية بعينها أو كيف اهتدت الحركة إليها. لم يكن فيها أية شروط صحية بالطبع. آنذاك بدا وكأن هذا هو الأمر الأكبر. وأما الطعام فكان شحيحاً جداً. طرح دليلي الأسئلة ثم ترجم لي ردودهم. قالت إحدى النساء: «كان بيتي خالياً من النار على مدى ثلاثة أيام». وكانت تقصد أنها لم تطبخ في هذه الأيام الثلاثة وهي وأسرتها لم يتناولوا أي طعام خلالها. كنت مندهشاً إلى أقصى حد. في نهاية أول مساء لي هناك جلس القرويون حول النار في فسحة مكشوفة وأخذوا يصدحون بالأغاني. لم أفكر في التساؤل فيما إذا كانوا فعلوا ذلك ترحيباً بي أم لتسلية أنفسهم، أو إن كانوا يقومون بهذا كل مساء. كل ما أدركته أنني كنت أرغب بتوق كبير في الانضمام إلى الحركة. حركة تلك الأيام، تلك التي كانت ناشطة منذ ثلاثين عاماً. تمَّ ترتيب ذلك من قِبل دليلي وقُبِلت في الحركة. غادرتُ الجامعة وتوجهت إلى إحدى المدن. هناك التقيتُ بالقائمين على عملية الربط. أخبروني رغبتهم في إرسالي إلى إحدى القرى. وهذه كانت تقع على بعد مسيرة طويلة عن المدينة. وسرعان ما تحول الطريق الرئيسي إلى طريقٍ قذرٍ

ومحقّر، ومن ثم حلّ الّليل. كان ذلك آذار، ولذلك كان الطقس لطيفاً، غير حارق. كما أن تلك الرحلة لم تكن مُخيفة. بعد ذلك بلغتُ القرية. وهذا لم يكن في وقت متأخر. وحالما وقعت أنظاري على القرية شاهدت منزل الإقطاعي. كان منزلاً كبيراً بسقف من القش المُشذّب. لا يملك الفقراء أَسقفاً مرتبة ومُشذّبة. ولم تكن أفاريز منازلهم مشذّبة. ذلك المالك الكبير للأرض هو من كان عليَّ قتله. كان واضحاً جداً، لدى رؤيتي لمنزله في يومي الأول أنه هو بالذات من عليَّ قتله. كنت غير قادر على النظر إلى الأمر إلّا هكذا. لو كنت نموذجاً آخرَ من البشر لاعتقدت أن يد الله وحسب هي التي تحرضني على المضي في عزمي. تلك كانت تعليماتي، أن أساهم في التخلص من الإقطاعي. لم يكن عليَّ قتله بنفسي. وجبَ عليَّ تحريض الفلاحين على ذلك. تلك كانت إيديولوجيا ذلك العصر، تحويل الفلاحين إلى متمردين، ومن خلالهم الشروع في الثورة. توّاً رأيت فلاحاً، هل تصدق، فيما أنا أنظر إلى المنزل لأول مرة من بين الظلام، عائداً من عمله في وقت متأخر لسبب ما. من جديد، يد الله. قدمتُ نفسي له وقلت بلا تردد: «عمت مساء يا أخي، إنني أحد الثوار، أحتاج لمأوى أمضي الليلة فيه». ناداني بالسيد ثم دعاني إلى كوخه. عندما وصلنا قدم لي سقيفة أبقاره. الحكاية الكلاسيكية للثورة. كانت تلك السقيفة رهيبة، مع أنني فيما بعد مررت بما هو أسوأ. تناولنا الرز المقزز. وجاءنا الماء من نبعٍ صغيرٍ. لا يشبه نبعاً إنكليزياً جارياً كما في حكايات الأطفال، نقيّاً مثل الكريستال. هذه الهند يا سادتي، وهذا كان مُجرّد جدولٍ موحلٍ. أنت مضطر لغلي كل ما تستخرجه من هذه الخبيصة كريهة الرائحة. تحدثت إلى مضيفي حول فاقتهِ وديونهِ ومشقّةِ حياتهِ. بدا مستغرباً. ومن ثم دعوته لقتل الإقطاعي. كنت أعمل بسرعة متهورة، أليس كذلك؟ في الليلة الأولى فقط صرّحت بكل شيء. أما الفلاح فأجاب بكل بساطة بـ لا. في الواقع كنت مُسترخياً تماماً؛ لم أكن تحجرت بما فيه الكفاية. لكانت انتابتني الرغبة في الهرولة مبتعداً لو قال لي: «أية فكرة رائعة هذه يا سيدي. كانت تجول في رأسي منذ بعض الوقت. تعال وراقبني وأنا أذبح ابن الزانية هذا». ما

قاله الفلاح هو أنه يعتمد على الإقطاعي في تأمين الطعام والنقود منذ ثلاثة أشهر. وسيكون قتله، قال عارضاً عليَّ حكمته في هذا الأمر مقابل نظرياتي، كمن يقتل الإوزة التي تبيض ذهباً. كان نقاشنا مليئاً بمقولات كهذه. في الصباح فررتُ من بيته بأسرع ما استطعت، إنها حكاية كلاسيكية لثوري. لو كان الكثيرون مكاني لعادوا إلى المدينة واستقلوا الباص أو القطار عائدين إلى المنزل. لكنني دأبتُ على مهمتي. وها أنت تراني هنا، بعد ثلاثين عاماً، ما زلت أتنقّل بين الفلاحين حاملاً فلسفة الجريمة».

قال ويلي: «كيف تُمضي يومك؟»

ثم علّق كيسو: «هذا ما كنتُ على وشك الاستفسار عنه منك».

«العيش في كوخ أحد الغرباء؛ قضاء الليل فيه من دون تحميل نفسي عبء القلق فيما يتعلق بمسألة الضمان والإيجار والمصلحة؛ النهوض باكراً والتوجه نحو الحقول لكي أقوم بتجهيز زوادتي. هذه الأشياء اعتدت عليها الآن. أشك في مقدرتي على العودة للإقامة في غرفٍ صغيرةٍ من أربعة جدران. ثم أعود إلى الكوخ، أتناول قليلاً من طعام الفلاحين. أقرأ لساعات معينة. الكلاسيكيات: ماركس وتروتسكي وماو ولينين. بعد ذلك أقوم بزيارة آخرين من سكان القرية، ونرتب موعداً للقاءٍ مُستقبلي، ثم أقفل عائداً. يصل مضيفي من الحقول؛ نتبادل الأحاديث. غير أننا في الواقع لا نفعل. ليس لدى أيّ منّا ما يقوله للآخر. لا يمكنك الانصهار في التفاصيل الحياتية للقرية. بعد يوم أو اثنين تجدني مبتعداً إلى مكان آخر. أكون حريصاً ألا يتعب مضيفي مني فيُدلي بالمعلومات للشرطة. على هذا المنوال تجري أيامي منذ الماضي، وكل يوم شبيه بأيّ يوم آخر. أشعر أن الحياة التي أسردها عليكما شبيهة بتلك التي لموظف حكومي رفيع وذي سلطة كبيرة».

قال له ويلي: «لا أفهم هذا».

قال كيسو: «أنا أيضاً لا أفهمه».

قال الغريب: «أعني فيما يتعلق بالملل. أولئك المديرون كل شيء في متناولهم. عندما تحصل على جميع هذه الامتيازات والإمكانات فإنك ستكون على ما يرام مع الحياة. بريتش أميركان توباكو، وإمبريال توباكو، يونيلفر، وميتال بوكس. أخبروني أنه في الإمبريال لا يقوم الفتيان سوى بتناول وجبتهم ثم يمضون مباشرة يطوفون وهم يتحققون من التواريخ المكتوبة على علب السجائر في المحلات التجارية».

لدى ظهور لمحة من الريبة في كلامه أخذ يصبح مهتاجاً، ويتكلم بلهجة دفاعية. اختفى جزءٌ من أسلوبه الخطابي ولم يعد راغباً في البقاء مع الفِرقة، وحالما استطاع ـ مع تكّشف منظر تجمعات الأكواخ حيث يمكنه الذهاب والاستراحة ـ نأى بنفسه مبتعداً.

قال كيسو: «أتظن أنه عَمِل ذات مرة في إحدى هذه الشركات؟»

قال ويلي: «أظن أنه ربما يكون استُخدِم ولكنه أخفق. من المحتمل أنهم لو كانوا ألحقوه بالميتال بوكس أو أي من الأخريات لما جاء إلى الريف وشرع يطلب من الفلاحين أن يقتلوا الناس. قد يعطينا الموضوع الذي تحدث فيه، حول الرواد والنقباء وكونه هو نفسه لواءً، فكرةً عن أنه لعله جرّب الالتحاق بالجيش ولكن الجيش لم يرغب فيه. يساورني الغضب تجاهه».

«كلامه كان مجموعة من المبالغات».

«غاضب منه لأنني اعتقدت في البداية أنه رغم أسلوبه التهريجي يمتلك شيئاً من الحكمة في داخله، شيء أستثمره بطريقة أو بأخرى. كنت أنصت بحرصٍ شديدٍ، معتقداً أنني لاحقاً سأقوم بالتمحيص في كل ما كان يتفوَّه به».

قال كيسو: «إنه مخبول. أعتقد أنه لم يُعتقَل أبداً لأن الشرطة لم تظن أنه جديرٌ بإضاعة وقتها. ربما يعتقد الفلاحون أنه شخص مرح».

فكّر ويلي: «ولكن من المحتمل أنهم ينظرون إلينا جميعاً بهذه الطريقة.

ربما من دون أن ندري هذا، أصبحنا جميعاً مجانين إلى حد ما أو غير متوازنين. كيسو كان يحلم أن يكون طبيباً. الآن ها هو يعيش هذه الحياة ويجهد لإقناع نفسه أنها الحياة الحقيقية. من السهل دائماً أن ترى شذوذ الآخر. يمكننا رؤية الجنون في أولئك القرويين الذين يريدون منّا قتل الناس في سبيلهم. أولئك الرجال بوجوههم المشوّهة التي جُبِلت بشكلٍ سيء، كما لو أنهم عانوا حرفياً من أزمنة رهيبة لمجرد كونهم جاؤوا إلى هذا العالم. إننا عاجزون عن رؤية غرابتنا الذاتية. رغم أنني بدأت أشعر بهذه التي تخصني».

* * *

أخيراً وصلوا القاعدة، حيث كان لويلي غرفته الخاصة به. أخفقتْ رغبة القيادة في توسيع المناطق المحررة؛ أدرك الجميع هذه الحقيقة. لكن ورغم الجو الكئيب الذي كان مهيمناً على المزاج العام كان ويلي مسروراً لأنه عاد إلى مكان كان فيه فيما مضى. أحس أنه توقّف عن الاندفاع والسير في العراء؛ أحس أن بإمكانه حيازة نفسه من جديد. أحب السقف الواطئ القشّي ـ آمِنٌ جداً، وخاصة حيث كان يستلقي في سريره ذي الأسلاك المعدنية ـ حيث يمكنه حفظ أشيائه الصغيرة بين القش والعوارض الخشبية؛ أحبَّ الأرضية ذات التربة المداسة والملساء التي لا تصدر أصواتاً تحت قدميه.

كان ويلي آملاً برؤية قائد القطّاع من جديد، الرجل صاحب الأسلوب المهذّب والمثقّف. بيد أن هذا الأخير لم يكن في الجوار. الأخبار كانت أنه نُفي من الخدمة، واستسلم للشرطة بعد تحقيقات مفصّلة. طالب بالمكافأة التي خُصصت لقاء اعتقاله؛ يحقّ لرجال العصابات الذين يستسلمون المطالبة بهذه المكافأة. ومن ثم شقَّ طريقه عائداً إلى المدينة الكبيرة التي كان جاء منها. هناك وعلى مدى عدة أشهر راح يطارد خلسة زوجته المغتربة قبل أن يطلق النار عليها وتموت. لا أحد يعلم مكانه في هذه الأثناء. ربما يكون انتحر؛ وعلى الأرجح، بعد تحرره من الحركة قد يكون حصل على المكافأة، وهو حرٌ في المدينة الكبيرة يستخدمُ جميع مهارات رجال العصابات في التنكّر والتخفّي،

أو لعله مايزال إلى الآن يحاول التخلص من شخصيته وألمه القديمين اللذين حملهما على مدى سنين طويلة.

كان يمكن لهذه الأنباء أن تتركَ صدىً أكبر لو لم تكن مُقارِبة في الوقت لأنباء أخرى عن اعتقال الشرطة لكاندابالي. كان ذلك حدثاً أكثر أهمية بكثير، كان كاندابالي الآن فَقَدَ معظم أتباعه. وعارياً من أية حماية من الخطورة. لم يتخذ رجال الشرطة أية إجراءات احترازية خاصة عندما أوقفوه واقتادوه إلى المحكمة. ما كان معروفاً عنه ويشتهر به كثيراً هو دفتر القصاصات الذي كان يرافقه باستمرار. وفي هذا الدفتر كان ألصق صوراً للأطفال قصّها من الجرائد. كان ثمة سببٌ عميقٌ يتعلّق بالوله بهذه المسألة، مسألة صور الأطفال، لكن كاندابالي كان عاجزاً عن البوح به؛ لقد غاب عقله؛ كل ما تبقى له كان هذه العواطف العارمة. تهيجت مشاعر ويلي إلى أقصى حد، أكثر مما حدث في برلين عندما سمع بكاندابالي للمرة الأولى من ساروجيني: شغفه الإنساني، وقربه من الدموع. لا جدوى من معرفته لها الآن. في نوع من الحزن البائس، والذي جعله يأسى على نفسه وعلى العالم وعلى كل إنسان وحيوان جُرِح ذات يوم، حاول ويلي الدخول إلى عقل الرجل المُعطّل. حاول تخيل المُدرّس العجوز الهزيل وهو يختار الصور من الجرائد ويلصقها في دفتره. أيُّ الصور كانت تثير اهتمامه يا ترى، ولماذا؟ لكن الرجل كان عَصيّاً على الفهم، بقي أسير عقله، حيث لا أحد سيصل إليه الآن، ما كان أشد تأثيراً من موت الإنسان الذي كان إياه، هي هذه التحولات والانحرافات من الحاضر نحو الماضي.

حتى أعداؤه تأثروا. اعتقد آينشتاين أنه يجب على الحركة تقديم إشارة ما، لكي تُظهِر التضامن مع الثوري العتيق. قدّمَ هذا الاقتراح أمام الاجتماع الدوري للقطّاع.

قال: «لقد جللنا عاره بالخزي جميعاً. كنا حاربنا برفقته، لهذا نحن مدينون له بالقيام بتحركٍ ما. مدينون له لأنه قام بإحياء الحركة في الأزمنة

الصعبة، عندما تعرضت للسحق وكانت مُوحّدة لكنها ميتة. أقترحُ اختطاف وزير من الحكومة المركزية أو، إذا كان ذلك يتعدى قدراتنا، فوزير من السلطة المحلية إذن. سوف نوضح من خلال هذا أننا فعلنا ذلك كإيماءة دعم لكاندابالي. أنا بنفسي أتطوع للعملية. أجريتُ بعض التحريات، وفي ذهني رجل محدد، وأنا أعلم متى يمكننا اختطافه. كل ما يلزمني هو ثلاثة رجال وثلاثة مسدسات وسيارة. سوف نحتاج أيضاً لشخص رابع يقف بجانب إشارة المرور المجاورة لمنزل الوزير ثم يقوم بإيقاف حركة المرور لثلاث أو أربع ثوان أثناء هروبنا. وهذا عليه الإيحاء للجميع أنه يقوم بذلك لتسهيل عبور موكب الوزير. أما مدّة العملية نفسها فينبغي أن لا تتجاوز الدقيقتين. أجريت اختباراً على ذلك، وفي الاختبار استغرق الأمر دقيقة وخمسين ثانية».

قال أحد قادة الفِرق المهمّين: «مع أنه في هذه الأثناء علينا أن لا نقوم بما يفاقم من نقمة الشرطة وإحكام قبضتهم علينا. ولكن هات اعرض علينا نص خطتك».

«يقع منزل الوزير في منطقة أزيزناغار. علينا أن نكون في المكان قبل أسبوع، أو أربعة أيام على الأقل، لكي نعتاد على ترتيب الشوارع. سوف نحتاج لسيارة نستأجرها من مكان آخر. سوف يبقى ثلاثة منا في السيارة، صبيحة اليوم المحدد، أمام الباب مباشرة. إن منزل الوزير مخفيٌّ عن الشارع بجدارٍ مرتفعٍ. وهذا مناسب لنا تماماً. سيتقدم الحارس منا ويستفسر عما نفعله. وسوف نشير إلى هذا الحارس على أنه الشخص الذي علينا التعامل معه عندما يحين موعد العملية. سوف ندّعي أننا طلاب جامعة ـ سأعيّن من سيتكلم ـ وأننا نرغب الطلب من الوزير الخروج والتحدث إلينا أو شيء من هذا القبيل. سوف أقدّر متى يكون حشد الازدحام قليلاً والوقت مواتياً. أترجّلُ من السيارة وأسير من وراء الحارس باتجاه الباب الأمامي لمنزل الوزير. وفي هذه اللحظة سيقوم أحد الرجال بإطلاق النار إما على ذراع أو ساق الحارس. وحالما أصبحُ في الداخل سوف أطلقُ النار على كل من يعترض سبيلي. سأقتحم مكتب أو

غرفة الوزير مثيراً قدراً هائلاً من اللغط والصراخ. وسأطلق النار على يده برصاصات متلاحقة، مواظباً على صراخي طوال الوقت. سيكون في قمة رعبه. وحالما يتعرض للجرح سوف أقسره خارجاً عبر الباب الأمامي نحو السيارة التي تسدّ البوابة. أجريت دراسةً حول جسده فوجدت أنني أستطيع ذلك. يمكنني دفعه للخروج بالقوة. علينا أن لا ننسى أن كل هذا يجب أن يتم إنجازه ببرودة ودقة وتصميم، بدون أي تردد أو تلعثم في أي من مراحل العملية. سوف نقود السيارة من خلف أضواء إشارات المرور التي سيتم توقيفها لهذا الغرض. مجرد دقيقتين، دقيقتين من الهدوء والجسارة. ستعود علينا هذه العملية بالفائدة. وسوف تُعلن للآخرين أننا لا نزال في الجوار».

قال قائد الفِرقة: «إنه أمرٌ بسيطٌ وجميلٌ. لعله شديد البساطة فعلياً».

قال آينشتاين: «كلما كنا أسرع أُعيدت حركة المرور للعمل بسرعة. وكلما تلكأنا في السرعة، تركنا الاحتمال مفتوحاً على الازدحام على التقاطع. من الأفضل أن يقوم أحدنا بالسير، وفي حال كانت الإشارة الضوئية عكسنا عندما نصل، يقوم هذا الشخص، ببرود شديد، بارتداء القفازات البيضاء التي ستبدو رسمية ويعمل على إيقاف حركة السير. أما إذا كانت الإشارة الضوئية إلى جانبنا فسوف لن نأتي بأية حركة على الإطلاق».

استفسر قائد الفِرقة: «هل يوجد رجل شرطة أو مَحرَس على التقاطع؟».

أجاب آينشتاين: «لم أكن لأُقدم على هذه العملية لو كان هناك مَحرَس للشرطة. بعد عبورنا، سوف يسير هذا الرجل على مهل حتى الجانب الآخر من الشارع، متخلصاً من قفازيه، ثم يستقل سيارة أجرة أو أية سيارة أخرى، والتي سرعان ما يجب أن تتوارى عن الأنظار. لهذا قد يلزمنا سيارة أخرى. إن من ينتبه إلى المشهد من المارّة سوف يظن أنه مجرد جوكر هندي آخر. أربعة رجال، سيارتان وثلاثة ومسدسات».

قال كيسو: «أشعر أنك عازم على تنفيذ العملية، مهما تكن آراؤنا».

قال آينشتاين: «أعتقد أن تنفيذ العملية سيكون أمراً متحدياً وصاعقاً، على اعتبار أنه ليس لدينا أي شيء ضد هذا الوزير. تروق لي هذه المباغتة. أظن أنها ستعطي مثالاً لشعبنا. إن معظمنا، حين يخطط لعمل عسكري، لا يمكنه التفكير إلّا بطريقة شديدة الابتذال. ولهذا ترى الطرف الآخر في انتظارنا على الدوام، ومن ثم ترانا وقد امتلأت الزنازين بنا».

تحادث آينشتاين وويلي بعد ذلك.

قال آينشتاين: «تناهى إليَّ أنك مررت بظروف قاسية أثناء ذلك التوغل في عمق البلاد بقصد توسيع المناطق المحررة. كانت تلك الإستراتيجية إستراتيجيةً ضعيفة، ودفع البعضُ الثمن. للقيام بأي عمل بعثرنا أنفسنا بشكل شديد التفرّق».

«أعلمُ ذلك، أعلمُ».

«إن القادة يخذلوننا. نموذج حياة شاق وعالي التنظيم. الكثير من المؤتمرات التي تُعقد في أماكن نائية؛ الكثير من التدافع والتنافس للتوسع في شتى الاتجاهات وزيادة المكاسب. بالمناسبة، هل تذكر ذلك الرفيق ابن طائفة النسّاجين الذي خاننا لصالح الشرطة قبل عامين؟».

قال ويلي: «قضية بهوجي ناريان؟»

«لم يُقدِّم أي دليل ضد أيّ كان. لا أظن أنهم سيسجلون بهوجي ناريان تحت القطّاع 302».

قال ويلي: «أي إنصاف!»

«أردت إحاطتك علماً بهذا؛ أعلم مدى قربكما من بعضكما».

«هل ستتولى قيادة ذلك القطّاع قريباً؟».

«عليَّ أن لا أخوض أكثر في هذا الموضوع. يجب عدم الكلام في هذه الأمور إلّا في وقتها، أنت تعلم. مثل الرياضيات في شبابك، تتلقاها من دون أية معرفة مسبقة بها، حين تكون في أقصى درجات صمتك».

فكّر ويلي في مُستعمرة النسيج الصغيرة كما كان رآها لآخر مرة: السماء الحمراء، والساحات الأمامية النظيفة حيث يتحول الغزل إلى خيوطٍ عن طريق فتلهِ، وسكوتر الأجرة ثلاثية العجلات أمام المنزل الذي كان يعيش فيه راجا مع شقيقه الأكبر. تذكَّرَ نار الطبخ، تبدو احتفالية في ضوء النهار الذّاوي، في المطبخ نصف المكشوف لصانعي السجائر على بعد مئة ياردة: أناسٌ يكسبون أكثر بمرة ونصف مما يكسبه النسَّاجون الفقراء: ذلك الإشعال المبكر للنار يبدو وكأنه يشير إلى الفارق بينهم. تذكر زوجة الأخ الكبير في تنورتها الفلاحية تخرّ على أرضية المنزل الصغير أمام بهوجي ناريان، محتضنة ركبتيه ومتوسلة إياه الإبقاء على حياة شقيق زوجها قرب النول منزلي التصنيع.

فكّر: «من ممن هم هنا سيعلم أنني أهتم لأمر أولئك البشر؟ قد يكون من الأفضل لكلا الشقيقين الموت. ربما، كما قال راماشاندرا، فيما يتعلّق بأناسٍ من أمثال راجا وشقيقه فإن الأذى منذ الماضي وحتى تلك اللحظة كان عظيماً جداً. ضاع هذا الجيل، وربما أيضاً الجيل التالي على حد سواء. لعل كليهما اختزن كمية هائلة من الكفاح العبثي والألم الذي لا حاجة لهما به».

* * *

في هذه الأثناء كان يُعقد اجتماع المنطقة كل أسبوعين. يأتي قادة الفِرق أو ممثلوهم من المناطق المحررة المنتشرة في الأحراج وهم يتنكرون في زي الحياة العامة القديمة. والأخبار التي جاؤوا بها، وهي غير رسمية، كانت حول اعتقالات الشرطة وتحلل وتفكك الفِرق، غير أن وهم الثورة وتوسيع المناطق المحررة الذي سكنهم ذات مرّة لازال مُهيمناً، على الأقل في النقاشات الشكلية، إذ أخذت تغدو هذه النقاشات شيئاً فشيئاً أكثر تجريدية. تراهم يتجادلون، على سبيل المثال، بجديّة تامّة حول ما إذا كانت الإقطاعية أم الإمبريالية هي التي تخلق التناقض الأكبر. ربما تجد من هو أكثر حماسة للإمبريالية - التي تخلّف شعوراً هنا في هذا المكان أنها بعيدة جداً في الواقع - ثم بعد ذلك، ربما يتوجه أحدهم لويلي قائلاً: «بالطبع لا يملك إلّا أن يقولَ

هذا. أبوه واحدٌ من مُلاك الأراضي، وحين تحدّثَ عن الإمبريالية كان يريد القول: «أيها الجمع افعلوا ودمروا ما تشاؤون ولكن ابقوا بعيدين عن أبي وأسرتي». أو ربما يتجادلون ـ يفعلون هذا أسبوعيا، وكل منهم يعرف ما سيتفوَّه به الآخر سلفاً ـ فيما إذا كان الفلاحون أم البروليتاريا الصناعية هم من سيطلق شعلة الثورة. رغم ما حدث من حالات قتل أصبحت الثورة أكثر فأكثر مجرد هذه الكلمات المجردة.

وسط هذه الاجتماعات وصَلَتْهم أخبار عن عملية آينشتاين. لقد نفّذها حسبما خطط بالضبط، وفشلت. كان آينشتاين شدّد على أهمية الجدار المرتفع لمنزل الوزير لأنه سيفيد في إخفاء آينشتاين ورفاقه داخل سيارة الاختطاف. بيد أن استقصاءه لم يكن كاملاً كما تبجح أمام اجتماع القطّاع. ما أخفاه الجدار أيضاً عن آينشتاين هي الإجراءات الأمنية المشددة للمنزل. اعتقد بوجود حارس مسلح واحد فقط وهو الذي كان يقف على البوابة. ما اكتشفه في يوم العملية، وقبل ثوانٍ من الاختطاف الذي عقدَ العزم عليه، هو وجود حارسين آخرين في الداخل وراء الجدار. قرر إيقاف العملية بأكملها، وفي لحظة دخوله الساحة تقريباً تراجع بسرعة راكضاً من خلف حارس البوابة ورمى بنفسه في السيارة. كانت الإشارة الضوئية عكسهم، لكن الرجل الذي أُوكلتْ إليه مهمة التكفل بحركة السير أدى عمله على أكمل وجه، سائراً بتمهل حتى منتصف الشارع، رافعاً القفازات البيضاء الكبيرة ومُوقفاً حركة المرور. كان البعض ظن أن هذا الجزء هو الجزء الأضعف في الخطة. لكنه تحول ليصبح الجزء الوحيد الذي نُفّذ. وبالكاد، كما أكّد آينشتاين، كان يمكن الانتباه له.

عندما ظهر بينهم ثانية قال: «ربما يكون هذا في صالحنا. كان يمكن أن يأتي رجال الشرطة ويلقون القبض علينا ولكنّا الآن ـ لو تمّ ذلك ـ نتلقى عقاباً قاسياً».

قال ويلي: «لا بد أنكم كنتم متماسكين إلى درجة لافتة بحيث أمكنكم

إلغاء المهمة في اللحظة الأخيرة. لو كنتُ مكانكم، لاخترت المضيّ قدماً. كلما وجدتُ نفسي أزداد دخولاً أكثر في الفوضى، تفاقمت الرغبة فيَّ للمضي أبعد من ذلك».

قال آينشتاين: «يجب أن تحتوي جميع الخطط على هذه الفجوة الصغيرة من الدينامية».

في لقاء المقاطعة التالي حضر أحد أعضاء مجلس الحركة. كان في الستينات من عمره، أكبر مما توقعه ويلي. ولهذا ربما كان المخبول المتبجح الذي تحدث عن دخوله جميع الحركات الناشطة على مدى ثلاثين عاماً صادقاً فيما قاله. كان إضافة لذلك رجلاً من نمط الغندور، عضو المجلس المهم هذا، طويل ونحيف وذو وجه محلوق بعناية، وشعرٍ أشيبٍ لمّاع. هذا أيضاً شيء لم يكن ويلي يتوقعه.

قال آينشتاين، بغية تحويل الحديث عن إخفاق خطته، لعضو المجلس: «فعلياً ينبغي علينا الإحجام عن الكلام حول المناطق المحررة. إننا نزعم أمام طلاب الجامعات أن الأحراج هي المناطق المحررة. ونشير أمام الآخرين إلى أن الجامعات هي المناطق المحررة. قد تسير الأمور بشكل غير مرغوب فيه: في بعض الأحيان يقابل هؤلاء بعضهم البعض. لا يمكننا خداع الجميع، وهكذا ينفر منا أولئك الذين نسعى إلى تجنيدهم».

امتلأ عضو المجلس بغيظ شديد، وامتقع وجهه ثم قال: «من ذا الذي يجرؤ على سؤالي؟ هل قرأ الكتب التي قرأتها؟ وإن كان قرأها، هل يمكنه استيعابها؟ هل يمكنك الشروع في فهم ماركس ولينين؟ لستُ كاندابالي. سوف ينفذ هؤلاء ما أُمليه. يقفون حين أطلب منهم القيام، ويجلسون ساعة آمرهم بذلك. هل قطعتُ هذه الرحلة الطويلة لأسمع هذا الهراء؟ كنت مُعرّضاً للوقوع في الأسر في أيّة لحظة. إنني آت إلى هنا لأتلو عليكم الترتيبات الجديدة، وها أنا أكافأ بهذا الهراء».

عكّر حنقه ـ حنق رجل اعتاد لزمن طويل على استخدام أسلوبه الخاص في الكلام ـ بقيّة اللقاء، ولم يجرؤ أحد على رفع أية نقاط أخرى جديدة للنقاش.

قال آينشتاين لويلي لاحقاً: «جعلني ذلك الرجل أشعر أنني أحمق. حوَّلنا جميعاً إلى ثلة من المُغفّلين. لا يمكنني أن أتصور أننا نقوم بنشاطاتنا في سبيله».

قال ويلي، (عاد إليه فجأة شيء من فطنته القديمة التي كانت في جامعة لندن، حذرةً ومدمرةً)، «لعلّ الكتب العظيمة التي قرأها كانت كلها تتحدث عن حكّام القرن العظام».

* * *

جاءت الترتيبات الجديدة التي كان من المقرر نقاشها في ذلك الاجتماع بشكل مباشر من المجلس كأوامر. يتعين عزل المناطق المحررة من الآن فصاعداً وإحكام السيطرة عليها بالقوة؛ يجب أن لا يعرف سكان هذه المناطق إلّا ما تريد لهم الحركة أن يعرفوه. كما يجب نسف جميع الجسور والطرق في محيط المناطق. منع التلفون والجرائد الآتية من الخارج إضافةً إلى حظر الأفلام السينمائية وإلغاء الكهرباء. يجب إعادة التأكيد على المفهوم القديم حول تذويب العدو الطبقي. بما أن رموز الإقطاعية رحلوا منذ زمن بعيد، ولم يكن هناك فعلياً من عدو طبقي باقٍ في هذه القرى، لذا سيكون أفضل تعامل مع الناس هو تصفيتهم. كان الثوري المخبول الذي التقاه ويلي وكيسو تكلم عن فلسفة الجريمة كواحدة من عطاياه الثورية للفقراء، السبب الذي كان يدفعه أسبوعاً تلو آخر للتجوال متنقلاً من قرية لأخرى. ما يشبه هذه الفلسفة أُعيد إلى اللعبة من جديد، وقُدّم كمَذهب. كانت جرائم قتل الأعداء الطبقيين ـ الذين الآن هم ليسوا سوى الفلاحين الذين يملكون مساحةً من الأرض أكبر بقليلٍ من البقية ـ مطلوبةً الآن، في سبيل موازنة نجاحات الشرطة. القاعدة التي

سادت في الفِرق هي الكُتمان؛ تُنقل المعلومات بين أعضاء الفِرقة من شخص لشخص آخر.

أما ويلي فنُقِل إلى فِرقةٍ جديدةٍ. وجد نفسه فجأة وسط مجموعة من الغرباء الشّكاكين. فَقَدَ غرفته في الكوخ ذي الأفاريز الواطئة، التي نما لديه الاعتقاد أنها أصبحت غرفته. كانت فِرقته فِرقة مختصّة في تدمير الجسور والطرق، ولهذا عاش في معسكرٍ من الخِيَم القماشية. أصبح من جديد، باستمرار على أهبة التحرّك، وفَقَدَ أحاسيسه بالزمان والمكان. تذكّر حين كانت عملية إحصاء الأسِرّة التي نام فيها تواسيه، مانحةً إياه القدرة على مواصلة الصبر على ما يجري في حياته. مثل هذا الصبر لم يعد متاحاً الآن. أمِلَ بكل جوارحه أن يتمكن من الاحتفاظ بذاته وحمايتها، وأن يبلغ ملامستها ثانية، وأن ينأى بنفسه إلى الفضاء الأرحب. لكنه لم يكن يدري أين هو. كان عزاؤه الوحيد ـ ومع ذلك لم يكن أكيداً من حجم هذا العزاء ـ بين جميع هؤلاء الغرباء الذين لم يعد راغباً في دراسة شخصياتهم، والذين (نتيجة إنهاكه الشديد وانفصاله الزماني والمكاني) تمنى لو يستطيع إبقاءهم مجرد ألغاز ـ إن عزاءه الوحيد كان أنه في تلك الاجتماعات التي تُعقد كل أسبوعين كان مستمراً في التلاقي بآينشتاين.

في تلك الأثناء وصل أمرٌ للفِرقة بدفع القرويين للقتل أكثر من المزارعين. لم يعد هذا الأمر مسألةً اختيارية، أو هدفاً قد يصلون إليه في يوم من الأيام عندما تصبح الظروف مواتية؛ ذلك كان أمراً، مثل مؤسسة بيع تجزئة تفرض على موظفيها زيادة مبيعاتهم. كان المجلس الأعلى يريد اقتناص الرموز.

مضى ويلي برفقة أحد أفراد الفِرقة ومعهما البنادق إلى إحدى القرى في الغسق. تذكّر ويلي حكاية ذلك المجنون من دخوله للقرى بعد هبوط الظلام وطلبه من أوّل شغيل رآه أن يقتل مالك الأرض. حدث ذلك قبل ثلاثين عاماً. والآن ها هو ويلي يخوض الحكاية من جديد مع فارقٍ وحيد، الآن لم يكن ثمة أي مالك للأرض.

أوقَفا أحد الشغيلة. كان أسمر بعمامةٍ قصيرةٍ ويدَين خشنتين قاسيتين. بدا حسن التغذية.

قال له مرافق ويلي: «عمت مساء أيها الأخ. من يكون أغنى رجل في قريتك؟».

بدا الرجل وكأنه أدرك ما يمهدان له. قال لويلي: «من فضلكما تناولا البنادق وأغربا من هنا».

قال مرافق ويلي: «ولماذا علينا الذهاب؟».

قال القروي: «سيكون هذا أفضل لكما أنتما الاثنين. عليكما الذهاب إلى منازلكم المريحة. سوف أجد في نهاية هذا العمل، فيما لو اتبعتكما، رأسي مضروباً من قبل أحدهم. إنني متأكد من هذا تماماً».

قال له مرافق ويلي: «ولكن إن قتلت الرجل الثري، لن يكون هناك من يضطهدك».

توجّه القروي لويلي قائلاً: «إذن اقتله أنت من أجلي. هذا إضافةً إلى عدم درايتي باستخدام البندقية».

قال ويلي: «سوف أريك كيف تستخدمها».

قال القروي: «فعلياً سيكون الأمر أسهل لكلينا لو تقوم أنت بتصفيته».

قال ويلي: «سأعلمك كيف. تحملها بهذا الشكل، ثم تنظر أسفل هنا».

أسفل على مهداف البندقية ظهر أحد المزارعين في مرمى الهدف. كان ينزل عبر وهدةٍ خفيفةٍ في نهاية يوم عمله. كان ويلي ومرافقه والقروي متوارين وراء الأجمة بجانب ممر القرية. ناظراً من خلال مهداف البندقية إلى الرجل، والبندقية تتحرك مسافة دقيقة كما لو أنها استجابة للشك واليقين في عقله، أخذت تتبدل ظواهر الأشياء بالنسبة لويلي، وأخذ يلعب بهذا التبدل للظواهر. حدث أمر كهذا في إفريقيا البرتغالية عندما، بعد الإبادة الشاملة

للمستوطنين، فتحت الحُكومة ميدان رماية الشرطة أمام الراغبين في تعلم إطلاق النار. كان ويلي لا يدري شيئاً عن البنادق، ولكن ذلك التناوب في ظواهر العالم حوله لدى توجيه نظره عبر مهداف البندقية استحوذ عليه وجلب له السرور. كان ذلك شبيهاً بالتركيز على اللهب في غرفة مظلمة: اللحظة الغرائبية التي جعلته يفكّر في أبيه والأشرام حين كان يصوغ هذا النوع من الإشراق والتَّنَوّر.

صاح أحدهم: «ها هو الثري في مرمى هدفك».

دون النظر إلى المتحدث عرف فيه ويلي صوت آمر فرقته الجديدة.

قال الآمر، ولم يكن شاباً: «لقد أثرت حيرتنا وتساؤلنا لبعض الوقت. لا يمكنك أن تطلب من أحدهم القيام بما لا تستطيعه أنت نفسك القيام به. هيا، أطلق النار الآن».

أخذ الشكل الذي كان يتأرجح إلى داخل وخارج مهداف البندقية يلتف إلى إحدى الجهات، كما لو أنه تعرض لصدمة قاسية، ومن ثم سقط على مسار المجرور.

قال الآمر للقروي المصعوق: «أترى؟ هذا كل ما في الأمر».

حين برد دمه، فكّر ويلي: «إنني محاطٌ بمجموعةٍ من المهووسين تماماً»

بعد قليلٍ من الوقت، فكّر: «تلك كانت وجهة نظري الأولية عنهم، حين كنت في معسكر أحراج السَّاج. واريتُ تلك الفكرة. كنت مضطراً لذلك، حتى أتمكن من العيش وسط أولئك الذين وجدت نفسي بينهم. والآن ها قد طَفَتْ تلك النظرة إلى السطح من جديد، لكي تعاقبني. أنا نفسي غدوتُ مهووساً. عليّ الإفلات طالما أنني ما زلت أمتلك الزمن للعودة إلى ذاتي. أعلم أنني أملك هذا الزمن».

قال آمر الفِرقة لاحقاً، وكان يتكلم بودّ إلى حد ما: «أعط للأمر ستة أشهر. في غضون ستة أشهر سوف تكون على ما يرام». ثم ابتسم. كان في

أربعينياته، حفيد أحد الفلاحين، وولد لموظف عصامي في سلك الحكومة؛ حياة المرارة والخيبة بادية على وجهه.

* * *

كان يسير إلى حيث لم يكن الطريق نُسِف قبل عشرة أميال بقليل. كان طريقاً ريفياً بسيطاً، خطّان من البيتون فوق السطح الأحمر القذر. لم يكن هناك من آليات تمر على هذا الطريق؛ لا باصات ولا سيارات أجرة ولا سكوتر. كانت مجالاً لنشاط رجال العصابات، منطقة اضطرابات، كذلك فإن سائقي سيارات الأجرة والسكوتر يتوجسون خيفة من الاقتراب كثيراً. ولأن الطريق كان خالياً، توجب على ويلي أن لايكشف نفسه قدر استطاعته (وشاح البشكير الرفيع، والقميص الطويل ذو الجيوب الكبيرة على الجانبين، والبنطلون: البنطلون سيكون مفيداً) والتوجه من هناك سيراً حتى أقرب محطة باصات أو قطارات.

لكن حلم النجاة كان تهتّك عند تلك اللحظة. إنه الآن أحد المطلوبين على قائمة الشرطة، وسوف يقومون بمراقبة جميع المحطات. كان بإمكانه، كعضو في الحركة، التخفي حين يصل إلى العراء، إذا جاز القول؛ كان للحركة شبكة مراقبة. وهو بوصفه أحد الفارّين من الحركة، والمتوارين عن أنظار الشرطة، وجد نفسه مُجرداً تماماً من الحماية. ليس هناك من حماية يمكنه تأمينها لنفسه. لم يكن لديه أية اتصالات محلية.

فكر أن عليه الانتظار إلى حين انعقاد اجتماع القطّاع وعندها يفتح قلبه لآينشتاين. تلك مجازفة، ولكن ما العمل، إذ ليس هناك من يتحدث إليه سواه.

تلاشت جميع شكوكه في آينشتاين حالما توجّه إليه بالكلام.

قال آينشتاين: «ثمة وسيلة أفضل. دربٌ أقصر وهو ما سيؤدي بنا إلى دربٍ آخر. سآتي برفقتك. أنا متعبٌ أيضاً. هناك قريتان في طريقنا وأنا أعرف النسّاجين في كليهما. سوف نأوي الليل عندهم، ومن ثم سوف يؤمّنون لنا

سكوتر تقلّنا في طريقنا إلى ما وراء حدود الولاية. إن لهم أصدقاء على كلا الجانبين. للنسّاجين أيضاً شبكاتهم. ها أنت ترى أنني بحثت في أمر هذه الرحلة. كن حذراً من هؤلاء الآخرين هنا. لاعِبْهم على طول الخط، طالما تجد نفسك مضطراً لذلك. إذا ساورهم الظن أنك ستتخلى عن الخدمة سوف يقتلونك».

قال ويلي: «نسَّاجين، وسكوتر».

«تفكّر أن هذا يشبه موضوع راجا وشقيقه. حسناً، إنه كذلك. ولكن هذه هي الكيفية التي تسير عليها الأمور أحياناً. كثير من شعب النسَّاجين يتدرجون في أعمالهم لينتهوا إلى سائقي سكوتر. البنوك تساعدهم على ذلك».

تحادثا طوال أيام الاجتماع حول مسألة الفرار والنجاة بنفسيهما.

قال آينشتاين: «لا تستطيع تسليم نفسك للشرطة بهذه البساطة. قد يطلقون النار عليك؛ إنه عمل معقّد. علينا التخفي، وربما نضطر للتخفي لمدة طويلة. سوف نتوارى وسط النسَّاجين في الولاية الأخرى، ومن ثم نتحرك قُدُماً. علينا استمالة بعض السياسيين إلى جانبنا؛ إنهم يفضلون المطالبة بالضمانات لقاء تسليمنا. سوف يتقاضون المال من الشرطة لقاءنا. وحتى ربما يكون هو ذاك الرجل الذي خططتُ لاختطافه. هو الأسلوب الذي تسير عليه الحياة. من يكون ذات مرة في هذا الجانب تراه في مرة أخرى في الجانب الآخر. أعلم أنك لم تَرتَحْ لي عندما رأيتني للمرة الأولى. وأنت لم تَرُقْ لي حين رأيتك لأول مرة. الحياة هكذا. لا تغلق عقلك أمام أي شيء. ثمة أمر آخر؛ لا أريد معرفة ما يمكن أن تكون قد فعلتَه أثناء وجودك في الحركة. من الآن فصاعداً، تذكر هذا وحسب: أنت لم تفعل أي شيء. كانت الأمور تجري من حولك ليس إلّا. إن من قام بها هم الآخرون. أما أنت فلم تفعل شيئاً. هذا ما عليك عدم نسيانه لبقية حياتك.

* * *

تَطَلّبَ الأمر ستة أشهر. وعلى مدى مراحل معينةٍ كان انحلالهم من حياتهم في الحركة وكأنه تواصل لتلك الحياة.

في الليلة الأولى، قبل وصولهما أكواخ النسّاجين حيث كانا يقصدان الإيواء للنوم، نزعا البدلتين ودفناهما بغية عدم المجازفة بإشعال النار، وأيضاً غير راغبين بإضرام النار بتلك البدلتين في حضرة مضيفيهما النسّاجين. تلا ذلك أيام طويلة من الرحلات الحارة والوعرة فوق أشكالٍ متنوعةٍ من الدروب وهما يركبان السكوتر ثلاثية العجلات التي كانت واطئة حتى لتكاد تلامس الأرض، مرّة يستقلان السكوتر ذاتها، ومرّة أخرى (وهو اقتراح آينشتاين من أجل السلامة) في اثنين منفصلين من السكوتر. كان غطاء سكوتر الأجرة منخفضاً لكنه ليس عريضاً، شبيهاً بذلك الذي لعربة الأطفال، مما يسمح لأشعة الشمس بالتسرب من زواياه. وفي الدروب التي تكون أكثر اشتغالاً بالحركة كان الدخان المتهالك الداكن يندفع ويخترقها من جميع الجهات، وعلى الأثر يبدأ الجلد، الملسوع بوهج الشمس، بالتألم والتحبحب. في الليل توقفا في تجمُّع النسّاجين. بدت هذه المنازل المؤلفة من غرفتين صغيرتين وكأنها شُيّدت لوقاية وحماية الأنوال القيّمة أكثر مما هي لحماية البشر. فعلياً لم يكن لويلي وآينشتاين أي متسع، غير أن هذا المتسع تمَّ إيجاده. كل منزلٍ وصَلَاهُ كان شبيهاً بالذي قبله، ما خلا بعض اللمسات في التنوعات المحلية: قشٌّ مرتبٌ بشكل غير منتظم بدلاً من القرميد، قرميد صلصالي بدلاً من الجبصين والواتل. في النهاية عبرا حدود الولاية وعلى مدى أسبوعين أو ثلاثة استمرت شبكة النسّاجين في تأمين الحماية لهما.

لم يكن لدى ويلي سوى فكرة مشوشة عن مكان وجودهما. وتكتسحه الآن رغبة عارمة في التواصل مع ساروجيني. فكّر بإمكانية الكتابة لها والطلب منها أن تراسله إلى مكتب البريد المضمون في المدينة التي كانا متوجهين نحوها.

لم يوافق آينشتاين على الفكرة، وقال إن هذه الخدعة لم تعد تنطلي على الشرطة الآن. هذا النمط من الرسائل غير شائع هنا، ولهذا فهم سيدققون في جميع رسائل البريد المضمون القادمة من ألمانيا. لعله فكّر بهذه الطريقة لأن النسّاجين جعلوا من رحلتهما، بالمقارنة، يسيرةً إلى حد بعيد، مما جعل ويلي يعتقد أنهما ربما يبالغان في توخي الحذر؛ ولكن كان عليه أن يتذكر دائماً أنهما موجودان على قائمة مرمى تصويب جهاز الشرطة.

تحركا من مدينة إلى أخرى. آنذاك كان آينشتاين هو القائد. وفي تلك المرحلة كان يحاول العثور على أحدهم من الحياة العامة يكون صلة الوصل مع الشرطة.

بدا ويلي مأخوذاً وتساءل: «كيف امتلكتَ معرفة كل هذا؟»

أجاب آينشتاين: «اكتسبتُ خبرتي هذه من القائد السابق للقطّاع. الرجل الذي هجرنا ثم أقدم على قتل زوجته».

«إذن فهو كان يُعِدُّ لهذا طوال الوقت الذي عرفته فيه؟».

«البعض منا هم من هذه الشاكلة. وفي بعض الأحيان أولئك هم أكثر الذين يثبتون ويواصلون الحياة لعشرة أو اثني عشر عاماً، ومن ثم تراهم يُرَقّون ويعانون من الاعتلال العقلي، غير مؤهلين لأي شيء في الحياة».

أما بالنسبة لويلي فكان هذا الزمن من الانتظار، والتنقل نحو مدن جديدة، شبيهاً بذلك الذي أمضاه في شارع الدباغين، جاهلاً كل الجهل لما سيأتي لاحقاً.

قال آينشتاين: «نحن الآن في حالة انتظار لما سيتوصل إليه رجال الشرطة. إنهم يمضون في بحث وضعنا. يريدون استكشاف الأعباء التي أُلقيتْ علينا قبل قبول استسلامنا لهم. يجدون أنفسهم في ورطة وحيرة فيما يخص وضعك بالتحديد. قام أحدهم بالإدلاء بمعلوماتٍ ضدك. هذا ناتجٌ عن

ارتباطاتك الدولية. هل تعرف شخصاً يدعى جوزيف؟ شخصياً لا يمكنني تذكر رجل بهذا الاسم».

كان ويلي يهم بالكلام.

أردف آينشتاين: «لا تخبرني بأي شيء. لا أريد أن أعرف. أليس هذا اتفاقنا».

قال ويلي: «في الواقع ليس هناك أي شيء».

«إلى حد ما هذا أصعب ما يمكن التعاطي معه».

«إذا لم يقبلوا استسلامي، ماذا إذن؟».

«إما أن تتخفى أو يعتقلوك أو يقتلوك. غير أننا سنجتاز هذا الجسر عندما نصل إليه».

أعلن آينشتاين في وقت لاحق: «أمورنا تسير على ما يرام. في النهاية لم تكن ارتباطاتك الدولية بهذه الخطورة».

اتصل آينشتاين بالشرطة هاتفياً، وحان اليوم الذي توجها فيه إلى مركز الشرطة الكائن في المدينة التي تواجدا فيها. استقلا سيارة أجرة ثم ظهر أمام ويلي نسخة من تلك التي عرضها عليه راجا بدافع الاستجابة لإثارته الذاتية ذات يوم منذ زمن بعيد: مساحة على النمط العسكري أُنشئت في العهد الإنكليزي. الأشجار التي غُرِست آنذاك أصبحت عتيقة الآن وطُليت بالكلس على ارتفاع أربعة أو خمسة أقدام عن الأرض، والحواجز الحجرية للممرات، وساحة العرض الرملية، والسرادق العارية، مبنى ألعاب التسلية والمركز الرئيسي ذو الطابقين. كان مكتب المدير يتوضع في نقطة ما داخله، في الطابق السفلي. حين دلفا المكتب، نهض الرجل بنفسه في ثيابه المدنية، وابتسم مُرحباً بهما. الإيحاء المدني هو الشيء الذي لم يكن ويلي يتوقعه على الإطلاق.

فكّر: «كان بهوجي ناريان صديقي. وأما قلبي فانخلع لفقدان

راماشاندرا. بغير آينشتاين لم أكن لأدري كيف أهتدي إلى هذا المكان. لكن هذا الرجل المنتصب قبالتي هنا هو إنسان أكثر قُرباً من نوعي من البشر. انفتح عقلي وقلبي له حالاً. وجهه يشع بالذكاء. يجب أن لا أسمح بأيّ تفاوت أمامه. أشعر أننا نلتقي كنَدَّين. أشعر بعد سنواتي الطويلة داخل الأحراج ـ تلك السنين حيث، ولكي أنجو، قسرت نفسي على الإيمان بأشياء لم أكن واثقاً منها ـ أن هذا يبدو نعمة كبرى».

7

ليس الخاطئين

ظن في نهاية تلك الجلسة المدنية مع المدير، الرجل جيد الثقافة وقوي البنية، أنه قد تمت تبرئته، واستمر في اعتقاده هذا حتى بعدما انفصل عن آينشتاين وأُودع المعتقل في مكان بعيد عن المركز. ربما بسبب الصعوبات التي مر بها هو وآينشتاين في عملية ترتيب استسلامهما أو بسبب أن آينشتاين كان في مراحل معينة، شارحاً المعوقات، يتحدث عن تريث رجال الشرطة وأخذ الوقت الكافي لـ«دراسة حالتهما»، ربما لهذين السببين كان ويلي قد خلط بين مفهوم الاستسلام ومفهوم العفو. كان قد اعتقد أنه بعد دخوله لمركز الشرطة وتسليمه لنفسه سوف يُفرج عنه مباشرة. واستمر في ذلك الاعتقاد الواهم حتى عندما اقتيد إلى السجن، وأُودعَ فيه، كما لو كان ربما يدخل إلى فندق ريفي رث، ولكن من قِبل مجموعة من القرويين الجلفين داخل بدلات الخاكي. كان ثمة تكرارية معينة في ذلك الإدخال إلى السجن. أخذ الوصول الجديد يترك إحساساً أقل فأقل بالترحيب بعد كل جزء من طقوس السجن.

«كل هذا غير مثبط لي بالطبع»، فكّر ويلي، «أليس هو النشاط اليومي للسجانين. إذا كنت أنا من دفعت بنفسي إلى مجالهم، إذن عليَّ أن أكون أقل انزعاجاً».

هذا ما كان يجرب محاولته، بيد أنه لا يبدو أنهم يعيرون له أي انتباه.

في ختام مرحلة التحقيق وُضِعَ في غرفة طويلة، مثل ثكنة عسكرية، برفقة العديد من الآخرين. معظمهم كان من القرويين هزيلي الأجساد ومهزومي الأرواح، ويلتهمونه بعيونهم الداكنة البرّاقة. هؤلاء الرجال كانوا ينتظرون المحاكمة بسبب تهم متنوعة؛ ولهذا كانوا مايزالون في ملابسهم اليومية. لم يشأ ويلي الولوج في كربهم. لم يكن يرغب بعودته سريعاً إلى تلك الحجرة ـ السجن الآخر للمشاعر. لم يكن يعدُّ نفسه واحداً من مجموعة الرجال في الغرفة الطويلة. ونتيجة لثقته المطلقة بخروجه سريعاً والتحرر من كل هذا فكّر بوجوب الكتابة لساروجيني في برلين ـ رسالة مرحة وخالية من المعاناة: كانت النبرة تراوده منذ مدّة ـ يخبرها بكل ما جرى له طوال السنوات الفائتة منذ آخر مرّة كتب لها.

ولكن كتابة الرسالة لم تكن أمراً يمكن إنجازه على هذه الشاكلة وحسب، حتى لو توافر لديه الورق والقلم. لم يتمكن من كتابة الرسالة إلّا في اليوم التالي، وكانت على صفحة من ورق الكتابة أحضرها له أحد السجانين كخدمة جليلة، وهذه كانت أكثر شبهاً بصفحةٍ مُزّقتْ من دفتر حسابات، ضيقة ومُسَطّرة بخطوط متقاربة وممزقة على طول الجهة اليسرى على امتداد الثقوب، وعليها ختم كاوتشوك بلون أرجواني مع اسم السجن في الجهة اليسارية من رأس الصفحة، ورقم مطبوع بلون أسود على الجهة اليمنى المقابلة. لقد أَرْخَت الصفحة الورقية ـ الرقيقة والملتفة على نفسها نحو الخلف في الجهة غير المثقبة ـ من عزيمته وأفقدته القدرة الذهنية على الكتابة.

خلال اليومين أو الثلاثة التالية تعَلَّمَ روتين السجن. ولكونه وضع فكرة الإفراج الوشيك عنه خارج عقله، فقد أخذ يستقر في حياته الجديدة، كما كان قد تماهى واستوطن داخل العديد من الحيوات الأخرى التي وجد نفسه مطالباً بها في أزمنة مختلفة. الاستيقاظ في الخامسة والنصف، نداء الوقوف والاصطفاف في الساحة، مع الشكلية في وجبات السجن التي لا مذاق لها،

أوقات الخروج للهواء الطلق والساعات الطويلة المتبطلة فوق أرضية الغرفة بعد إغلاق الأبواب: كان ينشد التكيف معها جميعاً من خلال توسيع ممارسة اليوغا (كما كان قد دأب على اعتبارها) والتي بها كان على مدى زمن طويل، منذ عودته إلى الهند (وربما قبلها، أو ربما طوال حياته) يجابه حاجاته ونشاطاته اليومية التي كانت تغدو فجأة مؤلمة وغير مناسبة. إن اليوغا اختبار واعٍ للفرد إلى أن تصبح شروط كل شكلٍ جديدٍ وقاسٍ للحياة مألوفة في النهاية، وتصبح هي الحياة ذاتها.

ذات صباح، بعد عدة أيام من وصوله، اقتِيدَ ويلي إلى غرفة في مقدمة المعتقل. كان المدير الذي راق له بانتظاره داخلها. كان مايزال يحبه، ولكن في نهاية المقابلة، التي كانت حول كل شيء ولا شيء، بدأ يشعر أن وضعه لم يكن بالسهولة التي تصورها. كان آينشتاين قد تحدث لويلي عن مشكلة معينة بخصوص «الارتباطات الدولية»، التي لم يكن المقصود بها سوى ساروجيني وولف، حيث انطلقت مغامرته. غير أنه في المقابلة التالية، مع المدير وأحد زملائه، لم يتم التطرق إلى أي مما يتعلق بذلك. كان ثمة مناسبة كان عليه نسيانها، المناسبة التي قال فيها آينشتاين (الذي من الواضح أنه كان يعرف أكثر مما يفشيه) أنه لا يريد سماع أي شيء حول ذلك. كان هناك شهود ولعلهم توجهوا وأخبروا الشرطة. ولكن لم يتم التحدث بأي شيء من هذا في الغرفة الأمامية للسجن. ولم يفهم ويلي حتى المقابلة الرابعة أن اهتمام المدير ومساعده مُنصب على مسألة مقتل ثلاثة من رجال الشرطة. عندما فكّرَ ويلي بذلك، وجد نفسه أكثر انشغالاً ببطولة راماشاندرا والرثاء له؛ رجال الشرطة المجهولون، الذين لم يرهم ماتوا بعيداً جداً.

كان في المقابلات الأولى، حين كان يحارب الأشباح، يتفوه بأكثر مما يعلم. وأدرك الآن معرفة المدير لاسم كل عضو في فِرقة راماشاندرا ومعرفته لكم التقارب الذي كان بين راماشاندرا وويلي. وبما أن المدير كان يعرف

الجانب المتعلق بالشرطة فإن تصوره لما جرى كان أكثر اكتمالاً من تصور ويلي.

راح ويلي يتخبط. انهار قلبه عندما وجد نفسه شريكاً في جريمة قتل الرجال الثلاثة وفي طريقه لأن يُوجه له الاتهام بها.

فكّر: «كم هذا ظالم. لقد أمضيت معظم وقتي في الحركة، فعلياً كل وقتي، في حالةٍ عبثيةٍ. كنت أكابد السأم طوال الوقت على نحوٍ مرعبٍ. كنت سأخبر ساروجيني في تلك الرسالة شبه الهزلية التي لم أكتبها عن ضآلةِ وقِلّةِ ما فعلته، وكم كانت حياتي كثائرٍ بريئة، وأي عبث ذاك الذي أدى بي إلى تسليم نفسي. غير أن المدير لديه فكرة مختلفة كلياً عن حياتي كرجل عصابات. إنه يأخذني أكثر بعشرين مرة على محمل الجد مما أخذت أنا نفسي. لن يقنع أن تلك الأمور كانت تحدث حولي ليس إلّا. إنه لا يفعل شيئاً عدا إحصاء الأجساد الميتة».

* * *

كان ويلي قد توقف منذ زمن بعيد عن عادة إحصاء الأسِرّة التي نام فيها. هند طفولته ومراهقته؛ السنوات الثلاث من القلق في لندن كطالب، كما يشير جواز سفره، لكنها لم تكن فعلياً سوى أيامٍ جارفة، قاصداً فيها النأيَ بنفسه عما كان يعتمل في داخله، غير عارفٍ مكان توقفه وما الشكل الذي ستكون عليه حياته؛ ومن ثم الأعوام الثمانية عشر في إفريقيا، سنوات سريعة وبلا هدف، يعيش فيها حياة إنسان آخر. كان بإمكانه إحصاء جميع أسِرّة تلك السنوات، وكان هذا العد يمنحه حالة من الرضى الغريب، يظهر له أنه في مقابل سلبيته بأكملها فإن حياته كانت تساوي شيئاً ما؛ شيئاً تنامى فيما حوله.

لكنه في هند عودته وجد نفسه مفككاً. عجز عن استشراف أية ماهية أو أي شُعاع خيطي. كان قد عاد مفعماً بفكرة التحرك، ووضعِ نفسه بشكل

سوي في العالم. والنتيجة أنه أصبح عائماً، وأخذ العالم يغدو أكثر توهيمية مما كان أبداً في أي يوم من الأيام. ذلك الشعور المشوش، من التغيرات التوهيمية المتلاحقة، كان قد استحوذ عليه عندما أخذه المسكين راجا، بتأثره الصبياني، وهو يقود السكوتر ثلاثية العجلات، لكي يريه «العدو»: مركز الشرطة المحلية بأشجاره العتيقة وأرض الاستعراض الرملية، وبوابته المُراقبة من قبل العناصر المسلحة من القوة الاحتياطية للشرطة وهم يقفون خلف أكياس الرمل الوسخة والمُبقّعة بفعل الرياح الموسمية. عرف ويلي الطريق ومشاهده الرتيبة. غير أن جميع ما شاهده في ذلك اليوم خلال رحلته القصيرة كان له خاصية مميزة. بدا كل شيء نقياً وجديداً. وكأنه ينبثق من جديد إلى الفضاء بعد تواريه زمناً طويلاً تحت التراب. لكنه لم يكن يستطيع البقاء هناك، لم يكن قادراً على البقاء قرب تلك الرؤية من النقاء والجدّة. عليه العودة برفقة راجا وسكوتره إلى العالم الآخر.

كانت الأوهام مُربكة. في زمنٍ معينٍ كان قد فَقَدَ القدرة على إحصاء الأسِرَّة التي هجع فيها؛ لم يعد هناك من هدف لذلك؛ ولهذا توقف عن هذه العادة. بدأ الآن من جديد، في هذا النموذج الجديد من التجربة الذي أصابه - مقابلات، حضور جلسات محاكمة، تَنَقُّله من سجن لآخر في المنطقة: سابقاً كان جاهلاً لأي معرفة بهذا العالم الآخر، والكلي من المعتقلات والخدمة فيها والمجرمين - ودون العودة إلى البدايات الأولى، ولكن بادئاً بيوم استسلامه.

جاء اليوم الذي فكّر فيه بالكتابة لساروجيني. غادرهُ مزاجه الحبور منذ زمن بعيد؛ عندما في النهاية استلقى ووجهه إلى الورقة فوق بساط الزنزانة فاقع الألوان والخشن المبسوط فوق الأرضية ثم شرع في الكتابة على الورقة المفتولة الضيقة ذاهلاً من حجم الأسى الذي يعتريه. عاد بذاكرته إلى الليلة الأولى في أحراج السّاج؛ آنذاك كانت الأحراج طوال الليل ضاجّة برفرفة الطيور وصياحها والمخلوقات الأخرى تطلق نداءات الاستغاثة التي لن تأتي. كانت وضعية الكتابة غير ملائمة، وبدتْ السطور متقاربة لدى محاولته الكتابة بينها،

وعلى وشك أن تصيبَ يده بالتشنج. في النهاية أقنع نفسه أن ليس عليه الامتثال لمواقع الخطوط. ترك الكلمات تمتد لتشغل سطرين معاً. احتاج لمزيد من الأوراق ووجد أن ليس هناك من مشكلة في هذا، مجرد إيماءة واحدة وتأتي. كان قد اعتقد أن رسالة من سجن لا يمكن أن تتعدى مزقة ورق صغيرة؛ لم يطلب الورق؛ مفترضاً أن الحياة في السجن تتقلص في جميع أساليبها.

إذا افترض أنهم لن يثيروا أية مشكلة حول الرسالة في السجن فإنها ستصل ساروجيني في غضون أسبوعين إلى برلين، وإذا افترض أن عنوانها لم يتغير وسترد حالاً، وإذا افترض أن إدارة السجن مررتها بأمان فإنه سيتلقى ردها بعد أسبوع، أو أسبوعين من ذلك.

مر أسبوعان، ثلاثة أسابيع، وأربعة أسابيع، من دون أية كلمات من ساروجيني. كان هذا الانتظار مثيراً للأعصاب، وليس هناك من وسيلة للتعامل مع هذا التوتر سوى التوقف نهائياً عن الانتظار، والتسليم أنه لا شيء ليأتي. هذا ما فعله ويلي. وما جرى كان أن تحولت إجراءات محاكمته وحياة المعتقل إلى شكل دراماتيكي في هذه الأثناء.

حُكِمَ عليه بعشر سنوات سجن. سرّ لنفسه أنه كان يمكن أن تكون الأمور أسوأ. كان للسجن الذي نُقِلَ إليه أخيراً حافة كبيرة فوق الباب الأمامي. وقد كتبَ على هذا اللوح بأحرفٍ طويلة ورفيعة **أحقد على الخطيئة وليس على الخاطئين**. شاهدها وهو في سيارة السجن أثناء دخولها، وغالباً ما جلس متفكّراً فيها. هل هي عبارة غاندية، هذا التعبير عن نموذج صعب من التسامح، أم أنها مسيحية؟ أو لعلها كلاهما، على اعتبار أن كثيراً من أفكار المهاتما كانت أفكاراً مسيحية. غالباً ما كان يتفكّر في تلك المكتوبة على الجهة المقابلة للجدار الأمامي للمعتقل. ما كان مكتوباً على الجهة الداخلية من الجدار هو **شكراً لزيارتكم**. وهذه لم تكن موجهة للسجناء بل للزوار.

ذات يوم وصلته رسالة من ساروجيني. كانت الطوابع هندية، وعلى

الظرف الهندي (غير القابل للشك) عنوان المرسل، ذلك العنوان الذي يعرفه ويلي جيداً: عنوان المنزل الذي ترعرع فيه، وأشرام أبيه المحزن. لكان أحجم عن فض الأوراق (قام مسؤولو السجن بفتح الظرف من الجهة العليا) لو لم يتبين أن الرسالة ليست من أبيه، وإنما من ساروجيني، ارتحلت على نحو مفاجئ من شارلوتنبرغ. انسلخت مباشرة، في عقل ويلي، عن نموذج الحياة الذي وهبته لها برلين. عادت بالنسبة له كما كانت قبل ثمانية وعشرين عاماً أو قبل ذلك حتى، قبل وولف، والسفر والتحول الذي أصابها. وبدتْ وكأن شيئاً من تلك الشخصية المبكرة قد عاد ليستحوذ عليها فيما كانت تحرر رسالتها.

عزيزي ويلي، لقد تخليتُ عن شقة شارلوتنبرغ منذ زمن بعيد، رسالتك عبرت إليَّ من عنوان لآخر إلى أن وصلتني هنا. يعتبر سكان برلين الأكثر أمانة فيما يتعلق بهذه الأمور. أعتذر لانتظارك ردي مدة طويلة. لا بد أن ما جرى كان مروعاً بالنسبة لك. أنا موجودة هنا لا أبعد عنك سوى أقل من مسافة نهار. لكن لا تظن أنني سأفرض عليك زيارتي إذا لم تكن راغباً فيها. عندما ذهبتُ لرؤيتك في لندن آنذاك لم يرُقْ لك الأمر كثيراً. ما زلت أذكر ذلك جيداً. كل ما كنتُ توّاقة له هو أن أقدم لك شيئاً حسنا. إنها لعنتي. سارت الأمور بطريقة خاطئة معك، ولا فائدة من تبريري الآن. لن أسامح نفسي. أعلم أن هذا الكلام لا يمنحك المواساة. لقد أرسلت للانخراط في جماعة ليست هي المقصودة، وبالتالي لم تكن الأحداث التالية لتكون أفضل، لقد أسقط في يدك ولم يعد بإمكانك القيام بأي شيء.

عدتُ لأنني شعرت بحاجتي لاستراحة من برلين، فكرتُ أن عليَّ المجيء والبقاء قرب والدنا الذي يُشرف على النهاية. أخبرتك بهذا قبلاً. وأنا الآن أعتقد أنه كان أكثر نقاء مما ظنناه جميعاً. في النهاية قد يكون أسلوب معين من العيش جيداً بقدر ما يكون أسلوب آخر، ولكن ربما هذا ما ينبغي على المهزومين قوله لأنفسهم. لست سعيدة بما فعلته، رغم أن كل ما حدث كان قد بُني على أشد النوايا خيراً. من المرعب قول هذا، لقد أرسلت الكثيرين إلى قدرهم المحتوم في كثير من البلدان. أدرك الآن أنه في السنوات الأخيرة تبعنا عدداً كبيراً من

الأذكياء من دول مختلفة حيثما ذهبنا. لقد وثقوا بنا بناءً على ما قمنا به، ولم نخذل أياً كان. ولكن في السنوات القليلة الأخيرة كان أولئك الذين يسمحون لنا بتصوير الأفلام الوثائقية عن حياتهم يُعتقلون واحداً تلو الآخر. يمكنني إعطاؤك قائمة بالدول. لم تكن الأمور هكذا باستمرار، ولا علاقة لوولف بهذا. إنه مُغفّل بالدرجة نفسها التي عليها نحن البقية.

لست أدري كيف أتعايش مع هذه الفكرة. كنت أعمل في سبيل ما هو أفضل، ولكن عندما تغرق المراكب سيقول الجميع إن جهودي كانت في سبيل ما هو أسوأ. لعل التصرّف الأنسب الآن هو أن يقوم أحدهم بقتلي كانتقام.

لا أملك المزيد لأقوله. لن تستطيع اكتشاف مدى تحطم قلبي من خلال كلماتي. إن أعد قراءة هذه الرسالة بعد انتهائي من كتابتها فسوف أمزقها ولن أعاود كتابة واحدة أخرى. لهذا سأرسلها كما هي. أرجو أن تخبرني إن كنتَ ترغب حقاً أن آتي لرؤيتك. لن يكون لديك سوى كمية ضئيلة من المال في السجن. أرجو أن لا يغيب هذا عن ذهنك.

استلزم منه بعض الوقت لكي يستوعب جميع ما احتوته الرسالة. في البدء شعر أن الرسالة، الطفولية إلى حد ما، مزيفة وقد كتبت بأسلوب عاطفي. لكنه وبعد بعض الوقت، آخذاً بعين الاعتبار وجودها وسط ذكريات مآسي الطفولة أثناء كتابتها للرسالة (التي تشبه ذكرياته هو عن طفولته)، اكتشف أن كل ما فيها كان حقيقياً. لم تفاجئه أخبار الخيانات. ولكن قد يكون هذا ناتجاً عن أنه في السنوات الأخيرة كان قد اعتاد على مرونة، كما يقال، الشخصية الإنسانية في تكيفها مع الظروف الجديدة. ما كان مثيراً لقلقه هو وجودها القريب منه لمدة طويلة (هي التي ضللته) وهي في هذا المزاج التائب. حين أصبح العالم بالنسبة له مزيجاً من التوهيمات، أثناء ذلك التوغل المنعزل والمعسكرات المؤقتة في الأحراج العقيمة واللانهائية، ربما ظن أنه في أية لحظة يمد لها يده، إن جاز التعبير، سيرى نفسه من جديد في العالم الواقعي.

انتظر عدة أيام قبل الكتابة. رغبة منه في تنقيةِ أفكارهِ والوقوع على

الكلمات المناسبة. (لم يكن من داعٍ للعجلة. يجب تمديد كل شيء في هذه المرحلة: شكل جديد من اليوغا). ثم تلقّى ردها بعد عشرة أيام.

عزيزي ويلي، لقد كنت أنتظر كلمات توبيخ منك. وإذ بي لا أرى كلمة لومٍ واحدةٍ. إنك قديس. لعلك بعد كل ما حدث ما زلتَ ابن أبيك.

كل ما يحيط به هو حياة السجن المُصانة والمُنظمة: تسع ساعات في الهواء الطلق، خمس عشرة ساعة داخل الزنزانة.

شكراً لزيارتكم: هذه العبارة للزوار، كانت مكتوبة على الوجه الداخلي للجدار الأمامي، في نهاية الممر المؤدي إلى نهاية البوابة الرئيسية المزدوجة. أما السجناء فكان لهم مواعظ صغيرة كُتبتْ في أحرف سريعة ومشوشة: *الحقيقة تثبت صحتها على الدوام. أكبر عدو للإنسان هو الغضب. فعل الخير هو أسمى الإيمان. العمل عبادة. نبذ العنف أعظم مقولة في جميع الأديان.* سيأتي زمن ينقطع فيه عن رؤية تلك المواعظ. اعتقد في البداية، ونتيجة نوع من عَفْرَتَةِ تلميذٍ كانت ما تزال حيّةً في داخله رغم أنه الآن على أعتاب الخمسين، أن باستطاعته الكتابة على الجدار: *تعبُ مرة واحدة يقيك تسع مرات من التعب*. لم يجازف بمحاولة كتابتها قط. كان العقاب قاسياً. بيد أنه في عيون عقله كان يراها مكتوبة عرضياً بين مقولات التقوى الأخريات، وقد ألهته وسرّته لعدة أسابيع.

* * *

كان ويلي يتقاسم الزنزانة مع ثمانية أو سبعة سجناء. كان عددهم يتفاوت: بعضهم كان يدخل ثم يخرج. كانت الزنزانة واسعة جداً، ثلاثين قدماً طولاً بعشرة أقدام عرضاً، وفيما يخص بعض السجناء كانت أكبر من أي مكان عرفوه في الخارج.

أحد السجناء أو اثنان منهم كان قد كبر في أحياء المصانع في إحدى المدن، مع الأخوة والأخوات والوالدين والجميع في غرفة واحدة. والغرفة

القياسية في تلك الأماكنُ كانت عبارة عن مُكعّبْ طول ضلعه عشرة أقدام، فيها سقيفة ترتفع حوالي سبعة أقدام وُجِدتْ لتقدم لساكنيها حيزاً إضافياً من أجل النوم (مفيدة خاصة للعمال الليليين، حيث يمكنهم النوم طوال الفترة الصباحية فيما الحياة اليومية للأسرة تتابع سيرورتها تحتهم). الرجل الذي أخبر ويلي بهذا، فعل ذلك في البداية بأسلوب صريح ومباشر، متحدثاً عن الأمور التي كانت بالنسبة له واضحة كل الوضوح، غير أنه ولدى رؤيته لذهول ويلي أخذ يتبجح ويبالغ. في النهاية (بعد أن ألقى عليه ويلي الكثير من الأسئلة) كان مضطراً للاعتراف، مُكرهاً، لأن هذا الاعتراف يفسد روايته، أن تلك الحياة الأُسرية في غرفة واحدة والتي كان ماضياً في وصفها لم تكن ممكنة إلّا لأن الكثير من النشاطات تنجز خارج الغرفة، في الكوريدور الواسع أو الساحة. أما الباقي، قال الرجل، فكان شبيهاً بالصعود إلى باص مكتظ بالركاب. يساورك الظن أنك لن تستطيع الركوب فيه، لكنك بطريقة ما تفعل؛ وحالما تصبح داخله تظن أنك عاجز عن المتابعة، ولكن بعد دقيقة أو دقيقتين ليس إلّا، مع انطلاق الباص، يترنح الجميع ويستقرون وبعد برهة تجدهم جميعاً مرتاحين. إلى حد ما هذا يشبه السجن، أضاف الرجل. تظن أنك عاجز عن احتماله، وبعد حين تجد أنه ليس بهذا السوء رغم كل شيء. سقفٌ بيتونيٌّ، ومروحةٌ سقفيةٌ في الطقس الحار، وأرضيةٌ إسمنتيةٌ مصقولةٌ جيداً، وطعام منتظم، ومرشاش ماء تحت السارية في الساحة كل صباح، بل حتى يمكنك متابعة بعض البرامج التلفزيونية، إن لم تكن راغباً بالوقوف مع الآخرين لمشاهدته.

لقد خفّف سرور الرجل من روتين السجن لويلي. وحتى عندما انتقل ذلك الرجل، بحسب أسلوب السجن، كان ويلي يستذكر ما قاله عن «الاستقرار» إضافة إلى يوغاه الخاصة.

أخذ السجناء يتبدلون تدريجياً إلى أن أصبحوا جميعاً مثل ويلي؛ كوادر حركة سلّموا أنفسهم للسلطات. كانت معاملتهم عندئذ أفضل، وقال لهم

مدير السجن في أحد الأيام أثناء جولته الأسبوعية، كما لو كان يقوم بتفسير الوضع، الذي كان يُعتبر مراعاة للدستور، أما الآن فهو «سياسة». قال المدير إن بريطانيا أوجدت هذا النموذج من المعتقلات بغية التعامل مع غاندي ونهرو والوطنيين الآخرين الذين خرقوا القانون ولم يكن بالإمكان معاملتهم معاملة المجرمين.

أخذ ويلي يتأثر من خلال توسمه في تحسن المعاملة وتميزها. غير أن هذا التأثر لم يدم طويلاً. كان سجناء الزنزانات السياسية (ثمة أخريات) أحرار في ترتيب شؤونهم، ودائماً ضمن روتين السجن. وأدرك ويلي سريعاً جداً أن هذه المعاملة المميزة قد ردته إلى ما كان قد هرب منه. كان الشكل الانضباطي الروتيني الذي طبّقه السياسيون شديد الشبه بذلك الذي كان مُطبّقاً في المعسكر الأول في أحراج السَّاج من دون أسلحة وتدريبات عسكرية: ينهضون في الخامسة والنصف، وفي السادسة يجتمعون في الخارج، ثم يعملون على مدى ساعتين أو ثلاث ساعات في بساتين وحدائق السجن؛ يعودون في التاسعة لتناول الإفطار، وبعد ذلك يجلسون يتصفحون الجرائد المحلية المناطقية (التي تزودهم بها إدارة السجن) ثم يناقشون الأخبار الواردة فيها. غير أن العمل الذهني الجدّي في الصباح كان دراسة نصوص ماو ولينين. كانت هذه الدراسة، نصف المرائية ونصف الكاذبة، برفقة أناس يتفوهون بما يشعرون أن عليهم قوله حول الحركة الفلاحية والبروليتاريا والثورة، بالنسبة لويلي عقيمة وهي على الدوام إزهاق للعقل والثقافة، وأصبح هذا الأمر بعد حين أمراً لا يُطاق، رغم المعاملة المميزة والاحترام الذي يثير الطمأنينة في السجن. شعر أن ما بقي من عقله سوف يتعفن إن هو ارتضى على مدى ثلاث أو أربع ساعات يومياً أن يكون طرفاً في هذه النقاشات. وحتى بعد التمارين الرياضية ومباريات كرة الطائرة والجري في وقت الظهيرة، والتي كانت الغاية منها إنهاكهم بحيث يخلدون للنوم مباشرة، حتى هنا كان ثمة نقاشات سياسية مسائية، سطحية، كاذبة ومكررة، خالية من أي جديد على الإطلاق، كانت

هذه النقاشات تدور في الزنزانة بعد موعد إقفال الأبواب في السادسة والنصف.

فكّر ويلي: «لن أستطيع مواصلة الطريق، لن أستقر، كما أكد ذلك الرجل من أن الركاب يستقرون في الباص المزدحم عند لحظة انطلاقه. في الباص يمكنك الاستقرار والتكيف لأنك بكُلّيتك عبارة عن مجرد جسد. لا يُطلبُ منك استعمال العقل. أما هنا فمفروض عليك استعماله، جميعه أو نصفه، بطريقة فاسدة ورهيبة. حتى النوم يكون مُسمّماً لك لأنك تعرف ما الذي سوف تصحو عليه. يوم رهيب في إثر آخر. إن التفكير في أن البشر يتسببون بهذا لأنفسهم لهو أمرٌ يفوق الاحتمال».

في أحد أيام الإثنين، بعد شهرين تقريباً، عندما كان المدير يقوم بجولته برفقة حاشيته من موظفي السجن الأدنى، خرج ويلي من صف السجناء الواقفين وقال للمدير: «سيدي، أود منك السماح لي بمقابلتك في مكتبك، إن كان هذا ممكناً». تهيأ جميع طاقم السجن الأدنى، من حراس ورؤساء حرس وقادة رؤساء الحرس، لِصَدّه وإعادته إلى الصف بهراواتهم الطويلة، لكن تهذيب ويلي ونبرة كلماته المثقفة ونداءه للمدير بسيدي كل هذا عمل كدرعِ حمايةٍ له.

أمر المدير سجانيه: «أحضِروه إلى مكتبي بعد الجولة».

تراتبية السجن! كانت مثلها في الجيش، أو في هيئةٍ لإدارة الأعمال، أو هي شبيهة جداً بتراتبية الحركة. جنود المشاة هم الحراس ورؤساء الحرس وقادة رؤساء الحرس (مع أن كلمة «حارس» تترك وقعاً ككلمةٍ عَذْبةٍ ومهذبةٍ). الضباط هم مساعدو السجان والسجان (وعلى الرغم من ارتباط الكلمة بقعقعة المفاتيح والخشونة، فقد كانت أكثر ملاءمة، فكَّرَ ويلي في هذا باستمرار، للرجل الذي يتمشى هنا وهناك خارج الزنازين). في مرتبة أعلى فوق مساعد السجان والسجان كان هناك نائب مدير السجن، والمدير في رأس الهرم. حين يُقتاد المعتقل إلى السجن قد لا يكون عارفاً بالتراتبية التي

تتحكم في حياته الآن، وعاجزاً عن قراءة دلالات البدلات، بيد أنه وللحال يكوّن استجابةً معينةً حيال البدلات والألقاب بشكل غريزي.

مكتب المدير مكسو بألواح من الخشب البني الداكن الذي من المحتمل أنه قد طُلي بالورنيش اللماع. في أعلى الجدار نافذةٌ بقضبان معدنية متصالبة ونموذج على هيئة معيّن مفرغ وكانت هذه النافذة مزودة بفتحة تهوية. على أحد الجدران المكسوّة كانت هناك خارطة كبيرة جداً للسجن: المجمّع، الزنازين، ساحة الاجتماع، حديقة الخضروات، بستان الفاكهة، الجداران المحيطان إضافة إلى إشارة إكس X حمراء بخط رفيع فوق كل مَخرج مهم.

على كتفي المدير استقرت الأحرف الأولى المعدنية اللامعة لسلك سجن الولاية.

قال ويلي: «طلبت مقابلتك يا سيدي لأنني أرغب في نقلي من الزنزانة التي أنا فيها».

قال المدير: «لكنها الأفضل في السجن، مساحة كبيرة ومريحة. وفيها الكثير من نشاطات الهواء الطلق. ولديك برفقتك من هم أكثر ثقافة وتعلماً، نقاشات أو ما شابه».

قال ويلي: «لا أطيق صبراً على هذا. لقد أمضيت ثمانية أعوام في هذا النوع من الأمور. أريد البقاء مجاوراً لمفاهيمي الخاصة. أرجوك أن تضعني بين المجرمين العاديين».

«إن هذا في غاية الغرابة. الأوضاع شديدة القسوة في الزنازين الأخرى. إننا نحاول التعامل معك هنا كما تعامل البريطانيون مع المهاتما ونهرو ورفاقهم الآخرين».

«أعلم ذلك، ومع هذا أستميحك عذراً أن تنقلني».

«لن يكون الأمر سهلاً عليك. أنت إنسان متعلم».

«دعني أحاول».

«حسناً أمهلني قرابة الأسبوعين لتنفيذ رغبتك. لنترك فرصة للآخرين لكي ينسوا مقابلتك لي. قد يشعرهم هذا بالإهانة أو ربما يظنون أنك كنت عبارة عن واشٍ وعليه فقد يخلقون لك المتاعب بطرقٍ شتى. في السجن كل إنسان في حالة حرب، عليك أن لا تنسى هذا».

بعد ثلاثة أسابيع نُقل ويلي إلى زنزانة في القسم الآخر من المعتقل. كانت رهيبة. حجرةٌ إسمنتيةٌ طويلةٌ وخاليةٌ من أي أثاث. والطريق هو ممرٌ خالٍ يقسمها نصفين بعرض حوالي ستة أقدام. وعلى كل جانب من هذا الممر توضعت المساحات الأرضية للسجناء. عرض فسحة ويلي من هذه الأرضية لا يتجاوز الثلاثة أقدام، وكان له عليها بطانية سجن (زرقاء مخططة بالأسود) تحتل كامل المساحة المخصصة له. هذا كل ما هناك. لا طاولة ولا خزانة: يحتفظ السجناء في هذا المكان بمثل هذه الممتلكات عند رأس فسحتهم من الأرضية. كانت هذه المساحة ضيقة وتعج بالأشياء؛ كل بطانية تلامس الأخرى. يُبقي السجناء في نومهم أو صحوهم، على رؤوسهم مستندة إلى الجدران وأقدامهم متجهة نحو الممر. وكل بطانية لها لون ونموذج مختلفين؛ هذا يتيح لكل منهم معرفة مكانه (وأيضاً كان هذا مفيداً للحُراس).

فكّر ويلي: «لا يمكنني العودة والطلب من المدير أعادتي إلى القسم السياسي. وحين أفكر في هذا، لا أجد نفسي متأكداً إن كنت بحق أرغب في هذه العودة. لديهم هناك عملهم في حديقة الخضروات وبستان الفاكهة. لكن جميع تلك النقاشات الصباحية حول محتويات الجرائد، والتي هي ليست بنقاشات على الإطلاق، وكل تلك القراءات المسائية لماو ولينين جميعها ثمن باهظ جداً. حتى في إفريقيا وسط أولئك المستوطنين لم يكن هناك من شيء بمثل هذا البلاء. لو كنت أقوى لنفذت كل شيء من دون أن أتأثر. بيد أنني لست قوياً إلى هذه الدرجة».

في ذلك المساء الأول بينما كان يتمشى في المساحة المكشوفة المنصفة بين بطانيات السجن وأماكن النوم، نهض شخص هزيل من بين البطانيات

صارخاً ثم ركض نحو ساقيه وعانقهما. كان طوله حوالي أربعة أقدام وتسعة أوعشرة إنشات، من بنغلادش وهو مهاجر غير شرعي؛ وكلما كان يؤخذ إلى الحدود، بعد انقضاء مدة حكمه، يقوم البنغاليون بإعادته، وكان قد أمضى عدة شهور باحثاً إلى أن طلبه أحد السجون الهندية الجديدة. الصراخ المفاجئ والنهوض السريع راكضاً لمعانقة ركبتي أي موظف أو زائر جديد كانت هذه واحدة من نزعاته: أمرٌ يؤديه مثل حيوان مُدرّب: إن حياته بأكملها قد تَدَنَّت إلى هذا.

جاءت رسالة من ساروجيني. *عزيزي ويلي، لقد توفي والدنا. وأُحرقتْ جثته البارحة. لم أظن أن عليَّ إقلاقك بهذه الأخبار، لأنني أعلم أنك تريد الابتعاد عن القلق. على أية حال، هذه أخباري لك. لقد قررتُ تولي أمر أشرام والدنا. تسارعت أفكاري بهذا الاتجاه لبعض الوقت، حسبما أعتقد أنت تعرف هذا. لا أمتلك حكمة دينية، ولن أكون قادرة على أن أقدّمَ للناس أيّا مما قدمه لهم والدنا. أظن أن ما سأفعله هو تحويل الأشرام إلى مكان للطمأنينة والتأمل، شيء ذي ميل بوذي، لا أعرف عنها سوى القليل من خلال وولف. كم هذا غريب، أنا التي لم يكن لي سوى النفع القليل لمكان كهذا طوال حياتي، عليَّ الآن القيام بتولي أمره. لكن الحياة تفعل بالبشر هكذا أحياناً. اسمح لي بالمجيء لرؤيتك. سوف أشرح لك بمزيد من التفاصيل وجهاً لوجه...*

حصل على صفحة من الورق المفتول من الحارس وكتب، مضطجعاً على بطانيته مائلاً بجسده قليلاً فوق فُسحة جاره بحيث يمكنه الكتابة على عتبة النافذة المنخفضة للزنزانة: *عزيزتي ساروجيني، ها أنت تجْرينَ من تَطَرُّف إلى آخر. إن فكرة الأشرام هي فكرة الموت في الحياة، وهي فكرة تسير في عكس كل ما آمنتِ به. ما حكينا عنه في برلين مايزال صحيحاً. إنني ممتنٌّ لك لأنك دفعتني لمواجهة نفسي والمكان الذي جئت منه. أعتبر هذا هبةً من الحياة. إنني مُحاطٌ هنا بنمط من الوجع الذي لا أعي كيفية التعامل معه، ومع ذلك فالأشرام ليس هو السبيل؛ ولا حتى تلك الحرب الرعناء التي مضيت*

لخوضها. تلك الحرب لم تكن حربي ولا حربك ولم يكن لها علاقة بالقرويين الذين أعلنا أنّا نحارب في سبيلهم. لقد تحدثنا عن الاضطهاد الذي يكابدونه، غير أننا كنا نقوم باستغلالهم طوال الوقت. إن أفكارنا وكلماتنا كانت أكثر أهمية من حياتهم وطموحاتهم بالنسبة لهم. ذلك أثار الرعب فيّ، وحتى هنا فقد استمر هذا الأمر، حيث يحصل المتحدثون على تعامل مميز فيما يتم التعامل مع الفقراء كما هم الفقراء دائماً. هم بمعظمهم سكان قرى، صغار الحجم وهزيلو الأجساد. إن ما هو أشد أهمية فيما يتعلق بهم هو ضآلة أحجامهم. من الصعب الربط بينهم وبين الجرائم الكبرى وجرائم الانفعال التي نُسبتْ لهم وعُوقبَ البعض منهم عليها. اختطاف نساء واحتجاز رهائن. لو كنتِ ابنة ريف، أفترض أنك كنتِ سترينهم كمجرمين وخطرين، ولكنك فيما لو نظرت إليهم من مسافةٍ معينةٍ، كما ما زلت أراهم أنا، رغم أنني بقربهم ليل نهار، فسوف تجدين التحول وقد اعتراك بسبب إعمال الروح البشرية بالغة الكمال داخل هذه الأجساد الهزيلة. لقد اصطادتني تلك العيون البرية الجائعة. تبدو لي وكأنها تحمل تقطير بؤس الأرياف. لا أظن أن هناك ولو عملاً واحداً يمكن أن يساعد. إنك عاجزة عن حمل البندقية وقتل ذلك الفقر. كل ما يمكنك القيام به هو قتل البشر.

* * *

جاءت ساروجيني لرؤيته وهي ترتدي الساري الأبيض ـ الأبيض لون الحداد ـ وبالطبع لم يكن عليها الانتظار مع بقية الآخرين الذين جاؤوا لزيارة زملاء ويلي في سجنه. ما إن دخلت حتى أكسبها أسلوبها وكلامها وملابسها احتراماً فورياً، ولم تضطر للوقوف تحت الشمس الحارقة ـ في طابور خاضع وذليل، في رتل ثنائي ـ مع بقية الزوار، تحت أنظار السجانين بهراواتهم الثقيلة. جلست في غرفةٍ في مقدمة السجن واستدعي ويلي لمقابلتها. لقد أحبَّ الساري الذي ارتدته وهيئتها العامة، تماماً كما كان قد أحبها بالجينز والبلوزة القصيرة التي كانت ترتديهما في برلين.

كانت حانقة بخصوص القرويين الذين ينتظرون مقابلة أقاربهم في طابور طويل تحت الشمس الحارقة.

قال لها: «إنهم لا يتذمرون. هم سعداء لكونهم يقفون في رتل. بعضهم يقطع مسافات شاسعة وينتظر طوال الليل وفي الصباح يُصرفون من دون السماح لهم بالمقابلة. هذا لأن لا قدرة لهم على رشوة السجانين. هؤلاء أيضاً لديهم أسر يعيلونها، تعرفين هذا».

«إنك تسعى لأن تصدمني. ولكنني توقعت هذا. هذا ينبئني أنك في وضعٍ مزاجيٍّ جيد».

«فعلياً، كل ما بيدنا هو محاولة نقلي إلى المشفى. يوجد هناك ما بين ستة عشر أو عشرين سريراً. وهو عبارة عن غرفة كبيرة جيدة التهوية وعارية تماماً، لكن المرء لا ينشد امتلاك الإكساء الداخلي في المعتقل. إذا تمكنا من تمرير ثلاثين أو أربعين روبية للسجانين يومياً، عندها ستكون أيام السجن متعة خالصة. يقدمون لي سريراً معدنياً مع فراش، وهو أفضل من البطانية المفروشة فوق الأرض، وسوف يصلني الطعام مباشرة من المطبخ. الإفطار والغداء والعشاء كلها ستكون في السرير. كما لو أني أعيش في فندق».

«وماذا عن المرضى؟»

إنهم يعيشون حيث ينتمون، في الزنازين. ماذا كنت تتوقعين؟»

قالت بجدية تامة: «وإذا ما فعلت هذا. هل تذهب؟»

«قد أفعل؛ لقد تعبت من السجن. كما أنني أرغب في الحصول على شيء لأقرأه. إن هؤلاء يمكنهم إطالة النقاش حول لينين وماو إلى أن تعود الأبقار إلى المنزل. ولكن الشيء الوحيد الذي يودون منك قراءته في السجن هو الكتاب الديني».

«عندما تغادر هذا المكان سيكون عقلك مُدمراً».

«أظنكِ مُحِقّة. إنني أصل إلى استنزاف بقية محتويات عقلي. ذات مرة كنتُ قد ضربتُ موعداً مع أحدهم في إفريقيا في المدينة الشاطئية. كان الموعد في مقهى أو ما شابه. ولأسباب مختلفة تأخرتُ زمناً طويلاً عنه، أكثر من ساعة. ومع ذلك حين وصلتُ كان الرجل مايزال في انتظاري هادئاً. كان برتغالياً. قدمتُ له اعتذاريَ فأجابني: «لا عليك. إنني أمتلك عقلاً جيدَ المخزون». ظننت أنها عبارة ممتازة لا بد أنه سمعها من أحدهم، ولكنني جعلتها مَثَلِي. بعد ذلك، عندما كنتُ في غرفة انتظار عيادة الطبيب أو، بدقة أكثر، في قسم العيادات الخارجية للمشفى، لم ألجأ أبداً مُسرعاً نحو المجلات المبتذلة بقصد قتل الوقت. لقد أخذتُ أتفحص مخزونات عقلي. كنت أقوم بالكثير من هذا وأنا في زنزانتي. أما الآن فقد خذلني عقلي. ها أنا ذا في الواقع أصل إلى نهاية ما كان يختزنه ذلك العقل. فكرتُ في أبوينا وفي طفولتي. في الواقع هناك الكثير. فكرتُ في لندن، وإفريقيا وبرلين؛ كلها شديدة الأهمية. فكرتُ في سنواتي ضمن كوادر الحركة. لو كنت شخصاً متديناً لقلت إنني كنت أضع عالمي الروحي في ترتيب تسلسلي، وأنا أعد الأسِرّة التي نمْتُ فيها».

بعد أسبوعين من زيارة ساروجيني تمَّ تحويله إلى مشفى السجن. وصلته الكتب وبدأ من جديد بالقراءة. وجد نفسه مذهولاً بكل ما يقرأه. يبدو كل ما تحمله الكلمات مدهشاً وغريباً. وبدا له كل كاتبٍ أعجوبة عبقرية. شيء كهذا كان يحدث له عندما كان، منذ زمن بعيد تبدو وكأنها حياة أخرى الآن، قد حاول كتابة القصص القصيرة. وكان أحياناً يشعر أن عقله مُعطّل ومُختزن. كان يحدث له هذا آنذاك حين يغرق في تفاصيل إحداها. وكان يستغرب كيف لأيٍّ كان الجسارة على أن يكتبَ ولو جملة واحدة. وربما نظر إلى علبة أسبرين أو زجاجة شراب السعال وتعجّبَ من ثقة من كتب الجرعات والتحذيرات عليها. بهذه الطريقة وُلِدَ في داخله التبجيل العميق لكل من يستطيع تجميع الكلمات مع بعضها البعض، وكان منتشياً ومتحولاً من خلال كل ما يقرأه. كانت هذه التجربة عظيمة، وفكر أنها ربما جديرة بدخول

السجن، هذا السمو في المتعة الذهنية، هذا الانكشاف لأمر في الحياة لم يكن يعرف عنه سوى القليل.

بعد خمسة أشهر أو أكثر من دخوله مشفى السجن حدث أمر غير عادي.

كان المدير يقوم بجولته صباح الاثنين. شعر ويلي بعيني المدير تُركزان عليه والفكرة الأولى التي تناهت إليه هي أن أيامه في مشفى السجن تشارف على النهاية. وبعد ذلك اليوم وصلته رسالة عن طريق تسلسل الأوامر من المدير لتؤكد له حَدَسَهُ.

توجه ويلي في اليوم التالي إلى مكتب المدير المكسو بلون داكن وذي النافذة المضلعة بالقضبان المعدنية فوق فتحة التهوية.

قال المدير: «أرى أنك تسير كسيراً».

أطلق ويلي إيماءة دفاعية طالباً تفهمه.

«سأخبرك سبب استدعائي لك. لقد شرحت لك الوضع الامتيازي الذي تتمتع به في السجن والذي مايزال مفتوحاً أمامك في أية لحظة لتستفيد من حسناته. نحن نتعامل بالقواعد ذاتها التي كانت سائدة أيام الإنكليز. عندما استسلمتَ وقّعتَ تعهداً أنك لم تقمْ وأنت في القطاع 302 بما يمكن أن يعتبر جريمة شائنة. كان ذلك جزءاً من الصفقة. جميعكم يقدم مثل هذا التعهد. وهكذا نصل إلى وضع غريبٍ إذ يموت المئات وربما الآلاف على أيدي عناصر حركتكم، وفي النهايةِ نجد أن لا أحد منكم قد قام بأي فعل. في جميع الاعترافات يكون هناك على الدوام أحد آخر هو من قتل أو ضغط على الزناد. لنفترض أن أحد السجناء رغب في تغيير هذا الوضع وخلقَ حالةً مختلفةً. شخص مستعد فعلياً للقول إن X أو Y أو Z هو من أقدمَ فعلياً على ارتكاب جريمة قتل معينة».

قال ويلي: «هل هناك مثل هكذا شخص؟»

أجاب المدير: «ربما هناك أحدهم. تَذَكّرْ، في السجن الجميع في حالة حرب؛ أخبرتك بهذا سابقاً».

* * *

في مكتب المدير كان صافيَ الذهنِ. لكنه لاحقاً في سرير المشفى وجد نفسه مُشوّشَ الأفكار وغارقاً في الظلام، تجري في جسده السوائل الباردة. حالة شبيهة بالمرض الحقيقي بدأت تصيبه بالقشعريرة. ومع ذلك كان طوال الوقت في الجزء الأكثر ثباتاً من عقله/ يفكر كما لو أنه يختزن فكرةُ للاستعمال المستقبلي: «إنه عمل منجز بإتقان. إذا كان عليك خيانة أو إيذاء أحدهم، فهي الطريقة المثلى لذلك. عندما يكون هذا هو أبعد ما يمكنك توقّعَهُ، ولا حاجة لبطاقة استدعاء».

جاء السجين صاحب القبعة الغاندية بعشائه من المطبخ. كالمعتاد، طاسه بلاستيكية من حساء العدس الكثيف، ربما بفعل الفلور (لا يمكنك التأكد حتى تتذوقها). وست قطع من شرائح الخبز، التي خُمِّرتْ وبُرّدتْ على عَجَل.

حين استيقظ ليلاً فكّر في عزلة مشفى السجن: «بالأمس كنتُ سعيداً».

كان قد درّبَ نفسه على البقاء بعيداً عن حدائق الخضروات وبستان الفاكهة حيث يعمل السجناء السياسييون. لكن في الصباح التالي عندما ذهب لإلقاء نظرة وقعتْ عيناه على الرجل الذي كان يخشى لقاءه: آينشتاين. أول الأمر، كان عقله قد قفز إليه على أنه الخائن، وهذه الرؤية له للمرة الأولى على أرض المعتقل كانت وكأنها برهان على شكوكه. حدسياً، لم يكن آينشتاين مُريحاً (وذاكرةُ ذلك النفور الأول كانت ترافق ويلي على الدوام)، مُثير للارتياب بشكل حدسي، ثم رفيق في الأزمنة الصعبة، وها هو الآن يعود ليكون شخصاً يُلقي الشك في قلب كل من يراه. كان ويلي يعلم أن آينشتاين لا بد أنه يبادله المشاعر التي يكنها له هو. كان قد تقدم في إيمانه، خاصة في السنوات الأخيرة في الأحراج، أن هناك تبادلية دقيقة في العلاقات. إذا راق

لك أحدهم فمن الثابت أنك ستلقى النجاح في تعاملك معه؛ وإذا ما خالجك شعور بعدم الراحة والتلقائية تجاهه فمن المؤكد أن هذا سيكون شعوره نحوك أنت أيضاً. في السجن كان آينشتاين والعديد من الآخرين قد استرجعوا أحقادهم السابقة، كلٌّ منهم استرجع حقده الذي يحمله في دواخله العميقة، كما العودة إلى كنزٍ سرّيٍّ، شعور لم يكن يحتاج في زمن اللايقين إلّا لنظرة واحدة لكي ينتعش وينبعث حياً (تذكر ويلي ذاك الثوري المتبجح والمتجاهل صاحب الأسلوب الخطابي في الكلام الذي صادفوه في الأحراج، يحمل في داخله بقية من التمرد المهزوم حتى النهاية، والذي بقي يتسكع في القرى على مدى ثلاثين عاماً حاملاً فلسفته البسيطة حول الجريمة، وعاجز الآن عن الإتيان بأية فكرة أسمى، ومع كل هذا فقد دُجِّن بسهولة). لم يكن يستلزم وقتاً طويلاً لرؤية كيف يدلل آينشتاين كنز حقده الشخصي، ومن دون أي مبرر، وربما من دون مكافأة أيضاً، سوف يجدُ رضىً هائلاً في خيانة ويلي.

بعد رؤيته لآينشتاين عاد ويلي إلى سريره في المشفى. طلب من الحارس ورقة للكتابة ثم كتب لساروجيني.

وبعد أسبوعين جاءت لزيارته. وعندما أخبرها ما جرى قالت: «هذا أمر خطير».

وللحال استطاع أن يتبين، رغم حياتها في الأشرام والساري الأبيض القطني، كيف بدأت ذهنية التملص من المآزق لديها بالعمل. كانت إثارة الرأي العام للدفاع عن السجناء السياسيين في العالم بأكمله جزءاً من نشاطها السياسي. تمكن ويلي داخل غرفة السجن الصغيرة من رؤية شكل العمل الذي يقوم به عقلها وهو يُجْري دراسة سريعة لجميع الاحتمالات.

سألته: «من قام بنشر كتابك في لندن؟ المجموعة القصصية».

أخبرها. تبدو تلك الحياة الآن وكأنها حياة من عالم آخر.

«مؤسسة جيدة من الجناح اليساري. أكان ذلك في عام 1958؟»

«عام مشاغباتِ *سباق نوتنغ هيل* في لندن».

«من الواضح أن أعمال الشغب تلك قد أثّرت فيك؟» كانت تتحدث وكأنها محاميةٍ.

«لست أدري».

«إن كنت تعي هذا أم لا، فإنه يُعَدُّ رأسَ خيطٍ ممتازٍ للابتداء به. هل كانت لك علاقة بأي شخصية مهمة آنذاك؟ أناس جاؤوا إلى الجامعة، أمور من هذا القبيل».

«كان هناك أحد الجامايكيين. مضى إلى أميركا الجنوبية ليقاتل إلى جانب غيفارا، غير أنهم نبذوه. ثم توجه بعد ذلك إلى جامايكا وأدار هناك ملهىً ليلياً. لا أظن أن هذا بذي أهمية كبيرة بالنسبة لك. كان هناك أيضاً أحد المحامين، وكان مواظباً على إعداد البرامج الإذاعية لهيئة الإذاعة البريطانية الـ بي بي سي BBC. وقد التقيتُهُ من خلال عمله هذا؛ وقدم لي مساعدة كبيرة في مسألة نشر الكتاب».

«لا بد أنه الآن، وبعد ثلاثين عاماً، قد أصبح رجلاً مشهوراً».

غادرتْهُ وهو في مزاجٍ معتكرٍ بعد أن أعطاها الاسم، أحد نصفيه يعيش في الماضي مرتبكاً بسبب الذاكرة المظلمة للقصص الزائفة التي كان قد ألّفها في زمن الجهل ذاك، ونصفه الآخر يعيش في مشفى السجن يعاني الارتعاد والقشعريرة بسبب مأزقه.

* * *

كان روجر المحامي الذي سماه ويلي لساروجيني، قد كتب رسالة لويلي تتضمن رأيه في المجموعة القصصية بعد عدة أسابيع من صدورها. وعلى مدى سنوات تَعَلّقَ ويلي بالرسالة وكأنها تعويذة سحرية. حملها معه إلى إفريقيا وفي سنواته الأولى هناك كان يلقي عليها نظرة من حين لآخر. *كما يقول الشاعر اللاتيني*، كتب روجر بلغته المثقفة والقديمة الطابع، *إن للكتبِ قَدَرها وربما يعيش هذا الكتاب بطرق قد تذهلك تماماً*. رأى ويلي في هذه الكلمات نبوءة

حسنة. غير أن أمرا استثنائياً لم يحدث معه، ومع الوقت وضع النبوءة جانباً. وعندما غادر إفريقيا لم يفكر في حمل الرسالة معه؛ لعله أخفق في العثور عليها: ضاعت أشياء أخرى أيضاً في الفوضى التي عَمّتْ إفريقيا تلك الأيام. لكن كلمات روجر تناهتْ إليه من جديد الآن، وكما في الماضي، توقف عندها كجزءٍ من نبوءةٍ حسنةٍ.

أخذت تبدو كذلك حينما، وبعد عدة أسابيع، أرسل المدير في طلبه مُجدداً.

«مازلتَ جريحاً»، قال المدير، مطلقاً دعابته القديمة، ومن ثم أردف وقد تغيرت نبرة صوته، «لم تخبرنا من قبل أنكَ كنتَ كاتباً».

قال ويلي: «كان ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ».

«أهذا كل شيء؟»، قال المدير وهو يرفع ورقة عن مكتبه، «تقول هذه الورقة إنك كنتَ رائداً للكتابة الهندية المعاصرة».

وعندئذ فقط فهمَ ويلي كيف كان أبوه، منذ ثلاثين عاماً، قد قام بضخ الحركة في العجلات من خلال رسائله المتوسلة التي وجهها لرجال إنكلترا العظماء والتي في آخر الأمر أقَلّته إلى لندن، على هذا النحو بالذات بدأت ساروجيني، تبعاً لتجربتها السياسية الكبيرة، بالتحرك لمصلحته.

بعد ستة أشهر أخرى، وتحت مصطلح العفو الخاص، وجدَ ويلي نفسه من جديد مرتبطاً بحتمية السفر إلى لندن.

8

رشيم بذرة الفاصولياء اللندنية

سارت الطائرة التي حملت ويلي إلى لندن مسافة طويلة على المُدَرّج بعد هبوطها حتى بدت وكأنها توشك على الارتطام بحواجز المطار، وفي النهاية وبعد نزولهم كان على المسافرين السير لمسافة طويلة جداً للرجوع، المسافة المساوية لسير الطائرة قبل تحليقها، إلى المبنى الرئيسي للمطار وصالة الهجرة. أما الأمتعة فقد قطعت المسار ذاته إلى الوراء، واستغرق وصولها خمس عشر أو عشرين دقيقة قبل أن تصل. معظمها كان أمتعة تثير الشفقة للفقير المهاجر: صناديق كرتونية معصوبة بالأسلاك؛ وصناديق خشبية بحواف معدنية، حديثة غير أنها تشبه صناديق لسفن بخارية من الطراز القديم معدّة للطقس السيئ في أعالي البحار، وحقائب منتفخة هائلة (جميعها تقريباً صنعت من مواد صناعية داكنة اللون) بحيث إن أحداً لن يتمكن بسهولة من نقلها أو رفعها أو حملها بيده، وتبدو أنها معدّة أكثر لدثارٍ فوق رأسِ مستخدم سكة الحديد الهندي.

داهمت ويلي حيويته القديمة، وبداية الأسى القديم. لكنه فكّر عندئذ: «كنت هناك ولم أمتلك شيئاً لأقدمه. لست قادراً على المضي إلى ذلك المكان مجدداً. عليّ أن أدع هذا الجزء مني للموت وأتخلص من تلك التفاهة. عليّ أن أعي أن نمو الدول الكبيرة وانحسارها يكون تابعاً لسلوك القوى الداخلية التي هي خارج سيطرة شخص واحد وحده. عليّ أن أحاول أن أكون أنا نفسي وحسب. إن كان أمر كهذا متاحاً».

كان روجر يقف على الحاجز الخارجي، ضائعاً وسط سائقي التاكسي بيطاقاتهم الاسمية والمجموعات الأسرية الكبيرة والضاجّة في انتظار القادمين بأمتعتهم الثقيلة. ورغم أنه كان هو نفسه، فقد كان ويلي يبحث عن رَجلٍ أصغرَ بثلاثين عاماً، لم يكن بالإمكان معرفة روجر مباشرة. من النظرة الأولى كان شبيهاً برجل في ثيابٍ تنكرية.

اعتذر ويلي منه لجعله ينتظر.

قال روجر: «لقد تعلمت على حيازة روحي بالصبر. عرفت من اللوحة أن طائرتك قد حطت على المدرج، ومن ثم عرفت منها أنك على الأرجح في صالة الأمتعة».

كان الصوت والنبرة حميمين. أعادتا بعث الرجل الغائب، هذا الذي يتذكّره ويلي، والذي كان في هذه الأثناء يختفي داخل شخص هو الآن قُبالته. كان الانطباع مُقلقاً.

قال روجر لاحقاً، بعد أن أصبحت حقيبة ويلي الصغيرة في صندوق سيارة روجر ووُضعتْ هذه الحمولة داخل الآلة: «إن الأمر كما لو أنك في المسرح. لكنه في الحياة الواقعية مثير للأعصاب. ينتهي الفصل الثاني، وبعد الفاصل يخرج الرجل بشعرٍ مُستعار مُغبر ووجهٍ مغضن. أنت تراه كعجوز. قد تبدو الشيخوخة أحياناً وكأنها عيب أخلاقي، وفي الحياة الواقعية إن رؤية أحدهم وقد أصبح عجوزاً يشبه ظهور هذا العيب الأخلاقي بجلاء على نحو مفاجئ. عندئذ تستوعب أن الآخر ينظر إليك بالطريقة ذاتها. هل تعرف هذا المكان؟ هل كنت على علاقة بأحد هنا؟»

«عرفت فتاة تعمل على طاولة حسابات عطور ديبنهامز. في الحقيقة، بالكاد كنتُ أعرفها. كانت صديقة لأحد أصدقائي، وهي كانت على الدوام منغمسة في علاقة مع شخصٍ ثانٍ. إن التفكير في الأمر برمته شديد التعقيد الآن. هل تظن أنها ستذكرني، بعد ثمانية وعشرين عاماً؟»

قال روجر: «سوفُ تذكرك. عندما تستعرض عُشّاقها ـ ولا بد أنها تفعل هذا في غالب الأحيان ـ سوف تعدّك بينهم».

«هذا مخيف. وكيف تتوقع أن تكون قد سارت حياتها؟»

«هي الآن سمينة، ومخادعة وخائنة. تشتكي من عبثية الحياة وثقلها. تتكلم زيادة عن اللزوم. أكثر دخولاً في السياق العام للبشر مما كانت في حياتها السابقة. إن النساء أكثر جسدانية وأكثر سطحية مما يمكن لأحد أن يتخيل».

قال ويلي: «هل سأبقى هنا منذ الآن وفي المستقبل وإلى الأبد؟»

«هذا جزء من الصفقة».

«ما الذي سيحدث لي؟وكيف سأمضي أيامي؟»

«لا تشغل عقلك في هذا الآن. دع الأمور تجرِ وحسب. اترك للحياة انطلاقها ومرور الزمن فوقك».

«ما زلت أذكر يومي الأول في إفريقيا، يومها نظرت إلى الخارج عبر نافذة الحمام وشاهدت كل شيء في الخارج من خلال الشبك الصّدِئ. انتابتني رغبة بالرحيل. فكّرت أن أمراً سيئاً في طريقه لأن يحدث، وأني لن أتمكن من حل هذه المشكلة البتة. ومع ذلك بقيت هناك ثمانية عشر عاماً. أمرٌ مماثلٌ حدث لي يوم انضممت لرجال العصابات. كانت الليلة الأولى في أحراج السَّاج خرافية إلى ما لا نهاية. راودتني الرغبة في عدم البقاء. واعتراني إحساس أن أمراً ما على وشك الحدوث وأنني أنا نفسي سوف أتحرر. لكن شيئاً لم يحدث، وبقيتُ سبع سنوات. كنا دائمي الحركة في الأحراج. ذات يوم التقيتُ أحدهم في إحدى القرى، ثورياً، فقال لي إنه خدمَ في صفوف الحركة على مدى ثلاثين عاماً. ربما بالغَ في المدة، ومع ذلك فقد خدمَ في صفوف الحركة مدة طويلةً جداً. لقد كان واحداً من ثوار الثورة السابقة. تلك الثورة التي كانت قد اندثرت منذ زمن بعيد، غير أنه كان مايزال مواصلاً

تحركه. التَخَفِّي والادعاء أنه قروي أصبحا هما أسلوبه في العيش. مثل ناسك في دير وسط الأحراج آت من الحكايات القديمة، أو مثل روبنسون كروزو، يعيش على جزيرةٍ، كان شخصاً ممسوساً وعقله متوقف كساعةٍ معطلةٍ، تشير إلى الوقت ذاته إلى الأبد. كانت تلك الأفكار حادّةً جداً، وحين كان يتحدث بها كان يبدو كشخصٍ سليم العقل. في السجن التقيتُ آخرين من هذه الشاكلة. وكنتُ قادراً باستمرار على العودة من نفسي إلى الخلف، والتفكير في حالتي. ومع ذلك مرّت لحظات شعرت بنفسي يضربني التغيير. كانت الحالة برمتها غاية في الغرابة، كشريط من الأحداث اللاواقعية، ومع مرور الوقت عرفتُ أنني سأغدو مختلفاً مثلي مثل الآخرين. كان العقل واهناً، ويمكن للإنسان في هذه الحالة أن يتلون ويتكيف مع عددٍ هائلٍ من الأوضاع. تلك هي الكيفية التي جرت بها الأمور معي. هل سارت حياتك على هذا المنوال؟ بأشكال معينة على الأقل؟»

قال روجر: «أود القول إنها متشابهة بالنسبة لكل منا. غير أن حياتي في هذه السنوات الثلاثين الأخيرة كانت مختلفة. شعرت أنني على الدوام ضمن الحياة الواقعية. وهذا قد يكون عائداً لشعوري أن الحياة كانت دائماً تُصفّقُ لي. تبدو حياة هانئة، لكنها خالية من الإدهاش».

قال ويلي: «أما حياتي فكانت سلسلة من المفاجآت. على عكسك، كل شيء كان خارج سيطرتي. اعتقدت أنني أسيطر عليها. كذلك والدي وجميع من حوله كان يساورهم الاعتقاد ذاته. غير أن ما كان يبدو وكأنه قرارات لم يكن كذلك فعلياً. بالنسبة لي كانت مجرد مخططات، لعجزي عن رؤية ما هو موجود لي لأفعله. ظننت أن رغبتي هي في السفر إلى إفريقيا؛ واعتقدتُ أن شيئاً سيحدث وسيظهر لي الطريق الصحيح، الطريق المعد لي وحدي. لكنني سرعان ما عرفتُ الخوف حالما أصبحتُ فوق المركب. وأنت: هل تزوجت بيرديتا؟»

«لا يمكنني إخبارك السبب. أخمن أن قدرتي الجنسية ضعيفة. كان هناك ست أو سبع نساء محتملات كزوجات، وكان سيؤول الزواج إلى ما آل إليه مع بيرديتا. بعد زواجنا مباشرة لعب حظي السعيد دوراً في وقوعها في علاقة جيدة وثابتة مع أحد أصدقائي. وكان هذا الصديق يمتلك منزلاً لندنياً كبيراً للغاية. جزء من ميراثه، وقد فتن المنزل اللندني الضخم بيرديتا. في الواقع أصابتني خيبة أمل كبيرة بها: ابتهاجها بالمنزل الكبير. بيدَ أن غالبية سكان هذه البلاد لديهم مسحةٌ من التقليدية. الارستقراطيون يحبون ألقابهم. والأثرياء يحصون أموالهم طوال الوقت، ودائماً يحسبون إن كان الآخرون يملكون أكثر أو أقل منهم. والفكرة الرومانسية للطبقة الوسطى في الأيام الخالية هي أن الارستقراطي الحقيقي، وليس الطبقة الوسطى التي قفزت نحو الأعلى، هو من لا يعرف بحق من يكون. إن الأمر ليس كذلك، فجميع الأرستقراطيين الذين عرفتهم كانوا يعرفون من هم على الدوام. لديهم القدرة على أن يكونوا عاديين حتى النهاية، أولئك الأرستقراطيون. يروق لأحد معارفي الظهور بين ضيوفه على الغداء في روب الحمام، وهو يَصبّ المشروب ـ ومن ثم أثناء خروجه لارتداء ملابسه، بعد أن يكون قد هزأ منا نحن جميع المدعوين إلى منزله العظيم. «أية ملابس أنيقة هذه يا عزيزي»، قائلاً لأحدهم بعد ذلك وهو يقوم بتجزيء الحدث: «كم كنا عظماء!» هذه الـ «نحن»، بالطبع، كانت للتهكم. كان يقصدهم «هم»، الضيوف الذين رتب مجيئهم بملابس رسمية، وكنت أنا من روى لي هذه الحكاية فيما بعد ـ ولذلك أخمن أن التقليدية التي عليها بيرديتا ليست حالة استثنائية مفاجئة. لكنني كنت آمل الأفضل ممن تزوجتها».

تعرّفَ ويلي على أسماء مناطق لندن، ولكن السيارة كانت تعبر طريقاً عامّاً جديداً عليه.

قال روجر: «كانت هذه المنطقة جزءاً من مشوارك المعتاد في الماضي إلى أن شقوا هذا الطريق فيها. أخمن أن البشر التقليديين هم الوحيدون الذين

ليسوا تقليديين بالمعنى الذي أقصده. سطحيون ويضعون مصلحتهم الشخصية كأولوية ثم يتصرفون بشكلٍ شاذٍّ عن الفكرة المأخوذة عنهم. على أية حال، هناك بيرديتا التي تعيش علاقة مع ذلك المهذار صاحب المنزل اللندني الكبير، جميع الأطراف راضية، خليلته هي زوجة أحدهم، وأما هي فراضية وتشعر بالحميمية والنضوج التام في منزلٍ لندنيٍ كبير. من ثم حملت بيرديتا. كان حملاً متأخراً بالنسبة لها، لعله متأخر جداً. وعلى الأثر أصابَ العاشق الذعر. لم يكن يتوقع وصول عشقه إلى هذه المرحلة - رعاية طفل باستمرار وإلى الأبد. وهكذا تحولت بيرديتا إلى طالبة للدعم. لم أكن أحب رؤيتها تعاني البؤس إلى هذه الدرجة. كان لديَّ نقطة ضعف تجاهها، أترى. لكنني لم أتفهّم الوضع. افتقدتُ شغفها، وتحدثتُ كثيراً أو قليلاً عن عزمي على التنازل عن جميع الحقوق، إذا جاز التعبير. وأنا مصمم على تركها تمضي. اعتقدتُ أن هذا ما كانت تود سماعه. غير أن كلامي أصابها بحالة من الهستيريا، كلا الرجلين لا يعيرانها سوى الاهتمام القليل. لقد عايشنا كثيراً من جلسات البكاء. على مدى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع كنت أهاب الذهاب إلى المنزل. بعدئذ أقنعتُ نفسي باحتمال أن يكون الطفل ابني وكنتُ سعيداً لوجود طفل في حياتي. بالطبع لم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق.

«لقد أخافني مجيء الطفل. وعشت بعض الوقت بهاجس التخلّي عن بيرديتا، وإيجاد إحدى شقق الأستوديو في مكان ما. في خيالاتي غدا ذلك الأستوديو أشد حميمية وراحة وأكثر فأكثر بعداً عن كل شيء. لقد منحتني تلك الخيالات شعوراً هائلاً بالطمأنينة. بعد ذلك حدث أمر ما وأجهضت بيرديتا. خلف هذا الحدث فوضى كبيرة. وبينما كنت أغرق أكثر فأكثر في قوقعتي، حالماً بشقة الأستوديو الحميمية، في ذلك الوقت بالذات انسحبتْ وارتدّتْ إلى داخل ذاتها. وأخذتْ حالتها تزداد عمقاً سوءاً مما كانت قبلاً. مرّتْ عليَّ أيام فكرتُ فيها جدياً في عدم التوجه إلى المنزل والإقامة في الفندق. لقد أدانتْ العاشق المهذار صديقي الشرعي القديم. بدأتُ أوقن بعد

حين أنها كانت تستمتع بحالتها، وبقيتُ قربها في تلك المرحلة كما لو أنني أرافقُ شخصاً يعاني من كَسرٍ في ذراعه أو ساقه، مرضٌ ظاهريٌ يمكن ملاحظته ولا يسبب تهديداً للحياة.

«ذات يوم أرسل لها عاشقها الوغد ـ هل تصدق هذا؟ ـ قصيدةً. علمت بها لأنها تُرِكتْ في مكانٍ واضحٍ لهذه الغاية، فوق نضد المائدة في غرفة الطعام. كانت قصيدة طويلة. ولم تكن مطبوعة أو مصوّرة، بل كلمات قام باقتباسها. يقول في رسالته لها إنه قام بنظمها من أجلها. كانت تعلمُ أنني أنظر إليه بفوقية كنوع من المهرجين، أفترض أن هذا شيء من دفاعي ضدّه ومحاولة لتخييب أملها. إنني أكيد من أنهما استأنفا ممارسة الحب في أوقات ما بعد الظهر إن كان في منزلي أو المنزل الكبير، مارسا شهوتهما هما الاثنان. مع أنها ربما لم تكن شهوة عند هذه المرحلة وإنما مجرد عادة مكررة.

«بالطبع كنتُ أعلمُ أن القصيدة لم تكن مبتدعة. ولكن فقط كما يحدث أحياناً أن نستلب بسطوة أشباح الصور المبكرة في مقطوعات شعبية معينة، هكذا كنتُ تحت تلك السطوة الروحية للقصيدة الموجهة إلى بيرديتا. أخذتُ أبحث عنها من حين لآخر، وفي أحد الأيام عثرت عليها. في كتاب و.ي.هينلي، أحد شعراء العصر الفيكتوري ـ الإدواردي، صديق كيبلنغ. لا تستخف بقوة الفن السيئ يا ويلي. لم يكن عليَّ سوى ترك العاشقين يمضيان في دربهما، لكن سذاجة بيرديتا ورضاها الذاتي كانا يثيران سخطي ـ وهي تطرح لي القصيدة لكي أراها. قلت لها يوماً: «ها هو كتاب شعري جميل لك يا بيرديتا». وسلمتها كتاب هينلي. كان ذلك تصرفاً خاطئاً من قِبلي، غير أن تخيل المشاهد الصغيرة لبيرديتا وحبيبها الشاعر وحالهما لدى رؤية القصيدة منحني سروراً عظيماً. قطعا العلاقة لبعض الوقت. لكنني الآن أؤمن أنهما أعادا الكرّة من جديد».

ها هما الآن واقفان أمام منزل روجر. كان كبيراً وشبه منفصل، لكنه شاهق وضخم.

قال روجر: «تلك هي الدراما الذاتية لهذا المنزل. وأخمن وجود ما هو مماثل لها داخل كل منزل في هذه البلاد».

قال ويلي: «ومع ذلك كنتَ تقول إن حياتكَ خاليةٌ من الدهشة».

«كنت أقصد أنني مهما فعلت، وأياً تكن من أتزوجها أو أعاشرها، سوف ننتهي أخيراً إلى هذا الوضع الذي كنت أحدثك عنه».

مشهد المنزل مؤثرٌ وأخّاذ على الشارع المضاء بنور الأعمدة الهادئ، والمحاط بالأشجار الكثيفة.

قال روجر: «كان منزل ماربل أرش الصغير هو بذرة الذُّرَة. لقد كنت أتسلق رشيم الفاصولياء الثمين طوال الوقت، وهو ما أوصلني إلى هنا. إنه حقيقي على الأقل بالنسبة لنصف البشر السائرين في الشارع، رغم ادعائنا غير ذلك».

كان المنزلُ كبيراً، ولكن الغرفة التي صعدا إليها فوق طابقين، كانت غرفةً صغيرة. شعَرَ ويلي أن بإمكانه الإحساس بلمسات بيرديتا فيها. ثم تحول عن هذا الإحساس. كانت الستائر الثقيلة مواربة. مباعداً إياها قليلاً بيده، نظر أسفل إلى الأشجار وأنوار الشارع والظلال والسيارات المتوقفة على الجانب. بعد قليلٍ هبطَ إلى الغرفةِ الرئيسية. نصفها كان غرفة جلوس، والنصف الآخر مطبخ لتناول الطعام. هتف متعجباً من ورق الجدران، والطلاء الأبيض، وأدوات الطبخ في الجزء المطبخي من الغرفة، ومن قلنسوة القاطف. قال: «ياله من جميل، جميل». كانت أذرع أدوات الطبخ والطناجر مصنوعة من السيراميك ومستوية عند السطح. هتف ويلي متعجباً منها أيضاً. علق روجر قائلاً: «إنك تبالغ يا ويلي. لا داعي لذلك فهي ليست بهذه الروعة». لكنه أدركَ بعد حين، حين نظر إلى وجه ويلي، أن انفعاله لم يكن مبالغةً أو تهكماً. وأنه كان بحق منتشياً إلى حد ما.

في الواقع، في منزل روجر، في أول مساء له، وجد ويلي نفسه مُفعماً

بكافة أشكال الإثارة الحسية. ومع أن الليل لم يكن قد حلَّ تماماً إلّا أن المكان كان مُعتماً. ومن خلال النافذة عارية الستارة في مؤخرة غرفة الجلوس، أمكن لويلي رؤية الأشجار اليافعة التي تحولت إلى لونٍ داكنٍ والفسحة الكثيبة الخضراء الداكنة في الحديقة الصغيرة وراء المنزل. فكّر أنه لم يرَ شيئاً كهذا في حياته، لا شيء يمثل هذه العذوبة. كان عاجزاً عن تحويل عينيه عنها. قال لروجر: «كنت في السجن. وهناك كان بستان نتولى العناية به، ولكنه بالمقارنة مع ما أشاهده الآن كان تافهاً. في حياتنا كرجال عصابات كنا نتوغل في الأحراج، غير أنها كانت غابات حارّة تحت لسع أشعة الشمس. غالباً ما فكرتُ أثناء تلك المسيرات أنني بحاجة للمخدر. لقد راقت لي هذه الكلمة. أود أن أشرب شيئاً الآن. في الأحراج لم نكن نشرب أي شيء. وفي إفريقيا وطوال ثمانية عشر عاماً لم نكن نشرب سوى النبيذ البرتغالي والجنوب إفريقي».

من جهة بعيدة، كما بدت له، هتف روجر: «هل تفضل كأساً من النبيذ الأبيض؟».

«ويسكي أو شمبانيا، لو سمحت».

صبَّ له روجر كمية كبيرة من الويسكي. فتجرعها في رشفة واحدة. قال روجر: «هذا ليس نبيذاً يا ويلي». ومع ذلك كررَ الأمر ذاته مع الكأس التالية. قال: «إنه لذيذ على نحو رائع يا روجر. عذب وغامض وعميق. لم أذق شيئاً كهذا من قبل. ولم يحدثني أحد قبلاً عن الويسكي».

قال روجر: «هذا من تاثير تحررك. في عام 1977 أو 1978 قمنا بإخراج أحد الرجال من الأرجنتين. كان قد تعرض لتعذيبٍ مُروعٍ. أحد النشاطات التي أراد القيام بها حين وصل إلى هنا كان زيارة المحلات التجارية. أحدها هو متجر ليليوايتس. بوابته تطل على ميدان البيكاديللي. محل لبيع الألبسة الرياضية. وعندما ذهب قام بسرقةِ طقم من عصي الغولف منه. لم يكن ذلك

الرجل لاعب غولف. إن الأمر لم يكن يتعدى أنه وجد أن الفرصة سانحة للسرقة ويمكنه انتهازها. عادةٌ قديمةٌ لخارجٍ على القانون أو مجرم أو رجل عصابات. لم يكن يدري مُبرّرَ فِعلتَهُ تلكَ. جرَّ تلك العصي حتى موقف الباص، ومن ثم جرها الشارع بأكمله من مايدافال حتى المنزل، ثم بسطها أمامه مثل هِرٍّ يصطاد فأراً ويعود به».

قال ويلي: «في الحركة نتعلم أن نكون قساة. إنهم يتفاخرون بالقسوة وكم يصبح من السهل والبسيط القيام بالأشياء بعد تحقيقها ـ في السجن كان الآخرون يستطيعون الحصول على المخدرات. أما نحن السياسيين فلم يكن متاحاً لنا ذلك، بقينا نظيفين. كان ذلك جزءاً من قوتنا، حالة شاذة بما فيه الكفاية. لكنني شعرت، أثناء سير السيارة في لندن فيما كنتَ تتكلم، بشيء غريب يحدث لي. بدأتُ أعي أنني لم أعد في السجن، وأخذَ شخصٌ هو ليس أنا على الإطلاق، يزحف كما لو أنه يخرج من مخبئه. لست أدري إن كنت قادراً على التعايش مع هذا الإنسان الجديد. لست متأكداً من قدرتي على التخلص منه. أشعر أنه سيبقى على الدوام هناك، منتظراً إياي».

ثم ألفى نفسه يصحو من غفوة ثقلٍ في رأسه. فكّر بعد قليل: «أفترضُ أنني في منزل روجر الجميل، بغرفته الرئيسية المرتبة والحديقة ذات الأشجار الصغيرة. أخمّنُ أن روجر هو من حملني وصعد بي إلى هنا». من ثم داهمته فكرة أخرى، انبعثت من ذلك الجديد الآخر الذي كان قد استحوذ عليه: «لم أنم أبداً في غرفةٍ خاصةٍ بي. لا في بلادي في الهند عندما كنت صبياً، ولا هنا في لندن ولا في إفريقيا. كنت باستمرار أعيش في بيتِ شخص آخر وأنام في سرير ليس سريري. وفي مسير الأحراج لم يكن هناك غرف للنوم، وبعد ذلك كان السجن هو السجن. هل خلدتُ للنوم يوماً في غرفة لي وحدي؟» وتعجب من أنه لم يكن قد فكر بهذه الطريقة من قبل أبداً.

في وقت ما قرعَ أحدهم الباب؛ كانت بيرديتا. لم يكن قد لمحها في

الشارع وهي تدخل غير أن صوتها هو صوتها. تذكر حكايتها فاندفع من أعماقه تحريضاً لرؤيتها. قال لها: «هل تذكريني؟» قالت: «بالطبع، لم أَنْسَكْ. أنت صبي روجر الهندي ضامر البطن. على الأقل هذا ما كان يعتقد». لم يدرِ بماذا يرد على هذا الكلام فتركه مُعلقاً من دون تعليق. ارتدى روب الحمام في حمام غرفته ثم هبط السلالم إلى الغرفة الرئيسية التي تتوسطها أواني الطبخ تحت الغطاء. تلك الأواني التي اكتسحه جمالها في الليلة الفائتة. قدمت بيرديتا له القهوة من ابتكارٍ يبدو مُعقّدَ الصنع.

ومن ثم، ودون أية مقدمات، بادرته ببساطة: «ممن تزوجت؟» بهذا الأسلوب التقليدي، كما لو أن الحياة هي حكاية تسير بحسب التقاليد القديمة والزواج يجعل كل شيء صافياً وخالصاً يُصفّي ويحقق مغزىً معيناً من البحث والالتماس حتى لسنوات ويلي منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً. كما لو أن ويلي، في مسألة الزواج هذه، كان يمتلك عدداً هائلاً من الفُرص. أو كما لو أنه لا يملك أية فرصة على الإطلاق. كما لو أن ويلي، في هذه النظرة من الجانب الآخر، كان لديه كرجلٍ امتياز لن تحصل عليه هي أبداً.

أجاب ويلي: «التقيت بإحدى الإفريقيات ورافقتها ثم عشت معها هناك».

«كم هذا رائع. هل كانت لطيفة؟ غالباً ما كنت أفكر في الأيام الماضية أن السفر إلى إفريقيا أمر جميل ولا بد».

«أثناء مدة سجني في الهند كنا أحيانا نقرأ مقالات في الصحف حول الحرب الدائرة في المكان الذي كنتُ فيه. لقد اعتدنا نقاش تلك الأحداث فيما بيننا. وكان ذلك جزءاً من عملية تثقيفنا السياسي، أي مناقشة حركات التحرر الإفريقية تلك. وفي بعض الأحيان قُيّض لي قراءة بعض الكتابات عن الإقليم الذي كنت أقطن فيه. كان من الواضح أن المكان بأسره قد تعرض للتدمير. لقد أُحرقتْ جميع أبنية البيتون. بالطبع الإسمنت لا يحترق، ولكنك

قادرة على إحراق النوافذ والعوارض السقفية وكل ما هو في الداخل. كنت أحاول دائماً تخيل ذلك. جميع الأبنية من دون سقوف وعلى جدرانها آثار الدخان تحت السقف وحول فرجات النوافذ. في السجن دأبتُ على استرجاع جميع الرحلات التي قمتُ بها، وأخذتُ أتخيل مجموعة من البشر يسيرون على درب مشاويري ويضرمون النار بجميع تلك الأبنية البيتونية. كنت أحاول تصور ذلك المكان لو لم يأت إليه أي شيء من الخارج. لا معادن، ولا معدات، ولا ملابس ولا خيوط. لو لم يأت إليه أي شيء البتة. حين كان الأفارقة يعيشون وحدهم كانوا يمتلكون مهارات ممتازة في التعامل مع المعدن والقماش. لكنهم لم يعيشوا وحدهم مدة طويلة، وسرعان ما نسوا تلك المهارات. سيكون من الممتع رؤية ما سيحدث آن يصبحون وحدهم تماماً من جديد».

قالت بيرديتا: «ماذا جرى للفتاة التي رافقتها إلى إفريقيا؟»

أجاب ويلي: «لا أعلم. أُخمّن أنها فرّتْ هاربة إلى خارج البلاد. لا أتصور أنها بقيت هناك. ومع ذلك لا أعلم ما جرى».

«آه يا عزيزي. هل تكرهها إلى هذا الحد؟»

«لا أكرهها. فكرت مراراً في العثور عليها. كان ذلك ممكناً. كان باستطاعتي إرسال رسالة لها، من الأحراج أو السجن. غير أني لم أكن أود سماع أخبار سيئة. وفيما بعد اعترتني رغبة في عدم سماع أية أخبار على الإطلاق. أردت النسيان؛ أردت أن أحيا حياتي الجديدة. وماذا عنكِ يا بيرديتا؟ كيف سارت الأمور معك؟».

«وهل هي تسير بالنسبة لأيٍّ كان؟».

أخذ يفكر متأملاً في بطنها الكبير - شديد البشاعة على امرأة، أكثر بشاعة مما لو كان بطن رجل. كان جلدها خشناً وباهتاً ومتشققاً. فكّر: «في الماضي لم أكن أعتقد أنها جميلة. ولكني كنت أتمنى آنذاك ممارسة الحب

معها، بقصد رؤيتها عارية. الآن من الصعب تخيل هذا. أهو السن، أم هو الحرمان الطويل، أم هي هرموناتي، كما يقولون؟ أم لعله أمر آخر؟ أكانت هي مفهوم انكلترا التي كانت ماتزال حاضرة بقوة في ذلك الزمن، والتي كانت تضفي التوهج والاحمرار على نسائها؟».

قالت بيرديتا: «لا أتصور أن الوقت أسعف روجر ليخبرك بهذه». أخرجت غلافاً ورقياً صغيراً من البوفيه. تعرَّفَ ويلي على العنوان وعلى اسم الكتاب الذي ألّفه منذ ثمانية وعشرين سنة خلت. قالت: «كان الكتاب فكرة روجر. وقد ساهم في إطلاق سراحك. هذا الكتاب يؤكد أنك كاتب حقيقي ولست ناشطاً سياسياً».

لم يعرف ويلي اسم الناشر على الغلاف. كانت الصفحات المطبوعة شبيهة بتلك التي في ذاكرته. لا بد أن الكتاب قد صُوِّرَ عن النسخة الأصلية. وكانت صورة الغلاف جديدة ومختلفة: قرأ ويلي أن كتابه كان رائداً للكتابة الهندية المعاصرة في حقبة ما بعد الاستعمار.

حمل الكتاب معه إلى غرفته الصغيرة في المنزل الكبير. شرع بالقراءة، وهو مرتبك وخائف من مواجهة ذاته القديمة. ثم غرق سريعاً في القراءة؛ عزل أعصابه جانباً. ثم أوقف إدراكه عند الغرفة والمدينة التي هو فيها؛ أوقف إدراكه عند القراءة فقط. كان ينتقل بنشوة في الزمن، كما لو بنوع من سحر الارتحال عبر الزمن، عائداً إلى ما قبل ثمانية وعشرين عاماً، حين كان يكتب. أحس أن باستطاعته حتى الدخول مجدداً في سيرورة الأيام، يرى الشوارع والطقس والصحف من جديد، ويصبح من جديد كمن لا يدري كيف سيكتشف المستقبل. لقد ولج ثانية في زمن البراءة أو الجهل ذاك، زمن عدم المعرفة حتى بخارطة العالم. كان أمراً فوق طاقته آنذاك العودة إلى ذاته من حين لآخر ليعود إلى كتابه ويعيد الدخول في تلك الحياة الأخرى، ويعيش من جديد تسلسل الأسابيع والأشهر، وهو رازح باستمرار بشعور حصرٍ تحت كل شيء، قبل لقائه بآنا وسفره إلى إفريقيا.

لو قُيِّضَ له أن يُسأل إن كان هو الشخص ذاته على الدوام، لأجاب أنه كان هو الإنسان ذاته باستمرار. غير أنه شخص آخر هو من كان ينظر هكذا من مسافة بعيدة إلى ذاته الأكثر قُدُماً. وتدريجياً، وفيما هو يلعب طوال ذلك الصباح بكبسولة أو آلة الزمن لكتابه، متحركاً داخل تلك الشخصية الأولية وخارجها، كما قد يلهو طفل أو رجل يعرف المكيف الهوائي لأول مرة في يوم شديد الحر بلعبة الدخول والخروج من الغُرف المكيفة بالبرودة، شيئاً فشيئاً داهمت ويلي فكرةٌ عن الرجل الذي صارَهُ، فكرةٌ عما قد صنعت منه إفريقيا وحياة العصابات في الأحراج وبعدها تجربة السجن ثم الحياة البسيطة. كان الأمر كما لو أنه قد تدبر إدارة مفتاح في رأسه فتمكن من رؤية جميع محتويات الغُرفِ المعتمة.

نادته بيرديتا لتناول الطعام. قالت له: «في العادة أتناول سندويشاً أو ما شابه. لكني أعددت طعاماً مميزاً على شرفك. خبز الذرة. لقد قمت بإعداده البارحة. لستَ مضطراً لأكله. أنا لست ماهرة في صنع هذه الأشياء، ومع ذلك اعتقدت انه يتوجب عليَّ إعداده».

كان متشرباً بالزيت وثقيلاً على المعدة. غير أن التفكير في أن بيرديتا قد خبزت هذا الخبز الرديء كان فاتناً على نحو شاذ بالنسبة لويلي.

قال لها: «طوال الوقت الذي كنتُ فيه بعيداً لم تنقطع صُوَرَكِ عن حضورها في مخيلتي. أتذكرُ أول مرة رأيتك فيها في المطعم الفرنسي في شارع واردور. اعتقدتُ حينها أن أناقتك العصرية كانت بالغة. واعتقدت أن تلك كانت عصرية لندن. لم التقِ بمن تشبهك. كنتِ ترتدين قفازات مُقلّمة، من القماش أو الجلد، لم أستطع التحديد».

قالت: «كان هناك زي سائد في تلك الأيام».

تمكّنَ من رؤية عودة ذهنها إلى الماضي وتأملها فيه. فكّر: «إن السنوات الحقيقية من عمرها هي تلك السنوات الثلاثون التي انصرمت. هي لا تملك أية حياة الآن. ليس هناك من خيارات أمامها. لقد تبادلنا المواقع».

قال لها: «ثم رأيتكِ في الحفلة التي أقمتماها أنت وروجر في منزل ماربل أرش على شرف رئيس التحرير، الرجل السمين. كان أحدهم يتكلم. نظرتُ أثناء حديثه إليك فوجدت أنك كنت تبادلينني النظرات. تجاوبتُ مع تحديقك لبرهة من الزمن وتُقتُ لممارسة الحب معك. فيما بعد حاولت هذا لمدة معينة. كان أدائي في المحاولة سيئاً. لكن تلك المحاولة استلزمت كماً هائلاً من الجرأة. أتساءل إن كنتِ أدركت ذلك. هاتان الصورتان لك كانتا ماثلتين في ذاكرتي على الدوام. في إفريقيا في الأزمنة المظلمة، وفي جميع الأمكنة التي ذهبتُ إليها. لم أكن أعتقد أن السماء ستهبني فرصة لقائك ثانية».

نهض ووقف بجوار كرسيها ثم وضع يديه على كتفيها.

قالت له: «عد إلى كرسيك».

قبل ثمانية وعشرين عاماً تَلَفّظتْ بكلماتٍ كهذه، آنذاك ردعته ردة فعلها، وأفقدتْهُ كل شجاعته لتحقيق توقه الجنسي. لكنه الآن ضغط عليها بتصميم أكبر، مستنداً بثقته على الغريزة ـ لأنه لم يكن قد قام بهكذا محاولة مع امرأة قبلاً ـ أبقى على كفيه عليها بثبات ثم دفعهما أسفلاً عبر القماش الرقيق نحو ثدييها الصغيرين الرخوين. لم يكن بإمكانه رؤية وجهها من مكانه (بل لم يكن بإمكانه أن يرى سوى جزء واحد من جسدها) وهذا ما منحه المزيد من الجرأة. ترك أصابعه فوق ثدييها. وبقي على هذه الحال لبعض الوقت، لا يرى وجهها، واعياً فقط لخصلات شعرها الأشيب. قال: «هيا بنا نصعد إلى غرفتي». حرّرها من يديه ودفعت بكرسيها إلى الخلف ثم نهضت. تركته يقودها إلى الأعلى نحو الغرفة الصغيرة. أفلتتْ نفسها منه ثم بدأتْ تخلع ملابسها بحرص. هذه هي الكيفية التي كانت تتعامل بها مع عاشق فترات الظهيرة، فكّر ويلي، الرجل صاحب المنزل الكبير؛ إنها لا تفعل سوى إدخالي واتخاذي لروتين فترة الظهيرة الخاصة بها.

قال مُعرّياً جسده بالمنهجية ذاتها التي اتبعتها هي: «سوف أمارس الحب معك على طريقة بالينيز». كانت هذه نصف دعابة، ولكن نصفٌ ليس إلّا،

وطريقة لإعادة تقديم نفسه لها بعد إخفاق جميع تلك السنوات الماضية. كان قد قرأ عن طريقة بالينيز منذ زمنٍ بعيدٍ في إفريقيا في كتيّبٍ إرشادي عن الجنس، جدية ربما أو ربما شهوانية ـ لم يعد يذكر. قال: «لا يحب البالينيز تَمَاس الأجساد مع بعضها. في بالي يجثم الرجل فوق المرأة. بهذه الطريقة لن يجد الشاب مَشَقّة في ممارسة الحب مع امرأة عجوز». أخذت كلماته تتدفق منه وتمضي إلى شروحات مستفيضة. أما هي فلم يكن بادياً عليها وكأنها تسمعه. واستطاع بعد كل سنوات الحرمان في غابات الهند وبعدها في السجن الهندي أن يستحضر طريقة البالينيز؛ لم تخُنْهُ ركبتاه ووركاه. كانت متعاونة لكنها منطوية على نفسها، غير آبهة لارتياحه في تدبر الوضعية بقدر ما لم تكن آبهة لكلماته السابقة. كانت شديدة البعد عن أن تكون امرأة خراب وما يزال هناك مساحات من الجلد الناعم على جسدها.

درسَ المكانَ، الغرفة التي وضعت ديكورها. الأثاث ـ سرير وطاولة وكرسي ـ من الواضح أنها جميعها قد غُسلتْ حتى زالت عنها تقريباً طبقة الطلاء أو الورنيش أو اللميع الفرنسي، وظهر الخشب عارياً رثاً، ببقعٍ بيضاء لعلها بقايا الطلاء الأساسي الذي استعصت إزالته؛ أو لعلها كانت جزءاً من موديل التبييض. الستائر قاسية ومكشكشة، عاجية أو بيضاء مُصفرّة بنقش زهرة زرقاء صغيرة فاتحة اللون على المساحات الواسعة. يوحي تجعد وقساوة الستائر أنها ربما كانت على وشك أن تكون حشوات للأرائك. وتعطي هذه الستائر مع الأثاث المبقع إيحاء أن البحر والنسائم المالحة هي في الخارج مباشرة. كان ويلي في اليوم السابق، تحت وطأة اهتياج وصوله وبعدها وسط غيابه في خدر الويسكي، قد شاهد كل ذلك من دون أن يلاحظه على حقيقته. أما الآن فها هو ينظر كم رُتبتْ هذه الأشياء إلى جانب بعضها البعض بحرص شديد. كان قماش الستائر مُكرراً في غطاء الكرسي الفضفاض والقماش المزموم قليلاً على محيط قمة الطاولة المبقّعة. كان حامل المصباح الخشبي المزخرف مُبقعاً أيضاً، بذات اللطخ البيضاء المعهودة المنتشرة في كل

مكان. وكان ظل المصباح أزرق ملكياً. سلة صغيرة منسوجة بإتقان من القش المجدول تحتضن بشكلٍ جميلٍ مجموعة من أقلامٍ مدببةِ الرأس من لون علبة السيجار. بجوارها كانت هناك كرة أرضية داكنة من الزجاج المجسم المصمت يستقر في حفرةٍ وسطها بضعة من أعواد الكبريت ذات الرأس الزهري. في الليلة الفائتة وقف ويلي أمامها ناظراً إليها بحيرةٍ وتساؤل، وفي الصباح عاود التدقيق فيها بشكلٍ مُركّز. كانت الكرة الأرضية ثقيلة الوزن على نحوٍ غير متوقع. وأما اللون الشاحب على سطحها فقد كان مبعثه هو الأثلام الأفقية التقليدية التي تطوقها على طول سطحها باتجاه الأسفل. قادت العلامات القطرية على طول الأثلام ويلي لأن يعتقد أنه لكي تحصل على النور، عليك أن تسحج عود الكبريت زهري الرأس على الأثلام. وقد قام بذلك فعلاً؛ اشتعل عود الكبريت، ومن ثم وضع ذيل العود المُطفأ في الحفرة إلى جانب تلك غير المستعملة. كان ما يزال في مكانه. يفكّر أن جزءاً ضئيلاً من الأناقة ما زالت بيرديتا ترثَه من ماضيها. أو لعلها كانت أمراً ودت وهي فتاة لو تحققه في منزلها الخاص. أحس أنه مفعم بمشاعر الشفقة تجاه بيرديتا، باستمرار منطوية على نفسها، باستمرار متعاونة، ورأسها يميل على جانبه.

فكّر: «يوجد هنا شيء من روحها في ديكور هذه الغرفة أكثر مما هو موجود في أي مكان آخر، أكثر حتى» ـ متأملاً إياها وهو في وضعه المقرفص ـ «مما هو في جسدها المُستَهْلك». ومن ثم، وبشكل مفاجئ ودون أي تشنج كبير، بلغت رضاها، ورويداً رويداً أدى رضاها إلى رضاه هو نفسه، والذي بدا أنه آت من مكانٍ ناءٍ إلى أقصى الحدود. فكّر: «يجب عليَّ أن لا أنسى أبداً هؤلاء البيرديتات. لا بد أن لندن تعج بهن. عليَّ عدم الاستخفاف بالمُهمَلاتِ إطلاقاً. إذا قدر ليَ البقاء هنا فقد تكون هذه هي الطريقة للاستمرار».

التقطتْ ملابسها بحرصٍ عن الكرسي المغطى وهبطت إلى حمامها الخاص، تاركة إياه لحمامه. فكّر: «هكذا يسير الأمر حين تكون مع عشيقها.

إنه الجانب الأعظم من حياتها». لم يكن يأمل صعودها إليه ثانية، ولكنها فعلت. كانت ترتدي ملابسها من جديد. وكان هو في الخلف مُستلقياً في السرير. قالت: «لستُ أدري إن كان روجر قد أعلمك. إنه متورط مع ذلك المصرفي البغيض وهو الآن واقع في مأزق».

قال ويلي: «أظن أنه قال شيئاً حول ذلك المصرفي. الرجل في روب الحمام».

هبطت من جديد، وعاد هو إلى كتابهُ، متنقلاً دخولاً وخروجاً في الماضي، إلى داخل ذاته القديمة وخارجها، متأثراً إلى أقصى حد في هذه الأثناء بجو الغرفة والمنزل والمدينة العظيمة التي تحيا خارج المنزل. قبع هناك، منتظراً ـ كطفلٍ أو كزوجة ـ عودة روجر إلى المنزل. غطَّ في النوم وعندما استيقظ كان الضوء، خلف الستائر العاجية، قد تلاشى. سمع روجر يدلف إلى المنزل. وسمعه بعدها وهو يتحدث على التلفون. وكان صوت بيرديتا غائباً تماماً. لم يكن ويلي أكيداً إن كان عليه ارتداء ملابسه والنزول، فقرر البقاء حيث هو؛ حاول أن يكون هادئاً قدر استطاعته، مثل طفل يتخفّى. صعد روجر بعد حين وطرق الباب. علق روجر عندما رأى ويلي في السرير: «رجل محظوظ».

أخفى ويلي كتابه وقال: «في المرة الأولى، عندما جئت انكلترا سافرتُ على متن قاربٍ. في أحد الأيام قبيل وصولنا قناة السويس مباشرة، أعلمنا المُضيف بقدوم القبطان للتفتيش. فعلياً، مثل السجن تماماً. كان المضيف مرتبكاً بالارتباك والقلق ذاته الذي كان يكابده السجان والآخرون لدى قيام مدير السجن بجولته. اعتقدتُ أن ذلك التفتيش لا يشملني، وقَدِمَ القبطان. عندما دخل وبرفقته ضباطه وجدوني في سريري نصف عارٍ. نظر إليَّ القبطان نظرة مُحمّلة بالحقد والاحتقار ولم يتفوّه بأية كلمة. لن أنسى تلك النظرة ما حييت».

قال روجر: «هل تشعر أن لديك القوة الكافية لكي نهبط ونشرب شيئاً؟».

«اسمح لي بارتداء ملابسي أولاً».

«البس الروب».

«ليس لدي روب».

«أنا واثق من أن بيرديتا قد أخرجت لك روباً للحمام».

«سوف أبدو مثل المصرفي».

هبط في روب الحمام إلى غرفة المعيشة ذات الإطلالة المخضرة البهية، وكانت عجائبية الآن في الضوء الذاوي. لم يكن هناك من أثر أو صوت لبيرديتا.

قال روجر: «آمل أنك تود البقاء هنا قليلاً ريثما تعثر على طريقك».

لم يدرِ ويلي ما يقول. اجترعَ الويسكي. قال: «في الليلة الماضية كان حاداً وعذباً وعميقاً، من أول قطرة فيه حتى نهاية الكأس ومن شفتي حتى انحلاله في دمي. اليوم لم تكن سوى الجرعة الأولى مميزة، لا بل القطرات الأولى منها. الآن إنها العودة للويسكي كما أعرفه. يبدو وكأنه يمسك بالحليمات الذوقية للساني. كنتُ ثملاً بالفعل».

قال روجر: «كان اليوم واحداً من الأيام التي تراودني فيها الرغبة بعدم العودة إلى المنزل».

تذكر ويلي كلمات قالتها له زوجته آنا في إفريقيا حين كانت الأمور قد بدأت تسوء بينهما. قالت له: «حين التقيتكَ اعتقدتُ أنك رجل قادم من عالم آخر». وقعت تلك الكلمات التي قيلت ببساطة، ودون غضب، كالصاعقة في قلبه: لم يكن في يوم من الأيام قد عرف الكيفية التي كانت تراه فيها، رجل له حقوقه الخاصة، وأمر تعود منذ زمن بعيد أن يكونه. لقد جعلته تلك الكلمات يتمنى، من دون أمل، بربع نفسه أو أقل، لو أنه قادر على الاستمرار بالاحتفاظ بالصورة التي كانت تحملها له. شعر الآن أن هذا ما قد تحول إليه في نظر روجر: شخص واثق، وإنسان ينتمي لعالم آخر.

في ظهيرة اليوم التالي، حين أخذ بيرديتا إلى غرفته الصغيرة ذات الأثاث المبقع، سألها: «أين كنت البارحة عندما عاد روجر إلى المنزل؟» أجابته: «خرجت». تساءل ويلي قلقاً، بيد أنه لم يجرؤ على سؤالها ـ شاعراً الآن بالإذلال الذي يمكن حتى للمرأة المستهلكة أن تسدده إلى رجل ـ تساءل في أعماقه إن كانت قد ذهبت لرؤية صديقها، ذلك الذي نسخ قصيدة هينلي وأهداها إياها على أنها من تأليفه. فكر عندما كان مستلقياً فوقها: «هل عليَّ إبعادها الآن؟» كان هذا مُغرياً، لكنه فكّر بعد حين في جميع التعقيدات التي سوف تنشأ عن هكذا تصرف؛ عندئذ ربما تصل الأمور إلى حدود اضطراره لمغادرة المنزل: قد ينبذه روجر. لذلك بقي محافظاً على البالينز. فكّر: «حقيقة أنني قادر على التفكير بالطريقة التي أفكر بها تدل على أنها غير قادرة على إذلالي».

ربما كانت العودة للمنزل مُضنية بالنسبة لروجر. لكن الأمر لم يكن كذلك فيما يتعلق بويلي. كان المنزل يقعُ في سان جونز وود. بعد تنزهه في لندن كان من الممتع بالنسبة له استقلال الباص صعوداً نحو إدغار رود، والنزول في مايدافال ثم السير خارجاً من الازدحام والضجيج نحو الأشجار وسكينة سان جونز وود. بدا هذا وكأنه عالم جديد بالنسبة له. منذ ثلاثين عاماً خلت، حين كان يحزم أشياءه القليلة استعداداً للسفر إلى إفريقيا، مفرغاً غرفته الجامعية الصغيرة، ومزيلاً بلا عناء حضوره، حينها تجلى له ذلك وكأنه يقوم بتفكيك حياةٍ لن يسعه تركيبها ثانية أبداً. كانت تلك الحياة شحيحة. وعلى الدوام كان يدرك هذا؛ لقد جرب مختلف أشكال النشاطات لكي يقنع نفسه أن أهمية الحياة تكمن في الأشياء البسيطة التفصيلية؛ كان قد ابتكر فكرة جدول المواعيد لكي يقنع نفسه أن حياته كانت مُرتّبة وممتلئة. ها هو الآن ذاهل من الحِيَل التي استخدمها لاستغفال نفسه.

مضى إلى الأماكن التي كان يعرفها. ظن في البداية أنه يلعب اللعبة التي لعبها في الهند لدى عودته إليها للانضمام إلى حرب العصابات. راقت له

آنذاك رؤية ترجماته للحياة الهندية وهي تتضاءل، مُزيلة الذكريات القديمة وقاتلة للألم القديم. لكن حياته في لندن لم تكن حياة طفولته؛ لقد كانت حياةً عاشها قبل ثلاثين عاماً فحسب. إنها لم تنكمش. ها هي تنتأ بحدّةٍ أكبر. شاهدها بأكملها، جميع الأبنية المنفصلة، كمنجزات صنعها الرجال، أبدعها العديد من الرجال في أزمنةٍ مختلفةٍ. لم تكن هذه النظرة أمراً عادياً؛ وكان ذلك التحول في أسلوب رؤيته مثل مُعجزةٍ صغيرةٍ. إنه يدرك الآن أنه في الأيام الماضية وفي هذه الأمكنة، كانت ترافقه على الدوام ضبابية رؤيته وعدم اكتمالها، وظلام وألم في رأسه، ونمط من التوق لشيء لم يكن يعرفه في قرارة نفسه.

نزعَ عنه الآن ذلك الظلام والحمل الثقيل. استقام خالصاً من عبئه أمام الأبنية التي شادها الكثير من الرجال المختلفين. ذهب من مكان إلى آخر - الكلية الصغيرة الطنانة بقناطرها التي تحاكي الأسلوب القوطي بسخرية، ومنعطفات نوتنغ هيل المُخيفة، والشارع الذي فيه ملهى صغير شمال شارع أوكسفورد، والشارع الفرعي الصغير بجانب ماربل أرش حيث يقع منزل روجر - في كل مكان يرى المعجزة الصغيرة تتحقق، ويشعر أن الاضطهاد يُرْفَعُ عنه، وأن ذاته تُخلق من جديد. لم يكن يملك أدنى فكرةٍ من قبل - أبداً ومنذ طفولته - عما سيصبح عليه. شعرَ الآن وكأنه مُنح فكرةً معينةً، مُحيرة ويستحيل الإمساك بها، ومع ذلك فهي فكرة حقيقية. ما كان جوهرياً هو أنه ما يزال جاهلاً، رغم وجوده الطويل في هذا العالم. كل ما كان يعرفه في تلك اللحظة هو أنه طليق - في شتى الطرق - ولديه طاقة جديدة. شخص بعيد الاحتمال إلى درجة كبيرة، شديد الاختلاف عن الإنسان الذي كان قد شعر بنفسه أنه هو إن كان في الوطن، أو لندن، أو خلال الثمانية عشر عاماً من الزواج في إفريقيا. كيف يمكنني خدمة هذا الإنسان؟ سأل نفسه فيما هو يتجول في شوارع لندن التي عرفها يوماً. لم يكن ليعثر على أية إجابة. وتركَ هذه المسألة تستقر فيما وراء عقله.

كانت شوارع مركز المدينة شديدة الازدحام، إلى درجة يكون معها السير على الأقدام أمراً شاقاً. كان السُمْرُ واليابانيون وآخرون يشبهون العرب في كل مكان. فكّر: «يوجد اليوم خبيصة كبيرة في العالم. إنها ليست لندن التي أقمتُ فيها منذ ثلاثين عاماً خلت». شعر بارتياح عارم. فكّر: «لقد اهتز العالم وتزحزح بما يفوق تصوراتي. أصابتني شقيقتي ساروجيني منذ عشر سنوات في برلين بالمرض تقريباً بسبب حكاياتها عن الظلم والفاقه في بلادنا. أرسلتني للالتحاق برجال العصابات. الآن يتعين عليَّ أن لا أنضم إلى أيٍّ كان. أستطيع الاحتفاء بما أنا، أو ربما بما غدوتُ».

كان يعود من هذه المسيرات إلى المنزل الكبير في سان جونز وود إلى روجر، وفي معظم ساعات الظهيرة إلى بيرديتا.

9

العملاق في القمة

أخذ مزاجه المتسم بالحيوية النفسية بعد أسبوعين يخمد وبدأ الملل يكتنفه بسبب الروتين الذي وقع فيه. وأصبحت بيرديتا نفسها عبئاً، أصبح جسدها مألوفاً إلى درجة كبيرة. جثم الزمن بثقلٍ فوق يديه، وكان هناك القليل مما يمكنه القيام به. شاهد ما يكفي من لندن المدينة. ولم تعد طريقته الجديدة في النظر تجلب له الدهشة. لم تعد مشاهدة رؤية لندنَ ماضيهِ تسحره. إن مواصلة رؤيتها أكثر سوف ينزعها من بين ذكرياته، وبهذه الطريقة سوف يفقد أجزاء أثيرة من ذاته. أصبحت المناظر الشهيرة الآن وكأنها مجرد صُوَرٍ، مقتصرةٍ على لحظةٍ واحدةٍ، وبالكاد يمكنها أن تقدم أكثر مما تقدمه البطاقات البريدية التي تحمل صُوَرها - رغم أنه ما يزال أحياناً يجفل من منظر النهر: المشهد الفسيح مع البريق والغيوم والألوان غير المتوقعة. معرفته المحدودة في التاريخ وفن العمارة لم تساعده على التعمق أكثر في الاستقصاء؛ وكان الازدحام والأدخنة المنبعثة وحشود السياح منهكة؛ وفي المدينة العظيمة أخذ يتساءل، كم كان قد تساءل محتاراً في الأحراج وفي السجن، حول الآلية المناسبة لجعل الزمن يمر.

خرج روجر في أحد أيام نهاية الأسبوع من المنزل، ولم يعد لا في الأحد ولا الاثنين. بدا المنزل موحشاً في غيابه. وعلى نحوٍ غريبٍ، أخذت بيرديتا تشعر بهذا هي الأخرى.

قالت: «من المحتمل أن يكون برفقة عاهرته. لا تَدّعي أنك قد صُدِمت. ألم يخبرك؟»

تذكّرَ ويلي كلمات روجر حين قال له في المطار عن تجليات العمر على البشر كشكلٍ من أشكال العطب الأخلاقي. كان قد تَفَوّهَ بذلك فور لقائهما تقريباً: لا بد أنها الفكرة التي قفزت إلى عقله لحظتها، أسلوبه في تهيئة ويلي لمثل هذا الموقف.

تلقّى الخبر كمن يتلقى خبراً محزناً عظيماً. فكّر: «ينبغي عليَّ مغادرة هذا المنزل المقفر. لا يسعني العيش في المنطقة الفاصلة بين هذين الشخصين».

لم تكن سوى العادة ـ لا الحاجة ولا الإثارة ـ هي التي جعلته يصعد ببيرديتا إلى الغرفة ذات الإيحاءات البحرية ونسائم البحر. كل حدث ومناسبة كان يشد من عزمه على الرحيل.

عاد روجر خلال الأسبوع. في ذات مساء نزل ويلي لتناول المشروب بصحبته.

قال له: «إنني أنتظر وأنتظر تذوق الويسكي والتلذذ به بالطريقة التي تلذذت به في مسائي الأول ذاك. وافرٌ وعذبٌ وعميقٌ لكأنه مشروب طفل».

قال روجر: «إذا أردت تكرار تلك التجربة عليك الذهاب إلى الأدغال والبقاء عدة سنوات فيها ثم الذهاب للسجن لبعض الوقت. يوم تتعرض لكسرٍ في ساقك أو كاحلك وتبقى في الجبصين لعدة أسابيع، سوف تتعرف على إحساس رائع لحظة إزالة الجبصين ومحاولتك الوقوف. تكون لحظة غياب هذا الشعور، على مدى الدقائق الأولى، فاتنة تماماً. وسرعان ما تفقده. للحال تأخذ العضلات في ترميم نفسها والتحرك بهدوء. وإذا ما أردت حيازة ذلك الإحساس ثانية فسوف يكون عليك كسر كاحلك أو ساقك مرة أخرى».

قال ويلي: «كنت أفكر. لقد غمرتماني أنت وبيرديتا بلطافة شديدة. ومع ذلك أظن الآن أنني يجب أن أغادر».

«هل تعرف مكاناً تذهب إليه؟»

«لا وآمل في مساعدتك للعثور على مكان ما».

«بالتأكيد سأفعل في الوقت المناسب. غير أن المسألة ليست فقط في إيجاد المكان. أنت بحاجة للمال والعمل. هل أديت يوماً أي عمل؟»

«لقد شغلني التفكير في هذا الأمر طوال الأيام القليلة الماضية. لم أمارس أي عمل في حياتي. أبي لم يمارس أي عمل البتة. وشقيقتي لم تزاول أي عمل حقيقي على الإطلاق. أمضينا جل وقتنا ونحن نفكر في اليد الشريرة التي عاملتنا، ولم نكن فعلياً نهيئ أنفسنا للقيام بأي شيء. أظن أن هذا جزء من حالتنا. عاجزون عن التفكير سوى في التمرد، الآن حين تستفسر مني عما يمكنني القيام به فإنني عاجز عن إجابتك إلّا بالصمت. لو كان لأبي أو لعم أمي مهارة في عمل حقيقي، عندئذ يمكنك أن تفترض امتلاكي أنا لهذه المهارة. لم أفكر طوال بقائي في إفريقيا أبداً في اكتساب مهارةٍ أو تعلم مهنةٍ معينة».

«لست الوحيد يا ويلي. هناك المئات من الآلاف حالهم مثل حالك هنا. يمنحهم مجتمع هذه البلاد نموذجاً من التنكر. منذ نحو عشرين عاماً صادف لي التعرف على أمريكي أسود. كان اهتمامه منصباً على مسألة **ديغاز**، وكان جاداً على الدوام في موضوعه، ولذا فقد اعتقدت أنه سيتعامل مع هذا الموضوع بشكل محترف. غير أنه قال لا، إن حركة الحقوق المدنية أشد أهمية من **ديغاز**. عندما يتم تحقيق النصر في تلك المعركة سيكون قادراً على التفكير في مسألة **ديغاز**. نصحته أن أي عمل يقوم به في مسألة **ديغاز** سيكون في النهاية خدمة لهدفه على قدم المساواة مع أي نشاط سياسي. لكنه لم يكن يرى ذلك».

قال ويلي: «لقد تبدلت الأمور الآن في الهند. إن أي شخص يكون في سن أبي أثناء شبابه يتعين عليه بشكل أوتوماتيكي التفكير في مهنةٍ معينةٍ، وأنا، من بعده، عليَّ التفكير في مهنة ما أيضاً. إنه نمط التغير الذي هو أعمق بمئات المرات من أي نشاط يقوده رجال حرب العصابات».

«ولكن عليك أن لا تكون كثير الرومانسية فيما يتعلق بالعمل. في الواقع إن العمل أمر رهيب. ما عليك إلّا أن تركب الباص المتوجه نحو فيكتوريا. خذ مقعدك في الطابق الثاني في الباص ثم انظر إلى المكاتب التي تمر بها، ركِّزْ أكثر على المكاتب المجاورة لماربل آرش وغروسفينور غاردنز، وتخيل نفسك فيها. لم يبحث فلاسفة الإغريق في مسألة العمل بتاتاً. كان لديهم العبيد. اليوم نحن جميعاً عبيد أنفسنا».

استقلَّ ويلي في اليوم التالي، متبطلاً، الباص رقم ستة عشر ونفّذَ ما اقترحه عليه روجر. شاهد مكاتب فيها مصابيح فلوريسانت واطئة في مايدافال، وبارك لان، وغروسفينور لان، وغروسفينور غاردنز. كانت تلك طريقة أخرى من النظر إلى الأسماء الجميلة للشوارع المهمة في المدينة العظيمة، فانقبض قلبه.

فكّر: «ثمة عمل، ثم عمل. عمل وظيفي، مطلب أو تحقيق ذات لأحدهم، يمكن أن يكون نبيلاً. لكن ما أراه الآن أمر رهيب».

قال لروجر عندما التقاه: «إذا سمحت لي بالبقاء هنا لبعض الوقت سأكون ممتناً لك. عليَّ التفكير في مجمل الأمور. أنت على حق. أشكرك لإنقاذك إياي من نفسي».

سألته بيرديتا عندما دخلت إلى غرفته في الصباح التالي: «هل أخبرك عن عاهرته؟».

«لقد تحادثنا في شؤون أخرى».

«أتساءل إن كان سيفعل هذا يوماً. إن روجر شديد التكتم».

* * *

قال روجر لويلي في أحد الأيام: «لقد حمّلني صديقي المصرفي دعوة لك في نهاية الأسبوع».

«صاحب حكاية روب الحمام؟».

«أخبرته القليل عنك، وقد أثاره أمْركَ. قال لي: «هل هو من المجلس الأعلى؟» إنه من ذلك النمط من البشر اللذين يلمّون بكل شيء ويعرفون الجميع. من يدري قد يمكنه تقديم اقتراح ما لك. هذا واحد من أسرار نجاحه. إنه على الدوام حاضر للانتباه للأشخاص الجدد. بهذه الطريقة يمكنك القول إنه ليس مبتكراً. وبطريقة أخرى، بالطبع، هو مبتكر فوق الخيال».

قال روجر قبل يومين من توجههما لتلبية دعوة نهاية الأسبوع: «أظن أن عليَّ إخبارك. إنهم سوف يُفَتِّشونك».

قال ويلي: «يبدو الأمر شبيهاً بما يحدث في السجن. هناك تتعرض للتفتيش على الدوام».

«يأخذون حقيبتك، وعندما تصعد إلى غرفتك تجد أن واحداً من أولئك الرجال ذوي السراويل المهترئة قد رفع جميع ملابسك وحاجياتك ونشرها حوله في أماكن متفرقة ومناسبة. يفترض بك معرفة مكانها. بحيث لن يكون لديك أسرار تخفيها عن المجموعة. قد يصيبك هذا بذهول شديد. وفي المرة الأولى التي يحدث فيها يكون مخجلاً على نحو فظيع. كثيراً ما فكرت برد الإهانة لهم من خلال حشو حقيبة الصوف البالية بالأسمال ومزق القماش الخالصة. غير أني لم افعل. كان الخوف ينتابني في اللحظة الأخيرة. لا يمكنني التوقف عن التفكير في ذلك التدقيق في الجهة الأخرى من قبل الخدم، هؤلاء الذين هم تقنياً أدنى مرتبة من الإنسان العادي، تراني ألملم الأشياء بحرص وحتى بطريقة استخفافية وافتضاحية. ومع ذلك فأنت قادر على هذا. يمكنك محاولة إهانتهم فأنت غريب، وبالنسبة لهم ليس بذي أهمية ما تفعله. ليسوا كُثُراً أولئك الذين يعرفون بوجود هذا النموذج من الخدم في المنازل هذه الأيام. إنهم يدركون أن هذه فكرتك، ولذا فهم يرتدون زياً مميزاً. لا يمنحني تعاملي معهم الراحة. أجدهم فاسدين إلى حد ما. أفترض أنهم كانوا فاسدين على الدوام، خدم المنزل البديع هؤلاء. إنهم يسببون الإرباك للجميع هذه الأيام، أظن أنهم يتظاهرون، كما يفعل كبيرهم وسيدهم خارجاً، إنهم ليسوا

خارجين عن المألوف. يحلو لصديقي المصرفي الادعاء أحياناً أن كل إنسان عظيم له خدمه».

عندما كانا في يوم الجمعة (ومعهما الحقائب) متوجهين في التاكسي إلى محطة سكة الحديد قال روجر: «في الواقع، بسبب بيرديتا انغمستُ في هذا الرقص المرح مع المصرفي. كنت راغباً في التأثير فيها. وأن أجعلها ترى أنني أعرف شخصاً يملك منزلاً أكبر بعشر مرات من المنزل الكبير لعشيقها، أتصدق هذا. لم أكن أريدها أن تتخلى عن حبيبها. بعيداً عن ذلك. أردت فقط أن أعطيها فكرةً عن مكانته في نظام تراتبية الأشياء. أردتها أن تشعر ولو بقليلٍ من الازدراء. أي بؤسٍ هو ذلك بالنسبة لي».

ثم قال روجر لدى وصولهما محطة القطار: «عادة أشتري تذكرة الدرجة الأولى في مثل هذه المناسبات. لكنني أظن في هذه المرة سأمضي وأشتري تذكرة الدرجة الثانية». رفع ذقنه كما ليعبر عن عزمه.

وقف ويلي في الرتل معه. وحين جاء دوره طلب روجر بطاقتي الدرجة الأولى.

قال لويلي: «لم أتمكن من ذلك. أحياناً قد تصادفهم على الرصيف. أستطيع القول الآن إنه سلوك أحمق، لا علاقة له بالتقاليد القديمة التي أنا حقاً لا آبه لها. ولكن لدى بلوغي اللحظة الحاسمة لا أظن أنني أمتلك الجرأة على مجيئي في عربة الدرجة الثانية تحت أنظار أولئك الخدم المريعين. أكره نفسي بسبب هذا».

كانا الوحيدين في عربة الدرجة الأولى. وهذا كان، على نحو غريب، مبعثاً لخيبة الأمل (طالما ليس ثمة شاهد). دخل روجر في الصمت. أخذ ويلي يفتش عن كلمات يقولها ليكسر الجو المعتكر، لكن أية فكرة تخطر له كانت تبدو وكأنها تشير بطريقة أو بأخرى إلى رحلتهما الباهظة. بعد عدة دقائق قال روجر: «أنا جبان. غير أني أعرف نفسي. لا شيء مما أفعله يمكنه بحق أن يثير استغرابي».

وعندما وصلا المحطة لم يكن هناك من أحد على الرصيف ليصادفهما. كان الرجل (يرتدي الطقم من دون قبعة) في سيارةٍ بحجم عادي في مرآب المحطة، ينتظر العثور عليه. في هذه الأثناء ائتلق مزاج روجر وأصبح قادراً على التعاطي مع السائق، في أسلوب تقليدي مبالغ فيه واستخفافي.

كان مضيفهم في انتظارهم عند أسفل درجات المنزل الكبير. يرتدي زياً رياضياً ويلهو بإحدى يديه بما بدا لويلي (الجاهل كل الجهل للغولف ومعداتها) مثل ضرسٍ مقتلعٍ كبير وأبيض اللون. كان رجلاً صارماً وقوي البنية، وفي لحظة اللقاء أخذ، كل من جهده وجهد ويلي وروجر والخادم ببنطاله المقلّم وساقيه الممتلئتين الذي كان ينحدر على الدرج، ينصبُّ في انهماك ليدَّعي أن هذا الشكل من الاستقبال أمام هذا الصنف من المنازل هو استقبال مألوف كلياً للجميع.

أما بالنسبة لويلي فهو زيفٌ خالصٌ، أو واقع من العسير استيعابه، محجوب خلف هذه اللحظة. شعورٌ مُشابه لما كان يشعر به في الأحراج وفي السجن، وحالة من التجرّد عن كل ما حوله. انفصل عن روجر بطريقة لم يستطع إعادة برمجتها، وبإذعان تام، كما في السجن، من دون تدقيق النظر في أي شيء، تبع أحد الخدم صاعداً إلى غرفته. كانت النافذة تطل على عدة أكرات من الأرض. تساءل ويلي إن كان عليه النزول والتنزه سائراً في هذه الأرض أم أنَّ عليه البقاء والاختباء في الغرفة. كانت فكرة النزول والاستفسار عن الطريق المؤدي إلى الأرض فكرة ثقيلة الوطأة. لذا قرّر الاختباء. كان هناك فوق الزجاج الواقي على طاولة الماكياج كتابٌ ذو تجليد قاسٍ. طبعةٌ قديمةٌ من كتاب «أصل الأنواع». كان الخط الطباعي الفيكتوري غير المقروء (بدت الأحرف باهتة بفعل مرور الزمن) رهيباً، وكذلك رائحة الورق العتيق وحبر الطباعة القديم (وهي توقظ التداعيات الكئيبة لأماكن وعمّال طباعة ذلك العصر) اللذين قد يكونان هما من تسبب في تجعّد الورق.

أخذ ذو البنطال المقلّم (لعله قادم من شرق أوروبا) بالقيام بالتفتيش

الشهير. ولكن بما أنه كان من شرق أوروبا، فلم يكن ويلي قلقاً بالقدر الذي توقعه روجر.

شاهد ويلي وهو جالس على طاولة الماكياج، يقلب في صفحات كتاب «أصل الأنواع» فيما الآخر يتابع إخراج الأشياء، وفيما هو يفتح على صفحات الصور الإيضاحية، شاهد مزهريةً مجدولةً من فروع شجرة رفيعة أو هو وعاء فيه أقلام حادة بلون خشب الأرز. كانت شبيهة بتلك الموجودة في غرفته الصغيرة في منزل روجر. ثم شاهد كرة صغيرة من الكريستال، صلبة وثقيلة الوزن، عليها خطوط حلقية منتظمة ومخدّدة من الأعلى إلى الأسفل وكانت أيضاً شبيهةً بذلك الشيء في منزل روجر. إذن جاء أساس الفكرة من هنا ـ حيث أحضر روجر تلك الأشياء، وهو يتصرف على نحو غير متوقع، لها لكي يؤثر فيها بالأبهة التي لم تكن له. بذات الأسلوب الذي قد يقوم فيه شخص فقير بأخذ أحد الزوار لكي يريه المنازل الكبيرة لمدينته ـ إذن كان أساس الفكرة من هنا (وربما من أماكن أخرى على حد سواء، بل ربما من أماكن كانت رأتها أو عرفتها في صِباها) حيث اكتسبت بيرديتا بعضاً من أفكارها حول ترتيب الغرفة، مُركّزةً على ما هو صغير أو ثانوي ومُتاح. اجتاحت ويلي موجة عارمة من التعاطف معها، وشعر (مستسلماً لمكنونات أعماقه) بالغمِّ في الوقت ذات نتيجة الجو الحميمي الذي أثارته العتمة فيه حيث كان جميع البقية خارجين للتنزه.

توجّه بعد قليل إلى الحمام. كان أنشىء داخل الغرفة الأقدم وكان الحاجز رقيقاً. ورق الجدران كان مُصمماً بعروق مرسومة عليه، إن فروع الكرمة الخضراء التي تشغل كامل الجدار تقريباً توحي برحابة اتساع هائلة. واحد من الجدران كان خالياً من الورق، بلا أي من إيحاءات الاتساع، لا شيء عليه سوى صفحات من مجلة مُصورةٍ تدعى الغرافيك، طُبِعت الأعمدة الباهتة بإحكام في أسلوبٍ فيكتوريٍّ. تقطعها الرسومات الخطية عن الأحداث والأماكن حولَ العالم بأسره. كانت هذه الصفحات تعود لأعوام الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر (1860s و 1870s). أرسل الفنان أو المرسل

(ولعلهما الشخص نفسه) نسخته أو مسوداته في القارب؛ في مكتب المجلة سيقوم الفنان المحترف بتعديل الرسومات، بإضافات عائدة لميوله هو؛ أما هذه الرسومات، نواتج المؤسسة الصحفية المتقدمة والموضحة لأحداث الإمبراطورية والأماكن الأخرى أمام الجمهور المهتم، فيتم إعادة رسمها أسبوعاً تلو أسبوع تبعاً للمزاج الأفضل لليوم.

كانت هذه بالنسبة لويلي وكأنها إلهام. بدا الماضي في هذه الأوراق الملصقة على الجدار وكأنه هنا للتو، ماثل؛ باستطاعته الوصول إليه ولمسه. قرأ عن الهند بعد التمرد، وعن بدء الحرب التي اندلعت في إفريقيا، وجنرال الصين، والولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية، واضطرابات جامايكا وايرلندا. قرأ عن اكتشاف منابع النيل؛ وعن الملكة فيكتوريا كما لو أنها ما تزال على قيد الحياة. أخذ يقرأ إلى أن تلاشى الضوء. لم يكن سهلاً قراءة الطباعة الصغيرة تحت الضوء الكهربائي المتكاسل.

ثمة طرقٌ على الباب. كان هذا روجر. جاء بعد دخوله في محادثة عمل مع المصرفي وبدا مكفهرَّ الوجه.

شاهد الكتاب على طاولة الماكياج وقال: «ما هذا الكتاب؟». تناوله عن الطاولة ثم أردف: «إنها الطبعة الأولى، أنت تعلم هذا أليس كذلك. يحلو له تركها على نحو اتفاقي أمام ضيوفه. وفيما بعد سيتم لفها ووضعها في مكان آمن بعناية شديدة. أما أنا فلديَّ هذه المرة جين *أوستين*».

قال ويلي: «كنت أقرأ الغرافيك. إنها في الحمام».

قال روجر: «إنها في حمّامي أيضاً. سوف أخبرك عن هذا. أنا مهتم، كما يقولون. في فترةٍ ما كنت أرتاد «تشارينغ كروس رود» لأطلع على ما تعرضه المكتبات. أمر ليس بمقدورك القيام به هذه الأيام، على الأقل ليس بالطريقة ذاتها. رأيت في أحد الأيام مجموعة من أعداد الغرافيك على الرصيف أمام إحدى تلك المكتبات. كان ثمنها زهيداً، جنيهان للعدد الواحد. لم أستطع تصديق حظي السعيد. وكانت الغرافيك مجلة مشهورة جداً آنذاك،

وإحدى الأسلاف المهمين للـ«إلسترايتد لندن نيوز». وجدتها في أعداد مضمومة بعضها إلى بعض بشكلٍ مرتبٍ وجميلٍ. كانت تلك هي الطريقة التي تُعرَض بها هذه الأشياء آنذاك. لست أدري إن كانت إدارة المجلة هي من قامت بهذا التحزيم، أم القائمون على المكتبات، أم هم أولئك الذين تعهدوا توزيعها. لم أتمكن أن أشتري سوى اثنتين من رزمات الغرافيك، وكنت مضطراً لركوب سيارة الأجرة. كانت حِملاً كبيراً وثقيل الوزن كما أخبرتك. في تلك الأيام تقريباً نشأت علاقتي مع صيرفيّنا هذا. كنت بدأت أفهم السطوة الهائلة لغروره الأنوي الحقيقي على كل من حوله. في الواقع كنت مُذعناً لتلك السطوة من دون أن أدري. إن من يحمل الغرور الأنوي، بالنسبة لشخصٍ حاذقٍ مثلي، مثيرٍ للشفقة بطريقةٍ ما، هو إنسان لا يرى مثل بقيتنا أن مسالك المجد لا تؤدي إلّا إلى القبر. وهذه هي الطريقة التي يتم إيقاع الشخص الحاذق بها. يبدأ بكونه مناصراً بتنازل وينتهي ليصبح تابعاً. على أية حال، بعد رؤيتي لأعداد الغرافيك مباشرةً جئت إلى هنا. سوف يواصل الرجل العظيم إغواءه لي، وفي الواقع كنت وقعت في سحره آنذاك. إنني لا أتلاعب بالكلمات. عرضَ عليَّ بعضاً من صُوَره وأخبرني كيف التقطها. وأخبرته، غير راغب في إظهار تفوقي عليه، عن امتلاكي مؤخراً لأعداد الغرافيك المحزومة. كنت أتباهى. بالطبع لم يكن يعرف شيئاً عن الغرافيك، وكنت مواصلاً إلقائي على مسامعه لكل معرفتي. ولكوني كنت أتبجح فيما يخص الغرافيك، فكّرتُ عند عودتي أدراجي إلى لندن، أنه عليَّ الذهاب والحصول على المزيد من أعداد الغرافيك. وهذه المرة لم أجد شيئاً. كان صديقنا أرسل سيارته الكبيرة وحمّلها بالكثير منها. تلك كانت فكرة زوجته، إلصاق الأوراق على جدران المراحيض. يوم يُعاد ترميم المكان، أو يُباع ليتحول إلى فندق أو شيء من هذا القبيل، سوف ترتد جميع هذه الصفحات لتصبح عبارة عن كومة من نفايات البنّاء».

«هل تظن أنه سيصبح فندقاً؟».

«أو ما شابه. لا طاقة للناس العاديين للإقامة في مكانٍ كهذا. لا بد أنه

سيلزمك عدد كبير من الخدم. تمَّ تشييد هذا النمط من المنازل في عصرِ كثرة الخدم. خمسة عشر حدائقياً، ومن عشر إلى عشرين خادمة غرفة. وهؤلاء لا وجود لهم في هذه الأيام. بشرٌ للخدمة، كما يُطلق عليهم. في دفعة واحدة أصبحوا جزءاً كبيراً من السكان».

سأله ويلي: «ما الذي حدث لهم؟».

«سؤال رائع. أفترض أن إجابة أحدهم ستكون [اختفوا]. غير أن هذا ليس هو ما قصدته أنتَ. إنني أعرف ما الذي ترمي إليه بالضبط من استفسارك هذا. إذا سألنا عن هذا بتواتر أكبر سوف نتمكن من معرفة نوع المدينة التي نعيش فيها. أدركُ الآن أنني لم أسمع البتة من يطرح هذا السؤال».

قال ويلي: «إنها المسألة الأشد أهمية هذه الأيام في أجزاء واسعة من الهند. ما اصطُلِح على دعوته بخض وخلط الطوائف. أظن أنها مسألة تفوق في أهميتها المسألة الدينية. ترتقي مجموعات من الطبقة الوسطى السُّلَّم، ويتم امتصاص مجموعات معينة ممن هم في القمة من قبل الأدنى. كانت حرب العصابات التي مضيت فيها انعكاساً لهذا التحول. مجرد انعكاس لا أكثر. قريباً ستقدم الهند للعالم وجهاً لا يمكن إدراك كنهه. لن تعود بلداً لطيفاً ولن تحبها الشعوب الأخرى».

لاحقاً هبطا لتناول المشروب والطعام. هذا لم يكن مسألة شكلية. لم تكن زوجة المصرفي حاضرة. والضيف الآخر الوحيد كان صاحب صالة عرض للتصوير. وإضافة إلى جميع مزاياه الأخرى، كان المصرفي رساماً، ويرغب في إقامة معرض في لندن. كان أخبر ويلي وروجر، حين كان يُعلِمهم برفيقهم ضيف الغداء: «أفكر أنه سيكون من الأجدى أن أطلب منه في البداية مناقشة الأمور. هؤلاء البشر يحبّون الشكليات القليلة». استخدمَ هذه الجملة الأخيرة لكي يتملّق كلّاً من ويلي وروجر ويغريهم للدخول في مؤامرته التي يحيكها ضد رجل صالة المعارض.

كان صاحب الصالة يرتدي ثياباً رسمية مثل روجر. يداه حمراوان وضخمتان، كما لو أنه يحمل وينقل اللوحات ذات الإطارات الكبيرة طوال النهار.

لعبت بقع الضوء في سقف الغرفة الكبيرة على ثلاث لوحات من رسم المصرفي. بدأ ويلي يستوعب ما قاله روجر حول السطوة التي يلقيها الغرور الأنوي الحقيقي. كان مُتاحاً لويلي وروجر ورجل الصالة القول إن اللوحات التي أضاءها المصرفي كانت أعمالاً فنية من المستوى الثاني، لا تتعدى في أهميتها لوحات أيام الآحاد. كان باستطاعتهم التعامل معه بقسوة وصراحة تامة. غير أن الرجل قدَّم نفسه بطريقة غاية في البراءة، لذا لم يكن أحد من الحاضرين راغباً في جرحه.

كان صاحب الصالة يكابد معاناة داخلية. أياً تكن الإثارة التي شعر بها لكونه دُعي ضيفاً إلى هذا المنزل الكبير (وارتدائه للملابس الأنيقة التي تعرضت للتفتيش والتدقيق) حدثت له.

قال المصرفي: «لا يعني المال لي شيئاً. أنت تعرف هذا جيداً وأنا أكيد من فهمك لقناعتي هذه».

كان صاحب الصالة يكافح، ثم أخفق بعد حين، لكي يعترف في النهاية أنه يزاول أعمال العرض في سبيل المال وأن آخر شخص أثار اهتمامه كان رساماً لا يريد المال. تفوه بفكرتين أو ثلاث مقطوعة ومن ثم أحجم عن الكلام نهائياً.

نُحّي الموضوع جانباً. ولكن ما يكفي من السطوة والأنا انطرحت أمام ويلي (بقع الضوء ماضية في التلاعب على لوحات المصرفي) لكي يفهم، بعد الشحنة الفنية الكبيرة، أن أي اتفاق سيُعقد مع رجل الصالة سيكون بعيداً عن العيون وبشكل شخصي بينهما هما الاثنين.

قال المصرفي لويلي: «هل تعرف مهراجا الماخيناجار؟» لم يدع لويلي

فرصة الرد: «جاء للإقامة والاستقرار هنا. كان ذلك مباشرة بعد إنكار السيدة غاندي معرفتها بالأمراء ومصادرة ثرواتهم الشخصية. لا بد أن هذا حدث في العام 1971. كان شاباً يافعاً، تائهاً في لندن، ومُحطماً حتى النهاية بسبب ضياع ثروته. فكرتُ في وجوب قيامي بشيء من أجله. كان والدي على معرفةٍ بجده. كان الشاب مايزال مستمراً، بشكل عفوي بما فيه الكفاية، وفي ظل جميع التغيرات التي عصفت بالهند، إلى حد بعيد في جلاله ووقاره عندما جاء إلى هنا. لم يكترث أحدٌ بهذا، لكنني لا أظن أنه كان يقدر أولئك الذين قرّبتهم منه وجمعتهم لمساعدته. لو أراد لفُتحت الكثير من الأبواب أمامه. لكن الاهتمام لم يبد عليه. تراهم يسلكون على هذا النحو، ثم يغادرون وهم يتحدثون عن عوزهم للاحترام في سائر هذه البلاد. في لندن دعوته لتناول الطعام في كورنركلوب. هل تعرف الكورنر؟ إنه أصغر من تورف كلوب، وحتى هو أكثر اقتصاراً على البعض، إن كان باستطاعتنا تخيل الأمر على هذه الشاكلة. غرفة الطعام شديدة الصغر. لا يسمى الكورنر بالكورنر عبثاً. ارتفعت الحواجب لدى رؤيتهم للشاب ماخيناجار، أكره أن أخبرك بهذا. لكن أخبارهُ انقطعت بعد ذلك عني نهائياً. بعد قرابة خمسة عشر عاماً سافرتُ إلى دلهي. في إحدى المناسبات العظيمة عندما كانت تسري الإشاعات حول تحرير الاقتصاد. تمكنت آنذاك من إيجاد ماخيناجار عن طريق دليل الهاتف. كان حينها فرداً في منزلٍ هنديٍّ للطبقة العليا، وكان يمتلك منزلاً في دلهي. دعاني ذات مساء للذهاب إليه. ومثل درع حماية للمنزل، كان هناك على البوابة حراس وجنود وأكياس رمل، وفي الداخل رجال مسلحون بالبنادق. ورغم كل هذا الوضع، بدا ماخيناجار مسترخياً تماماً. قال لي: «بيتر، كان ذلك مطعماً صغيراً وشائقاً لتناول الطعام فيه ذاك الذي ذهبنا إليه في آخر مرة». هذا ما قصدتهُ حول الهنود. «... مطعماً صغيراً وشائقاً لتناول الطعام ...». الكورنر! تنأى بنفسك خارج المكان، وهذا ما يبقى في جعبتك».

بقي ويلي صامتاً. نَدّتْ عن رجل الصالة ابتسامةٌ صغيرةٌ، كمن يستمتع الآن بإتاحة المجال له بهذا النوع من الأحاديث حول أمر عظيم؛ لكن روجر كان صامتاً وبدا كأنه يعاني.

كان المزيد من الضيوف سيصلون في اليوم التالي. لم يكن ويلي متشوقاً لهذا الوضع. وكان يتساءل عن السبب. فكّر: «إنه الغرور. لا يمكنني التعاطي ببساطة وتلقائية إلّا مع أولئك الذين يحملون فكرة ما عمّن أكون. أم لعله تأثير المنزل وحسب. إنه يستوعب الكثير من الناس. وأنا متأكد أنه يجعلهم مختلفين. ومن المؤكد أنه غيّر المصرفي أيضاً. بدّلني المنزل ومنعني من الرؤية الواضحة للأشياء لدى وصولي».

التقى في الصباح بعد الإفطار (الذي هبط لتناوله) بزوجة المصرفي. حيّته من قبلِ أن يفعل، سائرةً باتجاهه وباسطةً كفها كما في الترحيب الأشد اكتمالاً، امرأة ما تزال شابة ذات شعر طويل وكثيف وأرداف ممتلئة. عرّفت عن نفسها قبل أن تضيف، بصوت له نغم عذب: «أنا زوجة بيتر». أكتافها ضيقة، وصدرها ضيق وجذاب: إنسانة طبيعية إلى أقصى درجة، فكّر ويلي. تلك اللحظة كانت هي اللحظة الأكثر لطافة في كل ما يتعلق بها. لا شيء عدا ابتسامتها وصوتها.

فكّر ويلي: «عليَّ استنتاج السبب في أنني، مثلي مثل المهراجا في الكورنر كلوب، لا أشعر بالراحة وسط هؤلاء البشر. لم يشعر المهراجا بالترحيب وسدد الدين بعد خمسة عشر عاماً. ليس هذا ما أشعر به. لا أشعر بافتقادي للترحيب. لا بل أشعر أن جميع القادمين سيكونون شديدي الاستعداد والشغف للقاء ضيف المصرفي. ما يخالجني هو أنه بالنسبة لي ليس هناك من طائل من ذهابي إلى أبعد من ذلك في حيثيات هذه المناسبة. ليست بي رغبة في استغلال أي كان ولا لأن يستغلني أي كان. وهذا غير عائد لاعتقادي أنهم ماديون. ليس هناك على وجه الأرض من هو أكثر مادية من الثري الهندي. غير أني تغيرت في الأحراج وفي السجن. لا يمكنك الخوض

في ذلك النمط من الحياة من دون أن تتغير. عزلتُ ذاتي المادية. اضطررتُ لذلك لكي أنجو وأحيا. أشعر أن هؤلاء لا يعرفون الجانب الآخر للأمور». جاءته الكلمات على هذه الحالة وحسب. فكّر: «لا بد أن للكلمات دلالة ما. عليَّ حساب واستنتاج ما تعنيه الكلمات. هؤلاء البشر في هذا المكان لا يعرفون معنى البطلان. البطلان الجسدي لما واجهته في الأحراج. والبطلان الروحي الذي يرافقه جنباً إلى جنب، وكان شديد التماثل مع الذي عايشه أبي المسكين طوال حياته. كنت شعرت بهذا البطلان في عظامي وأستطيع استرجاعه والعودة إليه متى أشاء. إذا لم نتمكن من فهم الجانب الآخر من البشر، الهنود، اليابانيين، الأفارقة، فإننا عاجزون عن فهمهم بشكل حقيقي».

كان المصرفي تحدث في الأعمال مع روجر، وهو يلعب بكرة الغولف وبالسلسلة. وعندما خرجا من المكان الذي كانا فيه أخذ المصرفي كلّاً من ويلي وروجر ورجل الصالة وأحد الواصلين للتو في جولة قصيرة لأحد ممتلكاته. كان عاد من رحلةٍ عالميةٍ زار فيها زملاء أعماله وحمل معه (كما لو أنها زيارة لرأس دولة) هدايا من الناس هناك. بعضها هي التي يعرضها في هذه الأثناء. كان يهزأ من الكثير من هذه الهدايا أمامهم. بشكل خاص أخذ يهزأ من مزهرية خزفية طويلة زرقاء اللون شبه شفافة، رُسِمت عليها أزهار محلّية بخطوط غير متقنة. قال المصرفي: «من المحتمل أنها صُنِعت من قبل إحدى زوجات مديري الشركات. لم يكن لديها ما تفعله في الليالي الطويلة في تلك المناطق الاستوائية». كانت المزهرية ضيقة عند القاعدة، وواسعة جداً عند قمتها، تتقلقل وتتأرجح عند أقل لمسة أصبع. كان عليها بعض التشققات وكسر منحرف طويل؛ انكسرت قطعة من الخزف وانفصلت عنها.

قال روجر، متحدثاً بسخط غير معتاد، لعله ناتج عن أمرٍ حدث أثناء تداوله في الأعمال مع المصرفي، وبلهجة استفزازية: «أظن أنها جميلة إلى حد ما».

أجاب المصرفي: «هي لك. سوف أهديك إياها».

قال روجر: «سوف تسبب لي ورطة كبيرة».

«لا مشكلة على الإطلاق. سأطلب من الخدم لفّها بشكل جيد ومرافقتك حتى القطار. إنني متأكد أن بيرديتا سوف تجد لها استعمالاً ما».

وذلك ما كان في ظهيرة اليوم التالي. وهكذا، في النهاية، وجدت بطاقة الدرجة الأولى التي اشتروها طريقها لأن تكون مُستخدمة في الغاية التي قُصدت منها، كان روجر يحتفظ في أعماقه بالنموذج الأشد رعباً للعار. لكنه من جديد، عندما حان وقت دفع البقشيش، فَقَدَ تماسكه وأعطى للخادم عشرة جنيهات بقشيشاً.

قال لويلي: «كنت طوال الطريق في السيارة أفكّر في مسألة البقشيش. لأن أي مبلغ إضافي مرتبط بهذه المزهرية البغيضة. ثم استقريتُ على مبلغ خمسة جنيهات، لكنني في اللحظة الأخيرة غيرت رأيي. كل ذلك بسبب تأثير «أنا» ذلك الرجل. سمحت له بإهانتي بإعطائي هذه المزهرية، ومن ثم حاولت إيجاد الأعذار له. أظن، «إنه مثل طفل لا يعرف العالم الواقعي»، ذات يوم سيقوم أحد الذين ليس لديهم ما يخسرونه بتوجيه الإهانة له بطريقةٍ أكثر عمقاً، عندئذٍ سينكسر السحر. ولكن حتى ذلك الحين، ثمّة بالنسبة لأمثالي شحنة كهربائية تحيطُ بذلك الإنسان».

سأله ويلي: «هل تعتقد أنه أنت من سيكيل له الإهانة بتلك الطريقة العميقة حين يأتي الأوان؟».

«ليس الآن فأنا لدي الكثير لأخسره. إنني أعتمد عليه كلياً. ومع ذلك، في النهاية، أجل. عندما كان أبي في المشفى كانت هيئته تغيَّرت تماماً. شرع ذلك الرجل شديد التهذيب واللباقة بإهانة كل من يزوره؛ أمي وأخي. أهان جميع زملائه في العمل بكلماتٍ قذرةٍ فعلاً. وكان يتفوه بكل ما يدور في خلده عن أيٍّ كان. لم يحتفظ بأية فكرة في داخله. منحه دنو الموت منه القدرة على الجهر. أخمّن أنك ستقول إنه بالنسبة لأبي كان الموت هو الحالة

الأكثر سعادة وحقيقية. غير أني لا أريد الموت بتلك الطريقة. أود الموت بأسلوب آخر. مثل *فان* غوخ، بحسب ما قرأت عنه. وأنا أدخن الغليون بسلام متصالحاً مع جميع البشر والأشياء، لا أحمل الكره لأيٍّ كان. لكن *فان* غوخ وُلِد ليكون رومانسياً. كان لديه فنّه وموهبته. أما أبي فكان فاقداً لكل هذا، وأنا لا أمتلك هذه الميزات، قلائل جداً منا نحن البشر يملكون شيئاً، والآن وأنا أستعيد مشهد النهاية أجد نفسي أفكر أن أبي كان لديه شيء ما. شيء جعل من الموت أمراً شيقاً».

قال روجر لبيرديتا عندما عادا إلى منزل سان جونز وود: «لقد أرسل لك بيتر هدية».

كانت مستثارة، وبدأت فوراً تحل غلاف المزهرية الطويلة، ذا المظهر الأخرق، الذي لفّه الخادم بلا مهارة ولا مبالاة (كمٌّ هائل من الشريط اللاصق).

قالت: «إنها قطعة متقنة وقيّمة. عليَّ الكتابة لبيتر لأشكره. عندي مكان لها. ويجب أن لا يظهر الصدع».

كانت المزهرية على مدى أيام قليلة حيث وضعتها، غير أنها اختفت لاحقاً ولم يتم التطرق لها بالحديث فيما بعد أبداً.

* * *

بعد أسبوع أو نحوه قال روجر لويلي: «لقد سددتَ ضربة قوية لبيتر. هل تعرف هذا؟».

قال ويلي: «أتساءل كيف هذا. إنني بالكاد تحدثت إليه. كنتُ منصتاً وحسب».

«هذا هو السبب ربما. لدى بيتر حكاية حول أنديرا غاندي. لم يكن أبداً يعتقد الكثير فيما يتعلق بها. لم يكن يظن أنها متعلمة أو تعرف الكثير عن بقية العالم. كان يعتقد أنها امرأة مخادعة. في عام 1971، زمن قضية بنغلاديش،

توجه إلى دلهي وسعى للقائها. كان يحمل خطةً معينةً بين يديه. لكنها تجاهلته. جلس يدوّر إبهامي يديه في الفندق على مدى أسبوع كامل. كان مغتاظاً. وفي النهاية التقى أحد المقربين من أنديرا غاندي. وقام بسؤال ذلك الشخص: «كيف تحكم السيدة على الناس؟». أجابه الرجل: «إن طريقتها بسيطة. تنتظرُ طوال الوقت ما يريده الزائر». تلقّف بيتر الفكرة بلا شك. وجلس يحسب طوال الوقت ما تريده هي منه، وأنت لم تتفوه بأية كلمة».

قال ويلي: «لم أكن أريد منه أي شيء».

«وهذا ما خلّفَ أكبر الأثر فيه. لاحقاً حدثني عنك، فأخبرته جزءاً من حكاياتك. النتيجة كانت أنه جعل منك عرضاً. لديه أعمال مع بعض شركات البناء الكبرى. وهم يُصدرون مجلة خاصة تُعنَى بالمباني العصرية. إنها علاقات عامة رفيعة المستوى. من الواضح أنهم يبيعون لأية شركة أو منتج. يظن بيتر أنك قد ترغب في العمل لحسابهم، إن كان لمدة وجيزة أو مديدة. هذا يتوقف على ما تريده أنت. إنه عرضٌ حقيقيٌ تماماً، لا بد لي من تأكيد هذا. إن بيتر الآن في أحسن حالاته وهو شديد الإعجاب والزهو بمجلته».

قال ويلي: «لا أعرف شيئاً عن فن العمارة».

وهنا أدرك روجر اهتمام ويلي بالأمر.

قال له: «يقيمون الدورات التدريبية لأمثالك. وهي شبيهة بدورات التاريخ الفني التي تقيمها منازل المزادات العلنية».

* * *

وهكذا وجد ويلي أخيراً له عملاً في لندن. أو لنقل وجد مكاناً يذهب إليه في الصباح. أو، لنجعل كلامنا أكثر دقّةً، مُبرراً يغادر فيه سان جونز وود.

كانت مكاتب المجلة تقع في مبنى قديم في شقة أمامية صغيرة في بلومسبري.

قال روجر: «إنها شبيهةٌ بقطعةٍ خارجةٍ من الطرد المركزي».

لم يعِ ويلي ما تعنيه هذه الكلمات.

أضاف روجر: «في الماضي كانت استوديوهات هوليود تتألف من أقسامٍ بالغَثْ في تحضير أماكن تصوير المناطق الأجنبية. أقسام كبيرة وغارقة في الكليشيه بحيث يعرف الناس أين هم. إذا قصدهم شخصاً ما - ليقيم الكريسماس كارول، على سبيل المثال - وسألهم عن المكتب الديكنزي في المبنى الديكنزي سوف يقومون ببناء شيء شبيه بأبنيتكم ثم يغلفونه بالضباب».

لم يكن بعيداً جداً عن المتحف البريطاني - قصر بواجهة أمامية كبيرة وأعمدة وقوصرة وأسيجة حديدية طويلة سوداء وناتئة. ولم يكن ببعيد عن مبنى ترادز يونيون كونغرس، متراصّ مباشرة على الشارع، من بللور وأسمنت في قطع مستطيلة الشكل، مع تمثال كابولي غريب من البرونز مُعلّق ويطير فوق المدخل، يمثل التهديد العمالي أو الانتصار العمالي، أو لعله مجرد تمثيل لحالة العمل بحدٍّ ذاتها أو لمفهوم العمل، أو ربما من جديد يمثِّلُ بشكلٍ رئيسيٍّ صراع التمثال مع موضوعه الاجتماعي.

كان ويلي يمشي من خلف التمثال يومياً. وشعر على مدى الأسابيع القليلة الأولى، إلى أن قُيّضَ له رؤيته، أن أحداً يوبخه: كان عمله في المجلة عملاً مريحاً بالفعل، وبالكاد كان يمكن عدّه عملاً في ساعات ممتدة من النهار.

كان ذلك هو الجزء الذي عرفه ويلي منذ سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً مضت من لندن. شعر المساعدون ذات مرة بالعار؛ اليوم لم يكن الأمر بذي أهمية. كان الناشر الذي قام بطبع كتابه يقيم في إحدى الساحات الكبيرة المعتمة. وكان ويلي اعتقد أن المبنى غير معروف لكنه فوجئ، وفيما هو يرتقي الدرجات الأمامية، أن المبنى أخذ يبدو أكبر فأكبر. ومن ثم كان الداخل، خلف القرميد العتيق الداكن، أكثر إضاءة وأجمل من جميع توقعاته. طلبَ منه في أعلى الدرج، حيث كانت ولا ريب الغرف في الماضي كما

أخبره الناشر، الوقوف قبالة النافذة المرتفعة لما كان ذات مرةٍ غرفة الرسم والنظر أسفل إلى الساحة، طلب منه الناشر أيضاً تخيّل عربات وخدم ومشاة الـ *فانيتي فير*. لماذا طلب منه ذلك؟ هل كان ذلك فقط، في غرفة الطابق الأول الرئيسية، لكي يعيد استحضار صورة ثروة التجار وأصحاب المحلات التجارية في الأيام الباهرة لعصر العبودية؟ كان هذا مأربه بالطبع؛ لكنه كان يروم الإشارة إلى نقطةٍ أخرى على حد سواء. كانت هي هذه، في غرفة كهذه في الـ *فانيتي فير*، أراد التاجر أن يفرض على ولده الزواج من وريثة سان كيتس الخلاسية أو السوداء. هل كان الناشر يريد القول إن المال بالنسبة لهذا الثري كان يهيمن على كل شيء، يهيمن حتى على واجب الإنسان تجاه سلالته؟ هل كان يريد القول بعدئذ، بغية أن يأخذ ميلاً آخر، إن موقفهم من المال أعطاهم، بمضامين عنصرية، نوعاً من النقاء؟ لا، إنه لم يكن يقول أشياء كهذه. كان يتحدث بطريقةٍ انتقاديةٍ. يتكلم كمن يحاول إقحام ويلي في سرٍّ وطني. ما الذي كان يقصده؟ هل كان يقول: ينبغي على الرجال ذوي العقل الراجح تجنّب الارتباط بالوريثة الخلاسية؟ كان ويلي (كلما فكّر في إفريقيا، وفي كتابه الصغير الضئيل) يذهب أيضاً متأملاً في تعليق الناشر على الـ *فانيتي فير*. وكان توصّل إلى خلاصةٍ مفادها أن الناشر لم يكن يقصد شيئاً البتة، وأن كل غايته كانت أن يظهر لويلي أن لديه وجهة نظر ويمكنه التعبير عنها، وأن يثير بعضاً من مشاعر السخط على الثراء وطريقة التعامل مع السود والخلاسيين في أن واحد. حالة ربما ينساها لدى دخول الزائر التالي الغرفة.

وفي معظم الأحيان، ربما لدقيقة أو دقيقتين يومياً، غالباً ما فكَّرَ ويلي، سائراً من محطة الترامواي باتجاه المجلة: «عندما جئت لهذه المنطقة في المرة الأولى لم أر شيئاً. أما الآن فالمكان مليءٌ بالتفاصيل. يبدو الأمر كما لو أنني أدرتُ مفتاحاً. ومع ذلك ما زلت أستطيع بسهولة، أظن هذا بنفسي، العودة إلى تلك الطريقة الأخرى من عدم الرؤية».

لم يكن المبنى الذي توجّه ويلي للعمل فيه، والذي هو خارجٌ من الطرد المركزي، قديماً سوى من الخارج. أما من الداخل فأُعيد إصلاحه وتجديده عدة

مرات. من ثم، ودون غصّة، تراه يتداعى من جديد، تُرفع العوارض فتسقط بعد حين، هذا ما كان بادياً على الأرضية، مثل متجرٍ يفتقرُ لأي ميزة خاصة، ضعيف وهش وموافق للحظة ليس إلا، ولوحة نقية ملقاة برفق فوق الخطوط الحادة للخشب الأملس الجديد. بدا أن مجهزي المتاجر يمكن أن يُستدعَوا في أية لحظة لنقل ما كانوا وضعوه سابقاً والقيام بإجراء تصميم جديد. وحدها الجدران والأدراج الضيقة (ربما بسبب تقييد قانوني موروث) مع أخشاب الماهوغان الرفيعة استمرت في العيش من تبدّلٍ لآخر. كان لغرفة الانتظار الصغيرة أسفل الدرج مقدمة من الزجاج، خلف مهجع عامل الاستقبال مباشرة. كانت هناك على أحد الجدران صورة قديمة بالأبيض والأسود لبيتر واثنين من مديري شركات البناء وهم يرحّبون بالملكة. وكان هناك فوق طاولةٍ على شكل بذرة فاصولياء مجموعة من أعداد لمجلة بناء معاصرة. كانت مؤثّرة على نحو رائع، وتبدو باهظة الثمن.

أما مكتب رئيس التحرير فكان في أعلى الدرج، في الغرفة الأمامية، في نسخةٍ أدنى من فخامة ووقار ناشر ويلي منذ ثمانية عشر عاماً. كانت رئيسة التحرير امرأة في الأربعين أو الخمسين من العمر بوجهٍ مبروم وعينين كبيرتين جاحظتين خلف نظارات بإطار أسود. بدتْ لويلي وقد ابتلعتها جميع صنوف الحزن الأسري والمتاعب الجنسية، وكان الأمر كما لو أنه وجب عليها الخروج لأربع مرات أو خمس أو ست من ذلك الثقب قبل أن تتمكن من التعامل مع المسائل الأخرى. كانت لبقةً مع ويلي، معاملةً إياه كصديق لبيتر، وهذا ما جعل الألم في وجهها يظهر أكثر حدّةً للعيان.

قالت: «سوف ننظر في كيفية استقرارك في العمل. ومن ثم نرسلك إلى بارنيت».

بارنيت هي المكان الذي يتم فيه تلقي دورات فن العمارة التابعة للشركة.

عندما قدم ويلي لروجر وصفاً للقائه برئيسة التحرير، قال له هذا الأخير:

«كلما التقيتها تعتريني نفحة غريزية من الجن. إنها إحدى بطات بيتر العرجاء. غير أنها تؤدي عملها على أكمل وجه».

كانت المجلة تصدر فصلياً. يقوم المحترفون بكتابة المقالات، والمدفوعات تكون جيدة. وعمل رئيسة التحرير هو التكليف بالمقالات؛ وعمل محرر الصور هو الاستقصاء والتقاط الصور؛ وعمل معاون رئيسة التحرير هو تحرير وتدقيق قراءة المقالات. وكانت الطباعة تتم بشكل محترف. وفي الطابق العلوي مكتبة للفن المعماري. الكتب فيها كتب ضخمة ومحظورة لكن ويلي سرعان ما وجد طريقه إليها. أمضى وقتاً طويلاً في المكتبة وفي أسبوعه الثالث كان تعلم إلى درجةِ قوله لرئيسة التحرير، حين كان متبطلاً وسألته عما يفعله هذه الأيام: «إنني أستقصي». كانت الكلمات تهدئها باستمرار.

في إحدى ساعات الغداء، أثناء سيره في واحدة من الساحات الأكثر سكوناً، توقفت سيارة كبيرة قُربه. ترجّلت منها امرأة وبيدها رسالة عليها طوابع بريدية قاصدة إيداعها صندوق الرسائل على جانب الشارع. وبعد أن وضعت الرسالة ألقت التحية على ويلي. لم يكن يفكر في أي شيء بخصوص تلك المرأة حتى تلك اللحظة. لكنه عرف فوراً صوتها الرنان الإيقاعي البهيج، ذلك الصوت الذي يمضي بشكلٍ متناسبٍ مع شعرها الكثيف ووركيها الممتلئين. كانت هي زوجة بيتر. قالت في ترقرق سريع للكلمات: «سمعت أنك تعمل لحساب بيتر». شعر بالإطراء لأنها تذكرته، ولكنها لم تمنحه الفرصة للتفوه بأي حرف. مضت ترن بصوتها بعيداً: «إن معرض بيتر افُتتِح. جميع الصحف تتحدث عنه. نأمل أن نراك». وفي ذات الترقرق للكلام قدمت ويلي لسائق السيارة الذي كان شبه متوارٍ، ودون انتظار أية كلمة من كلا الرجلين، دلفت إلى السيارة وانطلق السائق بها.

عندما أخبر ويلي روجر باللقاء، علّق روجر قائلاً: «إنه عشيقها. كان بإمكانها أن تقصد صندوق بريد آخر، غير أنها أرادت منك رؤيتها برفقة هذا الآخر. إن هذا يعذّب بيتر ويفسد كل ما يتعلق بعلاقتهما. يجب أن يمتلئ

رأسه بالمشاهد الجنسية المضنية. أما الرجل الذي جعلَتْك تراه فهو رجلٌ عاديٌ. تاجرٌ ويمتلك منشأةً ذات مردود بسيط، وهو لا يمتلك ثقافة كبيرة. لم تكن مغامرات بيتر مع الثروة ناجحة كثيراً، إذ يمكنه توظيفها باعتدال. الآن لا شيء مما يقوم به يمكن أن يربحه زوجته ويردّها له مجدداً. كنتُ التقيتها في المنزل منذ عدة سنوات، بعد زواجها من بيتر بوقتٍ قصير. شرعت تخبرني عن زواجها السابق وأسباب إخفاقه. قالت لي: «كان تيم يقول لي قبيل توجهه إلى العمل. «سينفد من عندي معجون الأسنان. اشتري لي عبوة». إنني أعطيك مثالاً فحسب. وكان عليَّ طوال اليوم الانشغال بعبوة معجون الأسنان تلك التي يتعين عليَّ شراؤها. أما هو فيكون في مكتبه، يحرر جميع معاملاته التي تجلب إليه السرور والرضى، ويتناول وجباته اللذيذة، وأنا في المنزل أفكر في عبوة معجون الأسنان التي يتوجب عليَّ شراؤها له. هل تفهم ما أقصده؟ أصابني هذا الأمر بالاضطهاد. أنت تفهمني، أليس كذلك؟» قالت ذلك بصوتها الجميل وثبتت عينيها الحنونتين عليَّ، وحاولتُ أنا جاهداً تفهّم دواعي قنوطها. ساورني شعور أنها تريد منّي أقامة معركة مع مضطهديها. وشعرت، لأكن صريحاً، أنها كانت تجرني إلى مأزق جنسي يتوارى وراء إيماءاتها. كنت أستطيع أن أشعر بها تلفني بنوع خاص من النسيج العنكبوتي. ومن ثم بالطبع، أدركتُ عجزي عن فهمها لأنه لم يكن هناك من شيء ليُفْهم. كانت تريد أن تُسمِع كلماتها نفسها هذا كل ما في الأمر. انتابني القلق بشأن بيتر. سيتوقف عن القيام بالكثير من الأمور لو استطاع الوثوق بها. وهذا هو المكان حيث يمكن أن يتعرض فيه الرجال العظام للتدمير. لم أعد الرجل ذاته منذ أن تزوجت من بيرديتا. إن الدنيا بأسرها تعرف الآن بعلاقتها مع حبيبها صاحب المنزل اللندني الكبير. لن يصدق أحد أنها بقيت على مدى سنوات تحاصرني وتضغط عليَّ كي أتزوجها. الآن أصبحت هي المرأة التي عُومِلتْ بقسوة، المرأة التي أذللتها».

كان لدى ويلي في هذه الأثناء، وطوال أيام الأسبوع، مجلة البناء وبلومسبري للذهاب إليهما، انقطعت صباحاته مع بيرديتا. وفي مناسبات

نادرة كانت تصعد إلى غرفته الصغيرة، في المساء عادة، مرة في الأسبوع ربما، عندما يكون روجر (كما يروق لها القول) مع عاهرته، وعندما لا يكون لديها المنزل الكبير لتذهب إليه، إي عندما لا يكون لديها أي التزام. كانت هذه اللقاءات تتكيف الآن لتدخل في الحركة السائدة لجميع البشر، وللمرة الأولى في المنزل أصبح ويلي بشكل واعٍ مُخادعاً. لم يكن يأمل أن يكون الأمر هكذا، لكنه آثر هذه التسوية. تسوية أقل إرهاقاً؛ جعلته أكثر شبهاً ببيرديتا.

تحادثا أكثر من ذي قبل. لم يحاول أبداً الخوض في عملية كشف المزيد حول رجل المنزل الكبير أو امرأة روجر الأخرى. وكانت هذه الآلية ناتجة عن حالة الادخار والإرجاء التي كان تعلمها في حركة حرب العصابات (حيث كان البحث والسؤال في الأيام المبكرة الأولى الصارمة محظوراً، لأسباب تتعلق بالمبدأ أو الأمن، طرح الكثير من الأسئلة حول العائلة والخلفية على الآخرين من كوادر الحركة). غدا هذا التأجيل جزءاً من طبيعة ويلي. وهو حقيقةً لم يكن يرغب في معرفة المزيد عن الحياة الأخرى لكل من روجر وبيرديتا. أراد البقاء برفقة ما عرفه وحسب، لم يكن راغباً في معلومات زائدة تفسد الحياة الصغيرة التي تكشّفت له في منزل سان جونز وود، وفي غرفته الصغيرة وسط الغامضين.

تركت بيرديتا لبعض التفاصيل عن حياتها المبكرة في الشمال تسقط منها. حثّها ويلي على ذلك. فكّر أن حياة عائلته هو كانت حياة غريبة، وطفولته موبوءة. لكي يتخيل حياة بيرديتا المبكرة، ولكي يعيد تصور تلك الحياة من خلال التفاصيل التي تسقط منها، كان عليه السير نيابة عنها في حقلٍ من المجد. جعلت تلك الحياة منها أكثر مما اعتقَدَه فيها في البدايات الأولى لتعرّفه عليها. شعرتْ بتقديره الجديد وأخذت تتفتح مثل الزهرة عندما تكون برفقته. تقدمتْ وأصبحتْ أقل سلبية.

قالت له في أحد صباحات السبت: «ربما لا يريد روجر التحدث عن رقصه مع بيتر»، (رقصة) - إنه تعبير روجر - «لكنني متأكدة أنه سيفعل حالاً

الآن. إن عمله يصل نهايته الآن». ومن ثم أضافت، وبطريقة أكثر تأملية: «أشعر بالأسى على روجر. كان مثيراً للشفقة في تعامله مع بيتر على الدوام. وهو يُحضر تلك المزهرية المكسورة الرهيبة كهدية لي. ثمة أساليب متعددة لقول لا، كان عليه على الأقل الاهتداء على أحدها. تبددت طاقة روجر بأكملها، أو معظمها، في إصدار الأصوات والتركيز على المظاهر. إنها المصيدة الكبرى التي يقع فيها رجال من طبقة روجر. لديهم نموذج جاهز يمكنهم مواءمته، وحين يفعلون هذا يشعرون أنهم ليسوا بحاجة لعمل المزيد».

قال ويلي: «لكنك ضايقته لكي يتزوجك. في عامي 1957 و 1958. أذكر ذلك جيداً».

قالت: «كنت مأخوذة بمظهره الكبير. كنت يافعة ومعرفتي بالحياة قليلة. كان وهماً. إن أفضل جانب فيه يتمظهر في أعماله ونظامه».

تساءل ويلي لبعض الوقت لاحقاً عن المكان الذي تعلمت منه بيرديتا هذه الكلمات، وبعد يوم أو يومين تجلى له الأمر: كانت بيرديتا تستخدم كلمات عشيقها، الرجل صاحب المنزل الكبير، وزميل روجر. تعرّض روجر لشركِ الخيانةِ من جميع الجهات.

* * *

بعد ستة أسابيع من البقاء في مكتب بلومسبري. ذهب ويلي إلى مركز التدريب في بارنيت. قالت له رئيسة التحرير: «يريدونك في بارنيت». وسأله المسؤول عن التنسيق: «ألم تذهب إلى بارنيت إلى الآن؟» بارنيت، بارنيت: توقفتْ لتصبح مجرّد اسمٍ لمكان. بدا أنها وُجِدت للترف والاستجمام، مكانٌ يقيم الناس فيه لأسبوعينٍ أو ثلاثة من دون مراقبة، في حين يستمرون في الحصول على جميع أجورهم، النعمة التي يسوقها الحظ السعيد. كان ثمّة حكاياتٌ حول جمالها، والطعام المُقدَّم في مركز التدريب، وحول الحانات المحلية.

كان هناك شاخصات تدل على الموقع، مع خارطة وأسهم اتجاهات. قرّر روجر أن ينقل ويلي إلى هناك. إنهم يبدؤون باكراً في نهار الأحد. كانت الباصات التي تجوب الطرقات متزاحمة حتى النهاية. تحول روجر نحو الطرق القديمة، وكانت أسماء بعض المناطق التي مرا بها مترابطة بشكل رومانسي في عيني ويلي.

كرايكلوود: كانت من ثمانية وعشرين عاماً مكاناً غرائبياً بالنسبة لويلي، بعيداً إلى شمال ماربل أرش، حيث في تصوراته يعيش البشر حياةً منظمةً وآمنة. المكان الذي تقيم فيه جون، فتاة مخزن عطورات ديبنهايمز، مع عائلتها (وكان لديها هناك أيضاً بوي فرند منذ طفولتها). وهي أيضاً كانت المكان الذي عليها أن تستقل الباص إليه بعد لحظة ويلي الجنسية الشقيّة معها في شقة نوتنغ هيل. عرف ويلي لاحقاً أنه في كرايكلوود يقع كراج الباصات الكبيرة؛ كانت أيضاً (أطل ويلي في هذه الأثناء من النافذة لكي يتلقف أخبار كرايكلوود) حيث وُلِدت وترعرعت الممثلة الرقيقة جين سيمون: رمى الواقع سحراً إضافياً لا يمكن احتماله على جون في محل بيع العطورات.

مرئية الآن من طرقات بعد ظهر الأحد المكتظة، كانت كرايكلوود (أو ما افترض ويلي أنها كرايكلوود) عبارة عن شريطٍ مستوٍ أحمر من المنازل ذات الطابقين، قرميد وأسمنت مُعَالَج، مع مساحات قليلة بينها للتسوق المحلي، متاجر صغيرة ارتفاعها بارتفاع المنازل التي تقوم بخدمتها: لندن هنا، كما ابتكرها البناؤون والمطورون منذ ستين أو سبعين عاماً خلت، نموذج من الأرض المبتكرة، دافئة ومسورة: هذا هو المنزل الذي يقيم فيه جاك وزوجته ويتبادلان الحب ويربيان الجراء، وذاك هو المتجر الذي سوف تتبضع منه زوجة جاك، وهناك على المنعطف الحانة التي سيتناول فيها جاك وأصدقاؤه وزوجته وصديقاتها المشروب في بعض الأحيان. لا شيء يشبه المدينة، ليس هناك من حدائق أو جنائن منزلية، ولا أبنية عدا المنازل والمحلات التجارية. تبدو جميعها وقد بُنِيت في الوقت ذاته، وتمضي كرايكلوود (إن كانت هذه كرايكلوود)

من دون أن تتحول إلى هندُون، ثم إلى ما سيجيء بعد ذلك، وتمضي قدماً ثم قدماً إلى الأمام. ببعض الارتفاع فقط في الطريق أحياناً أعلى من عربات القطار ذات الخط الرئيسي أسفل الطريق.

قال ويلي: «لم أعرف أن لندن كانت هكذا. إنها ليست خارجة من الطرد المركزي».

قال روجر، شارد الذهن بسبب البطء الشديد الذي تتطلبه قيادة السيارة: «إنها شبيهة بهذا في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها. أنت تدرك لماذا كان عليهم ابتداع النطاق الأخضر. وإلا فإن نصف البلاد سوف يُلتَهم».

قال ويلي: «لا أريد العيش هنا. تخيل العودة إلى هذا المكان يوماً بعد يوم. ما الغاية من أي شيء في هذه الحالة؟».

أجاب روجر، كما لو أنه يناقض كل ما قاله سابقاً: «يقدم البشر أقصى ما في استطاعتهم».

فكّر ويلي: «هذا رد ضعيف يمكن الإجابة به»، لكنه أقفل فمه بعد حين. أخذ الهنود؛ والباكستانيون؛ والبنغاليون يظهرون تدريجياً في الطريق الرئيسي الملتف. جميعهم يرتدون أزياء كما لو كانوا في أوطانهم، الرجال موشحون بالعباءات أو القمصان مع القبعة البيضاء في خشوع للإيمان العربي، ونساؤهم، ذوات المكانة الأدنى، أكثر توشحاً ومغطيات بالأقنعة السوداء المخيفة. إن لدى ويلي معرفة معينة حول الهجرة الكبرى التي قامت من شبه القارة الهندية؛ لكنه لم يتخيل البتة (بما أن الأفكار توجد غالباً في الحجرات الصغيرة) أن لندن، (التي ما تزال في عقله مدينة خارجة من الطرد المركزي) تمكّنت من تغيير سكانها إلى هذا الحد في ثلاثين عاماً.

هكذا، كان ركوب السيارة في ظهيرة الأحد عبر شمال لندن إلهاماً مزدوجاً. حرر ويلي نهائياً من التخيل الوهمي الذي كان يسكنه لأكثر من ثلاثين عاماً عن جون وهي تستقل الباص من ماربل أرش إلى مهابةِ أمان

منزلها. ولعله قد يكون من الأصح للوهم أن ينمحي. بما أن جون نفسها، كما توقع روجر، لا بد أن تكون الآن أكثر عَطَباً (من جميع النواحي) بفعل مرور السنين، أنها إلى حدٍ ما الآن سمينة ومتبجحة (وهي تعد عشاقها)، وربما تكون تغيّرت من نواحٍ أخرى أيضاً، وهي تكيّف جميع أشكال شغف أيام متجر العطورات القديم والأنيق الذي ربما تكون عرفته يوماً إلى نموذج تلفزيوني شعبي معاصر. كان الأكثر صحة للأوهام أن تمضي. وكانت هذه لويلي فترة من الاسترخاء، تمكّنه من إزاحة الذل المرتبط بالوهم، لكي يضعه في مكانه الصحيح.

تابعت الأشرطة الحمراء، ذات المستوى المتماثل للمحلات التجارية والمنازل التي أُعيدَ توطينها، تابعت باستمراريتها. في النهاية انعطفا عن الطريق الرئيسي. ومن ثم، بشكل مفاجئ تماماً، فيما كان ويلي مايزال يفكر بما شاهده من شريط الأبنية الحمراء وأزياء شبه القارة، وجدا نفسيهما في مركز التدريب. جدران قرميدية، بوابات حديدية، وممرات مبلطة مع قليل من الأبنية الواطئة البيضاء وسط حديقةٍ كبيرةٍ. عندما توقفت السيارة وترجّل منها اعتقَدَ أنه مايزال يستطيع سماع حركة المرور الدائرة في الطريق الرئيسي. لم تكن بعيدة جداً. في زمن ما كانت الحديقة هي التي تؤلف البلاد. ثم اتسعت لندن إلى أن تلاقت بها؛ بِيعَتْ أجزاء من الحديقة؛ وشق الصدع في جميع أنحائها لكي يخدم حركة التزايد السكاني. كانت الحدائق الآن، المتضائلة كثيراً، في منطقة إقامة المهاجرين.

قال روجر بشيء من التهكّم: «هذه إحدى صفقات ثروة بيتر».

كانت أصوات ضجيج حركة السير حاضرة باستمرار. غير أن خضرة الحديقة الصغيرة كانت خلّابة بعد ذلك الشريط المستوي من المنازل الحمراء وفوضى اللوحات الغنائية للمحلات التجارية القليلة. كانت عبارة عن مكانٍ بعيدٍ بما فيه الكفاية عن لندن ويتيح للناس الحلم بالمغامرة. واستطاع ويلي أن يدرك السبب في شغف أعضاء المكتب به.

شاهد روجر ويلي يُستقر داخل غرفته الصغيرة في نزلِ الشباب أو مبنى السكن. لم يكن يستعجل المغادرة. ثم توجها معاً إلى القاعة الرئيسية التي كانت تقع في مبنى آخر. خدما نفسيهما بمياه معدنية وشاي من على الطاولة أو البوفيه. كان روجر يعرف طريقه في مركز التدريب. ثمة آخرون كانوا في القاعة، يرتدون البدلات، معظمهم كان تقريباً في بداية الدّورة. أحدهم كان إما إفريقياً أو غرب هندي؛ وآخر كان هندياً أو باكستانياً ينتعل حذاء جلدياً أبيض.

قال روجر: «أمر شديد الغرابة. وَجَبَ عليَّ تقديم المعونة والمشورة لك. والآن ها أنا أجد نفسي في مأزقٍ كبير. ليس لدي أدنى فكرة عما سيكون عليه حالي عندما تنهي دورة تدريبك هذه. بما أنك معي، كان لا بد لك أن تمتلك فكرة ما عن أن ثمّة مشاكل في حياتي».

قال ويلي: «أخبرتني أمراً ما في اليوم الأول، عندما حملتني من المطار. وأسقطت بيرديتا بعض الكلمات، ما عدا ذلك لا أعلم أي شيء آخر».

«إنه أحد تلك الأمور التي تجري بشكلٍ مشروعٍ تماماً. ومن ثم تتطوّر وتتحوّل إلى شيء آخر. إنني متأكد من أن بيتر عندما انطلق في طفرته لم يكن ذلك يتعدى الرغبة في المحافظة عليها بأكملها داخل العائلة، إذا جاز القول. تخيّل مصرف بيتر ثم الأوراق والمستندات التجارية الشخصية. تخيّل مزرعة لها سمعة حسنة عند مسّاحي الأرض. تخيّل مزرعة لها سمعة حسنة عند المحامين. ذلك هو المكان الذي دخلته. تخيل اثنتينن من شركات الصوتيات الخاصة بكل معنى الكلمة. حين يرغب بيتر بالتخلّي عن أملاك معينة، فإن المزرعة الممسوحة هي التي تقوم بالتقييم، والمزرعة القانونية هي التي تقوم بتوقيع الأوراق، وتمرُّ الثروة إلى الشركات الخاصة، التي ربما بعد سنتين سوف تزداد مبيعاتها وتكسب أرباحاً مرتفعة. نحن نتكلم عن ملكيات المدينة. ليس من السهل تقدير قيمتها. وعلى الدوام هناك احتمال أن تفوق المليونين. نحن أيضاً في عصر تعاظم قيم الملكية. قد تشتري شيئاً الآن بعشرة ملايين ويباع بعد

ثلاث سنوات بخمسة عشر مليوناً، من دون أن يُقدِم أيّ كان على رفع حاجبيه. هذا هو السبب في أن طفرة الثروة هذه قد تمضي لأمدٍ بعيدٍ من دون أن يلاحظها أحد. اثنتا عشرة سنة من دون أن ينتبه إليها أحد. ولكن من ثم ربما تجذب اهتمام أحدهم فيشرع في إثارة الأزمات. كان بإمكان بيتر الخروج من المأزق بهدوء، ودفع الملايين كتعويض. غير أن البعض صعب المراس. وإذا ما وجدوا سبيلهم إليَّ فإنهم سوف يثيرون المشاكل لي، ومن ثم من المرجح أن أجد نفسي في المحكمة. ستكون النهاية بالنسبة لي. ومع ذلك أشعر أنه عندما انطلق العمل فإن مسعى بيتر لم يكن سوى المحافظة على العمل ضمن العائلة، هكذا يقال. بقصد توسيع سلطاته الوظيفية وانتزاع الاحترام والتقدير. لا يمكنك إشباع شهوته للتقدير. أنت تعرف بيتر. إنه مفعمٌ بالغرور الأنوي، ومع ذلك فيه جانبٌ متسامحٌ. وهو قادرٌ أيضاً على ابتداع الأفكار. مركز التدريب هذا على سبيل المثال. دأبتُ على مدى سنوات على التدقيق في هذا العمل عقلياً محاولاً عرضه على نفسي وإخراجه إلى فناء خيالي تحت أفضل ضوء متيسر. قادني ذلك إلى الجنون. وفقط في هذه المرحلة وجدتُ أن حياتي الشخصية أخذت ترتقي وتمتلئ. على هذا النحو دائماً، مصيبتان أو ثلاث مصائب في وقت واحد. كان عليَّ الاعتقاد طوال حياتي أنها تأتي ثلاثةً معاً في كل مرة. إنها خرافتي فحسب. عندما يتراءى لي عقعق للمرة الثانية، فإنني أنتظر الكارثة الثالثة».

«بيرديتا؟».

«ليست بيرديتا. علاقتي معها مستقرة قدر استطاعتها. قدّمتُ لهذه العلاقة كل ما أستطيعه. لم يعد بإمكاني تقديم المزيد. لا، إنها ليست بيرديتا وإنما حياتي خارج المنزل. بعيداً عن بيرديتا. هذا النمط من الحياة. أقول لنفسي كفى لا مزيد. إنني متأكد أن بيرديتا لم تتمكن من أن تلزم الصمت حول هذه المسألة».

قال ويلي: «لعلها أشارت إلى شيء من هذا القبيل. غير أني لم أطلب منها معلومات إضافية».

«إنها امرأة تنتمي للطبقة العاملة. أبعد زميل أعمالي وصاحب المنزل الكبير، بيرديتا عني. اعتقدت أنني سأجد الأمان برفقة هذه المرأة الصديقة. عرّفتها على بعضٍ من زملائي المحامين، لكي أريهم أنني أعمل بشكل جيد تماماً من دون بيرديتا. كنتُ مُغفّلاً. وربما سوف أبقى على الدوام مغفلاً في هذه الأمور. إنها صديقتي المرأة هي من على وشك أن يركلني على أسناني هذه الأثناء. ها هي تخرج في عطلة نهاية الأسبوع هذه مع أحد أصدقائي. لم أكن أعلم أن احتمالات المعاناة مفتوحة إلى هذا الحد. ظننت نفسيَ الرّاعي فعلتُ كل شيء لأجلها. اعتقدتُ طوال كل تلك السنوات أن تهذيبها عائد لي».

عادت الحيوية إليه فيما كان يتحدث. نهض بشكل حاسم ثم قال «عليَّ أن لا أتأخر. يجب أن أعود».

ترك ويلي معزولاً في مركز التدريب، ومتجولاً بين القاعة والحديقة، ومن ثم توجّه في وقتٍ مبكرٍ جداً إلى غرفته الصغيرة لكي يحاول النوم. كان بمقدوره سماع حركة السير في الطرقات الرئيسية بشكل ضعيف، وبعيني عقله اللتين تحرفتا تدريجياً فوق الشريط المستوي للمنازل الحمراء وهي تسير وتسير ثم تلتف. تمنّى لو أن ثمة مكاناً آخر يمكنه الذهاب إليه.

10

فأس حتى الجذر

كانت حصص مركز التدريب أصعب وأعمق مما توقع ويلي، وغاص فيها تاركاً روجر ومشاكله تستقرُّ في حافة عقله.

في الصباح يتلقون محاضرات حول تقنيات البناء الحديثة، حول الإسمنت ونسب خلط الماء مع الإسمنت، والإسمنت مع الفولاذ المُقسّى، الأشياء التي لم يكن من السهل دائماً على ويلي استيعابها ببساطة ولكن أيضاً التي كانت (خاصة حين تستعصي على عقله) تتحدى خياله. مثلاً، هل يمتد توتر الفولاذ إلى ما لانهاية؟ هل يعرف المُحاضرُ نفسه هذا فعلياً؟ هل هو منافٍ للمنطق أن نتصوّر أنه في لحظةٍ ما من لحظات المستقبل سوف تفشل حالة الفولاذ المقسّى والمزالج التي تحافظ على الفولاذ تحت التوتر؟ وربما آنذاك، في القرن الحادي والعشرين أو الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين، شهراً بشهر، وعاماً بعد عام، قد تبدأ المباني البيتونية والفولاذية، نتيجة خطأ معماري معين، الخالية من الإنشاء الخارجي في طول العالم وعرضه بالانهيار بالتسلسل ذاته الذي بُنيَت فيه.

في الظهيرة كان هناك حصة حول تاريخ فن العمارة. كان المُحاضر رجلاً نحيفاً في الأربعينيات من عمره. طقمه أسود أو بلونٍ شديد الدكنة، وقدماه الكبيرتان تنتعلان حذاء أسودَ بزاويتين غير متناظرتين إحداهما مع الأخرى. كان وجهه ناعماً أو شديد البياض، وترك شعره الداكن المتفرق خطاً

أسودَ رفيعاً فوق جبهته الشمعية وعينيه الصغيرتين الوامضتين. كان يلقي المحاضرة بصوته بشكلٍ مُتحفّظ ولكن بصوت خافت ومصمّم. قام بعرضِ الصور ثم أجاب عن الأسئلة، لكنه كان يبدو أنه في مكانٍ بعيدٍ جداً. أين كانت أفكاره الحقيقية يا ترى؟ هل لديه، وهو الذي يمتلك في جعبته كماً هائلاً من المعرفة، حزنٌ ما؟ هل هذا عمله الوحيد؟ هل يأتي إلى المكان مسافراً من مكان بعيد، أم أنه من السكان المحليين، يقطن أحد المنازل الحمراء الواطئة إلى الشمال، يعيش هناك بخيال 1930 لمعماري أو متدرب، بالكيفية التي وَجَبَ على البشر عيشها؟

إن فن العمارة الذي كان منهاج المحاضر قُصِد به فن العمارة الغربي فقط، وحتى عندئذ كان في عجلةٍ من أمره لكي يبلغ الحقب الزمنية التي تستهوي تلاميذه. وهكذا، انتقل عبر القوطية وعصر النهضة لكي يتوقف أخيراً عند فن العمارة في العصر الصناعي الأخير، نهاية القرن التاسع عشر وامتداد القرن العشرين، في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية.

وجَدَ ويلي نفسه مفتوناً بما يسمع. إن فكرة التعلم لأجل التعلم كانت فكرةً جذابةً له على الدوام، في ماضيه كان مُحبطاً من دروس مدرسة الإرسالية والمعهد اللندني لتأهيل المدرسين، لأن تلك الصروح لم تمنحه مبرراً تعليمياً أصيلاً، ثم إحباطه فيما بعد في محاولاته المتكررة لتوسيع مجالات معرفته. لكن فن العمارة، ومن خلال تعاطيه مع ما هو حاضر ومرئي في كل مكان، كان مجالاً رحباً له، إنه الآن يقوم بالاستكشاف، احتوت أشياء كثيرة مما يتعلمه على عناصر قصة خرافية. تعرّف الآن ضريبة النافذة في إنكلترا، والضريبة على القرميد التي امتدّت منذ عصر الثورة الفرنسية حتى التمرّد الهندي تقريباً. تمكّن ويلي عن طريق ترتيبه لتاريخ الضريبة على القرميد في إنكلترا من حفظه من دون مساعدةِ المحاضر، لكنه نسيَ أنه في الهند البريطانية كان هناك أيضاً ضريبة على القرميد: عبثية ومع ذلك كانت ضريبة جائرة، طالما أنها لم تكن تُدفَع على القرميد الجاهز والمشوي بل حتى على العجينة

القرميدية غير المشوية، ولم يكن هناك من تسامح في القرميد المعطوب أو المخرّب في الفرن. (تذكر هذه الأفران في أماكن كثيرة، المداخن المرتفعة، والمنتفخة على نحو شاذ، تتوضع جوار الوجارات الطينية المستطيلة الشكل وأكوام القرميد الجاهز: ربما تحركت تلك الأفران والمداخن آنذاك نحو الريف القريب، وأقيمت حيث كان الطين مناسباً لصب القرميد) كان ويلي يشعر على الدوام بالغمّ نتيجة انتشار القرميد الأحمر في إنكلترا حيثما وجّهَ طَرَفَهُ، القرميد العادي إلى أقصى درجة. أما الآن فقد تعلّمَ، من المحاضر اللطيف والعنيد في آن معاً، أن تزايد استخدام قرميد لندن من نموذج عام 1880 كان بسبب رفع ضريبة القرميد. امتلكت إنكلترا الصناعية الفيكتورية المعدات الآلية التي أتاحت لها تصنيع كافة أنواع القرميد بأرقامٍ مذهلةٍ. لا بد أن قرميد عام 1880 هو السلف البعيد للمنازل الحمراء قليلة الارتفاع التي شُيدَت عام 1930 بأعدادٍ لا تحصى في شمال لندن، من كرايكلوود حتى بارنيت.

فكّر ويلي: «ما أتعلمه في هذه الأيام القليلة يلقي بالضوء حتى على ما يحيط بي هنا. لم أكن بحق، منذ عدة أيام ليس إلّا، أعرف طبيعة ما أشاهده أثناء مجيئنا بالسيارة إلى هنا. قال روجر: «يقدِّم البشر أقصى ما في استطاعتهم». تلك الكلمات رفعت من خيبتي، غير أنه كان مصيباً. إنه لمن المخيف والمحطِّم للقلب أن هذه الطريقة من الرؤية والفهم جاءتني في وقتٍ متأخرٍ جداً. إن هذا لن ينفعني في شيء الآن. لا يمكن لرجلٍ في الخمسين إعادة صنع حياته. سمعت أنه يُقال إن الفرق الوحيد بين الفقراء والأغنياء من الناحية الاقتصادية هو أن الأغنياء يحصلون على المال قبل الفقراء بعشرة أو خمسة عشر أو عشرين عاماً. وأفترض أن النظرية ذاتها تنطبق على طرائق النظر إلى الأمور. البعض يتوصل إليها بعد فوات الأوان، يوم تكون حياتهم قد أصبحت أدراجَ الرياح. عليَّ أن لا أبالغ. لكنني الآن أحسّ أنني أثناء وجودي في إفريقيا، على مدى تلك الأعوام الثمانية عشر يوم كنت في ريعان شبابي، بالكاد كنت أعرف المكان الذي أعيش فيه. والمدة التي قضيتها في الأحراج

كانت مُظلمة ومُقلقة في جميع النواحي كما في الزمن. إن أحكامي كانت شديدة القسوة على من هم في الدورة معي. كم هم فارغون وحمقى. لم أكن أختلف عنهم».

لم يكن يفكر بأولئك القادمين من جنوب إفريقيا أو أستراليا أو مصر، رجال في أربعيناتهم يرتدون الطقم بشكلٍ تلقائي، ويرتقون في منظماتهم، وربما هم مرتبطون بطريقة أو بأخرى بإحدى شركات بيتر. إن الجلوس على مقاعد الدراسة كما الأطفال يمنح هؤلاء الناس كمّاً معيناً من المتعة. كان من غير الممكن رؤيتهم في القاعة الكبيرة الواطئة بعد المحاضرات؛ غالباً ما تأتي السيارات لتقلّهم إلى لندن المركزيّة. لم يكن يفكر بهؤلاء، كان يفكر بمن حالهم مثل حاله، كما بدا له هذا: الرجل الأسود أو تلك الخلطة الكبيرة القادمة من الإنديز، التي كانت تتقدم مستمتعةً بشكل هائل لكونها أحد أعضاء هذه الشركة العالمية؛ أو الصيني الماليزي شديد التأنق، من الواضح أنه رجل أعمال. يرتدي طقماً من لون الظبي وقميصاً أبيض مع ربطة عنق، وكان يجلس في القاعة مُصالباً ساقيه الرفيعتين بطريقةٍ مُهذّبة وعلى مُحيّاه تبدو حالة الرضى الذاتي، وهو مستعد لإمضاء الحصة بأكملها من دون أن يتفوه بكلمةٍ واحدةٍ لأي كان. وذلك القادم من شبه القارة الهندية بحذائه الأبيض المبتذل، الذي ارتدَّ ليصبح من الباكستان ومتشدداً في تَدَيُّنَهُ، مستعداً لنشر الإيمان العربي في هذا المركز التدريبي ومُكرساً إياه لنموذجٍ آخرٍ من التعلم والمجد وأنبياء الآخرين: أخذت عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين الرائدة (بعد ثلة من أبطال القرميد) تصل بسرعة وتتنامى، غالباً معاكسةً للفروقات، في رؤيتهم الخاصة ثم تُضاف في النهاية إلى كمية من المعرفة الخاصة بالفن المعماري.

ذات ظهيرة اجتمعوا لشرب الشاي في القاعة (كراسي الأغصان المجدولة، ووسائد ذات أغطية من الشيت، وستائر متناغمة معها من الشيت أيضاً). كان المحاضر طلب منهم قبل بعض الوقت التأمّل في واقع أن المنزل الأكثر بساطة والأشد تواضعاً، حتى من ذلك النمط من البيوت الذي يُشاهَد

على الطرقات الرئيسية حول مركز التدريب، يحمل في ثناياه تاريخاً هائلاً: ما عاد الفقراء يسكنون الأكواخ التي تستظلّ بمنازل أسيادهم، وما عاد أقنان العصر الصناعي يعيشون في فناءٍ محرومٍ من الهواء أو في مساكن متلاصقة بعضها البعض من الخلف، إن للفقراء الآن حاجاتهم المعمارية التي تعود لهم وحدهم، وتتطور هذه الحاجات بالطريقة ذاتها التي تطورت بها التقنيات المادية.

كان ويلي مأخوذاً بهذه الفكرة وتمنّى، كما كان المحاضر طلب منهم، لو يستطيع التفكير في هذا الأمر بمشاركة الآخرين. التفكير بالمنزل الشائع، منزل الفقراء، كشيء يتعدّى مكاناً للسكن المؤقت أو ملتجأً، كشيء يُعبّر عن جوهر ثقافةٍ معينةٍ. فكّر في قرى الأحراج التي كان فيها، متقدماً بلا طائل داخل بدلته الزيتية المهلهلة مع النجمة الحمراء على قبعته. فكّر في إفريقيا، حيث كانت منازل القش أو التبن تغرق وتسحق عالم البيتون الغريب في آخر المطاف.

اعتقد ذو الحذاء الأبيض أن المحاضر كان يتحدث عن إنكلترا فقط.

فكّر ويلي: «هذا ينبئني بالكثير عن المكان الذي أنت قادم منه».

قال القادم من الأنديز الغربية: «إن هذا الكلام ينطبق على الجميع».

ردَّ ذو الحذاء الأبيض: «لا يمكن لهذا أن يصحَّ على الجميع. إنه لا يعرف جميع سكان الأرض. ليس بمقدورك معرفة البشر إلّا إذا شاركتهم صنف الطعام ذاته. وهو جاهلٌ كل الجهل بنوع الطعام الذي أتناوله».

كان ويلي يدرك إلى أين ستفضي هذه المجادلة: بالنسبة لذي الحذاء الأبيض إن العالم منقسم، ببساطة متناهية، إلى بشرٍ يأكلون الخنزير وآخرون لا يفعلون، بشر يدينون بإيمانه وآخرون لا يؤمنون به. فكّر: إن عرض هذه الفكرة البسيطة بهذه الطريقة أمرٌ خبيثٌ ويجلب العار. إن نظرية المحاضر، في هذه الطريقة، حول منازل الفقراء في مختلف الثقافات، التي كانت بهرت ويلي،

تبددت عبر هذا النقاش الزائف حول الطعام على أنه عامل تقسيم عظيم. في هذا الجدال، وفي الشكل الذي جرى به، أمسك ذو الحذاء الأبيض بجميع الأوراق. كان أثار هذه المسألة عدّة مراتٍ سابقاً. ارتبك الآخرون وتلعثموا في التعبير عن وجهات نظرهم، ومن ثم هبط ذو الحذاء الأبيض عليهم بقوة، وهو المتمرس في التعاطي مع الاعتراضات.

كان لدى الصيني الماليزي فكرة ما حول المأرب الحقيقي من هذا النقاش، لكنه آثر الاحتفاظ بهذه المعرفة لنفسه. ابتسم وتوجّه نحو الجانب الواضح من النقاش. تحول، وهو الذي كان يبدو صينياً حتى العظم، متحفظاً وراضياً عن ذاته ومكتفياً بذاته، تحول لأن يغدو الأكثر طيشاً بين المجموعة. بدا وكأنه لا يأخذ شيئاً على محمل الجد، وفاقداً لأيّ شكلٍ من أشكال اللباقة، وكان سعيداً بقوله، بما يشبه الدعابة، إن ماليزيا لم تعد أرضاً رعوية وإنما هي الآن أرض ناطحات السحاب والطرق السريعة، وإنه الآن يقوم بإدارة أعمال بناءِ علي بابا. لا علاقة لهذا بالأربعين حرامي: إن «بابا» في ماليزيا هي الكلمة التي تستخدم للدلالة على الصيني المحلي، وأعمال علي بابا يقصد بها أن عليّاً، المسلم المالاوي، المتنفذ، لكي يسترضي الحكومة، والبابا هو المرشد الصيني، كهذا المهذار نفسه الجالس في الخلف.

لسبب ما، لعلّه اسم ويلي الأول أو ربما هي النبرة الإنكليزية غير المعهودة لويلي، أو ربما ببساطة لأنه وجد في ويلي شخصاً يمكن التقرّب منه، انضم ذو الحذاء الأبيض إليه في معظم أوقات الأسبوع الأول.

في يوم السبت، وفي القاعة الهادئة بعد وجبة الطعام (خرج معظم المتدربين، البعض إلى الحانات المحلية، والبعض الآخر إلى لندن المركزية)، انحنى على ويلي وقال بطريقة تآمرية: «أود أن أريك شيئاً».

تناول ظرفاً من جيبٍ داخل صدره (كاشفاً، فيما هو يفعل، عن رقعة قماشية تعود لخياط في مكان يدعى ميولتان). قدّم الظرف لويلي، وهو يحني رأسه كما لو أن ما يقوم به يدفعه للرغبة في إخفاء وجهه ثم قال: «هيّا،

افتحه». كانت الطوابع على الظرف أميركية، وعندما فضّ ويلي الرسالة وجدَ صُوَراً ملونة لامرأةٍ بيضاء قوية العزم التُقطتْ لها في الشارع، وفي الغرفة وفي إحدى الساحات.

قال الرجل: «إنها بوسطن. تابع. اقرأ».

شرع ويلي يقرأ، ببطءٍ ولا مبالاة في البداية، لكنه سرعان ما وجد نفسه يُسرع، من دون ملل. ترك ذو الحذاء الأبيض رأسه ينحني أسفل فأسفل، كما لو أن الخجل والعار كانا يستنزفانه. تدلّى شعره الأسود الأشعث فوق جبهته. حين نظر ويلي إليه أخذ هذا الأخير يرفع رأسه رويداً رويداً وشاهد ويلي وجهاً مفعماً ومخضباً بالفخر.

«تابع. اقرأ».

... كما تقول أنتَ، يمكن مقارنة المتعة العابرة للكحول وساحة الرقص مع سرمدية الحياة -

فكّر ويلي: «هذا كي لا تشير إلى الشهوة الجنسية التي تتجدد باستمرار».

... أي حظٍ سعيدٍ أن أعرفك من دونك يا عزيزي(*) كنتُ سأظل أجوس في الظلام إنه نصيبي كما قلتَ أنت في البداية وجدت أن جميع هذه الأساليب من الأحاديث غريبة وجذّابة ولكنني الآن ها أنا أرى حقيقتها كلها لو لم تكن أخبرتني أن غاندي أو ذكر الأوز المغفّل مثل هتلر لم أكن قط لأعرف هذا ولكنتُ واصلت اعتقادي بجميع تلك الترّهات التي قالوها لي ها أنت ترى سطوة الدعاية أو العلاقات العامة في حضارتنا الغربية المريضة والتي تدعى PS كنت أفكّر في غطاء وجهي وكنت أتحدث لصديقاتي أن ما أظن أنه سيكون مناسباً لي هو ارتدائي لزي جيسي جيمس المعوّق تحت عيني وفوق أنفي في الصباح وطوال النهار وقناع زورو في المساء في المناسبات الرسمية...

(*) هذه الفقرة وردت في النص الأصلي من دون أن يكون فيها أية علامات ترقيم، وقد حافظنا على ذلك في النص العربي.

بلغَ ويلي نهاية الرسالة من غير أن تندّ عنه أية كلمة، ودون أن يرفع نظره. أطرقَ فوق الرسالة زمناً إضافياً قليلاً أطول من الوقت الذي كان عليه بقاؤه، بسط ذو الحذاء الأبيض يده بشيء من الحِدّة ـ كما لو أنه خشي سرقتها ـ لكي يستردّ الرسالة والصُّوَر والظرف بطوابعه الأمريكية. ثم أعاد توضيبها بيده الخبيرة، وأعاد إيداع الظرف في جيبه الصدري ونهض. كانت نظرة التآمر ومن ثم نظرة السرور التام التي بدت وكأنها غشت عينيه الآن متبدّلة بنظرةٍ يشوبها عدم الرحمة والبغض. ومن ثم، بشكلٍ مباغتٍ، غادر القاعة بطريقة توحي وكأنها تقول لويلي: «أنت لا تدري، أليس كذلك؟ الآن دعنا من المزيد من ترهاتك».

هبط الغمُّ على ويلي في القاعة المقفرة. أدرك الآن سبب تقرّب الرجل منه طوال الأسبوع: كان ذلك بهدف التفاخر فقط: كان توصل إلى حكمِ أن ويلي قابل للاستجابة لهذا النوع من التبجح.

تحدّث المحاضر في فترة الظهيرة على مدى أسبوع كامل عن التزايد الكبير في التعلم واكتساب المهارات الجديدة في العصر الصناعي، وعن التطور الحاصل في الرؤية والتجربة والنجاح والفشل. بالنسبة للرجل القادم من ميولتان (كما بالنسبة للآخرين من تلاميذ الدورة على حد سواء، بحسب ما لاحظ ويلي خلال الأسبوع) فإن جزءاً ضئيلاً من ذلك كان يعني لهم شيئاً: أُرسِلوا من قبل بلدانهم وشركاتهم بغية تحصيل المعرفة التي كانت موجودة هنا بكل بساطة، وهم يحصلونها تلقائياً، تلك المعرفة التي أنكرتهم لردحٍ طويلٍ من الزمن وبطريقةٍ جائرةٍ لدواعٍ عِرقية أو سياسية ولكنها الآن، في ظل العالم المتغير على نحو يثير الدهشة، أصبحت معرفتهم التي يطالبون بها معرفةً خاصةً بهم. وهذه المعرفة التي طُولِب بها مؤخراً تثبت لكل إمرءٍ صحة أساليبه الدينية أو القبلية أو العرقية الخاصة، صعوداً في تسلق السارية الزلقة ومن ثم التحرر دفعة واحدة. إن العالم الغني المبسط، عالم النجاح والتحقق، هو ذاته على الدوام؛ والعالم الآخر الخارجي يعيش في حالة اضطراب مستمرة.

فكّر ويلي: «كنت في هذا المكان سابقاً. يجب عليَّ عدم البدء من جديد. عليَّ ترك الحياة لتسير وفق انحرافها».

* * *

وصلته رسالة من شقيقته ساروجيني. تمَّ تحويلها عن طريق روجر من منزل سان جونز وود، ولا يُظهِر ذلك الخط الدّال على الثقافة الذي مايزال مُشرقاً في نموذجه وثقته أي شيء من الحياة المعذّبة لكاتبة الرسالة. كان كل هذا بالنسبة لويلي في هذه الأثناء أمراً يدعو للسخرية.

عزيزي ويلي، ما سأقوله الآن لن ينبئك بما هو مفاجئ. قررت إيقاف الأشرام عن العمل. إنني عاجزةٌ عن إعطاء الناس ما جاؤوا يقصدونني من أجله. لم أكن في يوم من الأيام شخصاً روحانياً أو لاهوتياً، كما تعلم. لكنني اعتقدت بعد الذي كنت ماضيةً فيه أن ثمة شيئاً يحتوي على بعض الفضيلة في حياة الارتداد والسكون. أشعر بالأسف أن أقول إن لدي شكوكاً مُحزنة الآن حول أسلوب أبينا في إدارة الأمور. لا أظن أن دوره كان يتعدى إعطاء الناس القليل من المساحيق والجرعات. وجدتُ أن هذا ما توقّعه هؤلاء مني. إنهم لا يحملون لعنةً، لأستخدم كلمة مهذبة، لحياة التأمل والاسترخاء، ووجدت أنّه من المريع التفكير بما كان على أبينا أن يُكوّنه طوال تلك السنوات. رغم أن ذلك بالطبع لم يفاجئني. إنني أتساءل فيما إذا لم تكن الأمور على هذا الحال باستمرار، حتى في الأيام الغابرة زمن حكمة التشرد في الغابات التي تروق لقلوب طاقم التلفزيون هنا. ذهب الكثيرون إلى الخليج، للعمل عند العرب. مؤخراً لم تعد الأمور هناك تسير على ما يرام ولهذا عاد معظم عمال الخليج الآن. إنهم يائسون من القدرة على المحافظة على نمط حياتهم، كانوا تعّلموا كيفية التحدّث، وها هم يجيئون إليَّ طالبين مني الصلاة لأجلهم أو تقديم التعاويذ لهم. غير أن التعاويذ التي أرادوها فعلياً كانت شبيهةً بتلك التي عرفوها في الخليج من قِبل الروحانيين الأفارقة والأولياء المسلمين، أطباء دجالين بالنسبة لكلينا أنا وأنت. أما بالنسبة للكثيرين فإن هذه الهراءات الإفريقية هي العلاج

الأحدث، هل تصدق، لا يمكنني وصف الضيق الذي انتابني خلال الأشهر الأخيرة. أصدافٌ ووَدَع وأشياء من هذا القبيل. أتخيل أن أبانا كان يتعاطى بأدوات كهذه على مدى سنوات. المال لقاء حبل المشنقة القديم، أفترض، إذا كنت ترغب بهذا التعريف. والخلاصة هي أنني قررت أن أعرِّج كل يوم إلى هذا المكان. راسلت وولف، فوعدني العجوز الطيب من دون أي كلمة لوم ببذل قصارى جهده للقيام بما في استطاعته في برلين من أجلي. سيكون من الجميل تصوير بعض الأفلام الوثائقية من جديد.

بدأ ويلي بكتابة الرد على رسالة ساروجيني في اليوم ذاته. *عزيزتي ساروجيني، عليك الحرص ألا تتأرجحي من تطرّفٍ لآخر. ليس هناك من إجابةٍ واحدةٍ على أمراض العالم وأمراض الرجال. كان هذا على الدوام السبب في إخفاقك* ـ ثم توقف فجأة عن الفكرة: «يجب عليَّ أن لا أحاضرَ بها. لا أملك شيئاً لأقدّمه لها». وتوقف عن الكتابة.

* * *

أصبحت نهاية الأسبوع قاسية على ويلي في مركز التدريب. الجميع تقريباً يعرفون أناساً في الخارج فيذهبون إليهم في العطلة. تتباطأ مطابخ المركز في العمل؛ قليلةٌ هي الغرف التي تظهر فيها الإنارة؛ وتتعالى أصوات حركة المرور في الطرقات الرئيسية بشكلٍ أكبر. بالنسبة لويلي، وهو الذي لم تكن به رغبةٌ بالذهاب إلى الحانات التي على مسافة قريبة يمكن الوصول إليها سيراً على الأقدام، ولا رغبة بالقيام بالرحلة المُقحمة إلى لندن المركزية ليكون برفقة حشود السياح المتبطلين، كانت هذه بالنسبة له حالة شبيهة بالضياع في اللامكان.

اعتقدَ سابقاً أنه من الأفضل الابتعاد عن منزل سان جونز وود لبعض الوقت. لكنه أخذ يشعر بانقضاض الوحدة عليه التي جرّته إلى الخلف نحو الأيام والأسابيع الطويلة يوم كان رجل عصابات؛ فتراتٌ من الانتظار عصيّة على الوصف في المدن الصغيرة، عادةً في غرفةٍ صغيرةٍ خاليةٍ من الشروط

الصحية. حيث بعد غياب الشمس تدب الحياة العاصفة وغير المألوفة في الخارج، الحياة التي لا تجذبه ولا تغريه بالتجوال، دافعةً إياه للسؤال عن مغزى ما كان يفعله؛ وتعود به إلى بعض الليالي في إفريقيا حين كان يشعر بنأيه الشديد عن كل ما عرفه يوماً، نأيه عن تاريخه الذاتي وعن رؤيته لنفسه التي ربما جاءت مع ذلك التاريخ؛ وتعود به إلى المرة الأولى التي كان فيها في لندن منذ ثلاثين عاماً؛ وإلى بعض أمسيات طفولته عندما ـ مستوعباً لأصول أسرته السلالية، بين تأمُّل أبيه، الرجل الذي ينتمي للطائفة، والمخدوع بالحياة التي أهّله لها ميلاده ومُحيّاه الوسيم، وأمه، التي لا طائفة لها ولا تملك مظهراً جميلاً، وهي عدوانية بشتى الطرق، والتي أحبها، هو ويلي، بعمق. مدركاً نتيجةً للنموذج الأشد عمقاً من البؤس أن ليس هناك من مكانٍ حقيقيٍّ له في هذا العالم ـ تعود به إلى تلك الطفولة حين كانت تجيئه في بعض الليالي الحزينة الخاصة، بوضوح شديد، رؤيةُ طفلٍ للأرض وهي تدور حول محورها في الظلام وجميع من عليها يضيعون.

اتصل هاتفياً بمنزل سان جونز وود. شعر بالراحة عندما تناهى إليه صوت بيرديتا في الطرف الآخر. غير أن توقع إجابتها له لم يكن كاملاً. نهاية الأسبوع هو اليوم الذي يمضي فيه روجر لحياته الأخرى. ربما تكون انقطعت الآن تلك الحياة. غير أن ويلي، وهو يمتلك فهماً زائداً لروجر الآن، اعتقد أنها ربما ما تزال مستمرة.

لدى علمه أنها وحدها في المنزل قال: «بيرديتا، أن مشتاق لك. إنني بحاجة لممارسة الحب معك».

«ولكنك عائدٌ قريباً. وأنا لست براحلة. يمكنك المجيء إلى المنزل».

«لا أعرف الطريق».

«هكذا هي الأمور ليس إلّا. ومع مرور الوقت بعد وصولك إلى هنا قد تتبدل مشاعرك تماماً».

لذلك مارسَ الحبَّ معها على الهاتف. استسلمت له، كما فعلت يوم كانا سوية.

عندما لم يكن هناك المزيد مما يمكن قوله، قالت له: «تلقى روجر ركلةً على أسنانه».

إنها كلمات روجر نفسه: بهذا أدرك ويلي أن روجر لا يخفي عنها أي شيء.

قالت: «ليس فقط من قبل عاهرته، وإنما من قبل الجميع. سوف تنقلب ممتلكاته الخاصة بأكملها رأساً على عقب وتتحول إلى فوضى حتى الحضيض. رمتهُ طفرة بيتر إلى الذئاب. إن أملاك بيتر سوف تبقى في أمان على الدوام، بالطبع. وأفترضُ إذا ما قُطِع رأس روجر سيتوجب علينا التخلي عن المنزل. لننزلق عن ساق الفاصولياء نحو الأسفل. لا أتصور أن هذا سيكون شاقاً على كلينا فالمنزل بطبيعة الحال خاوٍ معظم الوقت».

تخيل ويلي أن ما يسمعه هو صوت روجر وهو يتكلم.

قال لها: «أفترض أن عليَّ العثور على مكانٍ آخرٍ للإقامة فيه».

«لا يمكننا التفكير في هذا الآن».

«أنا آسف. يبدو كلامي فظاً، لكنني كنت أحاول قول شيء ما بعد الذي أخبرتني به وحسب. كانت مجرد كلمات».

«لا أدري عما تتحدث. سوف يخبرك روجر بالمزيد».

هكذا، وفي زمن متأخر جداً من علاقتهما، شعر ويلي باحترام جديد لبيرديتا. كانت في عدد لايحصى من المناسبات تكشف ذاتها؛ غير أن هذا الجانب من شخصيتها ـ الحزم، والصلابة، والحدة، والقدرة مع الكفاءة على الإخلاص لروجر في هذه المرحلة من الأزمة ـ كانت أحجمت عن إبدائه.

لا بد أنها تحدثت مع روجر بعد ذلك إذ اتصل بويلي هاتفياً، لكن

اتصاله كان فقط بهدف إخباره أنه آتٍ إلى بارنيت للعودة به إلى المنزل في نهاية الدورة. كان صوته على الهاتف مُشرقاً: رجلٌ غير آبهٍ بشيء، ليس ما توقعه ويلي على الإطلاق بعد الأخبار التي نقلتها بيرديتا.

سأله: «هل تحب حضور حفلات الزفاف؟ ثمة واحدة مَدعوّان لها، إن كنتَ ترغب. هل تذكر ماركوس؟ دبلوماسي جنوب إفريقيا. إنه يخدم كافة الديكتاتوريات القذرة في بلاده. يُبقِي على رأسه منخفضاً وتراه سفيراً في كل مكان. ونتيجة لذلك ها هو الآن يحظى باحترام كبير، كما يقولون. الإفريقي المطواع إلى أبعد حد، والرجل القادر على أن يقودك حتى النهاية إن كنت تود الحصول على أية معلومات حول إفريقيا. لبّى دعوتنا للطعام في منزل ماربل أرش منذ «نصف حياة» ماضية. آنئذٍ كان مايزال يتدرب لكي يصبح دبلوماسياً، وكان لديه حتى ذلك الحين خمسة أبناء أنصاف بيض من قوميات مختلفة. كنتَ أنتَ حاضراً هناك، على المائدة. كان هناك أيضاً أحد رؤساء التحرير من الشمال الذي قرأ لنا من كتاباته الخاصة. عاش ماركوس في سبيل الجنس بين الأعراق، وأراد أن يكون له أحفاد بيض. أَمِلَ أنهُ حين يغدو عجوزاً سوف يسير في الكيغنز رود وهو يمسك بيده حفيده الأبيض. سوف يحدّق الناس فيهما، عندئذٍ سوف يسأل الطفل ماركوس: «علامَ ينظرون هكذا يا جدي؟»».

قال ويلي: «كيف أنسى ماركوس؟ عندما ذهبت إلى مكتبه، لم يتحدث الناشر الذي كان يعمل على نشر كتابي عن شيء سواه. أعتقد أنه كان شديد اللباقة واشتراكياً، يثني على ماركوس ويلعن الأيام القديمة المظلمة لعهد العبودية».

«أفلح ماركوس فيما أراد. وأنجب له ولده نصف الإنكليزي حفيدين، أحدهما أبيض تماماً والآخر أقل بياضاً. أبَوَا هذين الحفيدين سوف يتزوجان. ها أنت ترى، إنه النموذج المعاصر. يأتي الزواج بعد إنجاب الأطفال. سوف يتولى الطفلان، كما أتكهّن، دور الوصيفين. يفعلون هذا في العادة. يُدعى

ولد ماركوس ليندهرست. اسمٌ موغلٌ في الإنكليزية ومعناه «مكان الأحراج»، إذا لم تخنّي ذاكرتي الأنكلو ـ ساكسونية. هذا هو الزفاف الذي دُعينا لحضوره. نصرُ ماركوس. يبدو هذا رومانسياً إلى حد كبير. انحرف بقيتنا إلى أمورٍ متنوعةٍ، وجرينا في مئات من الاتجاهات المختلفة، بعضنا أخفق، غير أن ماركوس وصل سريعاً إلى مطامحه البسيطة. المرأة البيضاء والحفيد الأبيض. أفترض أن هذا سر نجاحه».

كان صوته مشرقاً طوال المكالمة الهاتفية. أما صوت بيرديتا قبله فكان أكثر ثقلاً، ومليئاً بالاضطراب: كما لو أن روجر حوّل قلقه إليها إلى حد ما.

جاء بعد أسبوعين، في ختام دورة التأهيل، إلى المركز كما وعد لكي يُقل ويلي عائدين إلى سان جونز وود. بدت معنوياته مواصلةً لارتفاعها، إلّا عينيه بدتا غائرتين والانتفاخ تحتهما داكن اللون.

سأله: «هل قاموا بتعليمك شيئاً هنا؟».

قال ويلي: «لست أدري مقدار ما علموني. كل ما أعرفه الآن هو أنني إن امتلكت الزمن الكافي فسوف أمضي من جديد في فن العمارة. إنه الفن الحقيقي الوحيد. لكنني وُلِدتُ باكراً جداً. أبكر بعشرين أو ثلاثين عاماً، أي بجيلين. كنا ما نزال نعيش في ظل الاقتصاد الاستعماري، والمهن الوحيدة التي كان متاحاً للصبية التفكير بها هي الطب أو القانون. لم أسمع مطلقاً أحداً يتحدث عن فن العمارة. أتصور أن الأمر مختلف هذه الأيام».

قال روجر: «لعلي أشعر بسهولة أكبر نحو الأساليب القديمة، الطريق المخطط له والواضح. لم أسأل نفسي قط عما وددتُ القيام به. وما زلت عاجزاً عن الحكم إن كان ما أنجزتُه سرّني أو جلب لي السعادة. وأفترض أن هذا ما أصاب حياتي بالوباء».

كانا يستقلان السيارة بمحاذاة المنازل الحمراء الواطئة. بدا الطريق أقل مدعاةً للضيق هذه المرة، وأقل طولاً أيضاً.

قال ويلي: «هل الأخبار بالسوء الذي أوحت به بيرديتا؟».

«أجل، إنها بهذا السوء. لم أفعل بقصد مني أي شيء خاطئ أو غير مُتقن. يمكنك القول إن هذه الكارثة زحفت عليَّ من الخلف. أخبرتك كيف توفي أبي. كان يتطلع إلى لحظة الموت تلك، لكي يقول للعالم بأسره مفهومه الحقيقي عنه. سوف يدعي البعض أنها مجرد طريقة للرحيل، وطريقة لادخار الحقد حتى تلك اللحظة. غير أنني فكّرت بطريقة مغايرة. فكرت أنني لا أود الموت على تلك الشاكلة. أريد الموت بطريقة أخرى. مثل فان غوخ. في سلام مع الحياة، يدخّن غليونه ولا يحمل الكره لأي إنسان. مثلما أخبرتك سابقاً. حياتي بأكملها أُعِدّت لتلك اللحظة. إنني مستعد للانزلاق عن ساق الفاصولياء وأضرب بفأسي حتى الجذر».

* * *

استأنف ويلي رسالته إلى ساروجيني.

... إن ذهبتِ إلى برلين، ربما أستطيع إيجاد وسيلة ألتفُّ بها على القانون وآتي لأكون برفقتك. أية أشهر رائعة كانت تلك. ولكن في هذه الأثناء أعتقد أنه سيكون من الأجدى لو أستطيع الالتحاق بدورة تأهيلية في فن العمارة، الذي هو ما كان عليَّ تعلمه منذ البداية. لا أدري ما ستفكرين به بخصوص هذا. قد تظنين أنني أتحدث مثل عجوزٍ خرفٍ، وربما أكون أنا هو هذا العجوز فعلاً. لا يمكنني الادعاء وأنا في هذا السن أنني أشق طريقي في الحياة. في الواقع، في كل يوم أرى بجلاءٍ أكبر، رغم أنني إنسان حر وناجح مادياً وسليم العقل والأوصال هنا، فأنا أرى أيضاً أنني أشبه من يقضي حكماً بالسجن المؤبد. لا أملك الفلسفة التي تؤهلني للتغلب على المشكلة. ولا أجرؤ على إخبارهم هنا بما أشعر به. سوف يكون هذا نكراناً عظيماً للجميل. يذكرني هذا بحادثٍ جرى في مجلة بيتر بعد حوالي الشهر من وصولي. إن بيتر يدأب على التقاط بطّاته العرجاوات، كما أظن أنني أخبرتك. كنت أنا إحداها، ولم يزعجني ذلك. بالأحرى إنه سرّني. ذات يوم، عندما كنت في مكتبة الطابق العلوي أقوم بتفحصي الاطلاعي الأبدي، لكي أبقي على رئيسة التحرير صامتة، دخلَ

المكتبة رجلٌ يرتدي طقماً بني اللون. إن الناس هنا لديهم نظرة معينه فيما يتعلق بالأطقم البنية ـ هكذا أخبرني روجر. ألقى الرجل التحية عليَّ عبر الغرفة. كانت نبرة صوته متشدقة مبالغة. قال: «كما ترى إنني أرتدي الطقم البني». كان يقصد أنه إما شخص تافه أو متحدٍّ للأعراف، وربما كليهما. في الواقع، كان رجلاً معطوباً. كان الطقم يشي بشكلٍ صريح عن حاله. كان بلون الشوكولا البنية المرّة شديدة الدسم. بعد قليل، في ذلك الصباح نفسه، جاء وجلس قبالتي تماماً على الطاولة ثم قال، بتشدقه المضجر: «بالطبع، كنتُ دخلتُ السجن». قال السجن بدلاً من المعتقل، كما لو أن هذه كلمة أكثر حذاقة. ونطق بكلمة «بالطبع» كما لو أن هذه المعلومة عنه كانت معروفة، وكما لو أن قضاء مدة في السجن هو واجب على كل إنسان. كان هذا بالنسبة لي بمثابة تحذير تام. تساءلتُ من أين التقطه بيتر. كنتُ أعتزم سؤال روجر، لكنني كنتُ أنسى باستمرار. من المخيف التفكير بأولئك البشر الذين يبدون بحالة جيدة فيما هم يحملون جراحهم الخفية، والأكثر ترويعاً هو التفكير هو أنني واحد منهم، وأن ذلك هو ما رآه بيتر فيّ.

توقف عن الكتابة وفكّر: «ينبغي عليَّ أن لا أكتب لها هذا». ثم توقف عن إنهاء الرسالة إلى أن أصبحت الأمور أكثر جلاء أمام عينيه.

* * *

كان ذلك عندما أصبحت ملكية الثروة بعيدةً عن إمكانية الترميم والإصلاح أو غير متماهية المظهر، عند ذلك شرع روجر يتحدث لويلي، ليس عن تلك الكارثة بل عن كارثة أخرى حلّت بحياته خارج المنزل. لم يفعل ذلك دفعة واحدة. وإنما على مدى عدة أيام، مُضيفاً الكلمات والأفكار لما قيل قبلاً؛ لم يكن ما قاله مترابطاً ومتسلسلاً دائماً. بدأ كلامه بأسلوب موارب، ثم توجه إلى موضوعه الرئيسي عبر ملاحظاته المتفرّقة التي ربما كان يحتفظ بها لنفسه في الماضي.

تكلم عن الاشتراكية والضرائب الباهظة، والتضخم الذي سيتبع

الضرائب العالية بشكل حتمي، مدمراً الأسرة ومفهوم الأسرة (أكثر من الأسرة بحد ذاتها) الذي أوجدتهُ القيم التي تمر من جيل لآخر. هذه القيم المشتركة هي التي تُبْقي على تماسك البلاد؛ وإن ضياع هذه القيم يحطّم البلاد ويُغرِقها، ويجعل من الانحدار انحداراً شاملاً.

كان هذا الكلام عن الانحدار بالنسبة لويلي مثيراً للاستغراب. لم يكن سمع روجر يتحدث في السياسة أو السياسيين من قبل مطلقاً (ما عدا أحاديث نادرة حول أشخاص ذوي ميول سياسية معينة)، ونما لديه الاعتقاد أن روجر كان يعاني لامبالاة تجاه المشهد السياسي المار (لكونه في هذه الحالة مثل ويلي نفسه)، وأنه رجلُ الأفكار الليبرالية الموروثة، ومتجذّرٌ في هذه الليبرالية، ومعنيٌّ بقضية حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم. وهو في الوقت ذاته يتعامل من دون قلق مع تاريخ بلاده المعاصر، سائراً مع السيل.

تَبينَ له أنه أخطأ في قراءة روجر. كان روجر يمتلك فكرة متقدمة عن بلاده؛ توقَّع الكثير من شعبها. كان وطنياً، بطريقة غاية في العمق. وتسبب له ذلك الانحدار بالأسى. وهو يتحدث الآن لويلي حول مسألة الانحدار، ومنظر حديقة نهاية الصيف في الطرف البعيد من غرفة الجلوس، اغرورقت عيناه بالدموع. وفكَّرَ ويلي أن هذه الدموع كانت حقيقية بسبب وضعه الحرج، ذلك الوضع الذي كان يتحدث عنه.

تحدث، بشكلٍ هَوَسي، عن زفاف ابن ماركوس، ولم يكن بادياً عليه ربطه بين هذا وما قاله حول دمار مفهوم الأسرة. قال: «بلغ ليندهرست غايته على نحو ممتاز وسعى لما يدعوه الإيطاليون بـ «الأسرة المستهلكة». الأسرة التي لا تملك شيئاً لتُقدمه، غير أنها ما تزال أسرة بالاسم. سوف يكون ماركوس أكثر تحديداً في هذا النمط من الأمور. إنني أتخيل ماركوس يطوف حول الخِيَم ومساكن المعدن والفسطاط وهو يمسك بيدِ حفيده الأبيض مستسلماً لنظرات التدقيق التي يلقيها عليه السكان. هل سيكون ذلك مجرد تدقيق في النظر، أم أنه سيكون استحساناً؟ تغيرت الأزمنة، كما تعلم. هل سيكون على

رأسه قبعة رسمية، أتظن هذا، مرتدياً معطف الصباح الرمادي؟ شبيه بدبلوماسي أسود في إحدى البلدان المضطربة وهو في طريقه إلى القصر الجمهوري، في لحظةٍ نادرةٍ من الصفاء لكي يقدِّم أوراق اعتماده. بلا ريب سوف يرغب القيام بما هو أمثل، ماركوس هذا. هل سينحني للحشد، أم أنه سينظر إليهم شارد الذهن ليس إلّا، وهو يدردش مع حفيده؟ دعني أخبرك أمراً. أثناء وجبة الاستراحة في إحدى مباريات الكريكيت التي كانت تجري في إستاد لورد للكريكيت ـ ليس بعيداً من هنا، عليَّ إعلامك ـ شاهدتُ مرَّة الأسطورة لين هيتون. لم يكن يلعب. كان ضارب الكرة العظيم ذاك غدا عجوزاً، ومعتزلاً للرياضة منذ زمن بعيد. كان يرتدي طقماً رمادياً. رأيته يسير حول الملعب، في مؤخرة المدرج، كما لو بقصد التمرين. فعلياً كان يؤدي دورة وفاء على إستاد لورد، حيث كان هو غالباً من يفتتح الدورات باسم إنكلترا. إن جميع من كان في الإستاد يعرف من يكون ذاك الرجل. جحظنا عيوننا مُحدّقين فيه. لكنه هو، لين هيتون، بدا وكأنه لم ينتبه. كان يتبادل الحديث مع كهلٍ آخرٍ يرتدي الطقم أيضاً. وما كانا يتحدثان فيه بدا لي مقلقاً لكليهما. كان هيتون في الواقع مُتجهِّماً. وعلى هذه الحال سار خارجاً من الإستاد، ينظر نحو الأسفل بأنفه المكسور الشهير وهو متجهم الوجه. هل سيكون ماركوس مثل هيتون، شارد الذهن في دورة الوفاء التي قام بها؟ في استيهاماته هكذا كان يريد للأمر أن يكون. عبر كينغز رود. سوف يتوجب عليه الإذعان لمطالب الضيوف. إنني أتخيل الأنسباء القدامى للأسرة العظيمة التي ستكون ذات يوم على أحد الجوانب، ووَلد ماركوس ورفاقه في الجانب الآخر، أتخيلهم معاً في وقت واحد. سوف يكون ذلك مثل الكرنفال. غير أن ماركوس سوف يعرف كيف يدير الأمور جيداً، سوف يسعى لأن يبدو هذا الزفاف الحالة الأكثر طبيعية في الحياة، وسيكون من السّار مشاهدة ذلك».

قال في يوم آخر: «في هذه الأيام تكون حفلات الزفاف مثل الكرنفالات. منذ زمن بعيد دُعيت إلى إحداها، في المنطقة الأخرى التي

أذهب إليها. حطمنا كل شيء، وبدّلنا القواعد في كل شيء، بيد أن السيدات ما زلن يرغبن بحفلات الزفاف. هذا ينطبق بشكل خاص على تجمّعات سكان مساكن البلدية. إن مساكن البلدية هي مجموعة من الشقق أو المنازل التي تبنيها البلدية لفقراء رعايا الأبرشية، كما جرت العادة على تسميتهم. ما عدا أن هؤلاء الناس ما عادوا فقراء الآن. كل واحدة من النساء تنجب ثلاثة أو أربعة أطفال من ثلاثة أو أربعة رجال والجميع يعتاشون على الإعانات. ستون باونداً عن كل طفل أسبوعياً. إنها البداية فحسب. لا يمكنك تسمية هذه بالصدقة. لذلك فنحن نطلق عليها اسم الإعانة. تنظر النساء إلى أنفسهن كآلات لتصنيع النقود. إنها شبيهة بـ *إنكلترا* ديكنز. لا شيء تغير ما عدا أنه أصبح هناك كمية كبيرة من المال في المتناول، والمحتال الكبير الآرتفول دودجر يعمل بشكل ممتاز في الواقع، رغم أن كل شيء غالي الثمن والجميع رازحون تحت الديون بشكل مزرٍ ويريدون رفع قيمة الإعانات. ومع ذلك يطالب هؤلاء بقضاء إجازة أو إجازتين في العام. ليس في بلاك بول ولا في ماينهيد ولا في مالوركا الآن، بل في جزر المالديف أو فلوريدا أو في ملاهي الجنس المبتذل في مكسيكو. يطالبون بساعات من الطيران في السماء، وإلا فإنها لن تكون إجازة مميزة: «لم أقضِ إجازة مميزة هذا العام». وهكذا تجد الطائرات محتشدة بأولئك الرعاع وهي تطير بهم من مكان إلى آخر وهم يسرفون في الشرب، والمطارات تصبح مُتراصّة بالبشر. أسبوعياً تنشر الجرائد عشرين صفحة من الإعلانات عن الإجازات زهيدة التكاليف، إنك تحتار كيف لأيٍ كان حتى في مكسيكو أن يستخلص النقود منهم. الحفلة التي سنذهب لحضورها هي لامرأة لديها ثلاثة أطفال من طباخ أحد الملاهي كانت تساكنه من حين لآخر. كان الطبخ عمله في العادة، ولكن أيضاً وبشكل متقطع كان يعمل في الليالي الاحتفالية خاصة حارساً لأحد الملاهي. هذا هو الأمر الأكثر إخافةً للمحاكاة الاجتماعية. القبعات الرسمية ومعاطف الصباح على مستجديّ أيام الدوام الأسبوعية. هذا ما تريده النساء الضاريات لرجالهن في حفلات زفاف أيام الآحاد. ومن أجل أنفسهن يرغبن بالفساتين الطويلة والوشاحات لكي يخفين الرضوض والعيون

الكالحة التي يخلّفها الحبُ الذي يأتي ويذهب، ما يدعونه بالعلاقات. في يوم الحفلة المحدد ذاك يأكل الأطفال المسحوقون عادة، سواء كانوا سمينين أو هزيلين، السندويش والبيتزا والبطاطا المقلية وأصابع الشوكولاتة، يرتدون ملابسَ أنيقة ويتم حشوهم بالأطعمة الأكثر غنى. مثل الثيران اليافعة التي تُستولد من أجل قتلها في حلبة مصارعة الثيران، يتم استيلاد هؤلاء الأطفال كقرابين وبأعداد كبيرة من أجل الحصول على الإعانة الاجتماعية التي يجلبونها لمنزل البلدية. إنهم لا يتلقون الرعاية فعلياً، ومحكوم على معظمهم بالتعرّض للتحرّش أو الاختطاف أو القتل، وعندئذ يتزودون، مثل الأسرى الرومان الذين يقاتلون حتى الموت هؤلاء الصغار المميزين، لا أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام على أبعد تقدير، بالاهتياج الاجتماعي الذي يوظَّف في حملة الانتخابات البرلمانية. لقد أخبرتك مرة أن الوحيدين هنا والذين هم ليسوا من العامة، في كونهم مزيفين وذوي مصلحة شخصية، هم عامة الناس».

قال ويلي: «أذكر ذلك. لقد راقني ذلك الكلام. قلت ذلك حين كنا في طريقنا من المطار. كانت لندن جديدة جداً بالنسبة لي وفقط في تلك اللحظة، وما كنت تتفوه به كان جزءاً من رومانسية تلك اللحظة».

قال روجر: «كنتُ مخطئاً. بدت فكرة لا بأس بها فعبّرتُ عنها. وقعتُ في مصيدتي الليبرالية. إن عامة الناس مضطربون ومتقلّبون شأنهم شأن البقية. إنهم ممثلون، شأنهم شأن جميع الآخرين. يغيّرون نبرة صوتهم. يحاولون التشبه بأبطال المسلسلات التلفزيونية، والآن ها هم فقدوا التواصل مع ما كان يمكن أن يكون فعلياً، وليس هناك من يخبرهم. أنت لا تملك أدنى فكرة عما يشبه هذا السقوط، إلى أن تعيشه. إن أسوأ أنواع الإدمان هو عندما لا تجني أية بهجة من ارتكاب الرذيلة ومع ذلك لن تكون مسروراً بدونها أبداً. هكذا تبدو حالتي. بدأ الأمر بالشكل الأشد بساطة. وقعت عيناي على امرأة ترتدي ثوباً مميزاً عندما كنت متوجّهاً في أحد أيام نهاية الأسبوع لرؤية أبي. لم يكن لدى المرأة أية فكرة حقيقية عن الأشياء غير الجديرة بالاهتمام والتافهة وهذا ما جعل

منها امرأة ساحرة، أخمن أن هذا يصح أيضاً فيما يتعلق بما تحبه النساء في الرجال. أخبرتني أن بيرديتا أثارت إعجابك في أول غداء تناولناه سوية. في مطعم تشيز فيكتور، في واردور ستريت».

قال ويلي: «كانت ترتدي قفازين مقلمين. نزعتهما عن أصابعها وصفعتهما على الطاولة. تلك الحركة فتنتني».

«كانت امرأتي ترتدي ثوباً أسود من الليكرا. هذا ما قيل لي لاحقاً. البنطال أو السروال انسدلَ نحو الأسفل من الخلف، كاشفاً عن شيءٍ أكثر من جلدها. كان ذلك الثوب رخيصاً جداً، غير أن ذلك كان سحراً إضافياً في نظري. شفقة قلب الفقراء، شفقة المحاولة مع نموذج من ذلك المستوى. كانت لدي فكرة عمن كانت وعمن يمكن أن تكون. منحني ذلك الواقع، واقع الاختلاف بيننا، الشجاعة لأن أكوي طقمي».

وهذه كانت، عندما ترابطت جميع أجزائها، الحكاية التي رواها روجر.

11

الرضع

كان أبي مريضاً (قال روجر). لكنه لم يكن بلغَ احتضاره بعد. اعتدتُ زيارته في نهاية الأسبوع. واعتدتُ التفكير كم كان المنزل رثاً، كان أكثر شبهاً بكوخ مزرعة منه بمنزل، وكم هو مليء بالغبار والدخان، كم ينقصه الطلاء، وذلك كان ما فكر فيه أبي أيضاً. فكّرَ أنه كان مأوى واهن لأن يُرمى فيه بعد حياة من الكد والعمل.

شعرتُ أن أبي شديد الرومانسية في نظرته لنفسه. خاصة حين بدأ يتحدث عن حياته الطويلة في العمل. كان هناك عمل ثم عمل. إن إنشاء حديقة أو إقامة مؤسسة، كانت صنفاً واحداً من الأعمال؛ كأن يسلّي الإنسان نفسه. عمل من هذا الطابع يمكن القول عنه إن فيه مكافأة للذات. أما القيام بمهمات متكررة في الإشراف على ممتلكات شخص آخر أو على مشروع عظيم فهو أمر آخر. لا يوجد أي تكريسية أو قداسة حول ذلك العمل، أياً تكن المقتبسات الإنجيلية التي يتم إلقاؤها على الإنسان. اكتشف أبي هذا في منتصف العمر، عندما كان الأوان قد فات للتغيير. وهكذا أمضى النصف الأول من حياته في الفخر، فكرته المتورمة عن مُنشأته وعمن كان هو نفسه. وانقضى النصف الثاني منها في الإخفاق والعار والغضب والقلق. لخّصَ المنزل حالته. كان هذا متناصفاً في كل شيء. ليس بكوخ مزرعة ولا بمنزل، ليس بائساً ولا مرتباً. بل مكان صُرِفَ عن الذهن وتُرِكَ على حالَهُ. من الغريب التفكير الآن أنه تقرر لي أن تؤول لي تلك الأشياء بشكل مختلف.

لم أكن أحب الذهاب إلى المنزل. لكن الواجب هو الواجب، في تلك الأيام كان أحد أهم مصادر انشغالي هو إحضار من يرعى شؤون المنزل من أجل أبي. كان ذلك عهدٌ يعمل فيه قسمٌ رئيسيٌّ من السكان في الخدمة المنزلية. ولذلك لم أجد مشكلة في ذلك. مبلغ معين من المال عليَّ إنفاقه، ولكن لن تكون هناك من مشكلة مستديمة، حين تقرأ كتباً عن مرحلة ما قبل الحرب الأخيرة فإنك تلاحظ، إن كان لديك هذا الميل الخاص في عقلك، أن الناس يغادرون بأريحية تامة منازلهم ويقضون الزيارات على مدى أيام أو أسابيع. إن الخدم هم من كانوا يتيحون لهم هذه الحرية. تراهم دائماً في المنزل الذي تتركه خلفك، ولا يُشَار إليهم إلّا بطريقة غير مباشرة. ما عدا في القصص البوليسية المشوّقة ذات الطراز القديم، لم يكن يبدو أن هناك كلاماً كثيراً عن اللصوص والاستراحات. ثمة سرقة في ب. ج. وود هاوس، ولكن مع ذلك فإن ذلك لم يتعدّ جزءاً صغيراً من عمل كوميدي، كما في الرسوم المتحركة المعاصرة، حيث قناع العيون والكيس المتدلي يسِمَان لص الحي الكوميدي.

اندثرت طبقة الخدم. لا أحد يدري إلامَ تحولوا. أمرٌ واحدٌ يمكننا التأكد منه هو أننا لم نفقدهم كلياً، وهم مايزالون يعيشون معنا بمظاهر مختلفة، في ثقافة ومواقف الاتكالية. في كل مدينة أو قرية كبيرة لدينا الآن الطبقة الملحقة من سكان مساكن البلدية، جماعات السكان الذين يعيشون على الإعانات التي وُجِدَت في الأصل من أجل الفقراء. وهذه الجماعات معروفة حتى في القطار. إن فيهم تشوهاً اجتماعياً مدروساً، وكبتاً واعياً لأفكار الجمال والإنسانية التي تنهض من القلب بشكل عفوي. ينبغي تدريس نظريات التشويه الاجتماعي. يجب أن يُلقنّ الناس أن ما هو بشع هو جميل فعلياً. إن كلمة أنسيللا تعني في اللاتينية مربية، الفتاة العبدة، والخادمة. اعتزمت هذه الطبقات التي تقطن مساكن البلدية عن قصد إعطاء الفقراء نوعاً من الاستقلالية، فتقدموا بسرعة نحو ما كان عليهم أن يصبحوا: ينتشر العبد المتطفل ويتورم فوق الجسد الأساسي. إنهم يعيلون أنفسهم من خلال

الضرائب العامة. لا يقدمون شيئاً بالمقابل. وأصبحوا، من جهة أخرى، بؤراً للجريمة. قد لا تتوقع هذا لدى مشاهدتك لهم في القطار، غير أنهم يشكلون اعتداء متواصلاً على المجموع الأكبر. من المستحيل وجود تكافؤ تام لعصر مع آخر، لكنه لن يكون مدعاة للاستغراب إن كانت النسبة المئوية للناس في أحد الأزمنة التي تعمل في الخدمة المنزلية غير متكافئة الآن من خلال أرقام طبقة مساكن البلدية.

بالطبع، فيما يخص هذا النوع من المنازل ما نزال قادرين على التماس المساعدة من أحدهم. نضع بطاقاتنا الالتماسية الصغيرة في شباك لبيع الصحف المحلية، وفي الموعد المحدد ثمة من يلبي رغبتك ويأتي لتنظيف المكان. ويذهب هذا في الموعد المحدد أيضاً. وبما أن أحداً لا يضع في عقله قائمةً بمحتوياتِ منزله، فإننا لا ندرك أن هذا مفقود وذاك اختفى إلّا بعد رحيلهم. وضع ديكنز مطبخ لصوص فاجن في منطقة سفن ديالز في لندن، بجوار ما هو الآن توتنهام كورد رود، جنباً إلى جنب مع المكتبات. من هناك قام فاجن بإرسال عناصره القليلين لكي ينشلوا محفظة صغيرة مثيرة للرثاء أو ليسرقوا منديلاً جميلاً. بالنسبة لديكنز فقد تمادى أولئك الجوالون في سرقاتهم، أما بالنسبة لنا فهم شديدو البراءة والجسارة. في الواقع إن الظروف تفرض علينا الآن استدعاء المحتال الخبير أرتفول دودجر وعصابته إلى داخل منازلنا، وتخبرنا شركات التأمين، بعد فوات الأوان، أن ما يضيع بهذه الطريقة لا يمكنها تعويضه مطلقاً. إن لدى المحتالين المعاصرين حاجات غريبة متنوعة: كمية السكر الموجودة في المنزل بأكملها؛ وربما كامل كمية القهوة أيضاً؛ وجميع الأغطية؛ ونصف الملابس الداخلية؛ وجميع الصور الإباحية، حتى بتفاصيلها الصغيرة.

وتغدو الحياة في هذه الشروط، إلى حد ما، عبارة عن رهان واضطراب متواصلين. لكننا جميعاً نتعلم التكيّف والعيش معها. في الواقع، بعد الكثير من الأخذ والرد والبحث المتواصل، عثرنا في آخر الأمر على شخصٍ مناسبٍ للاهتمام بمنزل أبي. كانت فتاة ريفية، لكنها كفوءة جداً لهذه المهمة، عازبة

ولديها طفلان وأب مزدوج، إن كان هكذا تعبير مقبولاً قواعدياً، كانا يرسلان لها مبلغاً من المال في كل أسبوع. كانت تتحدث عن أناس كونهم من «أصل جيد» وبدتْ كأنها تريد الإيحاء أنها وبعد أخطائها السابقة تكافح لبلوغ الأشياء الأسمى. لم يؤثر فيّ هذا الكلام بل أخذته كمؤشر على النزعة الإجرامية. لقد عرفت المجرمين طوال حياتي المهنية، ومن خلال تجربتي وخبرتي فإن هذه هي الكيفية التي يقدم بها المجرمون أنفسهم.

غير أني كنت مخطئاً بخصوص تلك المرأة. بقِيتْ عندنا وكانت طيبة وموثوقة. كانت في الثلاثين من عمرها، متعلمة وقادرة على الكتابة بشكل معقول، وأنيقةَ الملابس (تشتري ثياب الموضة الأرخص من منشآت التحويل البريدي)، وكان سلوكها وعاداتها حسنة. بقِيتْ على مدى ست سنوات، أو سبع، أو ثمان. ثم أصبحت دائمة. وبدأتُ - تقريباً - أُسلِّمُ بوجودها.

كنت شديد الحرص أن لا أبدي أي اهتمامٍ بحياتها الخاصة. إنني أكيدٌ أن ذلك كان شديد التعقيد والصعوبة، بسبب ما كان يرتسم في نظراتها، ولكنني لم أكن أرغب في الاطلاع على خفاياها. كنت أخشى الانغماس في تلك التفاصيل. لم أكن أرغب في معرفة أسماء الرجال الذين مرّوا في حياتها. لم أكن أرغب في معرفة أن صفات سايمون، البنّاء، كانت كذا أو صفات مايكل، سائق التاكسي، كانت كذا.

كنت أذهب عادة إلى كوخ المزرعة في مساء الجمعة. وفي أحد صباحات السبت، ومن غيرِ أن أحثّها، أخبرتني أنها أمضت أسبوعاً مضنياً. كانت أياماً عصيبةً إلى درجة أنها جاءت ذات مساءٍ إلى المنزل، وركنت سيارتها الصغيرة في الكراج ثم أجهشت بالبكاء. سألتُها ما الذي دفعها للمجيء إلى كوخ المزرعة من أجل البكاء.

أجابت: «ليس هناك من مكانٍ آخرٍ أذهبُ إليه. أعلم أن أباك لن يساوره القلق. وبعد كل هذه السنين فأنا أقدّر كوخ المزرعة هذا وكأنه بيتي».

استوعبتُ ما كانت تعنيه؛ مزّق كلامها قلبي؛ ولكن حتى عند تلك

اللحظة لم أكن أريد بشُكل أصيل معرفة التفاصيل. بالطبع مع مرور الوقت قامت بتخطّي أزمتها وأصبحت هادئة وأنيقة بسلوكها الحسن المعهود.

مضى بعض الوقت. ومن ثم بدأتُ من جديد أدركُ أن هناك شخصاً جديداً في حياة جو. ليس رجلاً وإنما امرأة. فتاةٌ جديدةٌ من فئة سكان مساكن البلدية، شخص تمَّ اكتشافه وحسب. كانت هاتان المرأتان، جو والأخرى، تتبجّحان كل منهما أمام الأخرى حول غنى حياتهما، كانتا تتبجّحان بالأسلوب الذي تتبجّح به النساء عادةً. اسم تلك المرأة كان ماريان. كانت مُولعةً بالفن؛ تصنع الستائر وتلون الأواني الخزفية؛ نقلت عدوى الرغبة في تقليدها إلى جو. بدأتُ أسمع في نهايات الأسبوع كلماتٍ عن التكلفة المرتفعة لأفران التحميص؛ ستمئة أو ثمانمئة باوند. كانت فكرتي بحيث طُلِب مني باسم الفن والمسعى الاجتماعي العام لجو إنفاق مالي على شراء فرنٍ منزلي كهربائي. نفقةُ أعمالٍ كان من الواضح أنه لن يتم تغطيتها في يوم من الأيام. وهذا ما كان، لم تتلق جو أية عائدات من حرفتها وفنها. ومع الوقت كانت قد دفعت المال لقاء الصواني والصحون الخزفية غير المزخرفة التي كانت تضع عليها رسوماتها من الأزهار أو كلب مثلاً أو هر مدلل في كوب الشاي، ثم تدفع المال مقابل تحميصها لأحد مالكي الأفران في المساكن البلدية، ومن أجل استئجار كشك في معرض الحرف اليدوية، والسفر إلى المعرض، في الوقت الذي كانت تقوم فيه بكل هذا لم يكن يبدو عليها أي انتفاع منه على الإطلاق. تصوّرتها وهي تجلس بائسةً قرب منتجاتها الفنية في المعرض، مثلما قد تجلس إحدى أسلافنا في تنورتها الطويلة والقبقاب في زمنٍ أكثر بساطةٍ قرب بيوضها في واحدٍ من أسواق القرية، وهي مستعدة في نهاية النهار المرهق لأن تبادل كل ما بحوزتها بحفنةٍ من البذور السحرية.

في بعض الأحيان يدعوك أحد تجار الفن النشيطين، الذي تكون قد تعرّفتَ عليه للتو فقط، لتناول الطعام برفقته. للوهلة الأولى يبدو لك أن كل ما في منزله أو شقته المصممة والمرتبة بشكل بسيط دالٌّ على الذوق الجميل

ومُنتقى بعناية، الاكتشافات التي تثير الحسد للعين المتفردة. في النهاية، حين يسيطر عليك إلحاحٌ داخلي للتعليق على جمال طاولة البلوط الطويلة التي كنتَ تتناول طعامك عليها، تسمع أنها معروضةٌ للبيع هي وجميع القطع الأخرى التي شاهدتها في المنزل. عندئذ تدرك أنك لم تكن مدعواً إلى مأدبةٍ فقط وإنما لحضور أحد المعارض، بالطريقة التي قد يدعوك فيها أحد المصورين إلى بيتٍ أثري، لغايةٍ أكبر بقليل من إسداء خدمة لشركتك.

هكذا كانت الأمور تجري مع جو هذه الأثناء. أخذتْ في صباحات الأحد تحلُّ الرزم الضخمة والثقيلة من أعمالها، صوانٍ مرسومة، وأعمال زخارف الأسلاك المعدنية، والصور الشخصية والمناظر الطبيعية متشعّبة الخطوط المصنوعة من الشمع، إضافةً إلى لوحات فحم حيوانات، ولوحات مائية للأنهار وأشجار الصفصاف. كل ما هو قابل للتأطير وُضِع في إطار. إضافةً إلى الألواح الزجاجية الكبيرة التي كانت السبب في ارتفاع وزن هذه الأحمال.

وضعتني معارض السبت تلك تحت بقعة الضوء. في الواقع جلب لي هذا الأمر السرور. بالنسبة لي كان ذلك تحفيزاً لكي أرى النشاط الروحي في المكان الذي لم أكن آمل منه بأي شيء. ولكن التعبير عن اهتمامك كان يعني بالضرورة المساهمة في نشر حملٍ آخرٍ في السبت التالي. أما قولك لجو عندئذٍ إن هناك موهبةً حقيقيةً في أعمالها وإنها قد تكون فكرة سديدة بالنسبة لها أخذ دروس في الرسم أو الألوان المائية فلن يجعلك تتلقى منها أي رد فعل. هذا ما لم تكن ترغب في سماعه.

بطريقة ما وصلتها فكرةُ أن الموهبة فطرية ولا يمكن أن تأتي قسراً أو بالتدرب عليها. حين قلت إن إحدى القطع تشير إلى تطورٍ لافتٍ، كان ردها: «أخمّن أنها كلّها سُكبتْ فيها». كانت تقصد موهبتها التي ترتقي مزبدةً، وهي لم تكن تقول هذا تبجّحاً أو غروراً. لا بد أنها كانت تتحدث عن شيء خارج ذاتها هي. شعرتُ أن تلك الأفكار شبه السياسية حول فطريّة الموهبة

الفنية ـ وعدم قابليتها للتصنيف: أُشِير إلى هذه الفكرة غير مرة ـ قد تلقفتها من أحدهم. اعتقدتُ أنها ربما تكون صديقتها الجديدة ماريان.

استلزم مني بعض الوقت لكي أدرك أن جو لم تعرض عليَّ أعمالها بقصد سماع وجهة نظري النقدية. كان هدفها أن تبيعني تلك الأعمال الفنية. أرادت مني إخبار أصدقائي اللندنيين عنها. كنت الهاوي الوحيد للمعرض كله. وكذلك أبي. لم تكن الأعمال التي تحضرها جو في صباح السبت أعمالها وحدها. كان هناك العديد من القطع التي أبدعتها ماريان، وكانت سخيّةً بخصوص تلك الأعمال. لم يكن هناك من غيرةٍ بينهما. أخذتُ أشعر أن هاتين المرأتين، إحداهما تشجع الأخرى، أصبحتا مروَّعَتين بنفسيهما. كانتا مجرد جزءٍ من البشر العاديين؛ غير أن الموهبة التي تمتلكانها جعلتهما معتبرتين، بشكل يتعدى السياق العام للنساء. أُغرِمتا بكل قطعةٍ أنجزتاها. كلٌّ منها كانت بالنسبة لهما معجزة صغيرة. لقد ضقتُ ذرعاً بهما. بمثل هذه الطريقة يقدم غالبية مجرمي الطبقة العاملة أنفسهم، أو أولئك الذين لديهم نزعات إجرامية، إلى الطبقة الوسطى. ظللت متنبهاً ومتيقظاً لهما بدرجةٍ كبيرةٍ.

كانتا تفضلان أحياناً ترك الأعمال في كوخ المزرعة. من كان مقصوداً بهذا السلوك هو أبي وليس أنا. مع أنه كان فظاً مع الغرباء، إلّا أنه كان مهذباً مع جو. كان يحب أن يعطي الانطباع أنه بين يديها وطوع أمرها. وفعلياً لم يكن كذلك البتة. أمتعَهُ ذلك القدر الضئيل من النشاط: لعبة السطوة القليلة المستمرة، واستجداؤهما في سبيل أعمالهما الفنية تلك، جعلهما تظنان أنه أكثر ضعفاً مما هو في الحقيقة. كانت فكرة جو وصديقتها أن جمال القطعة الفنية بعد أسبوع أو نحوه سوف يكون طاغياً، وسرعان ما سيقوم أبي بشرائها. لا يمكنكَ لومهما؛ هذا ما يفعله البعض من باعة لندن.

أقيمَ أحد المعارض الحرفية المهمة. سمعتُ به قبل معرفة جو به بعدة أسابيع. كان سيقام يوم الأحد، وفي صباح ذلك اليوم دخلت شاحنة فولفو إلى مرآب كوخ المزرعة. خلف المقود امرأةٌ لا أعرفها. حسبتُ أنها ماريان.

كانت جو جالسة قربها. جاءتا لتحملا الأعمال التي ألقتاها سابقاً لكي يعتاد عليها أبي. ترجّلت جو من السيارة أولاً، وكمن يعرف طريقه في المكان جيداً، دلفت إلى داخل المنزل. وبعد وقتٍ قصيرٍ خرجت برفقة أبي الذي، وهو يبالغ في ضعفه (فقط في مسألة الأعمال الفنية تلك)، كان يسير خلف جو ويعاونهما بشكلٍ غير فعالٍ في إخراج قطعٍ مُشَكَّلةٍ على نحو أخرق ومتنوعة الأحجام (إطارات كبيرة، وألواح زجاجية كبيرة) إلى الرواق.

كانت غرفتي تقع في طرف كوخ المزرعة، قرب بوابة المدخل، عند المدخل الضيق للممر شبه الدائري. لذلك استطعتُ رؤية ماريان من الخلف، عندما خرجتْ لكي تلقي التحية على أبي. انسدلَ بنطالها الفضفاض، الشديد الترهل بلونه الأسود، قطعةٌ من ثوبٍ أسودٍ، نحو الأسفل حتى النهاية. وساهم ذلك الترجّل الحيوي من الفولفو، مستخدمةً عجلة القيادة لتدفع بجسدها إلى خارج السيارة، في جعلهِ ينحدر أكثر نحو الأسفل.

قالت لأبي: «كنت شديدة الإعجاب بمنزلك البديع هذا. سمعتُ عنه الكثير من جو».

كنتُ قبل ذلك قد كوّنتُ شخصيتها في مخيلتي. ولكن، كما حدث لي مرةً إثر أخرى أثناء عملي في السنوات الأخيرة، فإن مثل هذه الكياسة الاجتماعية لم تكن على الإطلاق ضمن دائرة توقعاتي منها. ولا حتى الفولفو الكبيرة، وهي تقودها بانسيابيةٍ متناغمةٍ فيما، وهي جالسةٌ وراء المقود، كانت تنحدرُ بها داخل المنعطف المغلق الجوانب والخطِر لمرآب منزلنا. استطعت على مدى سنوات بعد ذلك أن استحضر تلك اللحظة في مخيلتي. كانت امرأةً فارعةَ الطول، وقامتها تثير الدهشة إلى حدٍ ما، لم تكن في هيئتها تنتمي للعموم أو لسكان مساكن البلدية، لها جسد رياضي ممشوق. ورسّختْ نظرةٌ خاطفةٌ على الجزء الأسفل من جسدها، القماش الخشن الأسود مقابل جلدها الناعم، تلك اللحظة في ذاكرتي. قامت بتسوية الطرف الخلفي من بنطالها

بحركةٍ سريعةٍ من يدها اليمنى، جاذبةً إياه نحو الخارج والأسفل قليلاً، قبل أن تعيد شدّه إلى الأعلى بشكلٍ مستقيم. كنت أشك إن كانت واعيةً لما تفعله. ومع ذلك بقيتْ ذكرى تلك الحركة معي. ولاحقاً، حين كنا نلتقي، كانت تلك اللحظة تبعث فيّ رغبةً مفاجئةً تجاهها. أو كانت تستطيع أن تغلّف أداء حياتي بأكمله.

راقبتهما تضعان القِطعَ في صندوق الشاحنة ثم تقودان السيارة مبتعدتين. كنتُ شديد التوق والاهتياج العصبي لأن أنادي على جون. وهكذا حدث أنني غدوت ممسوساً بامرأةٍ لم أكن حتى قد رأيتُ وجهها. تداعت أفكاري عن الجريمة والكوميديا واضمحلّت.

سألتُ جو يوم السبت كيف سارت أمور المعرض. أجابتني أن الأمور لم تكن مُرضية على الإطلاق. كانت هي وماريان تجلسان طوال النهار في الكشك (بإيجار خمسة وعشرين باونداً) ولم يحدث أي شيء يُذكر. قرابة نهاية الظهيرة اقترب منهما بعض الرجال وبدوا مهتمين، غير أن غايتهم لم تكن إلّا محاولة مصادقتهما.

قلت: «رأيتُ ماريان حين جاءت إلى هنا في الأحد الماضي».

سعيتُ لأن تكون كلماتي حياديةً قدرَ الإمكان. لكن النظرة التي ارتسمت في عيني جو أنبأتني أنني وشيتُ بنفسي. إن النساء حاذقات فيما يتعلق بالافتتان الجنسي، حتى عندما لا يكنَّ هنَّ أنفسهنَّ معنيات به. جميع أحاسيسهن متمرسة على التقاط ذبذبات بداية الاهتمام والميل، وفقدان الرجل للحيادية. ربما تقول النساء إنه بالنسبة لهن ثمة جنسانية مهمة خارجة عن طورهن. ونحن نتيح لأنفسنا رؤية ما يقصدنهُ، غير أننا في هذه الحالة نمرُّ اتفاقياً بالسِيَر الذاتية للنساء التي هي عبارة عن أحداث متبجّحة مؤلفة من سلسلةٍ لولبية الشكل؛ غالباً في السِيَر الذاتية لكاتبةٍ ميتة، لنقول إنها كانت شديدة الجدية والحساسية في عصرها، إن الحياة التي تُقَدَم لنا بهدف إثارة

إعجابنا (أما وقد زالت الكتب الآن) هي بالدرجة الأولى حياةٌ من الالتفاف والتلولب.

احتجبَ لمعان عيني جو بالخبث والتواطؤ. كانت هي نفسها تكشف عن شخصيةٍ جديدةٍ، كما لو أنها لكي تجاري ما اكتشفته فيّ.

سألتُها: «ما عمل ماريان؟».

«هي سبّاحة؛ تعمل في الحمامات المحلية في مدينتنا التسويقية».

وضّحتْ لي إجابتها هذه سرّ الجسد الرياضي. لم أدخل أبداً ولا مرة الحمامات المحلية وتخيلتُ نفسي في حوضٍ كبيرٍ، برفقة ماريان الحافية في ثياب السباحة تقوم بدورتها داخل الحوض، تمشي فوق مستوى رأسي بقدمٍ أو قدمين. (رغم معرفتي أن الأمر لن يكون هكذا: وعلى الأرجح أنها ستكون في بدلةٍ صَدَفيةٍ اصطناعية من إحدى الماركات، وهي تجلس على طاولة الشاي المصنوعة من الخشب الرقاقي المُبقَّع بالماء والمبيض بفعل أشعة الشمس، تتناول القهوة الرديئة أو الشاي وتقرأ في إحدى المجلات).

قالت جو، كما لو أنها قرأت أفكاري: «إنها فتاةٌ جميلةٌ، أليس كذلك؟». تتحلى بالشهامة كما عهدها دائماً عندما يتعلق الأمر بصديقتها، لكن تلك النظرة المتواطئة لم تفارقها، كما لو أنها كانت مستعدة لخوض أية مغامرة معي قد تتضمن صديقتها.

فكّرتُ في الجسد المرتاح الرياضي وهو متمدد في السرير، جسدٌ نظيفٌ يرقد تحت البطانيات النظيفة، وهي تعبق برائحة الكلور والماء والنظافة، فأصبحتُ مهتاجاً إلى درجةٍ عميقةٍ.

قالت جو: «ارتكبتْ زوجاً من الأغلاط، مثلها مثل الجميع».

كانت لغة جو هكذا، تحمل أصداء من المفاهيم القديمة الغريبة: الأغلاط هي بلا ريب الأطفال الذين يولدون من رجال غير مناسبين.

قالت: «كانت تعيش مع أحدهم لفترة معينة من حياتها».

راحتْ تقصّ عليَّ ما فعل ذلك الرجل، غير أنني أوقفتها. لم أكن أرغب في معرفة المزيد. لم أكن أريد تكوين صورةٍ له. لو حدث ذلك لكان أمراً لا يُطاق.

* * *

كانت ملاحقتي لماريان (قال روجر) هي أكثر ما عرّضتُ نفسي له من إذلالٍ طوال حياتي. وفي النهاية، لكي أُمعنَ في إذلال نفسي، اكتشفتُ أن نساء مساكن البلدية في سن ماريان يفكرن بالجنس بطريقة عملية جداً. يمكنك القول بالطريقة الأشد صراحة وبساطة، أو الأوّلية والأكثر طبيعية، تقريباً كما عندما يذهبن لشراء غرضٍ هن بحاجةٍ له، وبالروح الرياضية نفسها التي يمضين بها للتسوق في بقاليات الأسعار المنخفضة (في ليالٍ معينة، حين تخفِّض محلات السوبر ماركت من أسعار السلع نتيجة انتهاء مدة صلاحيتها).

أخبرتني ماريان لاحقاً (عندما حققتُ مأربي من ملاحقتي لها، وكانت علاقتي في نهاية الأسبوع معها اكتملت تقريباً) أن مجموعاتٍ من شابّات منطقتها يقمن حفلة يوم الخميس أو الجمعة أو السبت ثم يخرجن إلى الحانات والملاهي، يلقين الشِباك من أجل ممارسة الجنس مع رجالٍ يتوهَّمنهن في بصيرتهن. تلك كانت الكلمة «أتوهمهُ». ليس هناك من امرأةٍ لا ترغب بامتلاك رجلٍ توهَّمتهُ. أمكن لهذه المناسبات أن تنحرف بشكلٍ قاسٍ جداً. ينظر رجال الأوهام أيضاً إلى الجنس والنساء بشكل عملي، وهكذا قد تتعرَّض النساء ببساطة للتعامل الخشن. وإذا ما اعترضت إحداهن بصوتٍ عالٍ أو بوابلٍ من الشتائم الفاحشة عندئذٍ تجد نفسها مستحمّة بـ «شامبو البيرة»: يمكن أن تجد نفسها وقد أُفرِغت زجاجة بيرة فوق رأسها. كان ذلك برمته جزءاً من لعبة الجنس، جزءاً من الذهاب إلى الملهى في نهاية الأسبوع. معظم من يقمن بمثل هذا الارتياد تقريباً يتلقين في كل مرة شامبو البيرة. وفي النهاية يحصل الجميع على الجنس، إن كانوا سماناً أو متذمرين.

أخبرتني ماريان في أحد الأيام عن امرأةٍ شابةٍ تقطن حيّها، وهذه الفتاة كانت تعيش على رقائق البطاطا وألواح الشوكولا اللذيذة والبيتزا والبرغر، كانت سمنتها هائلة. أنجبت تلك المرأة ثلاثة أطفال، مفرطي السمنة كأمهم، من ثلاثة آباءٍ مختلفين. ظننتُ أنها حكاية ترويها ماريان بقصد الانتقاد، حول السباحة والنظام الغذائي السيئ والسمنة. غير أني كنت مخطئاً. معظم النساء في منطقة ماريان كنَّ سمينات. السمنة بذاتها لم تكن هي الحكاية. الحكاية كانت حول النجاح الجنسي والشهوة الجنسية لدى المرأة السمينة. لم تكن النظرة الأخلاقية التي ظننت أنني كونتها موجودة. كانت ماريان تتحدث بأسلوبها النمّام على وقاحةِ تلك المرأة السمينة وعبثها. قالت: «إن الأمر شبيهٌ بتلك المصبغة الصينية في ذلك المنزل، برجالٍ يدخلون ويخرجون بسرعة».

كانت هذه طبيعةُ لغة ماريان. حادّة وتنسجم مع كل ما يحيط بها. بالنسبة لي كان كل ذلك يشكل كلاً واحداً.

حتى لو امتلكتُ المعرفة الكاملة أو الناقصة حول خلفية ماريان لم اعتقد أن ذلك سوف يعينني في توددي لها، اسمح لي باستعمال هذه الكلمة غير الملائمة. كنت عاجزاً عن تجسيد حالة رجال أوهام الحانات. لم أتمكن من التعرّف على الكيفية التي تُعامل من خلالها امرأةٍ بعنفٍ في الحانة أو يُصبّ شامبو البيرة عليها. كنت قادراً على أن أكون أنا نفسي ليس إلّا، واعتمد على فنون الإغراء التي امتلكتها وحسب. تلك الفنون بالكاد كانت موجودة عندي. رمت بيرديتا وقلةٌ من الأخريات الشبيهات ببيرديتا، كما يقال، بأنفسهن علي. لم يفعلن ذلك من أجل غايات جنسية صريحة. لم يكن الهدف من ذلك سوى الزواج. قلّما كان الجنس حاضراً في تلك العلاقات. كنت مُقِرّاً بهذا، شريكاً أو زوجاً، هذا كل ما في الأمر. ولهذا لم أبحث عن النساء أو أسعى للفوز بهن مطلقاً. كنَّ بمنتهى البساطة موجودات، وها أنا أكتشف الآن أنني، في مسألة رغبتي في الفوز بماريان، لا أمتلك أية موهبةٍ في الإغواء البتة.

لن يكون الرجال أكثر حماقةً أو سخافةً مما هم عندما «يقومون بإيماءةٍ جنسيةٍ». تهزأ النساء بهم على وجه الخصوص، رغم أن أولئك النسوة أنفسهن يشعرن بجرحٍ لمشاعرهن إن هن لم يتلقين تلك الإيماءة. استطعت فهم تلك العبثية بشكلٍ عميقٍ، ولم أكن قادراً على تحقيقها بنجاح، لو لم تكن جو أسدت إليَّ بخدماتها. مهدتْ جو ليَ الأرض، إن جاز التعبير، بحيث إنني عندما التقيت ماريان كانت تعرف هذه الأخيرة بميلي نحوها. التقينا في ردهة نزل التدريب القديمة في المدينة. الفكرة، التي كانت اقتراح جو، كانت أن أصادفهما هي وماريان أثناء عودتي من كوخ المزرعة، فيما هما تحتسيان الشاي أو القهوة بعد ظهر السبت. كانت تلك هي البساطة بعينها، كما قالت جو، لكن ذلك اللقاء المصادفة كان أكثر سهولةً للمرأتين مما هو لي. أصبحتُ أكثر ارتباكاً، وكنتُ بالكاد احتمل النظر إلى ماريان.

غادرتْ جو، وبقيتْ ماريان لكي تشرب مشروباً ساخناً في البار المظلم، واطئ السقف والخالي تقريباً. ثم عرضتُ قضيتي. في الواقع، أسعفتني دراستي القانونية والتناظر القانوني في ذلك. كل شيء فيها سحرني، نحولة خصرها، صوتها، نبرتها، لغتها ولا مبالاتها. كلما شعرت أن شجاعتي أخذت تغادرني كنت أفكّر في بنطالها المتهدل الفضفاض ينسلّ أسفل وهي تخرج من سيارة الفولفو. خطر لي أنه من المهم أن لا أترك الأمور معلقة لأسبوع آخر. سأفقد الزخم والحماسة، وربما أفقد معه شجاعتي أيضاً، هذا إضافة إلى أنها قد تغير رأيها. قبِلتْ دعوتي لها لتناول الطعام؛ بدت وكأنها تعتقد أن ذلك تمت الموافقة عليه مسبقاً. إذن فقد قامت جو بدورها على أكمل وجه. أفضل مما فعلتهُ أنا لنفسي. لم أقم بأية ترتيبات. فكّرت لثانيةٍ بإمكانية اصطحابها إلى كوخ المزرعة، لكنني كنت أعرف أن مثل هذا العمل سيؤدي إلى فاجعة: فأبي، رغم اعتلاله، مايزال يمتلك جاذبيته الغريبة. لهذا فالطعام لم يتعدّ الطعام. بعد ذلك لم يكن عليَّ القيام بأي شيء تجاه تلك العلاقة. يمكنك القول إنني وماريان كنا نمتلك نوعاً من التودد أحدنا تجاه الآخر. شربنا النبيذ المنزلي؛ راق

لها. ورتبنا موعداً للقاء في اليوم التالي على الغداء. شعرتُ أنني أستطيع إغداق ثروةٍ هائلةٍ على جو لقاء ما فعلته من أجلي.

حجزتُ غرفةً في النزل تحضيراً لليوم التالي. أمضيتُ ليلتي قلقاً وصباحي مكتئباً. أخذت أبحث داخل ذاتي لأرى إن كنتُ عرفت في حياتي أزمنةً قلقةً كهذه، أزمنةً يلتهمني بها التوق المعذّب، والارتياب الذاتي، ولم أتوصل إلى الاعتقاد أنني عشت مشاعر مشابهة في أي يوم من الأيام. شعرت أن كل ما في حياتي يتوقف على إغواء هذه المرأة واصطحابها إلى السرير. في أزمات أخرى يكون لدى المرء رؤية ما عما يستحقه وعن العمل الذي يؤديه والمكان الذي تجري به الأحداث. غير أني في هذا الجزء المتعلق بالإغواء لم يكن لدي أية تجربة. كان ذلك هو الرهان الأكثر مصيرية. كل شيء عائد لطبيعة رد فعل الآخر. فيما بعد، عندما استطعت معرفة المزيد عن أسلوب حياة ماريان وصديقاتها، ظهر لي قلقي هذا إلى درجة فوق العادة كأحاسيس حمقاء ومحزنة.

ولكن، كما أخبرتك سابقاً، حتى لو كنت على اطلاع على تلك الأساليب مسبقاً ما كانت لتجدي نفعاً.

انتهت ليلتي الطويلة، وجاء موعد الغداء. بعد ذلك توجهنا إلى الغرفة التي حجزتُها ذات الأثاث الداكن البالي. الآن، كم هو رهيبٌ ومخيفٌ أن تعانق غريباً، كحالتي تلك بالضبط. بدتْ ماريان مستخفّةً جداً لأن تقاومني، وكنت مرتاحاً. نزعنا عنا ملابسنا. خلعت ملابسي كما لو كنت في عيادة الطبيب، وأتحضر لإجراء فحص عن الطفح الجلدي. السترة على الكرسي؛ من ثم البنطال، السروال التحتي والقميص، كل ثيابي خلعتها ووضعتها بشكل شديد الهدوء والإتقان.

كان إبطا ماريان داكني اللون بشعر حريري.

قلت: «إذن فأنت لا تحلقين الشعر».

«طلبَ مني أحدهم أن لا أفعل في وقتٍ ما من الزمن الماضي. يظن البعض أنه مقرف. يشيحون بوجوههم بشكل غريب حال رؤيته».

«لكنني أحب هذا».

سمحتْ لي بتمسيده، وأن استشعر ملمَسهُ الحريري. تسبب هذا في زيادة إثارتي، ووظفتهُ إلى جانب الصّور الأخرى التي أملكها عنها في مخيلتي. بلغتُ الرعشة قبل قليل مما كان ينبغي. كانت باردة. استقرّت من جديد ولفترة طويلة على جانبها الأيسر، وركها مرتفع، وبطنها غائر، وخاصرتها اليمنى ناعمة وعضلية مكتنزة. كان ذراعها الأيسر يغطي نهديها الصغيرين جزئياً. أما الأيمن فكان مرفوعاً ومائلاً فوق رأسها، كاشفاً عن شعر إبطها. كانت تلبس الخواتم في اثنتين أو ثلاثة من أصابع يدها التي غطت نهديها: عطايا من المتعبّدين السابقين، فكّرت، غير أنني أغلقت عقلي عنهم.

قالت، بأسلوبها البارد وهي تنظر إلى الأسفل إلي: «ألم تكن تريد ممارسة الجنس الشرجي معي؟».

لم أدرِ بما أجيبها.

تابعتْ: «أظن أن هذا ما كنتْ تود القيام به».

ما زلتُ حائراً ما أقول.

قالت: «هل ذهبت إلى أوكسفورد أو كامبردج؟». ومع إيماءةٍ من سخط مطّت جسدها عبر السرير إلى حقيبتها. وبسهولة، كما لو كانت تعرف مكانه مباشرة، أخرجت أنبوباً من المرهم الدهني.

ترددتُ. ثم مرّرتْ المرهم إليَّ قائلةً: «لن أقوم بهذا من أجلك، افعله بنفسك».

لم أكن أتصور أنه يمكن لامرأةٍ عاريةٍ ومكشوفةٍ أن تكون بمثل ذلك التعجرف.

أصدرت أوامرها. وبدوري أطعت. لست أدري إلى أي مدى كان عملي مُتقناً. لم تخبرني هي.

حين ارتدينا الملابس ثانيةً، كانت مفعمةً بالحيوية والامتلاء حتى النهاية تقريباً. أما أنا فكنت كذلك جزئياً فقط، بعد ذلك قُرِع جرس الباب. تذكرت، متأخراً جداً، أنني في غمرة اهتياجي نسيتُ إضاءة نور «المشغول».

هنا استشاطت غضباً وأخذت تبدو كمخبولة. قالت: «أنت، ادخل الحمام». ثم صرختْ على من بالباب طالبةً منه الانتظار، وراحت ترمي بثيابي إلى الحمام، السترة، والحذاء، قذفتْ بكل ما وقع تحت يدها، كما لو أنها ودت لو تمحي أي أثرٍ مني في غرفة النوم.

ولم تكن إلّا خادمةَ الغرف، إسبانية أو برتغالية أو ربما كولومبية تقوم بجولة استطلاع معتادة.

كنتُ واقفاً في الحمام الضيق كممثلٍ في مسرحيةٍ هزلية.

ومع ذلك أصبحت بعد لحظة أكثر تركيزاً على التفكير في سلوكها. لعل هذا كان بقيةً من النظرة الأخلاقية والشعور بالعار، المشاعر الخارجة عن سيطرتها. ربما لأنني لم أكن واحداً من أولئك اللذين يصبون فوق رؤوس نساء المساكن البلدية شامبو البيرة. لذلك فإن قواعد، وأساليب جديدة سوف تُطبَق، بل ربما حتى مشاعر سوف تستحضر إلى داخل اللعبة.

لم تقدم لي أي تفسيرٍ على الإطلاق، وعندما أعربتُ لها عن أملي بالتقائها نهاية الأسبوع التالي لدى مجيئي من لندن أجابت بالإيجاب ومن ثم أردفت بطريقتها المتناصفة، طريقتها المتناقضة: «دعنا نرَ».

اشتريت لها قطعة مجوهرات جميلة، فيها فص من حجر الأوبال. كلفتني هذه عدة مئات من الباوندات. آثرتُ أن أشتري لها مجوهرات حقيقية لأنني كنت موقناً أنها سوف تريها لصديقاتها. إحداهن، قد تكون جون، سوف تشير إليها بحملِ هذه القطعة إلى تريشوانز، بائع الحلي المحلي، لكي

يقيّمها. وفي ذات الوقت أردتُ الانسجام مع قدراتي المادية: على أية حال، لم يكن الأوبال من بين الأحجار الكريمة الأكثر غلاء.

كانت مسرورة عندما قدمتها لها مساء الجمعة.

أمسكتْها بأصابعها ثم نظرتْ متأملةً في اللمعان الأزرق والتلألؤ، العاصفة المنمنمة اللانهائية التي تندلع في الحجر. رغم أن عينيها كانتا تومضان بألق الفرح، إلّا أنها قالت: «يقولون إن الأوبال غير محظوظ».

كنتُ حجزتُ غرفةً في أحد الفنادق لنهاية الأسبوع. تألفت إدارته من إسباني وبرتغالي وكولومبي. اخترق الكولومبيون مدينتنا التسويقية، عبر ما يشبه الشبكة، من خلال تأمين بعض الحاجات المحلية التي تتعدى تلك التي يمكن لعامل بسيط تلبيتها. لهم روح أبناء منطقة المتوسط، يتحملون بشكلٍ لا محدود، وقد عاملونا، أنا وماريان، هم والآخرون وكأننا أصدقاء قدامى. وهذا أودى بكل شكل من أشكال الارتباك الذي ربما كان سينتابنا أنا وماريان بخصوص علاقتنا الجديدة وترتيباتها.

في الواقع، كان لقاؤنا في الفندق رائعاً. شبيهاً بأن يمضي المرء عطلته في مكانٍ أجنبي خاص بأحدهم، وأن يكون المرء غريباً في منزل شخص آخر. كأن تحيا تفاصيل البار وغرفة الطعام والنوم واللغات المجهولة لك. على بعد أميال قليلة فقط عن كوخ مزرعة أبي وحديقته التي عَلَتها الأعشاب والتي كانت بالنسبة لي على مدى زمن طويل مبعثاً للكآبة، وتحيا تفاصيل عمر السقوف الباهتة والجدران والصور القليلة الملطخة تحت الزجاج المسخَّم. مكانٌ لحياةٍ تُعاش خارجاً والآن بإمكانية غير موجودة في لحمي، متشبِّعةً بغيظ أبي غير القابل للتهدئة ضد أولئك الذين لم أكن أعرفهم إلّا في حكاياته.

عشتُ اضطراباً متواصلاً طوال الأسبوع مشغولاً بلقائي الثاني بماريان. ذات الاضطراب تقريباً الذي اعتراني قبل لقائنا الأول. وصلتُ الفندق مبكراً. جلستُ تحت سقف الردهة الواطئ («كمٌّ غنيٌّ من حِزَم الأشعة»، كما يَعِد

بروشور الفندق)، ونظرتُ عبر جادة السوق القديمة إلى حيث، متوارياً خلف المنعطف، كان صفٌ من سيارات التاكسي والباصات المتوقفة في الموقف. كانت مشرقةً في ظهورها. إنها الكلمة التي حضرتني لدى رؤيتها. ترتدي بنطالاً مزركشاً بأزهار ربيعية غامقة اللون، بخصرٍ عالٍ، مما جعل ساقيها تبدوان شديدتي الطول. جعل التموُّج اللوني لبنطالها منه مكتسحاً. كانت تسير برشاقةٍ وهي مفعمةٌ بالحيوية. وكنت مرتاباً إن كنتُ مهيّأً للتعامل مع كل ذلك الإشراق. ولكن عندئذ تناهى إليّ، فيما أتابعها بعيني توسُّع من خطواتها تجاه الفندق، أن البنطال كان جديداً، ابتاعته خصيصاً للمناسبة. كان هناك ما يشبه علامة انثناء على طول منتصفه. لا بد أنه آتٍ من المتجر مباشرةً: ثوبٌ مطويٌّ وملفوفٌ بعناية في منديل ورقي ووُضِع في صندوقٍ أو حقيبةٍ. أصابني تأثّر هائل بهذه الإمارة عن حرصها وتحضّرها. وألقتْ في قلبي الراحة إلى حد ما. وفي الوقت نفسه جعلني أشعر أنني غير جديرٍ بها، متسائلاً عن التحديات القادمة. وهكذا تعاظم توتري العصبي أكثر مما كان في البداية.

ليس هناك مثل هكذا تراجيديا في غرفة النوم: أظن أن هذا ما قاله تولستوي لصديقٍ له. لا أحد يعلم ما كان يرمي إليه تولستوي. أهي الحاجة المتكررة المثيرة للخجل؟ أم الإخفاق؟ أم الأداء السيئ؟ أم الرفض؟ أم الإدانة الصامتة؟ من بعد ذلك المساء جرت الأمور بالنسبة لي على نحوٍ شديد الشبه بما حدث ليلتها. اعتقدتُ أنني أثرت افتتان ماريان من خلال شعوري بترف الفندق في ساحة السوق، وغرابة الإحساس الذي يخلّفه وجود إدارته الأجنبية بأكملها، ولكونه يقع في مكان في الأطراف. فكّرتُ أن النبيذ الذي شربناه على الطعام قد ضاعف وحفّز من تلك المشاعر. غير أن مزاجها البعيد والغامض عاوداها حين وصلنا إلى السرير. لا بد أنها امرأةٌ أخرى هي التي قَبِلت وسعِدت بقطعة الأوبال.

نزعتْ ثيابها وقدمتْ نفسها، ومن ثم كشفتْ عن جسدها كما حدث من قبل. البطن الرياضي الغائر، والورك المرتفع الجميل، مع المنفرج الداكن،

وهي تُظهر لي شعر إبطيها. في هذه الأثناء كنت مزوداً بشكل أفضل للقيام بما كان من الواضح أنها تود مني فعله معها.

لكنني لم أعرف البتة إن كنتُ أُمتّعها. ظننتُ أني ولا بد أفعل، غير أنها لم تصرِّح بهذا مطلقاً. لعلها كانت تمثّل؛ لعل ذلك كان صنفها من النساء؛ أو لعله شيء اكتسبته من إحدى صديقاتها المتبجحات؛ أو لعله سلوكٌ فرضتهُ عليها طفولتها القاسية في المساكن البلدية؛ بقيةٌ باقية من الحياء الطبيعي وأسلوب للتعاطي مع تلك الحياة.

وتلك كانت ـ بما أن العقل يمكنه التعامل مع عدة أشياء في وقتٍ واحدٍ ـ هي الكيفية التي وجدتُ لنفسي مبرراتها فيما كنت أرتعش من الرغبة الخالصة، وبالكاد قادرٌ على تصديق ما تقدمه لي، وأنا راغبٌ في ذات الوقت بالاستيلاء على الحالة بأكملها.

لاحقاً، حين نَمَت تلك المخاوف في داخلي، أثناء سعيي لتقويض فكرة اكتشاف الأحاسيس، وعيتُ أنه في تلك الأيام الأولى لم يكن أدائي حسناً. كان سيدمّرني ذلك لو عرفته آنئذ. ولكنني في ذلك الوقت، في غرفة نوم الفندق، لم أكن أعلم.

قالت في منتصف السهرة: «أرى أنك جئت واضعاً حزامك. هل تنوي ضربي؟».

كان لدي فكرةٌ معينة حول ما تومئ إليه. غير أن هذا كان بعيداً كل البعد عن طبعي. لم أجب بشيء.

قالت: «يمكنك استعمال الحزام. ولكن لا تستعمل أي أداة أخرى».

سألتني بعد أن مارسنا الجنس باستخدامه: «هل ازرقت مؤخرتي؟».

لم تكن كذلك. بعد عدة أسابيع سيكون الجواب نعم، ولكن ليس في تلك المرة.

سألتني: «هل منحك هذا رعشة جنسية فائقة وقذفاً مميزاً؟»

لم يحدث هذا لي. لكنني لم أقل هذا.

قالت: «شعرت بعضوك وامتلكته». وأخذت تؤرجح ساقيها القويين خارج السرير.

هكذا، وبعد كل ما جرى بيننا، ظلّت تحافظ على تلك المسافة بيننا. فكّرتُ أن ذلك كان هو الميزة الخالصة لحالتها أثناء تراجيديا غرفة النوم، وهذا ما أثار إعجابي بها. وافقتها طوعياً على الإبقاء على تلك المسافة. لو لم أفعل لكان يمكن لهذه العلاقة أن تكون كأي علاقة أخرى فقط، وذلك ببساطة كان مستحيلاً. ماعدا غرفة النوم وذلك الكمد في مزاجها، لم يكن هناك أي شيء آخر يجمعنا تقريباً. قلما وجدنا ضرورة للتحدث في الأمور.

معلومةٌ ربما قرأتْها في كتاب جريء، أو كتيب إرشادي، أو تلقّفتْها من الحديث مع إحدى صديقاتها، هي التي أدّت لها بفكرتها حول حاجاتي الاستثنائية وعضوي، كما قالت. ربع كلامها كان صحيحاً فقط. كنت على الدوام اعتقد نفسي رجلاً بقوة جنسية ضعيفة. تماماً مثل أبيك يا ويلي، من خلال ما أخبرتني عنه، رجلٌ غاص في تأملاته الكئيبة وجعل منها جزءاً من شخصيته ومن سلواه لنفسه في الأزمات، ولهذا أصبحت رؤيتي لقوتي الجنسية الضعيفة جزءاً من شخصيتي. هذه الرؤية جعلت الأمور بسيطة بالنسبة لي. ممارسة الجنس مع إحداهن، معرِّضاً نفسي لذلك النمط من الحميمية، أمر مثير لاشمئزازي. يؤكد البعض بإصرار أنك إن لم تكن شيئاً فمن المؤكد أنك الشيء الآخر، يعتقدون أنني أميل للرجال، والعكس صحيح. أما الواقع فهو أن العلاقة الجنسية بجميع تفاصيلها تبعث على القرف بالنسبة لي. كنت باستمرار أعتبر أن ضعف قوتي الجنسية هو شكل من أشكال الحرية. إنني متأكدٌ أن هناك الكثيرين مثلي. روسكين وهنري جيمس، هما مثالان غريبان، لكنهما هما من استحضرهما عقلي الآن. ينبغي السماح لنا بامتلاك حريتنا.

عندما شاهدت للمرة الأولى مجلة عصرية تتضمن صوراً جنسية كنت في الأربعينات من عمري. صُدِمت وانتابني الخوف. تلك المجلات كانت مرمية في المكتبات لسنوات طويلة، جميعها تقريباً لها الغلاف ذاته، ولم يخطر في بالي النظر إليها في يوم من الأيام. أقول هذا بمنتهى الصدق. لاحقاً تصفحت مجموعة متنوعة أخرى من المجلات المصورة الأكثر تخصصاً. جعلتني تلك المجلات أشعر بالعار. جعلتني أفكر أننا جميعاً نستطيع التدرب على هذه الاستطالات للشعور على نحو شنيع. النزر القليل فقط من النشاطات الجنسية تُمَارَس بشكلٍ عفويٍ. وكل ما تبقى يجب أن يتم تعلمه. اللحم هو اللحم. جميعنا قابل للتعلم. ومن دون التدريب لن نعلم شيئاً حول ممارساتٍ معينة. كنتُ أفضّل لو لم أتعلم. أظن أن ماريان استطاعت التقاط كل هذا الجهل فيّ. كانت راغبةً في توسيع معرفتي، وبالطبع ضمن حدود معرفتها هي، داخل الحدود التي هي نفسها كانت تدربت عليها، وقد نجحت إلى حد ما.

التقيتها في منتصف العمر حين كنت، كما أبي، بدأت أشعر أن وعدَ سني عمري المبكرة، فكرتي المتورمة إلى حد ما عن ذاتي، اختمرت وحمضت. أخذت خيانة بيرديتا ـ ليس الفعل بحد ذاته، الذي كنت قادراً على احتوائه من دون ألم (لا بل ربما بشيءٍ من المرح)، وإنما الذلّ العمومي الذي عرَّضني له ـ تستنزفني. لم أستطع أن أثور غاضباً عليها، وأضع القوانين أنا، لأنني لم أكن أملك شيئاً لأقدمه لها بالمقابل. لم يكن أمامي سوى التحمل والصبر.

قلت لك أن شيئاً لم يكن يجمعني مع ماريان خارج جدران غرفة النوم. غير أني كنت محتاراً وأنا أنشد تلك الحيرة. ولأنني عرفت ماريان فلم أشأ التعرف على أية امرأة أخرى بتلك الطريقة، وتساءلت إن كنا قادرين على وصف تلك العلاقة بأنها نوع من الحب: تفضيل ممارسة الجنس مع شخص بعينه أكثر من أي أحدٍ آخر. بعد قرابة العام، في مدينتنا التسويقية، صادفتُ

شابةً لها مظهر العامَّة تجري في صباح السبت البارد من مكان عملها باتجاه المخبز لتنضم إلى الرتل المنتظر لفطائر التفاح. كانت أكثر عرضاً وسمنة في الأمام من ماريان، ببطنٍ متهدلٍ. كانت ترتدي بنطالاً أسود من الليكرا وتغطي جذعها بالسواد أيضاً. جعل التمدد القماشي من الترهل يبدو في بطنها وصدرها، وبينما كانت تجري في الجو البارد، متعلّقةً بصدرها الذي لا يثير انتباه أحد، كان لحمها يظهر ويرسم خطاً محيطياً عليها من الخلف مثلما كانت ماريان يوم رأيتها للمرة الأولى خارجة من سيارة الفولفو في كوخ مزرعة أبي. لم يكن لدي رغبة على الإطلاق في رؤية المزيد من المرأة الراكضة نحو المخبز.

لأكثر من مرة، في منزل سان جونز وود، كنت أتفحَّص ملياً جسد بيرديتا ومشيتها، تلك المشية التي كان لها معجبوها. أصغي لصوتها ذي الإيحاء الكونتيسي، ذلك الصوت العذب بكل ما في الكلمة من معنى، وأتساءل لِمَ أحالتني كل هذه إلى شخص بارد، ولماذا بملء إرادتي دفعت الآلاف لقاء مقابلتي للآخر والاستمتاع معه، في المكان الآخر.

* * *

سقطتُ داخل هذا النموذج الجديد من الحياة: أيام الأسبوع في لندن، نهاية الأسبوع في الريف برفقة ماريان. مع مرور الأيام تخلصت من قلقي معها، مع أنه كان مايزال هناك على الدوام سواد مزاجها ونأيهُ داخل غرفة النوم. كلما ازددت معرفةً بها، وجدت نفسي أتقدم معها جنسياً. لم أكن أريد أن أسفحها خلال نهايات الأسبوع تلك، إذا جاز القول؛ لم أكن أرغب في أن أبدو عديم النفع معها. وبحلول صباح الأحد كنت أقترب من الوهن، وأتوق للتحرر منها، وأجد نفسي في طريق العودة إلى لندن. وكانت ليالي الأحد، وهنا المفارقة التناقضية، هي أجمل أوقات الأسبوع بالنسبة لي، زمن بقية البهجة واللذة والعزلة والأفكار المسترجعة. حين يتحول الإنهاك الجنسي والاسترخاء شيئاً فشيئاً إلى شعور عام بالتفاؤل، هكذا كنت أصبح مستعداً

لتمضية بقية الأسبوع. معْ وصول يوم السبت أكون قد بلغت الإحباط وتجدني خائر القوى من جديد؛ مرة أخرى تملأ رأسي صور ماريان؛ وفي مساء الجمعة أغدو أكثر شغفاً للعودة إليها. ذلك ناتج عن التفاؤلية التي أمضي الأسبوع بها، عليَّ إخبارك بهذا، كنت قادراً على العمل، والعمل بكدٍّ في سبيل أهداف خيّرة متنوعة، بما فيها إخراجك من سجنك الهندي. تلك الأهداف الخيّرة كانت مهمة بالنسبة لي. أعطتني فكرةً ما عن ذاتي التي أستطيع الاستمرار بحياتي من خلالها.

بالشكل الذي سارت به، يمكن اعتبارها علاقة مثالية، ببعدٍ يكفي لأن يُبقي على تأجج الرغبة بيننا. استمرينا على هذه الحال إلى أن جاءت طفرة ثروة بيتر. عندها، وبدافع رغبتي في التأثير على بيرديتا، وربما أيضاً برغبة أكبر قليلاً في جلب السعادة لنفسي، أمضيت بضعةً من نهايات الأسابيع في منزل بيتر الكبير. عليَّ القول إن سلوكي مع بيرديتا في تلك المناسبات كان جيداً. خدمني التفاؤل الذي اكتسبته من ماريان كثيراً. راق لبيرديتا زيارة المنزل الكبير وأن يُطلَب منها الانتظار مع المجموعة، رجالٌ فاسدون ذوو بنطلونات مقلّمة. عندئذٍ دخل صوتها الأثير اللعبة، وسرّني أن ألعب معها دور المتودِّد. أدّيت الدور على أكمل وجه: جلب ذلك المتعة إلى قلب بيرديتا. زاد هذا الوقت الإضافي من البعد عن ماريان من حدة رغبتي في العودة إليها حالما أستطيع. وهكذا، حصل كلٌّ على منفعته.

غيّرنا الفندق عدّة مرّات، مع أننا بقينا في ذات المنطقة عموماً: كنت أتمنى باستمرار، حين كان أبي حياً، البقاء ضمن مساحات امتداد كوخ المزرعة. في البداية كان هذا التنقل ناتجاً عن أن ماريان لا تريد أن يراها أحد من أصدقائها أو أقاربها. أما لاحقاً فباتَ ذلك التنقل بقصد التجديد بشكل رئيسي: غرفةٌ جديدةٌ، وطاقم فندقٍ جديد، وردهةٌ وبارٌ جديدان، وغرفة طعام جديدة. فكّرنا لبعض الوقت في شراء شقة أو منزل في أطراف إحدى البلدات الصغيرة، أغرتنا الفكرة لعدة أشهر، لكننا وفيما كنا ندخل في التفاصيل

أخذت تصبح فكرة إدارة شؤون المنزل فكرةً تبعث على الضيق أكثر فأكثر لكلينا.

لم تكن العناية بالمنزل في نهاية الأسبوع هي ما أريده مطلقاً. سوف تكشف لي الجانب الأسري من ماريان الذي أغلقتُ عقلي عنه. كان ذلك الجانب الأسري مرمياً هناك في الوراء على الدوام؛ كنت أستطيع أحياناً أن أشعر بالمشاكل العائلية تلقي بثقلها على ماريان؛ لكنني لم أرغب في معرفة المزيد. رؤية ماريان ربةَ منزلٍ في مساكن البلدية تعيش يوماً بيوم، سوف يؤدي كل هذا إلى تلاشي السحر الذي أوجدته في أساليبها الخشنة ولهجتها المشوّهة. تلك المزايا التي كانت تسير جنباً إلى جنب على نحو غريب مع رائحة النظافة التي تفوح من السبّاحة، وجسدها الرياضي. غير أن فكرة التملك أثارتها؛ في النهاية اشتريت لها مسكناً من مساكن البلدية تعيش فيه هي وحدها، شكلٌ من أشكال التعويض. كانت القوانين تغيرت مؤخراً، لكي تسمح لمستأجري مساكن البلدية بشراء منازلهم. أيام أواخر الأسبوع برفقة ماريان لم يكن لها ثمنٌ عندي، والمبلغ الذي حددته البلدية ثمناً لمنزل ماريان كان أكبر من المعقول.

بالضبط كما يعتاد الناس - كما يقول أبي - تدريجياً على ظروفهم المرضيّة والتي، في حال حلّت بهم دفعةً واحدة، تكون انقلاباً لعالمهم وكارثةً أشد فجائعية من الحرب أو الاجتياح، في ظل الدمار الذي يلحق بأي روتين مألوف والتداعي الذي يصيب بعض الجوانب. هكذا تقدمت في طبيعة حياتي الاجتماعية الجديدة: أعيش بشكلٍ مكثفٍ في نهاية الأسبوع برفقة من عجزتُ عن إقامة أي حديثٍ فعليٍّ معها، والتي لا أود أن «أخرج بها» أو أعرّفها على أي كان.

فيما بعد، بعد حوالي تسع أو عشر سنوات، بعد مغادرتك لخرائبك الإفريقية مباشرة وإقامتك في برلين الغربية، على بعد دقائق من خرائب شرق

برلين، قرابة ذلك الزمن وقعتُ على اكتشافٍ أدبيٍّ. أخذت أقرأ مختارات من صحف لجنتلمان فيكتوري يدعى أ.ج.منبي، ووجدت رفيقاً.

وُلِدَ منبي في العام 1828 وتوفي العام 1910. هذا ما يجعل منه المعاصر التام لتولستوي. كان رجلاً يتحلّى بثقافةٍ رفيعة المستوى، وكاتباً حياً وبارعاً في الأسلوب الفيكتوري السهل، وكان أيضاً متعمقاً في الحياة الفنية والفكرية لعصره. عرف الكثير من الأسماء العظيمة. بعضهم، من أمثال روسكين وويليام موريس، عرفهم بالنظر فقط. وحين كان مايزال يافعاً كان قادراً على إلقاء التحية على ديكنز في الشارع ومن ثم، وعبر كلماته القليلة في صحيفته، كان يمكنه إثبات المظاهر الجسدية لكاتب بعمر اثنين وخمسين عاماً: غندور، فيه نزرٌ من ممثلٍ، ومختال بأصابع نحيلة وقبعته مائلة فوق رأسه.

لكن منبي ـ مثل روسكين وديكنز ـ كان لديه سرٌّ جنسي. كان منبي ميالاً بشكل شغوف للنساء العاملات. أحب النساء اللواتي يستخدمن أيديهن في الأعمال الشاقّة وحرفيّاً اللواتي تكون أياديهن قذرة. كان يحب منظر الخادمات في أوساخهن، كما قال، أصابعهن ووجوههن مسودَّة بفعل السخام والدخان. من المستغرب لنا هذه الأيام كم كان يوجد من الأعمال القذرة في ذلك الزمن، تنظيف المداخن... الخ، والتي كانت تقوم بها النساء من دون معدّات وبأصابع عارية ومكشوفة. وعندما تُغسَل تلك الأيدي تبدو خشنة وجلفة ومحمرة. أما أصابع السيدات فكانت بيضاء وناعمة. كانت متعة منبي وهواه، بعيداً عن المرسم، تتوجه نحو تلك الأيادي المحمرة التي، باستثناء تلك التي تغطيها موضة القفازات المرفقية، يمكنها دائماً أن تفشي المرأة العاملة.

توجّه منبي إلى عدد كبير من أولئك النسوة في الشارع. رسمهن والتقط لهن الصور. كان أحد أولئك المحترفين في مجال التصوير. يصور العاملات في منجم الفحم في السراويل الرثة، والمرقّعة إلى أقصى حد، وهن يصالبن سيقانهن أحياناً وينحنين فوق المجارف ذات القياسات الرجالية، وفي عيونهن نظرة ذاهلة وحادة نحو المصور. واحدة أو اثنتان منهن كانت تجد في نفسها

زهواً كافياً لأن تبتسم. لم يكن هناك أي شيء تصويري في صور ورسومات منبي رغم أن هذا الموضوع كان بالنسبة له يكتسب بلا ريب شكلاً من الشحنة الشهوانية.

في فتراتٍ طويلةٍ من حياته كان باستمرار يقيم علاقة غرامية سرية مع إحدى الخادمات. وهذه كانت طويلة وفظة، رأسٌ يسير أعلى من الجميع في الشارع. كان منبي يهوى النساء كبيرات الحجم والقوة البدنية. كانت تروقه فكرة مواصلة هذه الصديقة لعملها كخادمة في المنازل الأخرى؛ ورغم شكواها أحياناً من عدم مراعاة أرباب عملها لمشاعرها، فلم يكن كثير الحماسة لإعتاقها. ينبغي رؤية النساء في ثياب أعمالهن المتسخة. كانت هي تتفهم فيتشيته ولم تكن تبالي: قبل لقائها منبي كانت توّاقةً بطريقةٍ حالمة لأن تصادف جنتلماناً تتخذه حبيباً أو زوجاً. في بعض الفترات، النادرة جداً، أقاما معاً في المنزل نفسه. ومن ثم، حين كان أحدهم يطرق بابه، كان عليها النهوض من على كرسي الرسم والتظاهر بأنها خادمة. وفي الصحف لم يكن يلمِّحُ أبداً لعلاقته بها، مع أن ذلك ربما لم يكن يتعدى مسألة تَكتّم فيكتوري.

بالنسبة لرجلٍ بميول منبي كانت لندن الفيكتورية مليئةً بالإثارة. على سبيل المثال، جميع المِتَع كانت متاحة للناظر في ميدان بلومسبري، تُضاءُ جميع نوافذ الأدوار السفلية عند السادسة مساء وكلٌّ منها بادية للعيان كما لو على خشبة مسرح: خادمةٌ تجلس على كرسي وهي تنتظر نداءه لها.

تماماً مثلما هو في صحيفة منبي هناك إحساس من الإحاطة بحياة الخدم اللندنية، تلك الحياة المفعمة بالألم والمتعة بالنسبة له، كذلك كان حالي مع ماريان. رغم أني أغلقت عقلي عما كانت تفعله قبل معرفتي بها، وهكذا أخذتْ النتف تترابط وتكتمل مع الوقت لتكتمل الصورة، صورةٌ آتيةٌ من طبيعة حياة سكان مساكن البلدية المخيفة التي بحق لم أكن أعرف عنها أي شيء بتاتاً.

كانت ماريان خلال الأسبوع تعيش في منزل البلدية برفقة «أغلاطها»،

كما أشارت إليها جو في البداية. غلطتان: طفلان من رجلين مختلفين. استنتجتُ باكراً أن الأول بين هؤلاء الرجال كان «منحرفاً». وكانت هذه إحدى تعابير ماريان؛ جعلت من تعبيرها يعطي انطباعاً تقنياً إلى حد ما. ذلك الاحتلال الذي قد يقيم في داخل الأمن الاجتماعي أو الأشكال الحكومية الأخرى. احتلال: منحرف، شعره أسود اللون. لون الشعر مهم للغاية: أشارت ماريان إلى ذلك غير مرّة، كما لو أنه يفسّر كل شيء.

وماريان نفسها واحدة من أربعة أغلاط ارتكبتها أمها مع ثلاثة رجال. بعد تلك الأغلاط الأربعة لأم ماريان، وهي لم تتجاوز عشريناتها، التقت برجلٍ فتنها وأحبته فعلياً. ذلك كان جلَّ ما انتظرته طوال حياتها. الحب: كان هو قدرها. لم تتردد وغادرت الأغلاط الأربعة هاربةً برفقته، إلى منزلٍ آخر في مساكن البلدية. تلك الأيام نشأت مشكلة معينة مع السلطات إذ أن والدة ماريان كانت تريد الاحتفاظ بحقها في الإعانة التي تحصل عليها من خلال أغلاطها. ثم حُلَّت المشكلة بطريقةٍ سلسة، وعاشت أم ماريان مع رجلها إلى أن سئم منها وتركها وفرّ إلى مكان ما برفقة امرأة أخرى. إنه النموذج الطبيعي لسيرورة الحياة في ذلك المكان.

كان هذا النمط من الحكايات يجري في أماكن أخرى أيضاً وعلى القدر نفسه. ولكن ما لفت انتباهي هو أن والدة ماريان لم تكن مطالبة في أية مرحلة من المراحل، من قبل أياً من السلطات، أن تدفع ثمن النتائج المادية أو الاقتصادية لقراراتها. كان هناك باستمرار منزلٌ متوفرٌ في مساكن البلدية، ودائماً هناك إعانة اقتصادية من نوع ما. يمكنك القول إنه فيما يتعلق بأم ماريان فإن كلِ تصرف منها كان يعود عليها بمكافأة رسمية. إن الذين يدفعون هم الأطفال، الأغلاط. وافترض أنه يمكننا القول إنهم لن يتعرضوا لأي شكلٍ من أشكال العقاب: كل ما يتوجب القيام به هو تمرينهم على حياة مساكن البلدية، بالطريقة التي تمرنت بها والدة ماريان في طفولتها، من قِبل أشخاص آخرين وعبر أحداث مغايرة.

تلقت ماريان مع الأغلاط الأخرى «الرعاية». كلمة تقنية مروِّعة، وهذا كان الفصل الأشد ترويعاً في طفولة ماريان. حكاية عن الضرب والإيذاء الجنسي وفرار متكرر بلا طائل. لاحقاً أدركتْ ماريان أن مصادر الرعب الأخرى ربما هي ما يحدث في الشارع لطفلٍ صغيرٍ في سنها. بطريقة ما مضى ذلك الطفل وثبتَ عابراً طاحونة الحكومة. دخلت مدارس إصلاحية متنوعة. تعلمت السباحة في إحداها وأصبحت السباحة أعظم شيء في حياتها. كل هذا بينما مرّت أيام كانت ماريان فيها تشاهد أمها تقود السيارة وتمر قربها ثم تمضي، عندما كانت تعيش حياتها الأخرى.

حين بلغت حياة أمها تلك النهاية، عادت وظهرت في حياتها. ومن جديد كان هناك ما يشبه الحياة الأسرية، في منزلٍ بلديٍّ آخر. وكجزء من تلك الحياة كانت الأم تصطحب ماريان والآخرين في رحلات سرقة السوبر ماركات والمخازن. كانوا يؤدون هذا بمهارةٍ تامة. في بعض الأحيان كان يُلقى القبض عليهم، ولكن في تلك اللحظة بالذات كانت ماريان مع الأغلاط الأخرى يتعاطون مع الموقف كما جرى تعليمهم بالضبط: يملأون المخزن صراخاً، والنتيجة أنهم يُترَكون ليرحلوا دائماً. ومع مرور الوقت توقفت رحلات السرقة تلك.

إن جميع من عرفتهم ماريان من سكان المساكن البلدية عاش نسخة عن حياتها هي.

عارفاً بطفولة ماريان وحياتها المبكرة، بدأتُ أعي أسباب مزاجها القاتم والمتراجع في غرفة النوم: العينان الميتتان، والعقل المقفل بإحكام. ومن ثم تمنيتُ لو أنني بقيت جاهلاً لما تكشَّف لي. ربطتُ هذا مع الحدث التاريخي المحزن والمرعب الذي اكتشفته في منبي. مقطعٌ صغيرٌ، تمنيت لو أنني لم أقرأه. دخل منبي أحد الأيام إلى الغرفة، وكان هذا في منزل أحد المقربين له حيث يسمح له بالتجول فيه، أو في فندق، وشاهد خادمة للغرف تجلس مديرةً ظهرها له. توجه لها بالكلام فالتفتت. كانت شابة بوجه لطيفٍ وأسلوبٍ

حسنٍ يتوافق معه. كانت تمسك بإحدى يديها بقِدْرٍ من أواني الغرفة وبالأخرى العارية كانت تحرك المحتويات: بحركةٍ توحي أن ما يحتويه القِدر هو مادة صلبة.

شيء من هذا الكرب والقرف داهمني حين فكرت في ماضي ماريان.

عرفت أن مساكن البلدية هي المكان الذي انتهى فيه ذلك الجانب الدرامي البائس من طفولتها. بالنسبة لها بدا هذا النمط من الدراما لانهائياً مع مرور الأيام. مررتُ أكثر من مرة في المكان الذي تلقّت فيه الرعاية والذي كانت مُتعبة منه بحيث تهرب منه ومن ذكراه. كان الأمر بالنسبة لها، وليس بالنسبة لي، كما لو أن من تسيّره قوة لامرئية وغير معروفة وعصية على قدرات العقل، هو إنسان موجود في عمر منفصل والمكافئ الأخلاقي التام لعالم ديكنز مايزال حاضراً. ذلك المكافئ كان مُحتجباً عن بقيتنا بسبب الطلاء اللماع لمنازل البلدية والسيارات التي تُركن في المرآب، والأفكار البسيطة جداً عن التغيرات الاجتماعية.

ذات مرةٍ، وببطءٍ شديدٍ، رُمِّمَتْ مساكن البلدية في مرحلةٍ دامت عاماً أو عامين. لاحظتُ هذا في ربع عقلي فقط، متسائلاً بحيرةٍ، وشيءٍ من القلق حول البنائين، عن العمل الذي يجب القيام به في منزل سان جونز وود.

في إحدى ليالي الجمعة قال لي سائق تاكسي، كنتُ استقلّيت سيارته من بين رتل السيارات في المحطة، قال فيما كنا نمر في المنطقة: «يمكنك تغيير البيوت. ولكنك عاجز عن تغيير الناس».

ما تفوه به كان ملاحظةً ذكية، لكنني متأكد أنه سمعها من شخص آخر. كان أحد سكان مساكن البلدية. أخبرني هو بذلك، وكنت أعرف أنه في سلوكه شبه الإجرامي إنما يتحدث إليَّ وكأنني واحد من الخارجيين، مخبراً إياي ما اعتقد أنني أود سماعه.

مع ذلك شعرت، آخذاً بعين الاعتبار موضوع سائق التاكسي الآن، أثناء

كلامي معك، أن وجهات نظرنا حول فكرة عمل الخير للآخرين من دون الاعتبار لحاجاتهم المرتبطة بالمرحلة، عبارة عن زهوٍّ أحمق في العالم المتغير. ونما لدي الشعور، وأنا ألقي اعتباراً أكبر على تعليق سائق التاكسي، أن الجوانب الأكثر جمالاً في حضارتنا كالتكافل والمحبة والقانون، ربما تكون استُخدِمت في تدمير تلك الحضارة.

لكن لعل تلك الأفكار الثقيلة ساورتني نتيجة الكرب الذي عرفته في نهاية علاقتي الغرامية بماريان، ونهاية الحالة التفاؤلية التي جلبتها لي.

* * *

وجبَ على تلك العلاقة الانتهاء، أخمن هذا. حتى علاقة بيرديتا مع اللندني صاحب المنزل الكبير سوف تنتهي ذات يوم. ولكن عبر البقية الباقية التافهة من الخيلاء الاجتماعي عجّلتُ من نهاية علاقتي بماريان. حدث الأمر هكذا.

قررتْ جو، صديقة ماريان، أن يكون لها حفل زفاف حقيقي مع الطباخ الذي كانت تساكنه على مدى عدة سنوات، والذي منه كانت حتى ذلك الحين قد اقترفت غلطة أو غلطتين مفيدتين. كانت ترغب بالطقوس المعهودة. الكنيسة، وسيارة كبيرة مزينة، وشرائط بيضاء تمتد من السقف حتّى المبرّد، وقبعة رسمية ومعاطف صباحية، وثوب زفاف أبيض متألق، أكاليل زهور، ومصور، واستقبال في الحانة المحلية حيث يعقدون مثل تلك الاستقبالات هناك في مساكن البلدية. رغبت جو في قدومي. كانت تتولى العناية بأبي والمنزل طوال حياته، وكان هو ترك لها بضعة آلاف من الباوندات. إنها تلك العلاقة الخاصة مع أبي وليس صداقتها لماريان، هي التي جعلتها تطالب برابط أقوى بيننا. يمكن القول إنها كانت، بطريقة ثانوية أكثر، حافِظة للأسرة. راقها أن تصل لهذا الهدف، وبدافع النموذج الأشد تفاهةً من الزهو وأنا محمّلٌ بجميع الظنون التي تساورني ـ لا أحد يعرف أفضل مني أن معظم الأفكار الطبقية هي الآن خارج المرحلة التاريخية ـ توجهتُ إلى الحفلة.

كانت احتفالاً هزلياً على نحو مريع بقدر ما يمكنك توقعه: الانسجام الفظ بين القبعة الرسمية لجو مع بقية الحاضرين، وجه جو المتوهج بالماكياج، وأهدابها الملألئة باللماع. ومع ذلك كانت المرأة التي تتوارى وراء كل هذا ترتعش بعواطف حقيقية.

حافظتُ على وحدتي وعزلتي، متظاهراً بعدم رؤية ماريان، أو بالأحرى عدم رؤية من كان معها. كان ذلك جزءاً من الاتفاق مع ماريان وجو. نأيتُ بنفسي بعيداً بأسرع ما استطعت، قبل الخطابات ومرح الاستقبال الصاخب.

عندما وصلتُ إلى السيارة، أبعد بقليل عن الاحتفال، وجدت أنها تعرضت للخدش بشكلٍ مفزع. قامت يدٌ طفولية حريصة بالكتابة على المقاعد الأمامية، بطلاء أو صباغ أبيض لزج من مادة كثيفة يُعلّم بها: تبوّل بعيداً وتوقف عن تلويث أمي، تبوّل بعيداً وإلا.

كانتْ لحظةً قاسية. تلك اليد الطفولية: فكّرت بالخادمة ذات القِدر في حكاية منبي.

عرفتُ لاحقاً من ماريان أن والد الطفل كان يراقبني. كانت جو أخبرت البعض عن حضوري حفل الزفاف، من دون أن تحلم بتبعات ذلك إطلاقاً.

كان للطلاء الأبيض الذي استعمله الطفل كتلة متماسكة. بحيث أصبحت إزالته شبه مستحيلة؛ لا بد أنه اخترع لفناني الغرافيت الذين يبغون حماية أعمالهم ضد عوامل الدخان والطقس والانمحاء. ملأت المادة البيضاء كل ثلمٍ دقيقٍ في جلد مقاعد السيارة الصناعي؛ وخلّفتْ فوق السطح الأكثر نعومة، حتّى بعد أن تمَّ فركه وسحجه، بقعاً واضحة، تومض حين يسقط عليها الضوء من زاوية معينه مثل تزليق الحلزون. مما أتاح لبيرديتا، وهي تدلف السيارة بعد حفل الزفاف، أن تطلق واحدةٍ من دعاباتها النادرة. قالت: «هل هذه رسالة لي؟».

أخذت المضايقات التي بدأت في ذلك السبت بالتصاعد من نهاية

أسبوع لآخر. أصبحتُ معروفاً؛ وأصبحت سيارتي معروفة. لوحِقتُ، وتلقيت مكالمات تلفونية، وعندما أجبتُ على الهاتف قام أحد الأطفال بشتمي. كان ضعف الرجل، والد الصبي، في الوراء يتوارى خلف سلوك الصبي، وهكذا أصبح الصبي أكثر فأكثر شؤماً بالنسبة لي.

في النهاية قررتُ وضع حد لأعطالنا الأسبوعية في الريف وشراء شقة لماريان في لندن. أبهجتها الفكرة، غمرتها بالسعادة، ربما كانت تلك المضايقات جزءاً من خطة معينة: لطالما رغبتْ في الإقامة في لندن، وأن تكون قريبة من المحال التجارية بدل اضطرارها للسفر للوصول إليها.

لكن لندن مدينة هائلة الضخامة. لم يكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي قد أشتري فيه شقة متواضعة وفي الوقت نفسه ملائمة. وذلك حدث حين صرحت برغبتي أمام أحد شركائي الأكثر شباباً في شركتنا. أخبرته عن حاجتي، وأخبرته أكثر مما يجب بقليل. كان يقيم في غرب لندن، في أحد بيوت نورمان شو أو أرتس أو كرافتس الغالية قرب تورنهام غرين. كان ودوداً معي، رغم أنه بدا تآمرياً. لم يكن ينظر إليَّ بفوقية بسبب علاقتي بماريان. اقترح عليَّ أن تورنهام هو المكان الذي علينا البحث فيه. تمَّ تحويل معظم المنازل الفيكتورية أو الإدواردية في تلك المنطقة إلى شقق؛ وهي بربع أو ثلث سعر الشقق الأقرب إلى المركز.

كما خططنا، اشتريت الشقة في تورنهام غرين - رحلةٌ ممتعةٌ إلى الجنوب والشرق من سان جونز وود. استساغت ماريان الاسم؛ رددته مرة إثر مرة، كما لو كان اسماً سحرياً في حكاية خرافية. وعندما علمتْ أن هناك قطار أنفاق يحملنا من تورنهام غرين إلى ساحة البيكاديللي في عشرين أو خمسة وعشرين دقيقة كان الأمر بالنسبة لها يفوق الاحتمال. قررنا نسيان منزل مساكن البلدية، وتركه لأغلاط ماريان وأب ولدها الثاني. لأن ماريان، كأمها من قبلها، كانت ترغب الآن في ظل هذه المناظر اللندنية أمامها، أن تكون حرّةً من أغلاطها.

حدث ذلك قبل ثمانية عشر شهراً من قدومك. وأظن، غير راغب في إثارة الهلع فيك، أن عليَّ إخبارك أنني قاتلت في سبيل حل وضعك بالبقية الأخيرة من التفاؤل الذي هبط عليَّ من خلال علاقتي بماريان. لأن ذلك الانتقال إلى لندن، كما يمكن لأي كان أن يتنبأ، كان فجائعياً بالنسبة لكلينا. كانت ماريان بالنسبة لي على مدى سنوات مجرد علاقة لنهاية الأسبوع؛ شديدة الكثافة في يومي الجمعة والسبت بحيث أجد نفسي مسروراً للهروب منها في يوم الأحد. ها هي الآن، إذا جاز القول، متوفرة باستمرار. لم تعد تلك الكثافة موجودة في نهاية الأسبوع، ومن دونها غدت ماريان امرأة عادية. حتّى جنسياً، وهو ما لم يخطر ببالي أن يكون ممكناً. لقد تحطم الشكل التام لحياتي.

من جهتي كان ذلك إخفاقاً للخيال. إذ إن الكثير من الفجائع الكبيرة أو الصغيرة هي: الإخفاق أو العجز في حساب نتائج أفعالنا يوماً بيوم، خلال مرحلة معينة. قبل وصولك إنكلترا بعدة سنوات حدث لي أن تعرفت على أحد الكتّاب. كان يعمل طوال الأسبوع في قاعة مطالعة المتحف البريطاني ويتفرّغ للتأليف في نهاية الأسبوع. يجلس طوال الأسبوع في قاعة المطالعة العليا، العالم بأسره تحت ناظريه مباشرة؛ كان خياله يتغذى طوال الأسبوع. ولهذا كانت كتاباته القصصية في نهاية الأسبوع مكثفة وناجحة. سوف يذهب الناس إلى قاعة المطالعة فقط لكي يلقوا نظرة على الرجل الشهير أثناء تأديته لواجبه الوظيفي في الأيام العادية: وجهٌ مستدقٌ، وحركاتٌ صغيرةٌ وعصبيةٌ مفاجئة. على هذا المنوال، منذ قرنين سالفين، كان الفقراء والمشردون يتوجهون إلى القصور الملكية الفرنسية لكي يشاهدوا الملك وهو يتناول طعامه أو يتهيأ للذهاب إلى سريره. في الواقع، كحالة شبيهة بحالة الملك إلى حد ما، أخذ الكاتب يسلِّم بوضعه إلى درجة كبيرة، السرعة والموهبة. بدأ يشعر أن عمله في المتحف البريطاني يقيده. استقال منه وانكفأ إلى الريف ونصّبَ نفسه ليكون كاتب الزمن الكلي. تغيرت كتاباته. لم يعد لديه أي عالم تحت أنظاره.

أجدب خياله وتورمت مؤلفاته. الكتب العظيمة، التي كان من المفترض أن يُلهَم بها كي تحافظ على المؤلفات القيّمة الأولى، لم تعد تأتي. ماتَ مفلساً لا يملك بنساً واحداً. اندثرت كتبه. استطعت رؤية مأزق ذلك الكاتب بوضوح شديد. غير أنني عجزت عن رؤية مأزقي أنا.

والأمر ذاته يمكن وصفه بالنسبة لحالة ماريان. لم تعد ترى إمكانية للعزلة في لندن على الإطلاق. لم تعد قادرة أبداً على رؤية الزمن الطويل من النهار الذي يمكنها إمضاؤه في النظر إلى المحلات التجارية. لم تكن تخيّلت قط أن تورنهام غرين، ذات الاسم الجميل المخضوضر، يمكن لها أن تغدو سجناً. بدأت تتوق لما كانت خلّفتهُ وراءها. أصبحت سريعة الغضب. كنت في هذه الأثناء أجد نفسي سعيداً باستمرار حينما أتمكن من الابتعاد عنها، غير أنه الآن لم يعد هناك من حدة، ولا من إنهاك جنسي. أصبحتْ أوقاتنا معاً بلا جدوى. أمكن لأحدنا رؤية الآخر بوضوح شديد ولم يكن يسرّنا ما نراه. هكذا، لم يكن بذي أهمية إذا ما قمت بما كانت تطلبه بالضبط وأقضي فترة أطول برفقتها؛ فعلياً هذا ما لم تكن ترغب فيه. كانت تريد العودة إلى موطنها. كانت ترغب بأصدقائها القدامى. مثل أولئك الذين يعودون بحنين إلى مكان أمضوا العطلة فيه ذات يوم، وفي مكان الاستجمام هذا تجدهم وقد أصابهم السأم والعزلة بالسعار.

لكان من الأفضل لو، مثل والدة ماريان أو العديد من صديقاتها، أخذتُ فاصلاً خالياً. بيد أنني لم أكن أمتلك الجرأة أو القسوة اللازمتين. لم يكن ذلك من طبيعتي أو تربيتي. واصلتُ هذه العملية، محاولاً تطبيق التسويات التي كانت فارغة، ومقوّضاً لأي إمكانية نهائية لإعادة تجديد الحب. بما أن الوله الجنسي الذي جعل من الآخر مختلفاً لم يعد حاضراً بالنسبة لي، وتحوَّل هذا الآخر لأن يصبح شخصاً واضحاً وبسيطاً.

أصبحت حياتي مع ماريان مشابهة تقريباً لحياتي مع بيرديتا. سان جونز وود وتورنهام غرين: كلا المكانين ذوي الاسمين الريفيين الجميلين أصبح

بغيضاً بالنسبة لي. كان هذا شعوري طوال إقامتك هناك. وهذا هو السبب في رغبتي المُلحّة في بقائك في منزل سان جونز وود. على الأقل كان لدي مبرر ما للعودة إليه.

حين آلت الأمور إلى هذه الحالة، قدّمتُ ماريان إلى الصديق والرفيق الشرعي الذي يقيم في تورنهام غرين. كنتُ آمل التخلص منها، وتلك كانت هي الكيفية التي حسبتُ فيها الأمر. حوّم بأسماء جذابة وجديدة وبأفكار رومانسية قديمة أمامها: باريس، وفرنسا، وجنوب فرنسا. وهكذا هرولت إليه ـ نتيجة ذلك الجشع الاجتماعي الذي كنتُ أعرفه وأحببته لفترة طويلة ـ إذن، تحررتُ منها، ولكن في الوقت ذاته عرفت النموذج الأشد إيلاماً من الغيرة. قمتُ بما كان يتوجب عليَّ القيام به، جئت المنزل وتحدثت إليك، لكن رأسي كان مليئاً بالمشاهد الجنسية المختزنة من زمن شغفي بها، ذلك الشغف الذي تجاوزني الآن. تذكّرتُ كلماتها. لم أعتقد البتة أن معاناتي ستكون لهذه الدرجة.

قرابة تلك الفترة، إضافةً، عانت طفرة الملكية من مرحلةٍ حرجة. والآن ها أنا أواجه تحدياً لم أكن أظن أبداً أنني سأضطر لمواجهته. ولم أكن أريد الموت أبداً وأنا ممتلئ حقداً وغضباً، مثل أبي. رغبت بالعيش مثل فان غوخ، كما أخبرتك. أدخن غليوني، أو أقوم بما هو مساوٍ لهذا. أتأمل فني، أو حياتي، بما أنه ليس لدي فن، وأنا خالٍ من مشاعر الكره حيال أي كان.

إنني أتعجب إن كنت سأمتلك الجرأة أو القوة لأن أكون ذلك الرجل العظيم. بدأت أشعر بعد ذلك، بمشاعر صغيرة حتى الآن، بالعزاء العظيم للبغض. ربما يتم تعليق صوري الصغيرة السخيفة في منزلٍ آخرٍ في أحد الأمكنة وسوف أشاهدها وهي تبهت رويداً رويداً تحت الزجاج المسخّم.

12

بذور سحرية

تلك كانت الحكاية التي رواها روجر، في أجزاء متفرقة وليس في تسلسل حدثي، وعلى مدى عدة أسابيع.

طوال تلك المدة كان ويلي مايزال يزاول عمله المتبطّل في مجلة البناء في بلومسبري. كل صباح يسير باتجاه الشارع الرئيسي لمايدافال وينتظر طوعياً الباص رقم ثمانية عشر الذي يقلُّه قريباً جداً إلى حيث عليه الذهاب. وطوال تلك المدة، أحياناً في المكتب وأحياناً في غرفته في منزل سان جونز وود، كان يحاول كتابة رسالة لشقيقته ساروجيني. وكانت الرسالة تتغير تبعاً لمزاجه خلال استماعه لروجر وهو يقص حكايته.

عزيزتي ساروجيني، أشعر بالسرور لعودتك إلى برلين والعمل في التلفزيون. أتمنى لو أستطيع أن أكون برفقتك. أتمنى لو أستطيع إعادة عقارب الزمن تسع أو عشر سنوات. مازالت ذكرياتي عن الذهاب إلى KDW وتناول الشمبانيا تراودني...

توقفَ عن الكتابة وفكّر: «لا أملك الحق في توبيخها، ولو بشكل غير مباشر، على سفري والتحاقي بحرب العصابات. في النهاية كان ذلك قراري أنا. كنت مسؤولاً عن جميع أفعالي. نجوتُ على نحوٍ لافتٍ للنظر وبثمنٍ زهيدٍ؛ لو يعرف روجر فقط. سيكون مرعباً أن أكشف ذلك ذات يوم. أفكر فيما حدث وكأنه خيانة حقيقية».

بدأتُ الرسالة التالية، ربما بعد أسبوع أو أسبوعين: *هنا، تتغير الأشياء بالنسبة لي. لست أدري كم من الوقت أستطيع البقاء ضيفاً يحل على هؤلاء الطيبين في هذا المنزل الدافئ وفي هذه المنطقة الجميلة. حين وصلتُ كنت دائخاً. سلّمت بكل شيء. سلّمت بوجودي في المنزل، رغم أنني فكّرت في ليلتي الأولى تلك أن مشهد النافذة للحديقة الخضراء الصغيرة في مؤخرة المنزل كان مشهداً سحرياً. ولكنني نظرت إلى المنزل على أنه منزل لندني. الآن أنا أعرف لندن بشكل أفضل وهذا المنزل في سان جونز وود أفسدني بحيث لم أعد قادراً على العيش في أي مكان آخر. لست أدري كيف أستطيع الانكباب على العيش في أي مكان آخر ومزاولة عمل حقيقي. في اللحظة التي تشرعين فيها في التفكير بهذه الطريقة تصبح لندن نوعاً آخر من المدن. إنها تقبض على قلبك.*

وضع الرسالة جانباً. فكّر: «عليَّ أن لا أكتب هكذا. إنني لم أعد طفلاً. عليَّ التوقف عن الكتابة بهذا الأسلوب لشخصٍ ليس بمقدوره تبديل الأمور لا بالنسبة له ولا بالنسبة لي».

بعد وقت طويل، ربما شهر آخر، شرع في رسالة أخرى. هذه الأخيرة شغلته عدة أسابيع. *أعتقدُ، بسبب عملي الحالي، انه عليَّ فعلياً السعي للقيام بعملٍ له صلةٌ بسلك فن العمارة. لكي يكون المرء مؤهلاً (أتصور هذا) يستلزم منه الأمر ثمانية أعوام أو نحوها. وهذا يعني أنني سأكون قد بلغت الستين آنئذ. عندها سيكون مايزال لدي اثنا عشر أو خمسة عشر عاماً من الأداء الفعلي للمهنة. الصعوبة هنا أنه بالنسبة لأي عقل منطقي فإنه من العبث بالنسبة لرجل في الخمسين البدء في تعلم مهنة. الصعوبة تكمن أيضاً في أنني ولكي أُنفِّذَ هذا سوف يعوزني حقنة من التفاؤل والأمل. اعتاد صديقي هنا على الحصول على ذلك التفاؤل في نهايات الأسبوع من امرأةٍ هامَ بها لكنه بالكاد كان يستطيع التصريح لها بحبه. اعتاش على ذلك التفاؤل لسنوات.*

لست راغباً في سلوك ذلك الدرب ثانية، وهذه الأشياء لا يمكن برمجتها ببساطة على كل حال.

الحالة التفاؤلية الوحيدة التي عرفتها كانت حين كنت طفلاً وأمتلك رؤية طفل للعالم. فكّرت لسنة أو سنتين بنظرةِ ذلك الطفل التي أردتُ من خلالها أن أصبح مُبشّراً. كان ذلك مجرد أمل في الخلاص. وذلك كان أقصى تفاؤلي الذي بلغته يوماً. في اليوم الذي فهمت فيه الحياة والعالم تسرَّب مني الأمل. لقد ولدت في الزمن الخاطئ. لو كنتُ ولدتُ الآن، في المكان ذاته، لكان للحياة شكلٌ مختلفٌ. فاتَ الأوان بالنسبة لي، لسوء الحظ، وفي ظل هذه الذات الهشة المثيرة للرثاء التي هي الآن تسكن في مكان ما من أعماقي، الذات التي عرفتها بيسرٍ شديدٍ، ها أنا ألقي جانباً حلم تعلمي لفن العمارة وأفكر في العثور على عملٍ صغيرٍ لا يتطلب مهارة كبيرة في مكان ما والإقامة في شقة متواضعة آملاً أن لا يكون الجيران كثيري الضجيج. لكن معرفتي كافية الآن لكي أعي أن الحياة لا يمكن أن تكون أبداً مبسطة إلى هذا الحد، وأنه لا بد سيكون هناك فخٌ صغير أو صدعٌ في حلم البساطة ذاك، في ترك المرء لسني عمره تمرُّ وحسب، وفي معاملة المرء لحياته فقط كأسلوبٍ لتمرير الزمن.

يقول صديقي هنا أن أكثر الناس نجاحاً وسعادة هم أولئك الذين يمتلكون غايات دقيقة ومحدودة وقابلة للتحقق. تعرفنا على أحدهم. إنه إفريقي أو إفريقي هندي غربي، والآن هو دبلوماسي محترم جداً. هاجر أبوه أو جده إلى غرب إفريقيا من الهند الغربية في عشرينات أو ثلاثينات القرن العشرين كجزءٍ من الحركة الإفريقية. في سِنِّهِ المبكر، قام صديقنا الإفريقي (من خلال تواصل أنثوي مهيمن بلا شك) بتطوير أحد الطموحات (إضافة بالطبع إلى تحصيل كمية كبيرة من المال)، وذلك الطموح كان أن يمارس الجنس مع البيضاوات ومن ثم في أحد الأيام سيكون لديه حفيد أبيض. نجح في كلا الأمرين. أنجب ولده نصف الإنكليزي ليندهرست، وهو الآن في الثلاثين، طفلين من سيدة ارستقراطية نقية البياض. أحد الطفلين أبيض البشرة بالقدر الذي يكون عليه البياض. سوف يكتمل طموحه تماماً في السبت القادم عبر حفل زفاف الابن

نصف الإنكليزي وسيدته، أم طفله الأبيض. إنه العرف هنا، الأطفال قبل أجراس الزفاف.

* * *

أقيم الزفاف في قرية جميلة بعيداً إلى شمال لندن. لم تذهب بيرديتا. أما ويلي وروجر فاستقلا القطار، وحجزا في الفندق من أجل الليل.

قال روجر: «سوف نرقص عبر الليل. لا، ليس عبر. يبدو ذلك شبيهاً جداً بالأعمال الشاقة. إننا نعتزم الرقص بغير انقطاع طوال الليل».

قادا السيارة التي استأجراها عبر ما كان سيبدو مثل الغابة لو لم يكن هناك الكثير من الحانات والمنازل الفندقية والفنادق الصغيرة ذات مواقف السيارات على أطراف الطريق المتعرّج.

قال روجر: «كان مؤسس أسرة الفتاة رجلاً عظيماً بحق، قدم الدعم في بدايات القرن التاسع عشر لفاراداي الرجل العالم والعملي، والذي كان نسخة أولية من أديسون. كان فاراداي صبي شارع أوكسفورد لندنياً وبائساً، وجعل منه المظهر العلمي الارستقراطي الذي ألحق نفسه به في السنوات المبكرة خادماً خاصاً. أمرٌ ما حدث للأسرة بعد لحظة المجد تلك. لم تعد تقدم أي مظهر عظيم آخر. لعلها القناعة الذاتية، أو ربما الإخفاق الجيني. بدأت بالانحدار، في المرحلة الإمبريالية الكبرى التي تتابعت، فيما كانت الكثير من الأسر الأخرى ترتقي السّلّم الطبقي، أخذت هذه الأسرة تنحدر جيلاً إثر جيل. منذ سنوات خَلَتْ قررت الأسرة هجران المنزل الكبير وتركه ليتعفن. كانوا عاجزين عن تحمل نفقات العناية به، ولم تسمح لهم القوانين الموروثة بتهديمه. أزالوا السقف. وفي مدة قصيرة تحوَّل المنزل إلى خراب. إنهم يقيمون الآن في كوخ مزرعة ليس بعيداً من هنا».

كانت الشاخصات الشبيهة بالرسوم تشير بودٍّ إلى تعرجات الطريق إلى حيث كان سيقام الحفل. ليس في كنيسة.

قال روجر: «النموذج العصري. لا تذهب إليهم بل تطلب منهم المجيء لعندك».

كانت أشجار باسقة وعتيقة ذات أشكال مهملة، عالق عليها طفيليات نباتية متعرّشة، وأغصانها مشذّبة على نحوٍ غير متقن، كانت هذا الأشجار تلقي بظلالها على الطريق الضيق. وبودٍّ أكبر وجهتهما شاخصات كُتِب عليها بخط اليد إلى خارج الطريق صعوداً نحو مرجٍ طويل العشب. أوقفا السيارة هناك ـ ليس بعيداً عن باص مُزركش بألوان مختلفة وعليه لافتة (أروبا ـ قوس شريطي) يشبه المُذَنَّب، ونجمة كبيرة في الأعلى ـ كواتشاو وحين ترجّلا كان بإمكانهما سماع الجلبة الناتجة عن مرور العربات التي تعبر الطريق أو الشارع الرئيسي على بعد مئتين أو ثلاثمئة ياردة، أسفل انحدار المرج.

كان هذا هو المشهد، عندما يكون مهيباً وكبيراً، يبدو فيه المنزل الكبير وكأنه اختفى. المنزل العاري السقف، كتلةٌ من الركام الراسخ الآن على نحوٍ غريبٍ وواقعي، كئيبٌ ولكنه ليس شبحياً على الإطلاق وأكثر شبهاً بقطعةٍ كبيرةٍ من فنٍ مجرد وُضِعَ بتروٍ فوق العشب الأخضر الحي الطويل والنضر. يمكن إدراك هذا من أول نظرة. وهذه هي الكيفية التي بدا وكأن ضيوف الحفل يتعاملون معه بها، يلقون على هذه الخرائب نظرة واحدة، من دون إضاعة الوقت، متحركين دخولاً على طول الدرب الشاق نحو الحظيرة البعيدة قليلاً إلى الأمام حيث يحتشد الآخرون.

عند هذه المرحلة كان الحاضرون في تيارين بارزين متباينين، السمر والشقر. للحال وبشكل مضطرب ومتردد، بدؤوا يتقاربون؛ ومن ثم تلاحموا تماماً. علاوة على ذلك، كان بالإمكان تمييز ماركوس بوضوح: شديد السواد، مايزال هزيلاً، ذا ملامح حادة وشعره أشيب، رجل لطيف وعاطفي. العاطفة والحماسة: كان على الدوام من هذا النموذج من البشر. يهز يديه وفي الوقت ذاته يقلب رأسه إلى الخلف بالطريقة التي تذكرها ويلي.

قال ويلي: «كنت أتوقعه يرتدي المعطف الصباحي وعلى رأسه القبعة الرسمية. إن رؤيته في طقمٍ غامقٍ بسيط لهي نثرةٌ من الخيبة».

قال روجر: «إنها ليست مناسبة صباحية».

سأله ويلي: «هل ترى فيه أيةِ إمارة للوهن المعنوي الذي يسببه التقدم في السن؟».

«كنت أبحث عن هذا. لكن عليَّ الاعتراف أنني لم أر شيئاً من هذا. لا أرى أي صراع فكري. لست أرى سوى سعادة ولطف غامرين. تُعدُّ هذه حالة فائقة، عندما تفكر أنك حين التقيته كان مرّ عبر عددٍ هائلٍ من الثورات والحروب الأهلية. مسائل قبلية عادية، من دون أن تُخلِّفَ فيه آثاراً قد تنعكس علينا نحن البقية، لكنها مقرفة جداً. العذاب هو العذاب، إن كان السبب صغيراً أو كبيراً. ربما كان هناك الكثير من المناسبات، أنا متأكد من هذا، وجد ماركوس نفسه فيها على بعد إنش واحد من اقتياده تحت الشمس الحارقة إلى أحد شواطئ طفولته الاستوائية، عارياً من ملابسه يتخبط سائراً بسرعةٍ أو بطءٍ في المكان، ليُرمَى بالرصاص أو تقطع ساقه ويترك مع صوت الموج إلى أن يفارق الحياة. لقد نجا لأنه أبقى عينيه على الكُره. كان يمتلك مفهومه الخاص عما هو مهم بالنسبة له. وهذا ما أكسبه توازناً غير اعتيادي في إفريقيا. لم يندفع بتطرّفٍ تجاه التيارات الحمقاء. كان ينظر باستمرار إلى الوسط. لقد نجا، وها أنت تراه الآن أمامك».

«روجر».

«ماركوس. هل تتذكر ويلي؟».

«بالطبع أذكره. إنه مؤلفنا».

كان ماركوس لبقاً: «إنها عائلة رائعة. كان اختيار ليندهرست موفقاً».

تجمهر عدد آخر من المتمنين له بالخير والسعادة، وغادر كل من روجر وويلي ثم توجها إلى حيث رُفِع صف الحظائر أو القباب فوق الحدائق المهجورة

للمنزل الكبير. كانت هذه القباب من مسافة بعيدة تترك انطباعاً وكأنها معسكر. الحظيرة المقببة الأولى التي بلغاها كانت بستاناً للفاكهة نصف ميت. في إحدى الزوايا سلسلة متشابكة من اللبلاب تورّم الجزء الأسفل من جذع شجرة كستناء الحصان يابسة وعتيقة. غالباً ما يظهر في مكان تقصف غصن شجرة تفاح عجوز فجوة في الجذع: طبيعةٌ نباتية، تفكك نفسها في هذه المرحلة من دورتها، مثل الإنسان على ما يبدو. غير أن الضوء تحت القبة لطّف المشهد بأكمله، ومنح لكل شجرة متهتكة حياة إضافية، ولكل غصن ضعيف أهمية إضافية، وجعل البستان المهجور يبدو مثل معدات خشبة مسرح، وجعل من الممتع أن تكون في داخله، على نحو إعجازي.

ظهرت فتيات من سكان القرية وفي أيديهن صوانٍ محملة بالمشروب الرخيص، ثم قدمن لكل حاضر شيئاً ليشربه.

حتى تلك اللحظة لم يكن من إشارة عن ليندهرست وعروسه. وبدلاً من ذلك، كما لو بهدف سلب إطلالة العروس والعريس من وميضها، كان هناك أزواج من البيض والسود المجفلين: كما في «التركيبة الإنسانية» للفن المعاصر، تحاكي إلى حد بعيد رمزية المناسبة. امرأة بيضاء ترتدي تنورة زرقاء وتكسو جذعها بالحرير، مربوطة إلى خصر رجل وهي تدفن وجهها في صدره العاري. كل ما فيه يسترعي الانتباه. رجلٌ نحيفٌ من أشد ألوان البشرة سواداً، ويرتدي طقماً أسود اللون أيضاً. قميصه الأبيض باهظ الثمن. وللقميص قبة مرفوعة وأزراره مفتوحة إلى ما دون الخصر، مُبدياً مثلثاً كاملاً مقلوباً من الجلد الأسود الخالي من العيوب. كان يضع نظارات بعدسات شفافة. جلده مزيت بزبدة الشيا أو أحد الكريمات الإفريقية المستخلصة من الجوز، وبدت هذه الزبدة أو الكريم وكأنها تذوب وتشتد لمعاناً في حرارة ما بعد الظهر، حتى تحت ظلال القبة. ظهرت زيتية الجلد هذه وكأنها تهدِّد تماوج وثلجية القميص الأبيض، ولكن من الواضح أن الانطباع الذي خلّفه كان مقصوداً. أما شعره فكان مصففاً بطريقة ممتازة: مخففاً إلى كرات صغيرة لامعة ومتباعدة إلى

درجةٍ تترك عند الناظر إليها شعوراً أن الشعرات بينها حُلِقت، من الأسفل وحتى كامل الرأس. بدت فروة الرأس شبه المحلوقة تقريباً وكأنها تلتمع بالزيت. كان ينتعل صندلاً من دون جوارب وبدا كأنه يقف على الحافّة الخارجية الخمرية لأخمص قدميه أو كعبيه. كان ذلك اللون الخمري هو لون الماركة على رباط الصندل. من رأسه وحتى أصابع قدميه كان عبارة عن بدعة فانتازية. كل تفصيل صغير تمّ التفكّر فيه ووضع بعين الاعتبار. استقطب جميع العيون إليه. حجب نور جميع الحاضرين، لكنه هو نفسه كان ضائعاً خلف نظاراته خفيفة اللون، مركزاً على عبئهِ الذاتي. بوجود المرأة الملتصقة به بدا كأنه يسير جانبياً وأحياناً إلى الوراء بسبب وزنها. أفسح الحضور لهما حيّزاً للرقص. كانا كنجمين وسط كورس على خشبة المسرح.

صعد ماركوس إلى حيث كان روجر وويلي يقفان. قال: «هذا فضائحي. إنها تحيل المناسبات المقدسة إلى مهزلة. أؤكد لكما أنهما ليسا من طرف ليندهرست».

لكنه هو أيضاً، حين مرّ بالثنائي، أفسح لهما مكاناً كبيراً، كما يتصرف الناس في صالة عرض «التركيبة» البشرية المضطربة.

كانت هناك حركة خفيفة عامة حول الحظائر المتعددة وداخلها، يشق الحضور طريقهم بحذر فوق الأرض المستوية، تسير النساء اللاتي يرتدين أحذية الكعوب العالية كما لو فوق زجاج مكسور. حاول ويلي وروجر، اللذان لا يعرفان أحداً عدا ماركوس، التفريق بين المؤازرين من البيض والسود. لم يكن ذلك بالأمر اليسير. أصبحت الأمور أكثر جلاءً عندما حان موعد المراسم.

كانت قبة المراسم تحتوي على سياج صندوقي ارتفع على نحو هائل من جهاته الأربع. لُويت الكثير من الأغصانُ الناتئة إلى الخلف قسرياً. كان لحم الدجاج قد وُضِع هناك منذ مدة قصيرة، فانبعثت رائحة خفيفة لمن استطاع التعرف عليها. في أحد الجدران كانت هناك فجوة، وفي الجدار المقابل فجوة

أخرى؛ هكذا كانت القبة ملائمة تماماً للغرض الذي أُعِدّتْ من أجله في تلك الظهيرة. دخل الأشخاص الرئيسيون في إقامة المراسم بشكل رسمي عبر إحدى الفجوتين فيما دخل الضيوف من الأخرى. إن مستطيل القماش الأخضر المُسجّى على العشب حدَّد المساحة المقدسة. كان هناك عدد قليل من الكراسي، رُتِبت في صفّين منفصلين، مُعَدّة لطرفي الحفل. جلس ماركوس يفصله عن نسيبه الممر الضيق للممشى بين الكراسي. سلطته وسروره، وقوة سواده التلقائية، مقابل شحوب مهابتهم النائية والذاوية تقريباً.

قال روجر لويلي بصوت خافت: «إنهم قلقون، لم يحصِّلوا تعليماً كبيراً. وذلك كان هو الأمر الأدهى في أحد الأزمنة. غير أنهم الآن لا يعرفون من هم وما هو المرجو منهم. إن العالم قد تغير بسرعة هائلة بالنسبة لهم. لعلهم فقدوا مشاعر التأثر الكبيرة حيال أي شيء، وانتابهم القلق طوال المئة عام الأخيرة».

التصقت أثواب الكاهن، شديدة الزخرفة في الأسفل، بجسده بشكل مهلهل. بدا كأنه لا نفع له بالنسبة لها ـ بدا كأنها شديدة الوطأة عليه، تتوعده دائماً بالانزلاق عن كتفيه: لعله لم يلبسها بطريقة مناسبة ـ بدا كأنه يغالب ابتسامةً على وقار الثوب حتى أثناء كفاحه، وبأقصى ما أمكنه من الهدوء، لكي يُبقي على القِطع الزائدة في مكانها.

وبعد كل هذا ـ اللافتات والموقع والحظائر والقبب، والضوء المتواتر الإعجازي ـ ظهر ليندهرست، ذو الصدر العريض والهيئة التي تُذكّر بهيئة قاطع طريق، وإفريقيته التي تغلب على نصفه الهجين البعيد عنه، وعروسه البسيطة الشاحبة في ثوبها الحريري العادي، على نحو شكلي ومثير للفضول. حتى بوجود مسرح الصفحتين، ولداهما، أحدهما أسمر والأخرى شقراء، كانت الشقراء إلى جانب العريس والأسمر إلى جانب العروس. أَمِلَ العروسان بإقامة حفلة بسيطة، وأفلحا في ذلك أكثر مما كانا يعرفان.

كان للكاهن لهجة عامية بعيدة، صعبة جداً على معظم الحضور في الحظيرة، وكان غير معتاد على القراءة بصوت عالٍ تماماً كما كان غير معتاد

على ارتدائه لحواشيه الأنيقة. كان يلوك ويفكر في الكلمات: وكأن تهذيبها مربك له.

قرأ أحد الحضور من أحد الطرفين كلاماً من عُطيل، وأخذ شخص آخر من الطرف المقابل يقرأ سوناتة شيكسبيرية. قبل أن تصل السوناتة إلى ختامها سقطت إحدى الصفحتين، ولا أحد يدري إن كانت هي السمراء أم الشقراء. لكن الضيوف تصرفوا بشكل حسن في التعاطي مع الموقف: اعتقد السود أن الطفل الأسمر هو من سقط؛ فيما اعتقد البيض أن الأشقر هو من سقط.

شرعت الطفلة الشقراء بالبكاء. كانت تعاني من حزنٍ ما. هرع ماركوس إليها، أمسك بيدها الصغيرة وبدأ يسير ببطء خارجاً بها من الحظيرة الصندوقية إلى حيث كانت المراحيض. أحدهم، وكانت سيدة عجوز، لدى رؤيتها للرجل الأسود بشعره الأشيب مهرولاً نحو الطفلة الباكية، تخيَّلت الأهواء القديمة وصفقت بيديها لا إرادياً بتصفيق خفيف جداً، ثم صفق شخص آخر؛ وشارك ماركوس وحفيدته في الإطراء العام. وبدا ماركوس، وهو يدرك بعد عدة ثوان أنه هو من كان مقصوداً بذلك التصفيق الإطرائي، يبتسم بلطافة ناظراً إلى اليسار واليمين، وهو ينحني بشكل طفيف ويقود الطفلة الشقراء إلى حيث تريد الذهاب.

كان أعضاء فِرقة أوروبا ـ كوراتشاو، عندما بدؤوا العزف، مُريعين في الصوت الحاد والعالي. جلس قارع الطبل الأسود على طبلٍ بارتفاع طاولة الطعام. في البداية، مريحاً نفسه في كرسيه، ثم أسند معصمه على حافة الطبل المرتفع حتى بدا كمن هو على وشك تناول الطعام أو كتابة رسالة ليس إلّا. لكن وفيما بعد، بينما كان الجزء الأعلى من جسده يثب بشكل تام، أخذت يداه الكبيرتان ذات المفاصل البارزة تعملان بجد. راح يضرب بباطن كفّه، تلك المنطقة تحت الأصابع مباشرة، وبأصابعه أخذ يضرب على الطبل، ثم براحة يده ورؤوس أصابعه معاً. أعمَل كل جزء من يده المبسوطة بشكل منفصل عن الآخر. ظهرت راحتا يديه المرفرفتان حمراوين، وهما تُصدران

ارتفاعاً صوتياً هزَّ وهدر تحت القباب ووضع نهاية لأي حديث بسيط ممكن. ألغت آلات موسيقية رنانة أخرى لفِرقة الدوتش أنتليان مثل هذه الأمور أيضاً كما فعل الطبل. إضافة لكل ذلك الصخب بدأ أحدهم يصدح بأغنيةٍ مسهبة في لغة الدوتش أنتيلان التي لم يستطع أحد فهمها. كان الضجيج مخيفاً، لكن بعضاً من الشقراوات اللواتي يرتدين أثواباً جديدة كن يؤرجحن سيقانهن النحيلة، كما لو أنهن يفهمن ولو كلمة واحدة مما يُغَنَّى، وكان الأوان قد فات للتوقف، رغم أن الطعام مايزال يحتاج لبعض الوقت، والرقص الليلي لم يكن ليبدأ إلّا بعد الطعام.

قال روجر: «أصابتني الشقيقة».

قفلا هو وويلي عائدين إلى السيارة التي استأجراها. من هذه المسافة كانا قادرين على سماع نُتفٍ من اثنتين أو ثلاث من المقطوعات الموسيقية.

قال روجر: «يوشك هذا على أن يصعقك ويذهلك. لست أدري ما الانطباع الذي كونته من خلال ما جرى عن المناسبة التي غادرتَها للتو. أتصور أن موسيقى كهذه كانت تُعزَف في مستعمرات أقنان الدوتش في سورينام في القرن السابع عشر أو الثامن عشر. كانت تؤدى في أمسيات السبت أو الأحد، لكي تروِّض العبيد وتعدّهم لصباح الاثنين، أو بغرض تقديم فكرة معينة لأحد فناني الدوتش الزائرين عن السلام الليلي في المستعمرة. كنتُ شاهدت يوماً لوحةً تصوِّر حالةً كهذه».

* * *

استقلّا السيارة إلى الفندق، وجدا وسط ذهولهما، على طول الطريق المتعرج، أن الموسيقى ما تزال ترافقهما. كانا قادرين، لو علما ولو كان المعبر موجوداً، السير من الفندق مباشرة صعوداً نحو الجرف الصخري حيث يتوضع المنزل الكبير المهجور.

امتد ارتداد صوت الموسيقى في أذني ويلي طوال الليل. انتهكت نومه

وامتزجت مع ذكرياته الأخرى. إفريقيا بتلالها المخروطية الصخرية الرمادية والأفارقة وهم يسيرون فوق الممرات الحمراء بمحاذاة الطريق الإسفلتي؛ منازل البيتون المحروقة حدَّ الانهيار، وبقع الدخان المحيطة بالنوافذ؛ والأحراج ورجال البدلات الزيتية والقبعات ذات النجمة الساتانية الحمراء، والتوغل اللانهائي سيراً على الأقدام؛ المعتقل الغريب حيث ينام السجناء، كما لو على متن قاربٍ لنقل العبيد، جنباً إلى جنب على الأرضية في صفين مفصولين بممشى مركزي. طوال الليل راودته فكرة أنه وقعَ على حدثٍ مهمٍّ ليكتب لساروجيني عنه. هذا الحدث انفلت منه. بحث عنه في جميع موسيقى العبيد، وفي الصباح كان كل ما تُرِكَ له هو: «من الخطأ امتلاك نظرة مثاليّة عن الحياة. هنا تكمن النقطة التي يبدأ عندها الأذى. والحل لكل شيء يبدأ في هذه النقطة بالذات. غير أنني عاجز عن الكتابة لساروجيني عن هذا».

بذور سحرية

ولد ف. س. نايبول في ترينيداد في العام 1932. توجَّهَ إلى إنكلترا في منحةٍ دراسيةٍ في العام 1950. بعد أربع سنوات في يونيفيرسيتي كوليج، وأكسفورد، بدأ بالكتابة، ومنذ ذلك الحين لم يزاول أية مهنة أخرى. نشر أكثر من ثلاثين كتاباً في الرواية والنقد وغيرهما. نال جائزة نوبل للأدب عام 2001.

ويلي شاندران ـ الذي التقيناه أولاً في «نصف حياة» ـ هو رجل قُيِّضَ له أن تقتحمه كينونة إثر أخرى. الآن، في أوائل الأربعينيات من عمره، بعد مسيرة حياته المتنقلة، استسلم للإلحاح المُطالِب لشقيقته ساروجيني ـ إضافة إلى كسله الذاتي ـ وانضم إلى حركةٍ سِرّيةٍ في الهند تُكرِّسُ نفسها، ظاهرياً، لتحرير الطبقات الدنيا. لكن سبعَ سنواتٍ من الحملاتِ الثوريةِ وبضعَ سنواتٍ في السجن أقنعتْهُ أن الثورة «لا علاقة لها بالقرويين الذين ادعينا أننا نقاتل في سبيلهم» وشعر بذاته أكثر مما شعر بها في أي يوم من الأيام «من خلال تاريخه الشخصي و... من الأفكار التي تعتمل في عقله والتي ربما تكون قد جاءته مع ذلك التاريخ». حين يعود إلى إنكلترا، حيث كان قبل ثلاثين عاماً، يبدأ كل من تجواله النفسي والجسدي، ليجد ثمرةَ ثورةٍ اجتماعيةٍ مفاجئةٍ أخرى (مزيد من البذور السحرية)، بَلَغَ مرحلةً ينظرُ فيه إلى نفسه كإنسانٍ «يقضي حكماً مؤبداً بالسجن»: الانكشاف الذي قد يحرره أخيراً ويوصله إلى ذاته الحقيقية.

بذور سحرية هي تحفة فنية، كتبت بكامل العمق والرنين ووضوح الرؤية وإتقان اللغة التي هي من مميزات هذا الكاتب المُتَّقد ذكاء.

الكلمة
سورية ـ دمشق ـ برامكة ـ شارع فلسطين
ص. ب: 2229 ، هاتف ـ فاكس: 2126326